

وما ينطق عن الهوى

مناقشة علمية هادئة لافتراءات
جورج طرابيشي في كتابه
{من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث}

تقديم
أ.د. عبدالله بن عبدالعزيز المصلح
الأمين العام للمجلس العالمي للدعوة والإغاثة

تقديم
أ.د. محمد محمد حسين علي
رئيس قسم العقيدة والفلسفة بجامعة القاهرة

المؤلفون
د. الخضر سالم بن حليس
د. عبدالوهاب أحمد السعيدي
د.كمال ناجي القطوي

إشراف
أ.د. حيدر بن أحمد الصافح

الطبعة الأولى
1443هـ - 2022م

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ

مناقشة علمية هادئة لافتراءات جورج طرابيشي
في كتابه: من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث

ح المكتبة المكية ، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القطوي ، كمال ناجي
وما ينطق عن الهوى. / كمال ناجي القطوي ، الخضر سالم بن
حليس ، عبد الوهاب السعيدي - مكة المكرمة ،١٤٤٢هـ
٣٩٠ص ، ١٧ X 24 سم

ردمك : ٨-٥-٩١٥٣٦-٦٠٣-٩٧٨

١- العقيدة الاسلامية أ. بن حليس ، عبد الوهاب(مؤلف مشارك) ج. العنوان
ديوي ٢٤٠

رقم الإيداع : ٦٠٠٩ / ١٤٤٢
ردمك : ٨-٥-٩١٥٣٦-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الأمين العام للمجلس العالمي للدعوة والإغاثة
أ.د.عبد الله بن عبد العزيز المصلح

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا.

الحمد لله القائل : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر].

والقائل جل شأنه مخاطباً أمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ الطاهرات العفيفات: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الاحزاب] وقد فسر شيخ المفسرين الطبري (الحكمة) بأنها: السنة.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين القائل :(إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وما نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ)[1].

والقائل : (أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهَّ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلَالًا اسْتَحْلَلْنَاهُ ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهَّ كَمَا حَرَّمَ اللهَّ)[2].

وانه لا يخفى على كل باحث منصف وعلى كل ذي لب حصيف وعقل حكيم، أن الإسلام – هذا الدين العظيم–، مستهدف منذ أن أشرق نوره بقوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ [العلق]، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها،ولولا أن الله

(١) أخرجه البخاري ح رقم (٧٢٨٨)، ومسلم ح رقم (١٣٣٧) .
(٢) رواه الترمذي وصححه الالباني ح رقم(٢٦٦٤).

العظيم القادر قد تكفل بحفظه بوعده الرباني الناجز: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الحجر]، لاندرست معالمه وغابت حقائقه من هول ما يواجهه من المكر الكبار مكر الليل والنهار ومكائد المشركين والكفار، ولكن الله أراد لهذا الدين البقاء والغلبة ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[يوسف]

قالﷺ:(لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إِلا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلَامَ وَذُلا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ) [(١)]. ومادام الأمر كذلك والوعد ناجز لامحالة لأنه وعد الله القوي القادر سبحانه وتعالى فإن السعيد من سلك نفسه في نصرة هذا الدين وجد واجتهد وسابق في حمل رايته مخلصاً نيته صادقاً بها قلبه حباً لله ورسوله ﷺ ولهذا الدين الذي جعله الله رحمة للعالمين، مبتغيا ما عند الله من الجزاء، قال الله تعالى لحبيبه ورسوله سيدنا محمدﷺ ولأمته من بعده ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾[الفرقان]، والمقصود هنا مجاهدتهم بالقرآن الكريم وهو جهاد الدعوة كما ذكره أهل التفسير.

ولقد ضاق الذين كفروا ذرعاً بهذا الدين وتواصوا على عدائه منذ انبلاج فجره وإلى قيام الساعة كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[فصلت]، قال قتادة أي اجحدوا به وأنكروه وعادوه.

إن المحاربين للإسلام لا يكلّون ولا يملون أبداً، يتوارثون الحقد عليه ويتواصون جيلاً بعد جيل على حربه قال تعالى: ﴿ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الذاريات] وهذا هو شأن الصراع بين الحق والباطل: بين أتباع آدم عليه السلام وأتباع الشيطان الرجيم.

---

(١) رواه أحمد (١٦٣٤٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

وها نحن اليوم في زماننا هذا نشهد هجوماً عنيفاً على الإسلام بشتى الأساليب والوسائل في عصر ضعف فيه المسلمون، ولكن الإسلام هيهات وهيهات أن يضعف لأن الله ناصره وحافظه بحفظه.

ومن أساليب حربهم ضد الإسلام ما يمكن أن نسميه بالحرب الفكرية التي تندرج تحت قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠ ﴾[فصلت] قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: هو أن يوضع الكلام على غير موضعه.

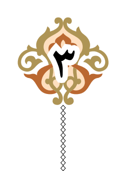
وهذا الذي ذكره ابن عباس رضي الله عنه في تفسير الآية هو عين ما فعله ويفعله المستشرقون وأذنابهم ممن ورث الحقد على الإسلام والإصرار على حربه أمثال الكاتب المسيحي جورج طرابيشي مؤلف كتاب: (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث)، الذي استجر فيه ما كتبه المستشرقون قبله فأعاد تنميقه بأسلوب يناسب هذا العصر وبتدليس وكذبٍ وادعاءاتٍ باطلةٍ، وهو جزء مما عبر عنه ربنا تعالى بقوله: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ ﴾[نوح].

وقد حاول الطرابيشي في كتابه سابق الذكر بشتى أنواع التدليس العلمي وبمكرٍ ودهاءٍ أن يروج لفكرته أن الإسلام قد تحول عن الأخذ من مصدره (القرآن) إلى (السّنة) التي يشكك هو وأمثاله فيها جملةً وتفصيلاً، وشن حملة شعواء على الإمام الشافعي ــ رحمه الله ــ معتبراً أنه قد أحدث (انقلابا) عظيماً وأن جنايته أنه حول الرسول صلى الله عليه وسلم (من مشرَّع له إلى مشرِّع)، يقول الطرابيشي: (أفنغالي إذا قلنا إن الشافعي نفذ انقلاباً حقيقياً على الصعيد اللاهوتي والإبتسمولوجي معاً عندما جعل للسنة الرسولية نصاباً إلهياً وبوأها منزلة الأصل مع الكتاب)، وشبهه ببولس الذي حور المسيحية، فيقول:(أعاد تأسيس الإسلام القرآني في إسلام صحابي أو حتى تابعي في انقلاب يشبه ــــ أكثر ما يشبه ــــ الانقلاب الذي نفذه بولس الرسول المؤسس الثاني للمسيحية، بتحويله إياها من مسيحية إنجيلية إلى مسيحية حوارية).

كل ذلك الهجوم على الشافعي من الطرابيشي وأساتذته وتلامذته من المستشرقين والحداثيين بسبب ما يلي:


: تأسيس الشافعي في كتابه (الرسالة) لمنهج علمي له قوانينه في فهم النص الشرعي وبذلك يقف هذا المنهج سوراً ضخماً وحاجزاً عظيماً أمام ما يسعون إليه من تعميم القراءة الحداثية للنص الشرعي وبالتالي الوصول إلى تحريفه.


: تأسيس الشافعي في كتابه (الرسالة) لمبدأ عمومية النص الشرعي وبالتالي صلاحيته للتطبيق في كل زمان ومكان، وهذا ما أزعج المستشرقين ورواد المدرسة الحداثية الذين يسعون لإثبات تاريخية القرآن والسنة وحجر النص الشرعي في مرحلة زمنية ماضية لاتناسب كل زمان ومكان


: تركيز جهودهم في المرحلة الأولى على هدم مؤسسي العلوم الشرعية والتخلص من إرثهم الذي يشكل حاجزاً هائلاً أمام تقدمهم في مشروعهم العبثي لتحريف الإسلام.

ومهما حاول أعداء الإسلام النيل منه فإن الله لا شك ناصره بجند من عنده يقيض له من عباده من يختارهم لنصرته، وقد قيض الله لهذا الكتاب الذي تقيأ به جورج طرابيشي من يسبر أغواره ويغوص في أعماقه فيكشف خباياه ويصل إلى دهاليزه، وليس فيها إلا الأضغان الدفينه والنوايا الخبيثة التي تترصد الإسلام وأهله والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾[محمد].

لقد ثارت حمية الإسلام في قلب رجل غيور من وجهاء مكة المكرمة - آثر عدم ذكر إسمه - حينما قرأ كتاب الطرابيشي ــ سيء الذكر ــ وأحسن أيما إحسان أن دفع به إلى مجموعة من أهل العلم المتخصصين في العلوم الشرعية وفي نتاج هذا التيار الخبيث

من المستشرقين والحداثيين وأذنابهم ليفندوا أكاذيبه ويردوا على الشبه التي يبثها بين الناس بغرض إيقاع الناس في الضياع الفكري والضلال والصد عن سبيل الله.

وإنني لأدعوا الله لهذا الوجيه الفاضل وللفريق العلمي الذي ألف هذا الرد المتقن أن يتقبل منهم هذا الجهاد العلمي في سبيل الذود عن حياض الإسلام ورفع رايته في زمن قل فيه الناصر وتعدى فيه شذاذ الفكر على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

كما أدعو للاهتمام بنشر هذا الرد على نطاق واسع وبكل وسيلة ممكنة فإن الحاجة إليه ماسة وأبناؤنا مستهدفون ولا شك، وتحصينهم واجب بلا ريب بكل وسيلة ممكنة، كما إنه من المهم الاستمرار في رصد مثل هذه الإساءات والرد عليها بأسلوب علمي هادئ يتميز بالإتقان والرصانة العلمية كما هو حال هذا الرد الذي بين يديكم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج]

كتبه:

أ.د.عبد الله بن عبد العزيز المصلح

الأمين العام للمجلس العالمي للدعوة والإغاثة

تقديم الأستاذ الدكتور محمود محمد حسين علي
رئيس قسم العقيدة والفلسفة بجامعة القاهرة.

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين أصطفى، وبعد.

فإن الهجوم على الإســـلام يمتد في جبهات عريضة،وترصد له ميزانيات ضخمة، وتبذل فيه جهود رجـــال وعقولهم، ولهذا الدين خصوم كثيرون أظهروا خبيئتهم بعد إضمار ،فليس يرضيهم شيء إلا أن يصرفوا أهلـــه عنه،وأن يملؤا الدنيا أراجيف بأن الإســـلام دعوة باطلة ورســـالة زائفة، وأنه لا يجوز لها البقاء أكثر مما بقيت ﴿ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ ﴾[ال عمران:١١٨].

ونحن لا يمكننا أن نســـكت على الأذى بل لابد لنـــا أن ندافع عن ديننا وعقيدتنا ونبينـــا بالحجة والمنطـــق، لهذا كان علينـــا أن ندافع ونرد بالحـــق لا بالباطل وبالرفق لابالعنف، وبالحجة لا بالسيف.

وهذا الكتاب الذي يتناوله هـــؤلاء الأفذاذ بالرد هو كتاب جورج طرابيشي(من إسلام القرآن إلى إسلام السنة) لا يعدوا أن يكون هرطقة كما يسمى صاحبه نفسه، هو حلقة جديدة من هرطقات قديمة لا تزيد على إعادة العرض لما طرحه أســـلافه قديما وحديثاً .

قـــد يقال بعد عرض كلام هذا الطرابيشي الذي يهـــرف بها لا يعرف أن هذا كلام فارغ ولكننا نحن نقول إن هذا الـــكلام هو الحديد والنار الذي يحاربنا به أعدؤنا،إنها أسلحة يحاربوننا بها،أســـلحة تنفعهم في المعركة لا مجرد فقاقيع يلعب بها في الهواء ثم تتلاشى، إننا قد نســـخر من هذا الكلام الفارغ ولكنه في النهاية يؤذينا إنه سمّ يستقر في الجســـد وماذا نفعل نحن لنتقي هذا الســـمّ ؟ هل نتجاهله ونقول أنه كلام فارغ،

صحيح إن فيــه كذباً وتضليلاً ،وصحيح إنه صادر عن حقد عميق.لكن لا يخدمنا في شيء أن نلقيــه بعيداً وننام قد يقال أيضاً إن بعض هذا الكلام قديم بل ربما يكون كله قد رد عليه علماء أفذاذ فنقول نحن إن القرآن يقول ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء:٨] والعرب تقول (إن عادت العقرب عدنا لها) .

قرأت هذا الرد لهرطقات هذا الطرابيشي فوجدته طرازاً فريداً في النقد، دقيق البنيان،حديــث الإخراج،يجمع بين صدق الفكرة وحســن البيان،كما يجمع بين أصالــة القديم ودقته، ومعاصرة الرد وجدته، وبعد أن انتهيت من قراءته أيقنت بجليل فائدته لكل طالب علم، ولكل راغب في التعرف على الحق، ولكل معني بالإصلاح العام،وتوعية الجماهير.

وأشــد ما أعجبني تصدرهم للنقد عن علم بــما يقول هذا الغر ولا أدل على ذلك من عــرض مظاهر الفكرة الطرابيشــية ،ومعتمدها،ومنابتها، وربط ذلك كله بالمدرســة التي ينتمي إليها إن شرقا أوغربا حتى ليظهر جليا للقارئ أن هذا الأمر ليس اتفاقاً ولا مصادفة إنما هذا امتداد طبيعي وحلقة في سلســلة ما يسمى بالمدرســة الحداثية التي ترى اســتبعاد الوحي الإلهي عــن كل تفاصيل المعرفة الإنسانية، وتسمح للعقل فقط بأخذ حريته كاملة في مسار الحياة دون أن يحركها محرك؟.

ولا أريد أن أحرم القارئ من شغف الانتظار ومتعة البحث، لكن فقط أشوقه إلى هذه الرحلة العقلية الماتعة التي أبانت عن خطر هذا الهرطوقي وخطله وفساد منهجه ومذهبه ، بل أتت على بنيانه من الأساس وطرحته أرضاً بالضربة القاضية كما يقولون ، فكلما قلبت صفحات هذا البحث أو الأبحاث الثلاثة التي تتكامل كوحدة واحدة وجدتها كلها تظهر عوار هذا الذي يتلون كما تتلون الحرباء فيكون ظاهراتياً متى شاء، وأصولياً يأخذ بالإجماع متى شاء، ويدعى القرآنية متى شاء،

وتراثياً يعتمد على الأحاديث متى شاء وهكذا الشخصية الانقلابية كما يصف هو نفسه لا تنقلب على مبادئها فحسب يل تتقلب بحسب أهوائها لتحقيق مآربها .

شـــكر الله لهؤلاء الذيـــن بادروا وقامـــوا بواجب الوقت دفاعـــاً عن دينهم وعقيدتهم وأمتهم، ونفع الله بعلومهم وكل مخلص يريد النفع للعالمين .

أ.د/ محمود محمد حسين علي
أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة
كلية أصول الدين-جامعة القاهرة

تقديم الأستاذ الدكتور حيدر بن أحمد الصافح
المشرف العام على فريق البحث

الحمد لله الذي نَزَّلَ الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، خاتم الأنبياء والمرسلين بعثه الله بين يدي الساعة شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما مزيدا.
أما بعد :

فقد أدركَ أعداءُ الله ورسوله قديما وحديثا أن قوة المسلمين وعظمتهم تكمن في تمسكهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم، وأيقنوا عظمة كتاب الله تعالى وأثره في النفوس، ومدى تعلق المسلمين به، وعلموا أنه هو باعث نهضتهم، ومحيي همتهم، وموحد كلمتهم، وسبب نجاتهم وقوتهم، فقرروا مناهضةَ القرآنِ وأعلنوا حربهم عليه بكل الوسائل.

وإذا ما تجاوزنا القرون الأولى منذ نزول القرآن، وما صحبه من حملات الطعن والتشكيك والافتراء والتضليل من مشركي العرب وملاحدة العجم؛ بغية التشويش الإعلامي على الجمهور حتى لا يتأثر بالقرآن﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ ﴾ [فصلت].

غير أن جهودهم جميعا لم تفلح؛ بدأ بالوليد بن المغيرة ومسيلمة الكذاب

وأشباههم وأشياعهم من الكارهين للحق والمكذبين بالقرآن والرسول. إنهم يتوارثون الحقدَ والافتراء خلفا عن سلف، وكأنهم قد تواصوا بذلك لتشابه قلوبهم ومواقفهم، كما قال الله فيهم : ﴿ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣ ﴾[الذاريات].

وهاهم أعداء الإسلام في العصر الحديث يشنون الحملات على هذا القرآن يدفعهم الحقد والكراهية والكبر والحسد ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝٥٦ ﴾[غافر] . نجد هذا في تصريحات أكابر مجرميهم، وما تخفي صدورهم أكبر، وهنا نذكر نموذجا من تصريحاتهم، علها توضح الصورة وتقرب المشهد.

يقول الحاخام الأكبر لدولة اليهود مردخاي الباهو، مخاطبا مجموعة من اليهود: هذا الكتاب الذي يسمونه القرآن هو عدونا الأكبر والأوحد، هذا العدو لا تستطيع وسائلنا العسكرية مواجهته، كيف يتم تحقيق السلام في وقت يقدس العرب والمسلمون فيه كتابا يتحدث عنا بكل هذه السلبية ؟! على حكام العرب أن يختاروا إما القرآن أو السلام معنا [(١)].

وإبان احتلال إيطاليا لليبيا كان الجنود الإيطاليون يتغنون بأنشودتهم التي تقول: أنا ذاهب إلى ليبيا مسرورا لأبذل دمي في سبيل سحقِ الأمةِ الملعونة ومحو القرآن[(٢)]"
ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر أثناء الاحتلال : " إننا لن ننتصر على الجزائريين ماداموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية [(٣)].

ويقول اللورد كرومر الحاكم البريطاني في مصر :" جئت لأمحو ثلاثا: القرآن،

(١) مجلة البيان العدد ١٥٩ بتاريخ ذو القعدة ١٤٢١هـ .
(٢) صلاح الأمة في علو الهمة ، سيد عفاني(٦/ ٥٧٥) .
(٣) قادة الغرب يقولون ، لجلال العالم ص (٣١).

والكعبة، والأزهر"[١]. ويقول جون تاكلي وهو أحد المبشرين بالنصرانية : " يجب أن نري هؤلاء الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديدا، وأن الجديد فيه ليس صحيحا"[٢] . ويقول القس صموئيل زويمر في كتابه العالم الإسلامي اليوم: " تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أغصانها ".

هذا غيض من فيض مما ظهر من كلامهم وتصريحاتهم وما تخفي صدورهم أكبر. لقد عمل الغرب الصليبي الذي احتل بلاد المسلمين في فترة ما يسمى بالاستعمار، بكل خبث ودهاء على إلغاء الشريعة الإسلامية ثم التشكيك في مصادرها والطعن في صلاحيتها، حتى لا يعود إليها المسلمون ثانية،لأن قادة الغرب أيقنوا أن سر قوة المسلمين منوطة بتمسكهم بالشريعة، والتلقي عن الله ورسوله، فسادوا وقادوا العالم، واستطاعوا أن ينشروا رسالة الإسلام وأوصلوا أنوارَهُ ودعوته إلى عقر ديار الغرب، فتحا أو دعوة وتبليغا لدين الله تعالى، فقام دهاقنة الغرب بتجنيد جيش من المستشرقين الذين قاموا بدارسة الإسلام وحضارة المسلمين، وشنوا غاراتٍ فكريةً هدفها التشكيك بالإسلام وبالقرآن وبالرسول- عليه الصلاة والسلام- ومن ضمن شبهاتهم طعنهم في الوحي قرآنا وسنة، وافتراءاتهم الكثيرة على الرسول والرسالة، وبذلوا في ذلك جهودهم وأموالهم محاولين إلباس هذا الدس والطعن والافتراء والتضليل ثوب البحث العلمي والتحقيق الأكاديمي، وهي شنشنة معروفة وكذب مفضوح.

وها هي الشبهات والأفكار القديمة التي اختلقها وروج لها المستشرقون تطل برأسها من جديد عبر كتاب محليين مستأجرين يروجون ما قاله السابقون من خصومِ الإسلام ويعيدون إخراجه وإنتاجه بصورة حديثة وبأسماء ووجوه جديدة

(١) الخنجر المسموم، أنور الجندي ص(٢٩)

(٢) مجلة الفقه الإسلامي ص(٣٢٩) الدورة السابعة العدد ٧ الجزء الرابع لعام ١٩٩٢م .

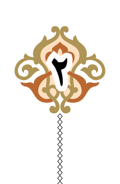
وبعناوين براقة كاذبة خادعة، ومن أحدث ما أنتجه هؤلاء الكتاب ماأصدره جورج طرابيشي النصراني ديانة والسوري موطنا، بعنوان: (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث ـ النشأة المستأنفة). أودع فيه كل الشبهات والأباطيل التي سطرها وافتراها المستشرقون من قبل، قاصرًا عمله وجهده على الصياغة والعرض مع المراوغة والتدليس والحرص على إسقاط هيبة الإسلام من النفوس، وذلكَ من خلالِ التشكيك بأصول الإسلام وقطعياته، وإثارة الشكوك والشبهات حولها.

ولقد هيأ الله تعالى رِجَالاً مؤمنين ونساء مؤمنات للرد ولكشف الشبهات الطرابيشية وتفنيدها. والتي حاول جورج أن يغطي الشمسَ ويحجبَ الحقَّ بطربوشه القاني، وهيهات أنْ يبلغَ ذاكَ أو أن يتحقق مراده لأن الله تعالى قال وحكم ولا معقب لحكمه:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة].

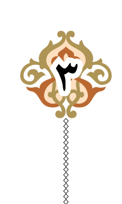
وممن أكرمهم الله بالرد وتفنيد أباطيل الطرابيشي، ثلاثة من فرسانِ القلم والبيان، قامُوا بتشريحِ كتابِ الطرابيشي المذكور – من إسلامِ القرآنِ إلى إسلام الحديث – بعد حصر توجهاته الأساسية وتمحورها في ثلاثة عناوين، وأخذ كل واحد مبضعه ليقوم بعملية جراحية تشريحية شاملة تبين للقارئ المنصف الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ويظهر الحق من الباطل، والصحيح من السقيم، والصدق من الكذب، وجاءت الأبحاث مرتبة على النحو الآتي:



ا لعقل المستقيل في الإسلام، للأستاذ الخضر سالم بن حليس، وفيه رد على شبهة طرابيشي أن الإسلام ألغى العقل وحجر عليه.



السنة في مضمار الوحي الإلهي المصدرية والحجية ، للأستاذ الدكتور عبدالوهاب أحمد السعيدي ، ويتضمن الرد على افتراءات طرابيشي وتشكيكه في السنة النبوية.



التحول من الأمية إلى الأممية ، للأستاذ الدكتور كمال ناجي القطوي، وفيه رد على زعم طرابيشي بأن الرسول الخاتم محمد ﷺ إنما هو رسولٌ للعرب فقط وليس للعالمين.

ولقد بذل الباحثون جهدًا مباركًا في توضيح الحق وبيانه، وهدم الباطل ونسفه من أساسه بأسلوب علمي ولغة هادئة، بعيدا عن الانفعالات وردود الأفعال المتشنجة، ذلك لأن الحق أبلج والباطل لجلج كما تقول العرب.

شكر الله للإخوة الباحثين عملهم ونضر وجيههم وبوأهم من الجنة منزلا بذودهم ودفاعهم عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ونصحهم لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

وهناك جنود مجهولون بعيدون عن الأضواء لا يعلمهم الناس لكن الله يعلمهم صرفوا جزءا من أوقاتهم وأموالهم في سبيل الله، غيرة لله ونصرة لدينه والإسهام في إعلاء كلمته والدفاع عن شريعته وكتابه ورسوله، فلهم من الله الجزاء ومنا الدعاء والثناء، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا. وهذا أوان الشروع في الكتاب والدخول في أبوابه وفصوله ومباحثه عله يفي بالغرض ويحقق الهدف في بيان الحق وكشف الباطل، إن الباطل كان زهوقًا.

المشرف على فريق البحث

أ. د. حيدر بن أحمد الصافح

بين يدي الموضوع:

غادر المستشرق الألماني (شاخت) [(١)] والمجري (بيرانت هيللر) الكرة الأرضية، ولم يعد في جعبتهما المزيد من الشكوك التي ناضلا طوال حياتهما لنثرها على أجيال المسلمين. لم يكونا يعلمان أن مدرسة استغرابية محلية سوف تتولى تلك المهمة، وتنافس باقتدار على نشر تلك الأفكار.

فها هو "الفكر الطرابيشي" يضرب بأمواجه على سواحل العقل المسلم محاولاً غمره بمياهه المالحة؛ بغية القضاء على تضاريسه المتينة، ولا يزال العقل المسلم يصد تلك الأمواج ويوقف زحفها، رغم تعرضه لحالات من المد والجزر، تتقدم تارة وتنحسر أخرى.

ولقد انبرت أقلام علمية عميقة لتفتيت تلك "الطرابيشيات" طويلة النفس، التي تلمس من ورائها دعماً لا محدوداً يمدها بالهدوء، ويمحنها الصبر عند محاولة الانفضاض، ويطلب منها ملياً الزحف الهادئ على تضاريس العقل المسلم، وزراعة مساحاته بالألغام لتنفجر في قادم الأيام كلما كان رخواً سريع الامتصاص.
واليوم تطل تلك الأفكار عبر مواقع التواصل وشاشات اللمس لتعيد الانتشار؛ محاولة التوغل في العقل المسلم مجدداً لتثخنه من الداخل، فيغدو شاحباً لا يقوى.

تتشكل مظاهر هذه الظاهرة اليوم، في محاولات حثيثة لإسقاط هيبة الإسلام، من خلال الولوج إلى التشكيك بقطعياته وإثارة الشكوك حولها، فقد بدأوا يتحدثون عن السّنةِ بطريقة جدلية لا يفهمها إلا ذوو الهندسة الأصولية، توحِيْ بإبعادِها عن مناطقِ الاستدلال، وهز مرجعيتها، ثم توجهوا نحو القرآن الكريم مؤخرا ليقولوا لنا: إن

(١) جوزيف شاخت: (١٩٠٢-١٩٦٩) مستشرق ألماني وباحث في الدراسات العربية والإسلامية، ومتخصص في الفقه الإسلامي، حصل على الدكتوراه في ألمانيا ودرّس فيها، وعمل أستاذا زائرا في جامعة القاهرة وخالطه فيها عدد من المفكرين العرب، كما زار المغرب والجزائر وتونس وتركيا.

النص القرآني عبارة عن "كتلة غامضة جدا" تحتمل تفسيرات كثيرة ومتعددة، وعبر تلك الاحتمالية؛ وذلك الغموض يتشكل ثقب أسود ذو جاذبية شديدة ليمتص الأوهام المتساقطة، والأقوال الغريبة، وجعلها هي التفسير المناسب للقرآن. وبذلك يكونون قد أسقطوا السنة الصحيحة، ثم جعل النص القرآني مجرد كتلة غير مفهومة، وتسليط العقل الجاهل بأدوات اللغة والتفسير؛ لاستخراج معانٍ يصبها الهوى، ويسقيها العقل المليء بالصدى.وكذلك إثارة الشكوك والعواصف الترابية حول عدد من المسائل الخلافية التي يسوقونها للعامة فقط، بعيداً عن مرابض أهل الاختصاص، ويقذفون بشباكهم لاصطياد الشاب الذي لا يملك القدرة على تفكيك تلك الأحاجي، ولا يجيد فحص المتناقضات، فقادتهم تلك الأدوات إلى الجرأة، والتمرد اللاواعي، والمراهقة المعرفية الجامحة.

تتميز هذه المدرسة بالبحث عن الأقوال الشاذة، والشبهات المحبوكة، والنقد العاري عن أدواته العلمية، ثم الخروج إلى الإعلام بآراء غريبة مبتكرة لتتولى الكاميرات مهمة التصوير، ويتولى الإعلام رصد تلك الزوابع والرياح المحملة بالأتربة.

كما تسعى إلى إسقاط الاحترام الاجتماعي للإسلام وعلمائه وقادته، وازدراء الجهود الجبارة التي بذلوها لخدمة النص الإسلامي والحفاظ على بهائه، ونسف تراث الأمة الهائل، وهجر العقول التي أنتجت تراثاً فكرياً عملاقا، لا يزال الغرب ينهل منه ويستفيد من عبقرية مؤلفيه، وهؤلاء لم يغادروا مناطق الإتيكيت الفرنسي ولم يفهموا الذوق العام مع تلك العقليات الرائعة والأفكار الثمينة، ولم يلحقوا بذوقيات الإمام الشاطبي- رحمه الله- في رسالته العلمية إلى الشيخ القبّاب بعد أن رآه تحامل على من سبقه من أهل العلم والفضل، فقال: "فإن ظهر أن الصواب خلاف ما قالوه فالتمس لهم أحسنَ المخارج، واحمل كلامَهم على أقرب ما يليق به من مناحي الصحة" [١].

---

(١) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أفريقيا والمغرب في فقه النوازل .(ج٥ / ٣٩٢).

إنها إرادة جديدة قديمة للإطفاء﴿ يُرِيدُونَ ﴾[التوبة: ٣٢]إطفاء نور الله بأفواههم وأقلامهم وأفكارهم، ولعل التعبير بأداة اللسان في الآية عن غيرها من الأدوات توحي بخطر الفكر على باقي الأدوات، ولن يسمح الله تعالى لهم بذلك مهما فعلوه، فعناية الله الفائقة بدينه، ووعده بانتشار نوره وإتمامه في الأصقاع يحمي هذا الدين من هذه الحملات العملاقة التي يقودها أفاكون يدركون جيداً جدوى ذلك الغزو المبني على دراسات دقيقة، ومعطيات حساسة، وقاعدة بيانات محدثة.

لقد أضحى المنفذ الوحيد الذي يلجون من خلاله اليوم هو الإيغال في دائرة الخلافات، وإقناع الشباب المسلم أن هذه مناطق يسعها الخلاف، ثم يتم نبش الأقوال الشاذة والتحليلات العجيبة واستدعاء حكايات الزنادقة وأقوالهم وشبهات المستشرقين القدامى على الإسلام لإعادة نثرها على ضفاف الإعلام الرقمي الجديد، وتنصيب دعاة غير مختصين مهمتهم الأساسية إلقاء تلك الشبهات في قوارع الطرقات وزرعها في الواقع الافتراضي على الشبكة العالمية والاستفادة من الفوضى القائمة في العالم العربي والإسلامي لتحقيق تلك الشبهات وتثبيتها.

في عام ١٩٨٨ أصدر عالم السياسة الأمريكي ليونارد بايندر: كتابه (الليبرالية الإسلامية) الذي أشار فيه إلى زوال الخوف من الإسلام القادم قريباً ودعا إلى الاستمرار في اتباع سياسة (تحرير النص القرآني من التفسير الموروث، وتحرير المسلم من النص نفسه) [(١)] التي رآها مجدية جدا.

أرأيتَ كيفَ أسلوبهم في التهوين من قواعد أصول الفقه وقوانينه الجبارة ووخزها بأنواع الإبر ورشها بالمبيدات الطرابيشية، وغيره من المسائل وغمزها بعين الازدراء، بل وتهميش ذلك الفن الذي لا يجيدونه خشية أن يطالبوا بالتحاكم إلى قواعده، فيتخبطهم الجهل من المس ويسفر أمرهم في الناس.

---

(١) انظر: الليبرالية الإسلامية: نقد للأيديولوجيات التنموية الصادر عام١٩٨٨ عن دار نشر مطبعة جامعة شيكاغو.

أنفق المفكر النصراني دينًا، السوري موطنًا (جورج طرابيشي) بضعًا من سنواتِ عمرهِ في موسوعته ذات الـ٦٤٨ صفحة (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث) يقدم رؤيته كيف استقال العقل في الإسلام وجرى إخماده عبر مفاعيل داخلية قضت عليه من الداخل بفعل انتقال الإسلام من طاولة القرآن إلى طاولة الحديث، ومضى عبر لفيف من الأقوال والمواقف يربط بينها بخيط دقيق ليفصل منها ثوباً واضحا لفكرته التي تقرر استقالة العقل في الإسلام بفعل إسلام الفتوحات المتشرب بالأيدلوجيا الحديثية، ومضى في تتابع نشط يوجه سيلاً من اتهاماته المركزة باحتراف لعددٍ من أئمة الإسلام في القرون المتقدمة، باعتبارهم قادة الانقلاب الذي سماه (الانقلاب السُنّي) حيث وجّه اتهاماته للإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ) ابتداء باعتباره القائد الأول للانقلاب السني أو التحول الخطير (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث) بحسب تعبيره، واتهمه بأنه حول الرسول ﷺ من (مشرَّع له إلى مشرِّع) ثم اكتملت أبعاد ذلك الانقلاب مع الإمام محمد بن إدريس الشافعي(٢٠٤هـ)، واستأنفه الإمام أبو محمد ابن حزم (٤٥٦ هـ)، الذي رأى أنه يكاد أن يكون انقلاباً على الانقلاب في «نشأة ثانية»، ثم الإمام أحمد بن حنبل(٢٤١هـ) الذي يرى أنه تحول إلى قديس في نظر أتباعه.

تركزت رشقات سهامه على الإمام الشافعي باعتباره أول من دون في علم أصول الفقه في مساحات كثيرة من كتابه، فقد شبه الإمام الشافعي بالنصراني (بولس) الذي حوّر المسيحية، ويتهمه بتنفيذ خطة الانقلاب، يقول: (أعاد تأسيس الإسلام القرآني في إسلام صحابي أو حتى تابعي في انقلاب يشبه -أكثر ما يشبه- الانقلاب الذي نفذه بولس الرسول المؤسس الثاني للمسيحية، بتحويله إياها من مسيحية إنجيلية إلى مسيحية حوارية).

يعتبرالشافعي- في نظره- المسؤول الأول عن العجز في التدوين الإسلامي، والمتهم الأول في تقييد العقل المسلم والحجر عليه بقواعد علم أصول الفقه التي

حرمته الانطلاق في آفاق النص ليطلق خياله فيه بفوضوية مجردًا من أي قواعد علمية ضابطة.

إضافة إلى وضعه التراث الإسلامي على مشرحة النقد المطلق بلا ضابط، ولا معيار علمي دقيق.

ويمثّل كتاب (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث) للطرابيشي الصادر عام ٢٠١٠م استدعاء مكثفًا وحثيثًا لمجموعة من تلك الأفكار التي -كما ترى- استهلكها الأصوليون بحثا وتعمقًا ولا يزال العقل المسلم يناقشها جيلاً بعد جيل، لكن على طاولة علمية إثرائية عميقة بعيدة عن محاولات الانتقام والدس الذي قاده المستشرقون قديما ويباشرونه بأزياء أُخر حديثًا.

وقد رأينا بعد الجرد الفهرسي لمضامين كتابه أن نعيدها في ثلاثة عناوين رئيسة تأتي على تلك الدعاوى وتناقش جذورها بقلم هادئ وتوضّح ما اعتراها من أخطاء ومطبات علمية منهجية لتصبح لعبة فكرية مكشوفة يراد من ورائها ما يراد.
و العناوين الثلاثة هي :

- **العقل المستقيل في الإسلام**
- **التحول من الأمية إلى الأممية**
- **السنة بين المصدرية والحجية.**

ولقد حرصنا أن تكون الموضوعات مركزة مختصرة بعيدة عن الإطناب والسرديات الطويلة التي تزدحم بها كثير من الكتب، وتؤذن بعزوف الشباب عن قراءتها لطولها وكثرة تفاصيلها المختصة.

ابتدأنا تلك العناوين بمدخل جيد، يعطي صورة بانورامية عالية الدقة عن الكتاب ومؤلفه، ليكون ذلك واضحا للقارئ بشكل جيد.

ولعل سائلا يضع علامة(؟): ماذا يقبع وراء تلك المقذوفات الخلافية والشبهات الاستشراقية التي تُطلق اليوم على هيئة مشروعات علمية يحمل صاحبها لقب (مفكر مجدد) ويعاد نقاش أفكارها على مواقع التواصل الاجتماعي عبر شاشات اللمس والجواب أنه يقبع تشكيك خفي، وزعزعة للفطرة، وهز للصورة، وثورة على التسليم بالنص القرآني إلى شروحات وتفسيرات أُخر، بدعوى حل إشكال تلك الكتلة النصية الغامضة لتتشكل سحابة ضبابية كثيفة تمطر على أجيالنا ماء يذيب هويتها ويهيئوها للتخلي عن الإسلام والتعامل معه بثانوية صارخة.

وهناك غايات أُخر تتولى مراكز دراسات ذكية صياغتها – طريقة تحقيق الأهداف- يمضي أولئك السذج في إنجازها بدقة وهم لا يشعرون.

وتثار فلسفات وسفسطات مختلف ألوانها تدق جذور التسليم المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب]وتفتح شقوقا للنقاش في الاختيار والتشهي لمقررات الوحي الثابتة وتنزيله الواعي، وإخضاع تلك الشعائر التعبدية للتحليل والأمزجة الشخصية.

إن هذه الظاهرة النشطة تستحق منا العناية والمزيد من التدقيق الدقيق، ونخل تصرفاتها وسلوكياتها التي تطفو على السطح حينا بعد حين، لنتمكن من مواجهتها بجرعات كبيرة من الوعي والوقاية خصوصا ،وقد أسهم الإعلام الجديد في كشف أروقة عقولهم وبنيات أفكارهم.

إن تفكيك الشبهات الزاحفة على تضاريس العقل المسلم الجديد، مهمة فكرية خطرة يجب أن نجند لها فرسانا مهرة يجيدون الحفر والتنقيب، ويحسنون العرضَ والتأليفَ، ويقومون لله قانتين يدفعون عن الإسلام انتحالَ المبطلينَ، وتحريف الغالين، وتأويل الجاهلِين، وسهام الملحدين.

ونحن إذ نأمل من الله تعالى أن يمدنا بتوفيقه في إكمال هذا المشروع نستعيذ به- سبحانه - كما يقول الجاحظ من أن " تدعونا المحبة لإتمام هذا الكتاب إلى أن نصل الصدق بالكذب، وندخل الباطل في تضاعيف الحق، وأن نتكثر بقول الزور، ونلتمس تقوية ضعفه باللفظ الحسن، وستر قبحه بالتأليف المونق، أونستعين على إيضاح الحق إلا بالحق، وعلى الإفصاح بالحجة إلا بالحجة ... ونعوذ بالله من فتنة القول وخطله) [١]

وعلى الله قصد السبيل في الرؤية والمنهج والدليل.

الباحثون

(١) انظر: الجاحظ كتاب الحيوان (١/ ٥).

رسم الصورة الإجمالية لمباحث الكتاب

(من إسلام القران إلى إسلام الحديث) طبعة دار الساقي الطبعة الأولى. ٢٠١٠م

يشتمل الكتاب على ٨ فصول وخاتمة

١	الشارع والمشرع له	٨٠ صفحة
٢	من النبي الأمي إلى النبي الأممي	٢٠ صفحة
٣	مالك بن أنس هامش من الحرية	٦٠ صفحة
٤	الشافعي تكريس السنة	١٠٠ صفحة
٥	أبو حنيفة من الرأي إلى الحديث	٢٠ صفحة
٦	ابن حزم وثيقة النص	٩٦ صفحة
٧	العقل التخريجي	٩٠ صفحة
٨	انتصار أهل الحديث	١٥٠ صفحة

العناوين الرئيسة للبحوث:

العنوان الأول	تهميش العقل في الذهن الطرابيشي	الخضر سالم بن حليس
العنوان الثاني	السنة في مضمار الوحي الإلهي المصدرية والحجية	د. عبد الوهاب السعيدي
العنوان الثالث	من الأمية إلى الأممية	د.كمال ناجي القطوي



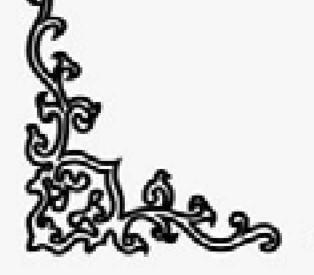
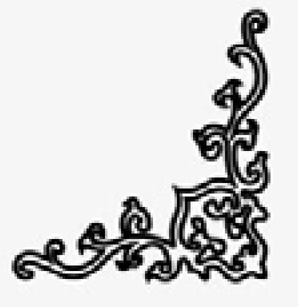
تعريف بكتاب طرابيشي

لايستطيع (الحداثيون) استيعاب أن الإسلام إطار جديد لتنظيم حركة الإنسان، وترتيب أفكاره، ورسم مساراته على الكوكب، وتحديد البيئة المعرفية لترتيب أفكار العقل.

كل تلك الانضباطات يرونها تحجيماً وتقييداً وحداً من حركة الإنسان والعقل البشري.

إذا كانوا يرغبون بإنسان ذي مادة خام وحرية مطلقة وعالم مشبع بالفوضى فهم يبحثون عن جاهلية ما قبل الإسلام.

أما الإسلام فهو منهج يهدف إلى إخراج المكلّف من داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا كما هو عبدُ لله اضطراراً، بتعبير الإمام الشاطبي.

بـ(٦٤٣) صفحة، وفي سنوات ست من البحث والتأليف في فرنسا عكف جورج طرابيشي في مدونته العملاقة (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث) على بناء وتمتين إشكاليته الخاصة التي عبر عنها بـ(العقل المستقيل في الإسلام).

كان من المقرر أن يكون كتابه هذا هو الخامس والأخير في سلسلة رده على المفكر المغربي محمد عابد الجابري (نقد نقد العقل العربي) ولكنه غادر تلك الساحة على عجل مكتفيا بما سبق ليصوغ رؤية مغايرة وفي الاتجاه المعاكس.

تمثلت نقطة الافتراق العظمى بين رؤيتي الرجلين (طرابيشي) و(الجابري) كما عبر عنها في الخاتمة في أن (الجابري) توصل إلى أن استقالة العقل في الإسلام تمت بفعل عوامل خارجية تسللت من موروثات وعادات وفلسفات بيئات وصل إليها الإسلام فحملته تلك التقاليد، على منوال حصان طروادة[1] من قبل جحافل اللامعقول من هرمسية وغنوصية وعرفان مشرقي[2] وسائر تيارات الموروث القديم التي كانت تشكلُ بمجموعها الآخر بالنسبة إلى الإسلام والتي اكتسحت

(١) يقصد جورج طرابيشي هنا: أنه لا يعقل رد أفول العقلانية العربية الإسلامية إلى عوامل خارجية كما رآها الجابري. فأنكر عليه "هل يصلح حصان طروادة لتفسير ظاهرة استقالة العقل في الإسلام

(٢) الهرمسية: هي تقليد ديني وفلسفي مستقاة من كتاب منحول ينسب إلى هرمس (المثلث العظمة) والتي أثرت على التعاليم الباطنية الغربية بشكل كبير والتي تعتبر من أهم العوامل خلال عصري النهضة والإصلاح. والغنوصية: أو العرفانية أو المعرفية (بالإنجليزية: Gnosticism) هي مصطلحات حديثة تطلق على مجموعة من أفكار ومعارف من الديانات القديمة التي انبعثت من المجتمعات اليهودية في القرنين الأول والثاني الميلاديين. وبحسب تفسيرهم للتوراة، اعتبر الغنوصيون (أو العرفانيون) أن الكون المادي هو انبثاق للرب الأعلى الذي وضع الشعلة الإلهية في صلب الجسد البشري. ويمكن تحرير أو إطلاق هذه الشعلة عن طريق معرفتها، أي "أغنصتها

تدريجياً، وتسللا ساحةَ العقلِ العربي الإسلامي حتَّى أخرجته عن مداره، وأدخلته ليل الانحطاط الطويل[١]. بينما يرى (طرابيشي) أن تلك الاستقالة إنما تمت بفعل عوامل داخلية لا شأن للخارج بها، فالعقل الإسلامي بحسب طرابيشي قد استقال وظل منكفئا على نفسه يراوح في حقلة مفرغة بفعل هيمنة الإيديولوجيا الحديثية عليه ردحاً طويلاً من الزمن، ويلخص طرابيشي جناية تلك الإيديولوجيا في أنها غيَّبتْ صراحةً أو ضمناً القرآن لصالح الحديث، وغيَّبتْ فاعلية العقل لصالح المعجزة، وقضتْ على التعدديات، وهي أيديولوجيا ما تزال ماثلة حتى اليوم لم تغب، بل تتبدى في ممانعةٍ للحداثة وعجزٍ عن استيعاب مفهوم التطور وجدلية التقدم، الأمر الذي يُنذر -إن استمر- بالردة نحو قرون وسطى جديدة.

ومن منطلق غفلة الجابري أو امتناعه عن تفكيك آليات أفول العقل واستقالته من الداخل، اتجه مسار طرابيشي بهذا الكتاب ليبني عليه إشكاليته الخاصة عن العقل المستقيل في الإسلام مبتعدا عن الدخول في عملية تفكيك إشكاليات الجابري الخارجية[٢].

يختار طرابيشي نقطة ارتكاز البحث على الجناية الأبرز الأيديولوجيا الحديثية" وهي تغييب القرآن لصالح الحديث، لكونها على نحوٍ ما سبب ما بعدها من جنايات، فبموجبها تحوَّل الرسول -كما صوَّره القرآن- من مجرد مرسَلٍ ومبلِّغٍ للوحي لا يد له في التشريع إلى مرسِلٍ مشرِّع من مشرَع له إلى مشرِع ، مسنون له وليس سانا[٣] يتخطى في

(١) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٦٣٥) الخاتمة. ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.
(٢) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٦٣٥) الخاتمة. ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.
(٣) جورج طرابيشي،(من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث) ص(٨٥).

صلاحياته التشريع الإلهي، ويتحول من نبي أمي بُعث إلى قومه العرب إلى نبي أممي ينتشر دينه بالفتوحات، ويتحول الدين من إسلام الرسالة إلى إسلام التاريخ، وصناع هذا الانقلاب هم دائماً أهل الحديث الذين انتصروا على المعتزلة/ القرآنيين واستحوذوا على ساحة الفكر والفقه -وما يزالون- منذ أكثر من عشرة قرون[١].

فصول الكتاب:

الكتاب ذو فصول ثمانية، ويبدو أن طرابيشي على عجل من أمره للدخول المباشر إلى صلب الموضوع، فهو بدون تمهيد أو مقدمات، واكتفى في نهايته بخاتمة مقتضبة وضّح فيها صلة الكتاب بمشروع الجابري.

في أكثر من ١٠٠ صفحة مثّل الفصل الأول والثاني الأرضية التي انطلق منها طرابيشي، فكانت الورشة التي فكك فيها أصول «الأيدلوجيا الحديثية» فحشد عددًا هائلاً من النصوص القرآنية وتفاسيرها، وربط بينها ليقدم مستنداً توثيقياً شرعياً لهدم حجية السنة، ويصوغ من خلال تلك النصوص إثباتاً نصياً على عدم اعتراف القرآن الكريم بوجود شيء اسمه السنة النبوية، فضلاً أن يعطيها حقاً في التشريع.[٢]ثم ذهب يقنع القارئ أن الفتوحات الإسلامية التي قامت على تحويل الرسول من الأمية إلى الأممية كانت قد حملت إلى البلاد المفتوحة «إسلام القرآن»،

---

(١) جورج طرابيشي، (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث)ص (٩٥).
(٢) مثل الفصل الأول والثاني في كتاب «من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث» صفحة (١٠٧).

ثـم ارتـدت فيـما بعـد باتجـاه مضـاد ليعيـد أبنـاء البـلاد المفتوحـة بدورهـم تصديـر «إسـلام الحديـث» إلى فاتحيهـم.

أمـا الفصـول السـتة الباقيـة فـسردت تاريـخ «الإيديولوجيـا الحديثيـة» تشـكُّلاً وتطـوراً بتفصيـلٍ واسـتقصاءٍ مطوَّلَـين عـلى خلفيـةٍ مـن تفكيـكٍ نقـديٍّ هـو أبـرز مـا يسِـم لغـة الكتـاب.

مالك و أبو حنيفة .. آخر رمق من الحرية:

يـرى طرابيـشي « مالـكا » رائـد مدرسـة الـرأي، بأنـه قـد تحـرك في هامـش مـن الحريـة قبـل أن يغلقـه الشـافعي، فالسـنة عنـد مالـك ليسـت فقـط السـنة النبويـة، بـل هـي أيضـاً سـنة الصحابـة وسـنة أهـل المدينـة وسـنة عمـوم المسـلمين، ومدوَّنـه الحديثـي «الموطـأ» لا يقتـصر عـلى حديـث الرسـول فحسـب، بـل فيـه احتجـاج بأقضيـة الصحابـة وأعمالهـم وفتـاوى التابعـين وعمـل أهـل المدينـة يزيـد كثـيراً عـلى الأحاديـث النبويـة التـي لم تبلـغ خمسـمائة حديـث يعـاني ثلثهـا مـن انقطـاع الإسـناد بوجـهٍ مـا، الأمـر الـذي يشـير إلى عـدم تحكـم «الصنعـة الحديثيـة الإسـنادية» في الحكـم عـلى الحديـث في تلـك المرحلـة؛ ثـم في فقـه مالـك المأثـور حريـةٌ مـا في الحـراك إزاء النـص، ففضـلاً عـن «فقهـه الافـتراضي»[1] أو «الأرأيتـي» مـارس مالـكٌ آليـاتٍ اجتهاديـة مـن قيـاسٍ واستحسـانٍ واسـتصلاحٍ، هـي في جوهرهـا انزيـاحٌ مـن متـن النـص إلى هامشـه، نـزولاً عنـد مقتضيـات الواقـع، وإنطـاقٌ للعقـل عنـد سـكوت النقـل أو «غيابـه»[2].

---

(١) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (١٣٨).

(٢) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (١٢٨).

أما أبو حنيفة، فيؤثر طرابيشي الحذر إزاءه مع إقراره له بأنه من فقهاء الرأي لا الحديث، ومبعث حذره عدم توفر أثرٍ صحيح النسبة لأبي حنيفة يعرّف بمذهبه، وأن لا سبيل لمعرفة فقهه إلا عن طريق تلاميذه، وهو يرى أن المسافة الزمانية و«الإبستمولوجية» الفاصلة بين أبي حنيفة وبين تلاميذه قد ملأتها ضغوطات الإيديولوجية الحديثية المتصرة، إذ بلغ تشنيع أصحاب الحديث على أبي حنيفة حد إخراجه من الدين أو كاد، ما جعل تلاميذ المذهب مهجوسين بنفي وصمة العار التي أُلحقت بأستاذهم لدرجة أنهم بدلاً من أن يدافعوا عن مذهب أستاذهم في الرأي حوَّلوا أستاذهم إلى صاحب حديث، بل إلى محدث صاحب مسنَد، بل ألحقوه بالتابعين، وضربوا له بسهم في علم الرجال وبرَّؤوه من تهمة «الرأي» إلى غير ذلك من «التنازلات» التي قدموها نزولاً منهم عند مقتضيات الإيديولوجية السائدة التي فرضت نفسها في عموم الساحة الفقهية منذ انتصار أهل الحديث.

الشافعي قائد الانقلاب الأول:

يردُّ طرابيشي «تكريس السنة» إلى الشافعي مؤسس[1] علم أصول الفقه، وواضع أسس نظرية المعرفة في الإسلام، فهو مَن قام بصياغة أول منظومة نظرية تلغي المسافة بين الكتاب والسنة، ونجح في «قَرْأَنَة السنة» وجعلها «وحياً غير متلو» موازياً أو مماهياً للقرآن في الرتبة والدور، وذلك هو المشروع الجوهري للشافعي في «الرسالة» التي أضمر فيها الرد على من لا يحتج بالسنة من «القرآنيين» في عصره[2].

---

(١) يصر طرابيشي على اعتبار الشافعي مؤسس بينما هو أول من (دوّن) لا أول من (أسس) بتعبير أدق.

(٢) جورج طرابيشي، «من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث» ص (١٨٦).

يقرر طرابيشي أن الشافعي سار في خطوتين متوازيتين، فبعد أن كرس« حجيةً إلهيةً للسنة » في الخطوة الأولى من مشروعه، فإنه كرس حجية أبستمولوجية[١] لـ«خبر الآحاد» [٢] في الخطوة الثانية، ثم أكمل مشروعه بتأسيس آلية الناسخ والمنسوخ التي «أطلقت من القمقم عفريت التلاعب بالنص القرآني» [٣]، فجعلت مُؤوِّل النص القرآني لا قائله هو من يحدد ناسخ الآيات من منسوخها، ورهنت آيات القرآن بآفاقها المفتوحة إلى ما تمليه عليها نصوص السنة المتكاثرة مع الزمن-برأيه-، ما دفع طرابيشي للقول بأن الشافعي دشن «نشأةً مستأنفة» حسب التعبير الخلدوني [٤]، أو نفَّذ انقلاباً لاهوتياً وأبستمولوجيا معاً يضاهي الانقلاب الذي نفّذته المسيحية في الإمبراطورية الرومانية؛ إذ جعلت المسيح ابنا مشاركا للرب في الجوهر، مع فارق أن انقلاب الشافعي "أَلَّه سُنَّة الرسول" لا شخصه، وهو أقصى ما يمكن أن يتحقق في دين توحيدي تجريدي كالإسلام. [٥] وعلى الضفة الأخرى جاء "انقلاب" الشافعي هذا

(١) الإبستمولوجيا، في اللغة الإنجليزية، هي بشكل عام نظرية المعرفة (التي تتناول العلاقة بين الذات العارفة والموضوع المعروف). أما في اللغة الفرنسية، فهي تعني أساساً نظرية العلوم أو فلسفة العلوم وتاريخها. وقد سبب اختلاف المعنى بين المعجمين الإنجليزي والفرنسي اختلاطاً كبيراً في اللغة العربية، إذ يتخذ كل مؤلف على حدة من معجم غربي معيَّن دون غيره مرجعيته، فتظهر الكلمة في اللغة العربية بمدلولين مختلفين. وسوف نحاول أن نصل إلى تعريف يتجاوز إلى حدٍّ ما الاختلاط الدلالي.

(٢) جورج طرابيشي، (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث) ص(١٩٦).

(٣) جورج طرابيشي، (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث)ص(٢٠٨).

(٤) بالرغم من محاولة طرابيشي توظيف مفهوم ابن خلدون عن «النشأة المستأنفة»، من جهة ما يحمله المفهوم من مركبات ومعاني القطيعة والاستمرارية في الوقت نفسه، إلا أنه لم يقدم رؤية جديدة تفسر اعتماد العامل العقلي بوصفه محركاً للتاريخ، مع العلم أن ابن خلدون أورد مفهومه عن النشأة المستأنفة في سياق تبدل أحوال الجماعة البشرية وتحوّل العالم من حولها، حيث يقول: «إذا تبدَّلت الأحوال جملة، فكأنّما تبدل الخلق من أصله وتحوِّل العالم بأسره، وكأنَّه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدَث». عمر عكوش.

(٥) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (١٩٤) ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

على حساب العقل، وذلك بتقييد دوره لصالح النقل، فهو الذي شن حملة شعواء على "أهل الكلام" وأزرى بهم، وهو الذي أحال العقل على النقل فجعله يلهث دون توقف خلف نصوص السنة التي يعجز أن يحيط بها أو يجمعها فرد واحد - لكثرتها أو تكاثرها - ليقفَ العقلُ منها بعد ذلك موقف التصديق والتسليم والاتباع لا غير، ثم لما اضطر الشافعي لـ"الاجتهاد" أفسح للعقل - وحفظاً لكبريائه - حيزاً ضيقاً من الممارسة تتمثل في "قياسٍ" يقتصر على الفروع التي لا نص فيها، لكنه سرعان ما أن قام بسدِّ آفاقه بإبطاله للاستحسان وعدِّه نوعاً من اتباع الهوى والحكم بالتشهي[١].

يصل طرابيشي في الخلاصة إلى أن دعوى "وسطية" الشافعي أو توفيقيته بين أهل الرأي وأهل الحديث التي روَّجها أحمد أمين وقلده فيها من جاء بعده؛ إنما هي مصادرة تحجب عن الأذهان "الانقلاب اللاهوتي والإبستمولوجي" الذي قاده الشافعي كـ"مؤسس ثانٍ للإسلام"[٢]، ثم تضفي على هذا الانقلاب صفة المشروعية حين تصفه بـ"الجمع والتوسط والتوفيق"[٣]. وأخذ على مشرحة الاستهداف ينقد حتى على ناقدي الشافعي إعجابهم به أمثال أستاذه محمد عابد الجابري ونصر حامد أبو زيد الذي سمى كتابه (الإمام الشافعي وتأسيس الأيدلوجيا الوسطية) مع ما اتسم به أبو زيد من جناية على الشافعي في كتابه هذا. إلا أن هذا اللقب لا يستحقه الشافعي في نظر طرابيشي مهما قاله باحث يدعي الحياد والمهنية العلمية[٤].

(١) في الفصل الثاني من بحثنا هذا فصلنا القول في القياس والاستحسان بما يدفع هذه الشبهات.

(٢) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٢٦٢) ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

(٣) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٢٦٢) ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

(٤) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٣٠٠).

تصنيم النص على أيدي ابن حزم:

بعد الشافعي يأتي ابن حزم الذي كان شافعياً أول أمره، ثم عدل إلى مذهب أهل الظاهر الذين هم أشد أهل الحديث نصيةً، ومع أنه أكثر مفكري الإسلام إشادة بالعقل وبـ"حجج العقول" لدرجة أن الجابري انخدع بعقلانيته المزعومة، إلا أنه أبرزُ مَن "أقال العقل" في الوقت نفسه، حتى بلغ من إقالته أنه أعطى النص أولوية مطلقة واستتبع العقلَ له، فأجَاز أن يرِد النصُّ بما لا يُعقَلُ دون أن يحط ذلك من منزلة النص أو يمنع العقلَ من قبوله، فجائزٌ عند ابن حزم أن يأمر النص بالشرك أو التثليث بدلاً من التوحيد، أو يبيح القتل أو الزنى أو السرقة بدلاً من أضدادها، ولو فعل النصُّ ذلك لكان ما أَمَرَ به حسناً، وما نهى عنه قبيحاً، وبعبارة أخرى: فالمعقول عند ابن حزم يستمد معقوليته لا من العقل بل من النص[(١)].

وقد زايد ابن حزم على "انقلاب" الشافعي بمدِّه " الإيديولوجية الحديثية" إلى أقصى مدى يمكنها أن تبلغه، فإذا كان الشافعي قد رفع السنة إلى مرتبة القرآن ثم لم يُجز نسخ أحدهما بالآخر، فإن ابن حزم أجاز نسخ القرآن بالسنة، وفي موقف آخر بالِغ الغلو أسبغ "عصمة" على رواة الحديث الثقات لأنهم نقلة الدين، وعصمتهم في النقل جزء من عصمة الدين وحفظه.

وفي مجالات أخرى من نفس الإيديولوجية شنَّ ابن حزم حملته المشهورة على فاعلية العقل في النص ممثلةً في القياس وتوابعه من تعليل

---

(١) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٢٦٢) ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

واستحسان ومصالح مرسلة، وتكلَّفَ في إبطالها شتى التأويلات، والتفّ على الدلالات مع تشبث مستميت بحرفية النصوص وألفاظها لدرجة يبدو فيها وكأنه يعاني حالةً من "رُهاب القياس"، وأنكر حتى قانون السببية وقاعدة مقاصد الشريعة، ونظر إلى العالَم نظرة سكونية باعتباره ناجزاً ونهائياً لا يتوقع أن يطرأ عليه أي تغيير أو تطور، فالدين قد اكتمل والشرائع ثابتة لا تجديد فيها ولا تبديل إلى يوم القيامة، ما اضطره إلى إقرار مبدأ الاستصحاب الذي يفيد بقاء ما كان على ما كان، وفتح باب الإباحة على مصراعيه ليدخل فيه كل مستجد لم يتناوله النص[١].

التخريج والبحث عن المخارج:

« العقل التخريجي» عند طرابيشي هو عقل نمطي يتحكم بكل الإبستمولوجية الحديثية، ويمثل السقف الأعلى لاشتغال العقل عند أهل النقل،[٢] والتخريجُ الذي امتاز أهل الحديث بممارسته بدءاً بابن قتيبة الذي أجرى معه مناقشة حادة واعتبره «محامي أهل الحديث» عبر كتابه « تأويل مختلف الحديث» ، ومنح طرابيشي ابن قتيبة لقب «رائد العقل التخريجي في الإسلام» وفي اعتراف يتضمن التندر به، قال: «ولنعترف له بهذه الريادة»[٣]. واعتبر عنوان كتاب ابن قتيبة »تأويل

---

(١) انظر تفصيلا جيدا في تشخيص ظاهرة الإمام ابن حزم وآرائه الجريئة في "منجنيق الغرب". فؤاد الهاشمي طبع دار دارس الطبعة الأولى ٢٠١٤م وهذا اللقب هو الذي صكه ابن القيم المشرقي لابن حزم المغربي في زاد المعاد (٥/ ٥٢٢) وينظر ابن حزم خلال ألف عام"(٢/ ٢٩٥) أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري.

(٢) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٢٦٢) ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

(٣) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٣٩٥).

مختلف الحديث» بأنه بمثابة إقرار على وجودِ التضاربِ والاختلاف، وإن حاول عن طريق التأويل ترجمته إلى ائتلاف[(١)]. مروراً بالطحاوي وابن شاهين والحازمي، وصولاً إلى الشعراني حيث يتمثلُ صنيعهم في «طلب المخرج» لتعارض النصوص أيا كان المخرج، وأيا كانت منزلته، ولو كان ذلك بتأويلٍ مُتكلّفٍ للألفاظ، أو افتراض ما لا يُتصوَّر في العادة، بل حتى ما لا يتصور في العقل، كالقول بتكافؤ الأضداد، ولو كان التخريج بإبطال ما أُثبِت في تخريجٍ سابق، أو توثيق راوٍ سبق القول بجرحه في «لعبة علم الرجال»، ولو كان التخريج بافتراض »نَسْخٍ« تكذِّبه رواياتٌ أخرى ..، التخريج في الحصيلة عملية ترقيع مضطربة تعيش « رُهاب التناقض»، همُّها استبقاء الرواية وإنقاذُ الحديث من الرد أو النقد، والتخريج بحسب طرابيشي، هو عملية يقوم بها »العقل المُعَقْلِن« [(٢)] في »سيرورة منطقية ونفسية معاً، ومن طبيعة مَرَضية تدّعي نصاب المعقولية المسبقة واللامشروطة للنص، وتنحصر مهمتها في تبرئة النص من العيوب وسد نواقصه وثغراته وتسوية تضاريسه»، وبإدخال ظاهرة التخريج إلى «عيادة التحليل النفسي» عند طرابيشي، تكون نتيجة التشخيص: «هاجِساً إنكارياً عُصَابياً» يعاني منه رجال التخريج[(٣)].

---

(١) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٣٩٥).
(٢) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٤٧٧).
(٣) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٤٧٧).

انتصار أهل الحديث:

هـذه العنونـة كانـت للفصـل الأخـير لمدونـة «مـن إسـلام القـرآن» حيـث أوضـح أن بـين الشـافعي وابـن حـزم يـأتي أحمـد بـن حنبـل ألمـع رمـوز «الإسـلام الحديثـي» الـذي يعتـبره طرابيـشي المؤسـس الثـاني للسـنة والمسـؤول الثـاني عـن التضخـم المتسـارع للمدونـة الحديثيـة، فهـو الـذي أعطـى السـنة مرجعيـة معرفيـة مطلقـة لا تدانيهـا أيـة مرجعيـة أخـرى، حتـى إنـه قـدَّم السـنة عـلى القـرآن وجعلهـا مدخـلاً أو مقدمـة إلى علـم الكتـاب والديـن، وكان مـن منهجـه أن «يقبـل الأحاديـث ولا يـردَّ منهـا شـيئاً إذا كانـت أسـانيدها صحيحـة وإن نَبَـا الحديـث عـن الأسـماع أو استوحشـه السـامع»، ولهـذا السـبب جـرى «تطويبـه»[1] كإمـام للسـنة في جـوٍّ مـن الروايـات المبالِغـة في مكانتـه وبطولتـه ومناقبـه الحاويـة للعجائـب والمسـتمدة حتـى مـن المنامـات[2]. وفي هـذا السـياق يـأتي دائـمًا الحديـث عـن "محنـة خلـق القـرآن» وكأنهـا «محنـة ابـن حنبـل» دونَ غـيره حتـى لَيمكـن القـول بأنـه لـو لم توجـد محنـة خلـق القـرآن، لـكان ينبغـي اختراعهـا تعزيـزاً لمكانـة "إمـام السـنة» ورفعـه إلى مرتبـة «الصديقـين» [3].

(١) التطويب هو إشهار قداسة القديس وقد استخدم طرابيشي هذا المصطلح ص٤٩٧. مستعيرا إياه من الطقوس المسيحية ليصف به الإمام احمد بن حنبل، والتطويب: Beatification هي المرحلة الثالثة من الخطوات الأربعة لعملية تقديس شخص متوفى، يتم اختياره من قبل البابا باسم الكنيسة الكاثوليكية. في العادة يتم الاحتفال بالتطويب في المنطقة التي طلبت تقديس الشخص المتوفى. يطوب الكاهن عندما يحقق معجزة معينة، وتعلن قداسة الطوباوي بعد دعوى جديدة، وتتطلب حصول معجزة أخرى بشفاعته.

(٢)جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٥٠٠).

(٣) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٥١٠).

وبمناسبة محنة خلق القرآن يؤرخ طرابيشي عهد المتوكل باعتباره عهد «انتصار أهل الحديث»، فالمتوكل الذي أغلق ملف خلق القرآن يوم آلت إليه السلطة، وقرّب أهل الحديث واسترضاهم وأغدق عليهم لم يفعل ذلك لغرض لاهوتي- وهو المستغرق في ملذاته وقصوره الباذخة-، بل لغرض سياسي بحت، يتمثل في استرضاء العامة التي لم يعد من الممكن تجاهل قوتها أو انحيازها لصف أهل الحديث، خصوصاً بعد محنة خلق القرآن، ويعتبر طرابيشي عمل المتوكل هذا انقلاباً سياسياً أعاد ترتيب العلاقة بين السلطان والرعية، فبينما كان المبدأ لدى الخلفاء قبل المتوكل يعتبر «الناس على دين ملوكها» -وهو المبدأ الذي سارت عليه النهضة الأوربية من خلال الإصلاح البروتستانتي، فانشقت عن كنيسة روما المحافظة، لتنفتح على تباشير الحداثة- وهو المبدأ الذي أثمر شرارة إصلاح ديني قاده المعتزلة القائلون بوجوب توافق العقل مع النقل ورد ما يعارض العقل منه، جاء المتوكل فأخمد تلك الشرارة الإصلاحية، ورهن السلطة الدينية لأهل الحديث الذين هم في عداء مستحكم - بحكم أيديولوجيتهم- مع كل جديد أو تجديد إذ لا يرون فيه سوى معنى البدعة والابتداع.

ولا تقف أبعاد الانقلاب المتوكلي عند هذا الجانب، فهو بإغلاقه ملف خلق القرآن قد فتح الباب على مصراعيه أمام «تسييد السنة» ومرْكزة إشكاليتها أبستمولوجياً على حساب تهميش القرآن وإشكالياته، كما أن انقلابه هذا قد تزَيَّا ببعدين طائفي وطوائفي من خلال معاداة الشيعة من داخل الإسلام والنصارى من خارجه، ما أرسى جذوراً

سوسيولوجية[١] وإيديولوجية غير قابلة للاجتثاث ولا للتجاوز لصيرورة التحول "من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث" من خلال تطور الأدبيات الفِرَقية في المدونة الحديثية المعادية للشيعة وأهل الذمة، مع ملاحظة أن الشيعة بدورهم قد قاموا بعملية "تسنين" موازية خاصة بهم فأسسوا إسلاماً حديثياً إمامياً مقدَّماً على مرجعية القرآن أو مضاهياً لها.

"الصنعة الحديثية" وتضخم الحديث:

يسجل طرابيشي ما طرأ على ساحة الفكر الإسلامي بعد "انقلاب الشافعي"، ويتمثل في تقلص مساحة "العقل والرأي" بل استؤصلت شأفته من حقل الفقه أولاً، ثم من سائر الحقول المعرفية للحضارة العربية الإسلامية، وفي المقابل فإن "الحديث" أخذ يتضخم تضخماً متسارعاً على صعيد الكَم بعد أن ضخمه الشافعي على صعيدِ الكيفِ، فتكاثرت أحاديث الأحكام التي هي برأي طرابيشي "الأكثر إلزامية للعقل والأشد تكبيلاً له في الإسلام، كما في سائر حضارات النص المقدس"[٢]. وبالتوازي مع ذلك الانقلاب نشأت "آلية الإسناد" التي هي- برأي طرابيشي- آلية بَعدية لا قبْليَّة جرى اختراعها لسد ثغرات السلسلة وتوثيق الرواة والتمرير الأركيولوجي[٣] للآثار على أنها آثار فعلًا،

(١) سوسيولوجيا (او سوشيولوچي:(sociology) أو علم الاجتماع (social science) هو العلم الذي يدرس المجتمعات والقوانين التي تحكم تطوره وتغيره.

(٢) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٦٣١).

(٣) يعني مصطلح الأركيولوجيا علم القديم وهو مأخوذ من كلمة يونانية الأصل وهي (ApxiolΛojia) ويسمى باللغة الإنجليزية (Archaeology)، وهو علم يختص في البحث بماضي وآثار الإنسان وكل ما خلفه من ماديات تاريخه من لقى كبيرة وصغيرة وحفريات وحالات الدفن والبناء المُشيّد.

وعليه فالصناعة الحديثية بدورها إنما هي صناعة إسقاطية مهمتها إعادة تصنيع الماضي، وفق هوى الحاضر وضرورات السياسة أو الفقه أو محض الشهرة أو ربما التجارة والتكسب[(١)]، وإذا كان القرآن يكرر أن الرسول متَّبِع و"مشرَّعٌ له غير مشرِّع" فإن الشافعي بـ"انقلابه" جعل الرسول مشرِّعاً، ثم انتقلت سلطة التشريع على يد رجال الحديث من "الرسول" إلى "مَنْ حَدَّثَ عن الرسولِ" باعتبارهم صناعَ الرواية ومنتجيها. ذلك أن ما حدث في إسلام التاريخ، على نقيض واقع الحال في إسلام الرسالة، هو أن أولئك الذين اباحوا لأنفسهم أن يكذبوا على الرسول وأن يتمادوا في الكذب عليه قد نصبوا أنفسهم في حقيقة الأمر مشرعين، ونسبوا إلى تشريعهم هذا مصدرا إلهيا، وذلك بقدر ما نسبوه إلى الرسول، ثم إلى الله عن طريق الرسول باعتبار أن الرسول لا ينطق عندما ينطق إلا بوحي من الله طبقا للتأويل الذي كرسه الشافعي [(٢)].

ويعتبر طرابيشي تضخُّم المدونة الحديثية عبر الزمن دليلاً على أن "آلية الإسناد" اتُّخذت درعاً يتم من ورائها انتحال الأحاديث وتلفيقها، خصوصاً بعد كف يد العقل وتقييد فعاليته الاجتهادية بإطار النصوص، "فالعقل عرف كيف يشق طريقه، ولو ملتويا إلى ممارسة الفعالية الوحيدة المتبقية له بعد كف يده، فما دام ليس له حجة إزاء حجة السنة، فليمارس حجيته من داخل السنة نفسها بانتحال الأحاديث وتلفيقها محتميا خلف درع آلية الإسناد السهلة المداورة"[(٣)].

وابتداءً من عصر أحمد بن حنبل تحولت المدونة الحديثية إلى "متاهة

(١) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٥٦٤).
(٢) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٤٧٩).
(٣) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٥٣٨).

يستحيل تمييز الصحيح عن المكذوب فيها" بما في ذلك مسند أحمد نفسه الذي زادت أحاديثه على الثلاثين ألفاً حشاه مؤلفه بالحديث المشهور لا بما صح عنده، هذا إن سُلِّم أن ابن حنبل هو نفسه من جمعه لا ابنه عبد الله ولا تلميذه القطيعي المشكوك في ضبطه الذي زاد في المسند زيادات فيها أحاديث موضوعة أيضاً(١).

ويستمر التضخم عبر عملية "الاستدراك" التي باشرها الحاكم النيسابوري بنفس آلية الإسناد المعتمدة على تقييم ذاتي غير موضوعي للرواة في الجرح والتعديل، فيما يمكن أن يسمى "بمشروع تصحيح الصحيح"، ثم يأتي الخطيب البغدادي مُنظّراً لهذه الظاهرة من خلال شرعنته الرواية بالمعنى، وقبول مراسيل الصحابة، وتصحيح الرواية بمجرد الإجازة دون السماع، وعدم اعتبار التدليس جرحاً، وقبول سماع الصغير، وقبول التعديل دون تفسير بخلاف التجريح، ونفي وقوع التعارض بين الروايات وإن بدت في الظاهر كذلك، لدرجة أن ظاهرة تضخم الحديث استعصت على الضبط، كما يشهد بذلك كتاب الإمام الغزالي الموسوم بـ"إحياء علوم الدين" الذي اصطفت فيه آلاف الأحاديث الصحيحة والموضوعة جنباً إلى جنب دون تمييز، حتى إن الحافظ العراقي الذي استغرق تخريج أحاديث "الإحياء" منه عشر سنين أقر لا بوجود مئات الأحاديث الضعيفة فيه فحسب، بل بأمثالها مما لم يجد له أصلاً أو لم يعثر عليه إلا في "الموضوعات".

بل إن كتب "الموضوعات" التي نشأت كرد فعل على تضخم ظاهرة الوضع ما لبثت أن تحولت بدورها إلى سلاح إيديولوجي في حقل علم

(١) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٥٣٥ــ٥٣٨).

الرجال الذي يعتبره طرابيشي من أكذب العلوم أو أكثرها إيديولوجيةً، فأصبحَ الحكم على الراوي تابعاً للحكم على حديثه كما فعل الجوزقاني مثلاً في موضوعاته، حيث حكم على الأحاديث في "موضوعاته" قبولاً أو رداً تبعاً لمطابقتها لمذهبه، كما أن إفراد أهل الحديث حيزاً لغربلة ما هو موضوع وفرزه يعني تكريساً ضمنياً منهم لصحة الباقي، ومنعاً منهم أيضاً لأي دخيل على منظومتهم أن يمارس فيها نقداً من أي نوع كان.

ثم بعد مناقشات مستفيضة موجهة مع رواد الصناعة الحديثية من المحدثين عبر التاريخ يعود طرابيشي ليحكم ختاميا على تلك التحركات بمفهوم المخالفة، فبعد ثنائه على ابن الجوزي يعود مقررا أن إدراج ابن الجوزي لمئات ومئات من الأحاديث في خانة الموضوعات يعدل في التحليل الأخير إعطاء شهادة براءة لآلاف وآلاف من الأحاديث التي تحتل مكانها في هذه الموضوعات للقيمين على المنظومة الحديثية ربما من حيث لا يدري ولا يدرون. فمن خلال غربلتهم ما هو مكذوب أو منكر أو مدلس، ومرفوعا إلى الرسول ومنه إلى الله، وهكذا تكون المنظومة الحديثية قد أفرزت من داخلها من يفرز زوالها من جوهرها. وبذلك تكون الطريق قد قطعت على كل من تدخل من الخارج. فأرباب الحديث أدرى بشعابه، والدخيلُ مستغنًى عن خدماته سلفا" [١].

(١) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٦١٣).

طرابيشي إلى (إسلام القرآن) بعيدا عنه!!

يخلع طرابيشي (عباءة النقد) ليلبس (جبة الاجتهاد) في محاولة منه لتفكيك أسس الإيديولوجية الحديثية، وذلك بادعائه أن القرآن لم يذكر سنة الرسولِ أصْلاً، بل هِيْ "الغائبُ الكبير في النص القرآني مقابلَ سنةِ الله التي تكرر ذكرها في القرآنِ ثمانِي مراتٍ"، ثم زادَ على هذا أن قامَ بـ "رحلة استقرائية" لآياتِ القرآنِ الكريمِ تؤكد كلها أنَّ الخطابَ القرآني قد صاغ جدلية من طرف واحد، يكون فيها الله آمراً مطلَق الحرية، والرسول مأموراً مطلق العبودية، يقف في موقع اللافاعل (موقعِ المشَرَّع له لا الشارع)[١].. (المسنون له لا السانّ)، [٢] تقتصر مهمته على تبليغ الرسالة فحسب، "وأن الرسول مكفوفَ اليدِ منَ الناحيةِ التشريعية"[٣]، مؤكداً ضرورة "التمييز في شخصية الرسول بين البشر الذي يتكلم من عند نفسه، والبشر الذي يتكلم من عند الله" فهو في الأولى بشر يخطئ ويصيب، ويدرأ خطأ الرأي بالمشاورة، أما في الثانية فهو مأمور بالوحي متبع له لا خيارَ له إزاءه.

الطريف في اجتهادات طرابيشي وقراءته "الإحصائية" للآياتِ القرآنية أنها جاءت أكثر حرفية حتى من اجتهادات الظاهريين من أهل الحديث، فآياتُ "التبليغ"[٤] التي ركَّز على الاحتجاج بها لا تفيد

(١) جورج طرابيشي، "من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث" ص (٨٥).
(٢) جورج طرابيشي، "من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث" ص(١٠).
(٣) جورج طرابيشي، "من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث" ص(١١).
(٤) جورج طرابيشي، "من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث" ص (١١).

بمنطوقها أكثر من إلزام الرسول بتبليغ الوحي حرفياً دون أي تصرف، ولكنها لا تمنعه من الكلام أو التصرف فيما وراء الوحي.

وحينما واجه طرابيشي الآيات الآمرة بـ"طاعة الرسول" -بجانب "طاعة الله"- لم يجد مخلَصاً من مضمونها سوى أن يتكلف في تأويلها ما ينقلب حجةً عليه مرةً أخرى، حيث زعم أن المراد بالطاعة إنما هو التصديق لا الامتثال أو الائتمار!! والحال أن طرابيشي وقع هنا في أشد مما فرّ منه، إذ تأويل الطاعة بـ"التصديق" يستلزم وجود نصٍ غير القرآن صادرٍ عنِ الرسولِ يجبُ تصديقه ولا يضره أن يستمر عبر الزمن - إذ المطلوب تصديقه فحسب- بخلاف الأمر الذي تجب "طاعته"، فإنه مدخولٌ بإمكان التقييد بقيود الزمان والمكان والإنسان. فضلاً عن أن تأويل الطاعة بـ"التصديق" مُبطِلٌ لنظامِ الدلالةِ والتفاهم اللغوي إذ يفسر اللفظ بغير معناه ويردُّ معنىً إلى غير لفظه، لأن الطاعة في اللغة العربية تأتي في مقابل الأمر وضدها العصيان، أما التصديق، فيأتي في مقابل الخبر أو الدعوى وضده التكذيب، ولا يجوز تبديل وجوه الدلالة والمعاني خدمةً أو تأييداً لما سبق في الذهن من التصورات والمباني.

ولا يقف الأمر بطرابيشي عند هذا الحد، إذ يبدو أنه قد مارس ما يسميه خصومه من أهل الحديث "تدليساً" في احتجاجه عليهم بالقرآن، وذلك حين أغفل في "قراءته الإحصائية" ذكر الآيات الآمرة بـ"اتباع الرسول"، والأمر القرآني باتخاذ الرسول "أسوة"، فبمثل هذه الآيات استمدت السنة مشروعيتها بل ومنزلتها من القرآن، ولم تنتظر قرنين من الزمان ليسبغَ عليها انقلابُ الشافعي المشروعية أو يرفعها في المنزلة،

خِلافاً لـ"ظاهرية" طرابيشي التي حكمت بعدم وجود سنة نبوية بناءً على عدم ورود ذكرٍ لها في القرآن.

وبناءً على ما تقدم من إحالة القرآن على السنة معنى لا لفظاً فإن السنة هي التي صنعت رجال الحديث لا العكس، وليس مرد الأمر مجرد إحالةِ نقلٍ على نقل، بل إن من بداهة الحكم على القرآن بكونه خطاباً أحدث تغييره الهائل في مجتمعه ونال قدسيته ككتابٍ سماويٍّ ونصٍّ مقدسٍ ومركزٍ لحضارة النص ألا يكون مبلِّغه مجرد شخصٍ نكرةٍ لا يكاد يُعرَف أو يروى عنه أو من سيرته شيء، بل إن مبلِّغاً لمثل هذا الخطاب من شأنه أن ينال من العناية بسيرته وأخباره الشيء الكثير كما من شأنه أن تُنسج حوله الأباطيل والموضوعات بالمقابل.

وعلى هذا فدعوى طرابيشي بأن "آلية الإسناد" آلية بعدية لا قبلية اتُخذت لتمرير "الوضع والانتحال" هي بذاتها دعوى أشبه ما تكون بفرضية "وُضِعت" لتمرير الرؤية المضادة، ذلك أن مَن سيختلق الحديث لأي غرضٍ كان إنما سينسج "كِذبةً" محتاجة بطبيعة الحال إلى تعليبها في قالب يجعلها قابلة للتصديق، وقالب المصداقية هذا الذي هو "الإسناد" لابد أن يكون سابقاً في الوجود على الكذب المراد تمريره على المتلقي، ومن هنا فآلية الإسناد لم يوجدها أهل الحديث بقدر ما أوجدتها قبلاً ضرورةُ تلقي ثم تناقل المعلومة الدينية التي لا تنفكُّ بطبيعتها عن "الرواية" التي هي بدورها جزء لا يقبل الانفكاك عن نظام المعرفة عموماً.

ومن هنا كان دور رجال الحديث دوراً تقنياً بحيث تملي عليهم "الصنعة الحديثية" إيلاء الإسناد عناية تفوق العناية بالمتن، وربما يكون

"تكليفاً لهم بما لا يطاق" مطالبتهم بأن يبرعوا في الجمع بآنٍ واحد بين "الرواية" و"الدراية" معاً، مثلما سيكون من الإغراق في الوهم مجاراة طرابيشي في تصويره رجال الحديث وكأنهم وحدهم صناع المعرفة ومنتجو الثقافة في زمانهم.

بل لنا أن نزيد على ذلك بالقول بأن "عقلية" أهل الحديث المنهمكة بطبيعتها في " التفاصيل" و"الحرْفية النصية" التي لا تجرؤ حتى على نقدِ الحديث أو رده إلا قليلاً هي العقلية الأكثر انسجاماً والأقدر "مهنياً" على القيام بمسؤولية "التوثيق من أجل التوثيق" تاركة مهمة النقد والتمحيص لمن يجيدها، ولا توجَد المشكلة إلا عندما نطلبُ من مثل هذه العقلية أن تجتهد نقداً أو رداً أو حتى استنباطاً، وفي حال تم ذلك وهو ما تم فعلاً بحسب طرابيشي - فإن التهمةَ لا ينبغي أن توجه للإيديولوجية المتغلبة المناوئة للعقل، بل للإيديولوجية العقلانية المهزومة التي فوتت فرصةَ إثبات نفسها سِياسِياً عندما قبلت ممارسة الإكراه، ودعوياً عندما تعالت بنخبويتها على "العامة" ثم شلّتها المذهبية والتقليد أكثر مما شلتها الإيديولوجية الحديثية.

وإن شئنا الاستعانة بعلم النفس التحليلي، كما فعل طرابيشي لقلنا إن "هاجسه الإنكاري" تجاه السنة، وأهل الحديث قد شوشَ عليه الرؤية وأوقعه في حالةِ "نكوص" إلى أحضان المعتزلة الذين هم برأيه ممثلو "العقل" و"القرآن" الأمر الذي يستبطن وصف "الآخر" بضد "العقل والقرآن"، لن نتوقف عند ازدواجية طرابيشي حين يفكك "إيديولوجية" ثقافة موروثة بمعايير معاصرة، ثم يعوِّل على استئناف "الإيديولوجية" المضادة لها رغم كونها هي الأخرى موروثة، بل سيستوقفنا ارتهانه لثنائية العقل والنقل التي ما تزال محكومة في قراءته بقانون التنافي

الـذي يتعـذر معـه الجمـع والتوفيـق، ذلـك التنـافي، اعتزاليـاً كان أو حديثيـاً، ومـا يسـتتبعه مـن تخنـدق وتخنـدق مضـاد لا ينـذر -إن اسـتمر- بالـردة نحـو قـرون وسـطى عـلى حـد عبـارة طرابيـشي، بـل يشـير إلى أننـا لم نغادرهـا أصـلاً [١].



(١) انظر العقل في الإسـلام.. بين إقالة أهل الحديث وإقامة أهل الحداثة، مقالة بدون كاتب على الشبكة العالمية. وقد قمنـا بتطويرها وإثرائها وإعـادة بنائها من خلال الإضافة الجيـدة والحذف والتعديل والتقديـم والتأخير والتوثيق الدقيق، بما يمثل إعادة بنائها بالطريقـة التي نودها أن تحقق هنا هدفها. لتكون مقدمة جيدة لالتقاط القارئ صورة كاملة عن مدونة طرابيشي (من إسـلام القرآن إلى إسلام الحديث) والإلمام الجيد لمحتوى الكتاب قبل الولوج في إيضاح كثير من موضوعاته.



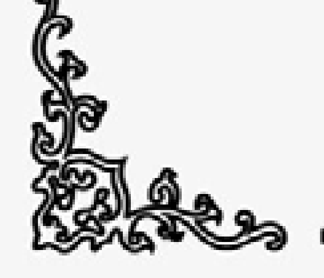
البحث الأول

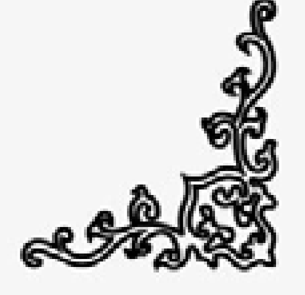
تهميش العقل وإقالته في الذهن الطرابيشي

[رصد فكري لإشكالية العقل المستقيل في الإسلام]

الباحث

الخضر سالم بن حليس اليافعي





مسارات التفتيت:

وسنمضي في مواجهة تلك المظاهر التي سلط طرابيشي قلمه عليها وأبحر في عقل القارئ وفق تلك الهزات التي أرادَ من ورائها أن يحدثَ ترددات مضطربة كالتي حدثت في عقله الخاص.

مفتتح .

- مدونة (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث).
- التقاط الصورة الكاملة.
- فصول الكتاب.
- مالك وأبو حنيفة .. آخر رمق من الحرية.
- الشافعي. قائد الانقلاب الأول.
- "تصنيم النص" على أيدي ابن حزم.
- العقل التخريجي والبحث عن المخارج.
- معركة انتصار أهل الحديث.
- "الصنعة الحديثية" وتضخم الحديث.
- طرابيشي إلى (إسلام القرآن) بعيدا عنه!!

الفصل الأول: رصد مظاهر الفكرة الطرابيشية:

- ايضاح الفكرة كما هي في عقل طرابيشي.

- تحرير العقل من قيود النص.
- رصد مظاهر الفكرة الطرابيشية.
- معتمد الفكرة الطرابيشية.
- منابت الانقلابات الطرابيشية.

الفصل الثاني: رحلة التنقيب عن العقل.

- نقدية العقل العربي.
- تأطيرية العقل العربي.
- مناطق تسريح العقل.
- التنقيب الإسلامي للعثور على العقل.
- ما العقل؟ وما أدراك ما العقل؟
- العقل في السياق الدلالي للقرآن الكريم والسنة النبوية.
- تفعيل العقل وإعماله.
- دعوة قرآنية لبيئة عقلانية منضبطة.
- العقل بين الحجر والإعمال.

الفصل الثالث: إقالة العقل وتهميشه في الذهن الطرابيشي

- الثورة على التراث (بين التصلب العقلي والهلامية الفكرية)



الفصل الأول

رصد مظاهر الفكرة الطرابيشية

(إيضاح الفكرة) كما هي في عقل جورج طرابيشي:

تـدور الفكـرة التـي اقتطـع لهـا جـورج طرابيـشي مسـاحات واسـعة مـن وقتـه وقلمـه ومحطـات حياتـه الأخـيرة عـلى "أن العقـل أُقيـل في الإسـلام" منـذ وقـت مبكـر ولم يبـق لـه مـكان يُسـمح أن يعملـه فيـه، وإن كان لـه ذلـك ففـي سـياج وإطـار محـدود. تعـرض طرابيـشي لهـذه الفكـرة في عـدد مـن كتبـه «المعجـزة أو سـبات العقـل المسـلم » وكتـاب «العقـل المسـتقيل في الإسـلام». وأخـيرا «مـن إسـلام القـرآن إلى إسـلام الحديـث».

يخلـص جـورج طرابيـشي إشـكاليته الجوهريـة أن القـرآن هـو معجـزة الإسـلام وهـي معجـزة عقليـة بامتيـاز لكـن ينحـصر إعجازهـا في أهـل العربيـة دون غيرهـم مـن الأجنـاس التـي لا تفقـه العربيـة، فالآيـات القرآنيـة تشـير إلى أن القـرآن ﴿ عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ [يوسـف]ولا يعقـل ذلـك غـير العـرب، وهـذا في (الإسـلام المكـي)، أمـا (إسـلام الفتوحـات) بتعبـيره فهـو يـرى أن تلـك المناطـق المفتوحـة مـا كان لهـا أن تعقـل لأنهـا تجهـل العربيـة.

ومـن هـذا المفتتـح "مـن الأميـة إلى الأمميـة" يمـضي طرابيـشي يؤصـل للفكـرة بطريقـة التقسـيم بـين (إسـلام القـرآن) الـذي يدعـو إليـه، و(إسـلام الفتوحـات) الـذي يمثـل انقلابـا جـاء بعـده ويدعـو إلى عـودة (إسـلام القـرآن) الـذي لـن يعيـده سـوى (القرآنيـين الخلـص) بدقيـق تعبـيره، وهـي مصيـدة ذكيـة يهـدف مـن خلالهـا كسـب أنصـار ينتمـون لفكـرة "إسـلام القـرآن" فقـط بـدلا مـن الاسـتهداف الـكلي للنـص الإسـلامي والمرجعيـة العليـا في الإسـلام التـي رأينـا اسـتهدافها بـين السـطور.

يـرى جـورج طرابيـشي أن الجابـري قـد أخطـأ في تحميـل العوامـل الخارجيـة

فكـرة اسـتقالة العقـل العـربي المسـلم وإسـباته، ويذهـب إلى أن الجابـري هـرب مـن نقـاش العوامـل الداخليـة التـي يـرى طرابيـشي أنهـا هـي السـبب الحقيقـي في إسـبات العقـل العـربي المسـلم واسـتقالته.

فقـضى سـت سـنوات في تمتـين فكـرة أن العقـل أقيـل مـن الداخـل، ولم يقـل مـن الخـارج بفعـل قيـام عـدد مـن قـادة الانقـلاب عـلى رأسـهم الإمـام الشـافعي بهجـر "إسـلام القـرآن" إلى "إسـلام الحديـث".

في صفحـة ٢٤٦ مـن (إسـلام القـرآن إلى إسـلام الحديـث) بـدأ الطرابيـشي فكرتـه تلـك تحـت عنـوان: "تهميـش العقـل" بتسـليط الضـوء عـلى مصـادرة الإمام الشـافعي للعقـل وهـي الفكـرة التـي اسـتماتت في توليدهـا وصياغتهـا ليشـكل الإمـام الشـافعي محـور الاسـتهداف الـكلي بدعـوى أنـه أسـتاذ "الحجـر عـلى العقـل".

ركـز الطرابيـشي في مدونتـه "مـن إسـلام القـرآن إلى إسـلام الحديـث" في جـزء أسـاس منـه عـلى أسـباب جمـود العقـل التشريعـيّ الإسـلاميّ، ونكوصـه، وهمـا مـا أسـماه (جمـود ونكـوص) يحمّـل فيـه عـدد مـن العلـماء وعـلى رأسـهم الإمـام الشـافعي قـدرًا كبـيرًا مـن مسـؤوليته بقرأنتـه السـنة، وتسـنينه القـرآن، وبتهميشـه العقـل عـن طريـق آليـة قيـاس لا تسـتطيع الانفـكاك مـن أسر النـصّ، وإبطالـه للاستحسـان يكـرّس هـذا التهميـش، وغيرهـا مـن الأدلـة التـي راح يوظفهـا لخدمـة هـذه الفكـرة.

تحرير (العقل) من قيود (النص):

يـبرز الكتـاب حقيقـة واضحـة وإن حـاول طرابيـشي إخفائهـا في ركام

كثير من الصفحات والحرفنة الكلامية وهي أنه لديه "مشكلة مع النص"، وإن دعا ظاهرا إلى "إسلام القرآن" فهو لتمرير ذلك الاشمئزاز بغلاف يسمح بالتسويق له في السوق العربي المسلم، وهي حالة نفسية غاص القرآن الكريم في أعماقها وعبر عنها بطريقة رائعة حين قال: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر]، إذ تصف الآية أجواء من النفور والكراهية والانزعاج عند الحضور الإلهي المتجلي في هذا الكون وتفاصيل الحياة، وتصف احتفاء واستبشارا عند محاولة حجبه في ركام كثيف من القضايا والفلسفات مهما كانت طبيعتها الرخوة.

فالعقل لابد أن يقفز على منطقة النص ويعلوها لا أن يعمل في بيئتها، وهي دعوة هلامية حداثية دعا إليها حداثيون سابقون بصورة أوضح تعبيرا منه، لكنه ربما لاحظ أن شهية الاستجابة لتلك الصراحة كانت مسدودة لدى الجمهور الإسلامي وأن قدسية النص الإسلامي أمام أي دعوة تدعو إلى تهميشه والقفز عليه مرفوضة.

(من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث) هو الغلاف الجديد لتمرير دعوة (تحرير العقل من قيود النص)، والقارئ الجيد يستطيع أن يرصد جملا كثيرة في أثناء كلام طرابيشي تزرع ألغام هذه الدعوى في العقل المسلم بين فينة وأخرى، يقول: "والالتزام بالمنصوص عليه دونما اعتبار لدرجته من المعقولية واللاعقلانية فشروط المعقولية يستمدها العقل من النص لا من نفسه، فليس من معقول إلا معقول النص، حتى وإن يكن من منظور العقل غير معقول. ذلك أن إمرة العقل لا تعود إليه، بل إلى النص، وليس من وظيفة للعقل غير أن يعمل في

خدمة النص وفهم النص. وأقصى نصاب له أن يكون مرآة مضيئة للنص، ولكن كما في كل مرآة فإن العقل يستمد نوره لا من نفسه، بل من النص. ولذا ينبغي التحديد بأنه مرآة عاكسة لا تضيء النص إلا بقدر ما ترد إليه النور المنبعث منه إليها. وبصيغة تشبيهية أخرى لنقل: إن العقل لا يملك إزاء النص من الحرية هامشا أوسع من الهامش المتاح لإبرة البوصلة في التوجه دوما نحو الشمال، والشمال بالنسبة إلى العقل هو النص" [(١)].

وضوح هذا النص يكشف أن الأمر ليس دعوة للتخلي عن (إسلام الحديث) والرجوع إلى (إسلام القرآن) وإنما هي دعوة تدرجية للتخلي عن (إسلام القرآن) أيضا إلى (إطلاق عنان العقل منفردا) لتضرب فوضاه دون مرجعية أو أرضية يحتكم إليها البشر.

يمثل "النص" بالنسبة لطرابيشي قيودا فكرية معرفية تمنع العقل من الانطلاق الحر.

لا يمكن للعقل أن ينطلق مجردا دون بيئة ثقافية تسمح له بالتفكير في نطاقها، يتخذ منها أرضية معرفية صلبة ينطلق منها، ولا توجد هذه البيئة إلا في أرضية سامية على العقل، بيئة (النص) القادم من عند الله تعالى الذي وسع كل شيء علما، والذي أحاط بكل شيء علما. حيث حدد له مناطق تسريح العقل ودله بمهنية عالية مجردة أن هناك مناطق لا يمكن لطاقة العقل المخلوق أن تصل إليها، وإن وصل تاه في ظلماتها نظرا لمحدوديته وضعف إمكاناته التي لا تؤهله للوصول إلى تلك المناطق، وفي حال حاول الولوج إليها تضاربت معلوماته وتاه

(١) الطرابيشي" من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث" ص(٣٠٠) دار الساقي.

في نطاقها، وهذا ما يؤكده كثير من النتائج التي وصل إليها الغرب والتي أصبح يضرب بعضها بعضا في تلك المناطق المجهولة، مما يؤكد أن عالم الشهادة بحاجة إلى عالم الغيب، وأن العقل يظل قاصرا يبحث عن شيء أعلى من نتائجه، يساعده في رسم مساره وتحديد اتجاهاتها، ولن يكون ذلك إلا في "النص" القادم من عند الله تعالى.

"ومن هنا تبرز العلاقة الوطيدة بين العقل والثقافة، فالثقافة تصنع العقل وتشكله، والعقل يطور الثقافة ويغربلها فيثريها أو يفسدها فالعقل يحدد طرائق التفكير ومبادئ التعامل مع المحيط الطبيعي والاجتماعي على صعيد الفرد، والثقافة تمثل القواسم المشتركة بين عقول الأفراد، فهي عقل جماعي يوجه سلوك الجماعة في تعاملها مع مشكلات البيئة ومشكلات المجتمع ويضمن تعاون الأفراد.

وبإمكاننا تقرير أمرين:



: الحكم على مضمون العقل السائد بين أفراد مجتمع ما بالنظر إلى تجليات ثقافتهم المشتركة في سلوكهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعلمي، ويلزمنا لذلك الحكم باضطراب العقل وتناقضه إذا تبين لنا اضطراب السلوك الاجتماعي وتناقض أقوال القوم وأفعالهم.



: أن إصلاح منهجيات التفكير هو المدخل إلى تجاوز الاضطراب الاجتماعي وإصلاح الفوضى الثقافية" [١].

(١) إعمال العقل لؤي صافي. ص (١٧ـ١٨) دار الفكر المعاصر الطبعة الأولى ١٤١٩ ـ١٩٩٨م).

فالخـلاف الجديـد مـع طرابيـشي ورواد المدرسـة الحداثيـة ليـس خلافـا بـين تعـارض العقـل والنقـل الـذي حمـي وطيسـه عـلى أروقـة السـاحة العلميـة عـبر العصـور، وإنـما يمثـل دعـوة أخـرى إلى إعـمال العقـل بعيـدا عـن النـص، النـص الـذي لا يُعـد إلا تاريخـا عابـرا نـزل عـلى مـكان ناسـبه، وانقـضى بانقضائـه، دعـوة ترفـض كل القيـود التـي جلبهـا النـص لإحـكام مسـار العقـل، وتجـاوز الـتراث بـكل تفاصيلـه، والعمـل في بيئـة خاليـة تمامـا عـن تلـك القيـود والكوابـح، وهـي مجلبـة غربيـة الجـذور، يتـم توطينهـا في العـالم الإسـلامي تقـول بإبعـاد النـص عـن سـاحة المعرفـة الإنسـانية واعتـماد نتائـج العقـل المجـرد، وتحريـر المسـلم مـن النـص الإسـلامي بكامـل رؤاه وتصوراتـه.

فالنقـاش الـذي دار حـول تعـارض العقـل والنقـل، نقـاش يقـر بأهميـة النقـل وحجيتـه ويبقـى الخـلاف في دائـرة القطعـي منهـما، فـأي قطعـي ثبـت منهـما قُـدم، أمـا المدرسـة الحداثيـة فهـي ترفـض قطعيـة النـص جملـة وتفصيـلا، وتمنـع أي تدخـلات لـه في أعـمال العقـل.

في كتابـه "الإمـام الشـافعي وتأسـيس الأيديولوجيـا الوسـطية"، يصـف حامـد أبـو زيـد النـصَّ القـرآني بالنـص الـذي يملـك سـيطرةً مطلقـة في صناعـة الثقافـة الإسـلاميّة قديـماً وحديثـاً، ويؤكّـد أبـو زيـد عـلى ضرورة الانعتـاق مـن تلـك السـلطة، يقـول: "وقـد آن أوان المراجعـة والانتقـال إلى مرحلـة التحـرر لا مـن سـلطة النصـوص وحدهـا، بـل مـن كل سـلطة تعـوق مسـيرة الإنسـان في عالمنـا"[١].

(١) حامد نصر أبو زيد (الشافعي وتأسيس الأيدلوجية الوسطية) ص (١١٠) سيناء للنشر الطبعة الأولى

يـرى أبـو زيـد أن أحـد أكـبر المشـكلات التـي تمثّـل عائقـاً أمـام المسـلمين، هـي تلـك المتمثّلـة في وقـوع حالـةٍ مـن حـالات التماهـي بـين الديـن والـتراث في عقـول المسـلمين، ويفسّر الباحـث المـصري تلـك الحالـة بتصـوّر المسـلمين الخاطـئ للنـصّ القـرآني، والـذي يذهـب إلى أن القـرآن قـد غُلِّـفَ بالطابـع المقـدّس في كلِّ مراحلـه، رغـم أن نظـرةً واحـدةً عابـرة في الكتـب المختصّـة بدراسـة أسـباب النـزول، مـن شـأنها أن تكشـف الطابـع الزمنـي للنـصِّ القـرآني، وهـو، بالمُجمـل، طابـع دنيـوي، لكونـه قـد ناقـش ظواهـر وعـوارض طارئـةً تعـرّض لهـا المجتمـع الإسـلامي في أوقـاتٍ بعينهـا.

عمـل أبـو زيـد عـلى تعميـق تلـك الفكـرة في كتابـه "مفهـوم النـصّ"، والـذي ذهـب فيـه إلى أن النـصَّ القـرآني نـصٌّ ثقـافي بامتيـاز، وأن اللغـة التـي كُتـب بهـا النـصّ هنـا، ليسـت أكثـر مـن وسـيطٍ لغـوي، مهمّتـه الرئيسـة هـي تمثيـل الواقـع والكشـف عنـه، ومـن هنـا فقـد اختـار أبـو زيـد أن يلجـأ لمنهـج التحليـل اللغـوي لفهـم النـصّ الدينـي المقـدّس، لأنـه وبحسـب مـا يعتقـد، المنهـج الوحيـد الـذي يمكنـه دراسـة النـصِّ الدينـي دراسـةً موضوعيّـةً في ارتباطـه بالواقـع[١].

في السـياق نفسـه، قـدّم المفكّـر السـوري الطيـب تيزينـي، بإحـدى أهـمّ الكتابـات العربيّـة في حقـل الدراسـات التاريخيّـة للنـصِّ القـرآني، في عملـه الشـهير "النـصّ القـرآني أمـام إشـكالية البنيـة والقـراءة"٠

عـرّج تيزينـي إلى تفسـير مـا يقصـده بتاريخيّـة النـصّ القـرآني في واحـدةٍ

١٩٩٢م

(١) محمد يسري " كيف تعامل الباحثون مع مسألة تاريخية النص القرآني" مقالة على رصيف٢٢.

من مناظراته الشهيرة مع الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، عندما أوضح أن هناك فرقاً واضحاً بين عمليتي إنزال القرآن وتنزيله، مستنداً في ذلك لبعض الشروحات اللغويّة المصطلحيّة الواردة في كتابات عددٍ من اللغويين المسلمين القدامى، من أمثال ابن منظور والزمخشري[١].

ويتجه نصر أبو زيد في كتابه "التفكير في زمن التكفير" إلى تغليف دعوته تلك بعد أن واجه صراعا فكريا شديدا محاولا تبريرها بشيء ما، تلطيفا للأجواء: "والنتيجة المترتبة على التحرر من سلطة النص هي حرية العقل الإنساني في فهم النصوص، وبالتالي تحقيق عملية الإصلاح والتجديد الديني.

إن الدعوة للتحرر من سلطة النصوص ومن مرجعيتها الشاملة ليست إلا دعوة لإطلاق العقل الإنساني حرا يتجادل مع الطبيعة في مجال العلوم الطبيعية، ويتجادل مع الواقع الاجتماعي والإنساني في مجال العلوم الإنسانية والفنون والآداب. فهل تتصادم هذه الدعوة مع النصوص الدينية أم تتصادم مع السلطة التي أضفاها بعضهم بالباطل على بعض تلك النصوص، فحولوها قيودا على حركة العقل والفكر؟ إن هذه الدعوة للتحرر لا تقوم على إلغاء الدين ولا تقوم على إلغاء نصوصه، لكنها تقوم على أساس فهم النصوص الدينية فهما علميا[٢].

---

(١) المصدر السابق، وأنظر تفصيلا جيدا في كتاب "وقفات مع أدعياء العقلانية حول الدين والعلم والعقل والتراث" للدكتور خالد كبير علال. وكتاب" الرد على شبهات المعاصرين" هشام مشالي، وكتاب "المجترئان على القرآن: دراسة نقدية لاجتراءات محمد أركون ونصر حامد أبوزيد" للدكتور محمد ممدوح.

(٢) محمد عمارة "رد افتراءات الجابري عن القرآن الكريم" ص٣٧. طبع دار السلام.

وفي كتابه "رد افتراءات الجابري عن القرآن الكريم" [١]. وضح الدكتور محمد عمارة أن الجابري اتجه في محاولة منه إلى الدعوة إلى إعادة ترتيب سور القرآن الكريم حيث يقف وراء تلك الدعوة نتائج أخرى تخول للجابري الحصول على إثبات تاريخية القرآن، ثم التعامل معه ككتاب تاريخي محصور على أسباب نزوله لا غير، واعتبر عمارة ذلك تجديداً لمحاولات الحركة الاستشراقية القديمة التي بذلت جهودا لإصدار نسخة من القرآن الكريم بترتيب زمني يمنح رصد تاريخية النص وعدم صلاحيته لكل زمان ومكان.

إن الجابري بحسب عمارة قد هدم دعوته تلك بإقراره أن أسباب النزول قليلة، وهذا لن يسمح للجابري بعملية الترتيب التاريخية التي يطمح إليها. بل وفي مواضع أخرى يقر الجابري أن الكثير من أسباب النزول ومروياته أخبار آحاد مظنون. وقد اجتهد عمارة في جمع تلك المتناقضات الجابرية وتقديمها للقارئ تكشف له أن الأسس الاستقرائية التي شاد الجابري عليها دعواته مهزوزة لا ثبات لها وأن المنهجية العلمية الحداثية العقلانية المزعومة مجرد حكايات فلسفية لا وجود لها على الأرض.

وهكذا تمضي هذه الدعوة المتواترة تتضح عبر أطروحات المدرسة الحداثية بصور مختلفة متنوعة تصب جميعها في نهر واحد وهو تحرير العقل من النص الإسلامي، وجعله مجردا عن أفكاره.

---

(١) نصر حامد أبو زيد "التفكير في زمن التكفير" ص(١٤٦).

رصد مظاهر الفكرة الطرابيشية:

- في أجواء النص الشرعي وتقييداته لم يعد للعقل أي معنى أو فائدة.
- "علم أصول الفقه" وضعت قوانينه لتقييد حرية العقل ومنع حركة الانطلاق المفتوح في فضاءات النص.
- للعقل دور هامشي في نظر أساتيذ المدرسة الفقهية الأصولية كمالك والشافعي والشاطبي وغيرهم.
- لم يبق للعقل العربي أي فاعلية أو حراك؛ لأن في كتاب الله علماً بكل شيء.
- لم يترك " القياس" أي دور للعقل سوى قياس فروع على أصول متعالية عليه، فإن عدمت الأصول، وليس لها أن تعدم لم يبق على العقل غير أن يصمت[١].
- إغلاق منافذ الاستحسان الذي يعبر عن تذوق العقل لما يناسبه من آراء ووجهات النظر العلمية.
- تم الانتقال من (الرأي) الذي يحتمل اجتهاد العقل إلى (الحديث) الذي يمجد النصية [٢] فإن ابن حزم عمل على "تصنيم النص" ما يؤدي إلى إلغاء مبادرة العقل أي أن دور العقل في المعرفة هو معرفة الطبائع دون الشرائع فقط.
- يرى طرابيشي أن إطلاق يد النص كف ليد العقل في معرفة الشرائع[٣].
- يرصد طرابيشي ما يسميه « حصار الفقهاء لكل ما يمكن أن يشكل عناصر عقلية في الخطاب التراثي العربي الإسلامي ».

---

(١) جورج طرابيشي، من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث ص(٢٦٤)
(٢) جورج طرابيشي، من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث ص(٢٧٣).
(٣) جورج طرابيشي، من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث ص (٢٦٥).

- إبقاء « التراث » ما هو إلا محاولة لتحنيط العقل وأسره في سجون الماضي وإعلان استقالته في الحاضر.
- إثبات أن « العقل استقال في الإسلام» بفعل داخلي عمل على تأطير النص وتحنيطه ضمن برواز من الفهم الخاص المحجوب عن الجمهور العام بنفس أسلوب الكنيسة .

معتمد الفكرة الطرابيشية:

لم يكن جورج طرابيشي يمتلك من الإمكانات العلمية والإلمام المقاصدي للإسلام من زواياه الأصولية الجامعة ما يؤهله لجمع مفاهيم القضايا الجزئية في إطار سياقاتها العامة، كما فعل الإمام الشاطبي أو ابن خلدون أو الغزالي أو عبد العزيز بن عبد السلام أو غيرهم، ورؤية الآراء الاجتهادية ووجهات النظر العلمي كأفهام تحاول النحت تحت ظلال النصوص تستخرج كوامنها وتحاول الوصول إلى جوامعها، فظل يصارع الجزئيات والآراء الاجتهادية بعيدا عن النظر الأصولي للإسلام، فكانت جهوده عبارة عن صراع مرهق مع شوارد الآراء والاجتهادات في عصور مختلفة، فناقشَ مالك والشافعي وابن حزم وابن قتيبة وغيرهم نقاشًا حادا كأن ما يصدر عنهم من آراء واجتهادات هو الإسلام القطعي الذي لا نقاش فيه، ولم يفرق بين الدين والتدين بمنظوره المعرفي، وغابت عنه احتمالية الشافعي الشهيرة "رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب" التي بوأته مكانا حسنا بين مدرستي الرأي والحديث وهو يخوض غمار آرائها الاجتهادية بتلك الاحتمالية.

لقد خاض طرابيشي معركة استنزافية طويلة المدى استنزف فيها كل ذخيرته المعرفية من الأقوال والمصطلحات والتعبيرات التي وسم بها رؤى العلماء ونظراتهم الاجتهادية، وظل يؤطرها في مصطلحات مركبة مختصرة ما يشبه سلوكا يتسم بالنظرة الأستاذية المانحة مواقف القوم وآراءهم سمات عاقلة محددة.

وظل في أثناء مدونته يجمع الأقوال والمواقف ويربط بينها بطريقة ما يسند بعضها بعضا، فتبدو ككتلة متماسكة للقارئ الذي استهدفه طرابيشي بمدونته تلك على طريقة استدعاء التحليل الهلامي الذي يسرح في التخمينات بعيدا عن دقة المعلومة.

ثم أسند طرابيشي فكرته تلك بنصوص مبتورة مجتزأة عن سياقاتها، وهي ظاهرة منهجية شنيعة سارت عليها كثير من الفرق الاستشراقية والضالة قديما وحديثا، تتمثل في الإقدام على تبني جملة جزئية من النص واعتماد تلك الجملة مبتورة السياق لتوليد الفكرة المرجوة على طريقة﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ﴾ [الماعون] مجردا عن باقي سياقاتها النصية.

إن انتزاع الجمل من سياقاتها العامة وتصديرها مجردة تضرب عواصِفها العقل المسلم ليغدو كعصف مأكول، عملية انشطارية جسيمة مزقت الفهم الجمهوري العام الذي جاء به الإسلام، وحرفت مساراته باتجاهات أُخر على طريقة نافع بن الأزرق حين انتزع قوله تعالى﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧ ﴾ [المائدة] من بين سياقاته ليلتقط به من شاء يلقيه خارج حدود الإسلام، فحاكمه ترجمان القرآن إلى السياق العام للآية والمقاصد الإجمالية للكتاب[1].

---

(١) يرى الخوارج أن مرتكب الكبيرة في النار، ويستدلون بهذه الآية على عدم خروجهم منها، واستدلال

إن إشاعة ونشر تلك المفاهيم المجتزأة وتركها تشوش على المعنى الأصلي مصادم لجمهرة النصوص ونسقها العام، ثم استخراج أفكار ملغومة لا تريدها الشريعة بل وتخالفها وهذه هي المنهجية التي اعتمدها طرابيشي في التعامل مع النصوص والأقوال.

مخبأ الدلالة يكمن بداخل السياق كما يقول الأصوليون: "إذا كان التركيب يوجد داخل النص فإن الدلالة توجد داخل السياق"[(١)].

والاحتكام إلى السياق "من أعظم القرآئن الدالة على مراد المتكلم" بتعبيرِ ابن القيم رحمه الله [(٢)]. وقد جعل أستاذ الموازنات الشرعية ومهندس المعايير المصلحية عبد العزيز بن عبد السلام السياق أداة إجرائية ترجيحية ثمينة بيد الفقيه والمفسر "كي لا يبتر الكلام وينخرم النظام"[(٣)] وهو ما دفع رائد مدونة المنار رشيد رضا إلى أن يختار أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ: موافقته لما سبق من القول واتفاقه مع جملة المعنى وائتلافه مع القصد الذي جاء به الكتاب جملة"[(٤)]وها أنت ترى كثيرا من النتائج التي وصل إليها طرابيشي ما هي إلا نتيجة حتمية لهذا الاجتزاء المبتور.

ثم تقوم اعتماداته على توصيف فكرة ما، فيوظف لها كل ما استطاع من إشارات ودلائل نصية، وإن كانت متجهاتها بعيدة عن

نافع ابن الأزرق بحضرة ابن عباس على خلود مرتكب الكبيرة في النار بهذه الآية اجتزاء بعيد عن السياق القرآني الذي جعل ترجمان القرآن يرده إلى سياقها وأنها في الكفار خاصة.

(١) دور السياق في الترجيح بين الأقوال التفسيرية (ص ١١).

(٢) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية(٤/ ٩).

(٣) الإشارة للعز بن عبد السلام ص(٢٢٠).

(٤) تفسير المنار(١/ ٢٢).

ذلك التأطير والتوظيف، ولكنها عملية أسر معرفي يجيدها كل صاحب فكرة ما، فلا يرى في مسارات الأفكار والمواقف إلا إسنادا لفكرته، وإذا لم يكن بحوزتك غير مطرقة فستتعامل مع أي شيء على أنه مسمار.

منابت (الانقلابات الطرابيشية):

"الفكرة الانقلابية" بمجملها كان طرابيشي مسكونا بها، ثم ترجمها لغة عملية في تجاربه الحياتية يحكيها شخصيا عن نفسه فيقول: "كثيراً ما تساءلت: لماذا يغلي في دمي حب الهرطقة؟ فيوم كنت قوميَّ النزعة كنت من أوائل من أدرك أن القومية العربية إن تكن فاعلة ثقافياً فهي عاجزة سياسياً، وأن الدولة القطرية هي بالتالي واقعة نهائية.

ويوم صرت ماركسياً تعاملت مع الهامشِ المركزي أكثر مما تعاملت مع المتن، ومع نصوص ماركس ولينين المحظورة أكثر بكثير مما تعاملت مع نصوصهما الرسمية.

ويوم انتهيت إلى أن أصير ديمقراطياً لم أرَ في الديمقراطية أيديولوجيا خلاصية، نظير ما كان فُعِل بعقيدتي الوحدة العربية والاشتراكية"[1].لكن الردة عن المسيحية التي كان طرابيشي ينتمي إليها هي الردة الأولى التي صيرت منه حداثيا فيما بعد بامتياز، ثم (قرآنيا) جعلت من المشروع الاستشراقي حاضرا لديه في صورة مستشرق جديد يمثل امتدادا للحركة الاستشراقية القديمة، فيقول عن نفسه: (ووصلت إلى البيت، وأنا في شبه هذيانٍ وأصابتني حمّى حقيقية وبقيت يومين طريح الفراش، ثم

---

(١) جورج طرابيشي، هرطقات ٢ ، دار الساقي ، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨ ، ص (٧).

لما أفقت، كان ردّ فعلي الوحيد أنني قلت بيني وبين نفسي: لا، إن الله ذاك الّذي حدثني عنه الكاهن لا يمكن أن يوجد، ولا يمكن أن يكون ظالماً إلى هذا الحدّ. ومن ذلك اليوم كففت عن أن أكون مسيحيا)[١].

ثم ها هو يناقش قضايا الإسلام ودقائق قضاياه بلغة لا يجيدها إلا أعضاء المدرسة الاستشراقية القديمة فتشرق في مسلاخ محلي جديد. وإذا سلمنا بدعوته إلى (إسلام القرآن)، فما الذي منعه من إتيان ما كان يدعو إليه؟

"ويبقى السؤال الكبير، إذا كان طرابيشي قرآنياً أكثر من القرآنيين كما ظهر في عنوان كتابه "من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث"، لماذا لم يعمل بما في القرآن؟ ولماذا لم يعلن إسلامه ؟!! لقد كان طرابيشي من الحرفنة والذكاء الذي توقع مثل هذا السؤال في ذهن القارئ، فكان جوابه جاهزاً؟ فالقرآن الكريم حق، ولكن النبيﷺ الذي أنزل عليه القرآن إنما بعث للعرب غير الكتابيّين، فطرابيشي قرآني لأبعدِ الحدود، فهو ملتزم بما في القرآن، والقرآن ينص – بزعمه- على أن الرسالةَ للعرب غير الكتابيين، وأما الكتابيون العرب من يهود ونصارى – وطرابيشي منهم - ،منهم - ، فجاءهم القرآن بصورة فرعية، لا ليأتيهم بكتاب بديل من كتابهم، بل ليصحح لهم ما حرفوه من الكتاب الذي أوتوه، وليبطل مذهب من ذهب منهم على سبيلِ المثال إلى أن عزير أو المسيح هو ابن الله.....فكل ما هنالك أنهم مدعوون إلى العودة إلى كتابهم الأصلي[٢] ،فهو يتمثل القرآن كما أراد القرآن !!

---

(١) طرابيشي: ست محطات في حياتي، بتاريخ ٢٣ / ٢ / ٢٠١٥ م، موقع الأثير الإلكتروني http://www.atheer.om/archives/١١٢٥٧.

(٢) طرابيشي. من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث ص(٩٢).

فحقق عدداً من الأهداف بقرآنيته المزعومة، فنفى عموم الرسالة المحمدية لجميع البشرية، وزوّر تاريخ المسلمين بذكر طائفة القرآنيين الموهومة، وهدم حجية السنة التشريعية، وطعن بالأئمة الأربعة وعلماء الفقه والحديث، وأعمل منشاره -بحسب تعبيره- ذهاباً وإياباً بجميع طوائف الأمة، فهي أمة كذب واختلاق، وطهر نفسه من ردته الأولى، وأخيراً طبع قبلة الحياة على فكر "اللاقرآنيين" لإنعاشه من جديد في ثقافة المسلمين، مما يثير الفتن بين المسلمين، فلذلك صدقه أشباه العلمانيين والحداثيّين وبعض المساكين[1].

مشروع طرابيشي يقوم على أساسات المدرسة الحداثية، وهو امتداد طبيعي لها، وهي ترى استبعاد الوحي الإلهي من كل تفاصيل المعرفة الإنسانية والتي أشرنا إليها سابقا، وتسمح للعقل فقط في أخذ حريته كاملة في مسار الحياة.



(١) من الهرطقة إلى الأصولية. د. علي إبراهيم العجين. إصدارات مركز سلف.



الفصل الثاني

التنقيب عن العقل

نقدية العقل العربي:

الحفريات التي أجراها تيار الحداثة المعاصر تركزت على (العقل) وبيئته الثقافية ونقد منتوجاته التي تسـببت في إنتاج هذا الواقع، فكانَ التركيـز على الاعتماد الكلي على العقل مجردا مـن أية قيود أو موروثات ثقافية مهما كانت، ومن ثـم تقديمه على الوحي وتجاهل الدور الذي لعبه الوحي في تشكيل العقل العلمي، فيطالعنا حسن حنفي في كتابه التجديد والتراث " ألا سلطان إلا للعقل "[(١)].

في كتابـه "إعمالُ العقلِ" يرصد لؤي صافي تحركات المدرسـة الحداثية في هذه القضية فيقول:" احتلت مسـألة العقل ودوره في النهـوض الحضاري موضع الصدارة في أدبيات التجديـد، ونقد التراث خـلال العقود الثلاثـة المنصرمة. فقد تقدم عـدد من المفكرين والباحثين بدراسـات تهدف إلى تسليط الضوء على مفهوم العقل وطبيعة محدداته وعلاقته بالتجديد الثقافي والنهوض الحضاري، وانكبت تلك الدراسات على تحديد دور العقل في نقد الثقافة السـائدة والتراث الفكري الذي انْبَنَتْ عليه، ومن ثم الدعوة إلى إعادة تشكيل الثقافة على أسس جديدة واعتماد العقل ومبادئه على قاعدة رئيسة لبناء ثقافة بديلة[(٢)].

تمثلت الكتابات بحسب التصورات والبيئة الثقافية التي يحملها أصحابها، فكتب عماد الدين خليل "حول تشـكيل العقل المسـلم" وكتب عبد الحميد أبو سـليمان " أزمة العقل المسلم" وكتب عبد المجيد النجار " خلافة الإنسان بين الوحي والعقل" وكتب لؤي صافي " إعـمال العقل". وكانت كتابات تنطلق من تصور إسـلامي جيد يبحث في مكامن الخلل ويشخص كثيرا من الأدواء على اختلاف الآراء والاجتهادات.

---

(١) حسن حنفي " التراث والتجديد" ص(٤٥) مطبعة التنوير ١٩٨٠م.
(٢) لؤي صافي " إعمال العقل" ص(٢٩). الطبعة الأولى ١٤١٩هـ دار الفكر دمشق.

بينما تحركت بعوث المدرسة الحداثية لتكتب أبحاثها من خلال تصورات وقناعات مسبقة تقوم على فكرة الخلاص من النص والثورة على التراث، وتستدعي أجزاء من بيئات التحولات الغربية وتعتمدها أرضية الانطلاق والبحث، فكتب حسين مروة "كتابه النزعات المادية في الإسلام" ثم تابعه الطيب التيزيني في موسوعته التي بدأها بكتابه "من التراث إلى الثورة" وتبعه حسن حنفي في خماسية "من العقيدة إلى الثورة" وحامد نصر أبو زيد (الشافعي وتأسيس الأيدلوجية الوسطية) وتوج تلك الأعمال محمد عابد الجابري المفكر والفيلسوف المغاربي حتى بايعه الناس كرائد لفكرة "نقد العقل العربي" الذي وضع لها على مدى سنوات عددا من الأطروحات الجريئة منها رباعية نقد العقل العربي "تكوين العقل العربي" "بنية العقل العربي" "العقل السياسي العربي" "العقل الأخلاقي العربي" تلك السلسلة لقيت ضجيجا كبيرا في العالم العربي وترجمت إلى لغات أخرى.

فقد أقام الجابري سنوات معتكفا، يحلل العقل العربي، يفحص مكوناته وبناه التحتية الثقافية واللغوية منذ عصر التدوين، وانتقل يتحدث عن العقل السياسي والأخلاقي، وابتكر مصطلح (العقل المستقيل) الذي عرفه بأنه: يبتعد عن النقاش في القضايا الحضارية الكبرى، ويتوصل الجابري في نهاية نظرياته تلك إلى أن "العقل العربي بحاجة إلى إعادة ابتكار".

استفرغ الجابري جهدا عملاقا في البحث والتقصي والحفر والتنقيب يحرث النصوص ويوجهها باتجاه هذه الفكرة (تحرير العقل من النص)، ويوجه أصابع الاتهام للوائح تاريخية ونصوص تراثية بنفس الأسلوب الذي تلاه طرابيشي من بعده مع إضافة كثيرة لنقولات واستشهادات محاولة للتوثيق وإقناع القارئ بجدوى هذا الصنيع، ودعم للفكرة الرئيسة.

كانت محطات الاستهداف التي استهدفها الجابري واتهمها بالحجر على العقل العربي وتحنيطه هي نفسها التي أثراها طرابيشي وعمل جهدا في تطويرها وإثرائها لكن بنفَسٍ آخر يوحي بالاستقلالية مع منقودات طرابيشية لبعض مسارات الاستهداف، فالجابري مثلا

يرى أن الشـــاطبي بعث جديد في مسيرة الفقه الإسلامي لاستثمار المقاصد أرضية لتحرير العقل من النقل، بينما يراه طرابيشي نســـخة أخرى للشـــافعي في مسلاخ جديد ينطلق من أرضيات النص، ومع هذا الاختلاف في التفاصيل إلا أن النتيجة التي يود الاثنان الوصول إليها واحدة.

كان تركيز الجابري على القضايا الخارجية المؤثرة في اســـتقالة العقل العربي، بينما كان تركيز طرابيشي على القضايا والمؤثرات الداخلية التي أنتجت العقل المستقيل في الإسلام.

في كتابــه (نقد نقد العقل العــربي) حاول طرابيشي مزاحمة الجابــري في النتائج التي وصل إليها، فعمد إلى نقد أفكار الجابري، لكن ليس بإسقاطها بل بإسقاط الجابري نفسه، ليجلـــس هو على ذات الكرسي حيث كان طرابيشي غاضبـــا من تربع الجابري على كرسي الفكرة في الأوســـاط العلميـــة ومبايعة الناس له على ذلك، وحكى عن نفســـه أنه لبث في مكتبه ثمان ســـنوات يفحص فكر الجابري وأطروحاته في العقـــل العربي، وأنه توصل إلى دخن كثـــير وسرقات علمية يقول: "لكـــن على ضخامة التزييف وســـوء التأويل في هذه الشواهد، وبالتالي فداحة العسف والغلط في الأحكام المبنية عليها" [١].

واســـتمر طرابيشي في ســـحب البســـاط المعرفي من تحت أقدام الجابري في أطروحته "العقل العربي" ليثبت أنه اســـتطاع التنقيب سنوات طويلة يتتبع مصادر الجابري ويفضح دسائسه. ويكشف للقارئ أن الجابري لا يصلح أن يكون رائدا لتلك النظرية، مقدما نفسه بديلا قويا بنفس المستوى والطرح والاســـتقصاء، لكن بنفس النتائج والتحصيلات التي وصل إليها الجابري عبر مسارات أخر.

ونســـتطيع هنا أن نقرر أن طرابيشي في أطروحة (العقل العـــربي) كان تلميذا صبورا لمحمـــد عابد الجابري إلى أن حاول أن يفوق أســـتاذه ويتقدم عليه وينتقد بعض أفكاره أو

---

(١) نقد نقد العقل العربي" جورج طرابيشي ص(٧) ط دار الساقي ١٩٩٦م.

يعدل عليها. وهي ظاهرة علمية مشروعة. لمست ذلك وأنا أتتبع (نقد نقد العقل العربي) لطرابيشي وهو يحكي مدى إعجابه الكبير بطروحات الجابري وتتبعها لحظة صدورها وصبره على قراءتها منذ وهلتها الأولى لكنه في كبرياء يذيّل تلك الإعجابات في جمل اعتراضية كقوله:" فالجابري قد نجح ـ لنعترف له بذلك"(١).

يحكي طرابيشي أنه تتلمذ على يد الجابري فيقول: " فلقد كنت، بعد ثلاثة أشهر من صدور تكوين العقل العربي، كتبت في العدد الأول من مجلة (الوحدة) تعليقا مطولا ثمنت فيه الكتاب تثمينا عاليا باعتباره " أطروحة عن العقل وفي سبيل العقل" وعلى الرغم مما أبديته في حينه من انتقادات واعتراضات جزئية، فقد ختمت التعليق بالقول: "إن الذهن بعد مطالعة تكوين العقل العربي لا يبقى كما كان قبلها، فنحن أمام أطروحة تغير، وليس مجرد أطروحة تثقف"(٢).

وهذا يمثل اعترافا بالتلمذة وأن الفكر الجابري هو من صنع أفكار طرابيشي إلا أن مطالعات التلميذ الصبورة قد أذنت له بالنقد والإضافة.

تأطيرية " العقل العربي":

تأطيرية "العقل بالعربي" بهذه الصياغة أشاعها الجابري مستدعيا لها من قواميس ومراجع أخرى، ليتمكن من إجراء مبضع النقد في تحميل الفرد العربي جزءا كبيرا من ثقافته وحياته وتراثه، مسئولية ركود "العقل العربي" وجموده وتوقفه عن الإنتاج. يقول الجابري: "عندما نتحدث عن العقل العربي، فإننا نصدر – سواء صرحنا بذلك أم لم نصرح – عن موقف يسلم بوجود عقل أو عقول وثقافات أخرى يتحدد بالمقارنة معها العقل والثقافة اللذان نتحدث عنهما. هذا شيء لا مفر منه، إذ بضدها تتميز الأشياء، ودون الدخول في

(١) نقد نقد العقل العربي" جورج طرابيشي ص(٨) ط دار الساقي ١٩٩٦م.
(٢) الوحدة العدد(١) تشرين الأول ١٩٨٤ ص (٨) وأنظر: "نقد نقد العقل العربي" ص (٨).

تفاصيل قد تجرنـا بعيدا ... نرى من الضروري اختصار الطريق والكشـف صراحة عن الضد أو الأضداد التي سنسـتعين بها في تحديد هوية العقل العربي ... إننا عندما نتحدث عن العقل العربي فنحن نميزه في نفس الوقت عن العقل اليوناني والعقل الأوروبي"[١].

تعود بداية اسـتدعاء هذا العنوان الذي دارت حوله سـجالات إلى التمييز المشهور الذي أجراه الفيلسوف الفرنسي أندريه لالاند[٢]بين (العقل المكوِّن) و (العقل المكوَّن).

وتشـير دلالات المفهـوم عند لالاند أن هناك عقلاً منشِـئاً (مكوِّناً)، وعقلاً منشَـأً (مكوَّناً)، وهذا ما نحاول تبسـيط إيضاحه للقارئ لفهم استراتيجية التأويل عند الجابري ومن بعده وصولا إلى تلميذه طرابيشي.

العقل المنشئ أو المكوِّن عند لالاند هو: «قوة عظيمة للعمل، آثارها بادية لنا، ولكنها لا تتكشـف إلا في فعلها الذي تمارسـه فيما تعمل فيه، وفي نجاح محاولاتها أو فشلها. وفي وسـعنا أن نجعل العقل يطبق على نفسـه التحليـل التراجعي، الذي يفـسّر هو الطبيعة بوساطته، وأن يبحث عما هو مشترك في تطبيقاته المتباينة، كما في تعميمات المستوى المتوسط الذي بدأت تميل إليه أكثر العقول تأملاً لتفكيرها» [٣].

وعرف العقل المنشـأ أو المكوَّن، بقوله: «العقل المُنشأ (هو) العقل، الذي يوجد على نحو ما ويوجد في لحظة معيّنة. وعندما نتكلّم على هذا العقل المنشـأ بصيغة المفرد يجب أن

(١) محمد عابد الجابري " تكوين العقل العربي" ص (١٧) مركز دراسات الوحدة العربية الطبعة العاشرة ٢٠٠٩م

(٢)أندريه لالاند (بالفرنسية: André Lalande) فيلسوف فرنسي (١٨٧٦-١٩٦٣) ولد في ديجون، ودرس في عـدة مدارس ريفية، إلى أن انتقل إلى مدرسـة أنري الرابع، فدار المعلمـين العليا ما بين ١٨٨٣ و ١٨٨٨. نال شـهادة في الفلسـفة عام ١٨٨٨، وشـهادة الدكتوراه في الآداب عام ١٨٩٩. وفي سنة ١٩٠٩ صار أسـتاذاً مساعداً في الفلسـفة بالسوربون، وأسـتاذ كرسي عام ١٩١٨، ثم عمل أستاذاً بالجامعة المصرية. تخرج على يديه الفوج الأول من طلاب قسـم الفلسـفة. ألف "المعجم الفلسفي" المعروف بمعجم لالاند.

(٣) لالاند، أندريه، " العقل والمعايير"، ترجمة نظمي لوقا، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩، ص (٩٥).

يُفهـــم من ذلك أنّ الأمر يتعلق بهذا العقل في حضارتنـــا وفي عصرنا. وإذا أردنا أن نكون غاية في الدقة وجبَ علينا أن نقول: في مهنتنا، لأنّ هذا العقل ليسَ هو تماماً لدى الرسامين ولدى العلماء؛ بل ولا لدى الفيزيائيين والمشـــتغلين بعلم الحياة. وعند الانتقال من بيئة إلى أخـــرى نضطر في كثير من الأحيان، إلى تفســـير أو إثبات ما هو جـــليّ في غير تلك الحالة بنفسه. ولكنّ هذا العقل، على ما هو عليه في كلّ لحظة، له سمتان عظيمتا الأهمية: فهو من جهة يؤكّد تماســـك الجماعة (المتفاوتة الحجم) التي تنتسب إليه، ولكنّه يؤكد هذا التماسك بطريقة مختلفة تماماً عن الطريقة التي تنجم عن "تقســـيم العمـــل الاجتماعي"؛ بل مضادة لها»[1].

فالعقل يتأثر ويؤثر، منتج ومستهلك في نفس الوقت مفيد ومستفيد، ومن هذه الثنائية انطلق لالاند ومن بعده الجابري ليســـتفيضَ في طبيعة العقـــل المؤثر بماذا تأثر. وفي العقل المفيد ممن استفاد والعكس. وسرحته استنتاجاته إلى مناطق جيدة ومناطق محل نقاش وأخذٍ وردٍ، وأخرى لم يحالفه الحـــظ فيها، فكانت نقاط تماس بينه وبين باقي المحققين، كالقطيعة مع التراث، والإيدلوجيا الحديثية التي جعلها طرابيشي أرضية جيدة يمكن الوقوف عليها لإيضاح طبيعة استقالة العقل في الإسلام.

"لم يتحدّث لالاند عن عقلٍ فرنـــسي أو أوروبي أو شرقي أو غير ذلك؛ بل تحدث عن بداهة سديدة وملكة للحكم والتقدير متســـاوية لدى البشر. تحدث عن منتجات العقل؛ بل عن منتجات عقول الأفراد حين تصـــير ثقافة عامّة (وطنية أو قومية) وحضارة معيّنة، أوربيـــة أو صينية أو عربية، من خلال التواصل والتفاعل والتبادل والتداول، وعدّ الثقافة أو الحضارة أو العقل المنشأ عاملاً من عوامل تماسك الجماعة (المتفاوتة الحجم)، يعمل على

---

(١) لالاند، أندريه، " العقل والمعايير "، ترجمة نظمي لوقا، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩، ص (٤).

نحو مختلف عن التقسيم الاجتماعي للعمل، وعلى نحو مختلف عمَّا يُسمى التبنين الطبقي والصراع الطبقي؛ لأن ميزة أيّ ثقافة هي عموميّتها، كليّتها وشمولها، وانفتاحها على سائر الثقافات، والمشاركة في الثقافة الإنسانية العامة. تصنيف الثقافة في ثقافة برجوازية وثقافة بروليتارية، على سبيل المثال، هراء محض، وتصنيف الجابري هراء مضاعف، ينمّ عن عنصرية فجّة.

العقل قوّة عظيمة للعمل تتبدّى آثارها في عمل الزارع والصانع والتاجر والأديب والفنان والكاتب والباحث والفيلسوف... وفي مخرجات أعمالهم ونتائجها. ويتجلَّى أيضاً في العمل الجماعي والحركات الاجتماعية، فيحدّد مصيرها. نريد أن نقول العقل قوّة محايثة[1] للإنسان، الفرد، لا تنفصل عن سائر ملكاته واستعداداته الأخرى، ولا عن أحاسيسه ومشاعره وعواطفه وسلوكه ومعاملاته، ولا عن ذاكرته وخياله، بخلاف كلّ ما يوحي بعقل مجرد، وعقل مفارِق، أو «عقل كلي»، يشرق في العقول الفردية أو يفيض عليها.

لقد وضع الجابري «العقل المكوَّن» وضعاً، على هواه، واختزله في التراثِ «العربي الإسلامي»، الذي «تكون في عصر التدوين»، وتحول إلى «بنية» ثابتة، ليخلص من هذين (الوضع والاختزال) إلى ضرورة تدشين «عصر تدوين جديد».

فالموضوع، إذاً، هو تصور الجابري للتراث العربي الإسلامي على أنّه ماضٍ يؤطّر الحاضر، وقوقعة يجب جعلُها قميصاً، لا التراث ذاته كما هو في الواقع المعيش. مع أنّ التحولات التي تطرأ على العقل المكوَّن «تمكن من إنشاء لوحة بين عناصرها الزمان والمكان ووقائع وعلل وحقيقة وخطأ، منها (جميعاً) يسهل استخراج قائمة من قوائم المعقولات

(١)المحايثة بمعناها الفلسفي ما ساقه قاموس لا لاند: " كل ما هو موجود في كيان ما بشكل ثابت وقار، وتعين من زاوية ديناميكية كل ما يصدر عن كائن ما تعبيراً عن طبيعته الأصلية ".

والبدهيـــات التي يثبِّت منها عقلنا الحالي، بارتداد مقلـــق. فصيرورةُ العقل المكوَّن... هي تحـــولاتٌ يمكن تحديد اتجاهها فقط، ومن ثَمَّ فإن ســـيادة اتجاه بعينه أو تفوقه قد تبرّر قول من يعتقدون، وإن طبقوا اعتقادهم تطبيقاً سيئاً، بوجود سمة ثابتة ومطلقة للعقل: عندئذٍ تنتمي هذه السمة لا إلى القائمة الحالية للمقولات والمبادئ العقلية؛ بل إلى الاتجاه (التوجه) المستمرّ الذي يوعز بهذه القائمة ويقيس نجاحها» [١].

وبحسب جورج طرابيشي، فإن الجابري عمد إلى تشطير العقل العربي وتصنيفه ثلاثة أصناف، أحدها بياني والآخر برهاني والثالث عرفاني، أو عقل مستقيل [٢]. [٣]

في كتابـــه "رد افتراءات الجابري عن القرآن الكريم" هـــدم الدكتور محمد عمارة المعبد الذي شـــاده الجابري وتلاميذه من بعـــده فقاد في ٢٠٠ صفحة مـــن كتابه ردا على مجمل الأفكار والرؤى التي توصل إليها الدكتور الجابري في أطروحته الرباعية وأتباعها.

وتركزت تعقيبات عمارة على الجابري في أربع محطات فصلية منها وموقف الجابري من التراث الذي اتجهت دعوته بجلاء إلى ما أســـماه (تجاوز التراث) في إشارة منه إلى ركن كل ما أنتجه العقل في الماضي من علوم، وجعل العقل مطلقا يتحرك من جديد وهو ما أســـماه عمارة (القطيعة مع التراث) وهي قطيعة علمية فكرية لم تتورط فيه الحداثة الغربية نفسها.

وكانت مجمل إشارات الجابري إلى رحلة تجاوز التراث تقوم على فلسفات مختلفة على رأسها فلســـفات (فرويد وباشلار وألتوســـير وفوكو)، تقوم على تحليل التراث وتفكيك ثوابته.

---

(١) لالاند، أندريه، " العقل والمعايير"، ترجمة نظمي لوقا، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩، ص(١٧).

(٢) راجع/ ي: طرابيشي، جورج، نقد نقد العقل العربي، نظرية العقل، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٦، ص(١٩ - ٢٠).

(٣) جاد الجباعي " مفهوم العقل عند لالاند وصداه عند الجابري" مقالة على الشبكة العالمية.

وهـــيْ ذاتُ الدعوةِ التي يقود زمامها كثيرون من دعاة الحداثة المعاصرة على رأســـهم تلميذه طرابيشي[١].

ويشير لؤي صافي في " إعمال العقل" إلى الخللِ الخطيرِ الذي تسربَ إلى تلكَ الكتابات وشكل مصدر تغذية ثقافية لها "يتمثلُ في تبنيها قصدًا أو دون قصد لأحكام عقلية مكتسبة عن تجربة تاريخية لثقافة مغايرة، وتعميتها للدور الذي لعبه الوحي في تشكيل العقل المنهجي العلمي، أو تجاهلها جملة وتفصيلا، لذلك يطالعنا حسن حنفي في كتابه "التراث والتجديد" بتأكيـــد يصر عليه عبر كتاباته مفاده أن العقل وحده هو المرجع في الحكم على التراث الذي تؤول إليه مهمة تأسيس ثقافة جديدة وفكر جديد " مهمة التراث والتحرر من السلطة بكل أنواعها، سلطة الماضي، سلطة الموروث، فلا سلطانَ للعقل، ولا سلطة إلا لضرورة الواقع الذي نعيش فيه، وتحريروجداننا المعاصر من الخوف والرهبة والطاعة للسلطة سواء كانت سلطة الموروث أو سطلة المنقول، سواء كانت سلطة التقاليد أم السلطة السياسية." [٢] فإذا سألنا أي عقل هذا الذي ننطلق منه لنقد التراث وما محتواه ومضمونه، نجد أن حنفي يعتمد العقل الوضعي الرافض لمصدرية الوحي والمصر على اختزال الحقيقة وحصرها في المجال الحـــسي. لذلك يدعو حنفي إلى تطهير اللغة العقلية مـــن ألفاظ "الله، الجنة، النار، الآخرة، الحســـاب، العقاب، الصراط، الميزان، الحوض" لأنها "ألفاظ قطعية صرفة لا يمكن للعقل أن يتعامل معها دون فهم أو تفســـير أو تأويل"[٣] ولأن الألفاظ السابقة لا تخضع مباشرة للحس والمشاهدة والتجربة، فإن حنفي يدعو إلى استبدالها بألفاظ "يفهمها الناس بلا شرح أو تعليق أو سؤال أو استفسار مثل ألفاظ، العمل، الحرية، الشورى، الطبيعة، العقل "[٤]بل يذهب حنفي إلى أبعد من اســـتبعاد المفاهيم والمعاني المتعالية عن التجربة الحســـية، فيدعو

(١) محمد عمارة "رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم" ص (١٢) طبع دار السلام.
(٢) حسن حنفي "التراث والتجديد" ص (٤٥) مطبعة التنوير ١٩٨٠م.
(٣) حسن حنفي " التراث والتجديد" ص (١٠٣) مطبعة التنوير ١٩٨٠م.
(٤) حسن حنفي "التراث والتجديد" ص (١٠٣) مطبعة التنوير ١٩٨٠م.

إلى تغييب الأعلى ذاته، بدعوى أن "علـماء أصول الدين عندما يتحدثون عن الله، الله ذاته وصفاته وأفعاله فإنهم في الحقيقة يتحدثون عن الإنســان الكامل، فكل ما وصفوه على أنه الله إن هو إلا الإنســان مكبرا إلى أقصى حدوده"[١] ومع إحلالِ الإنسان مكان الله وإعطاء العقل الوضعي الســلطة المطلقة لتوليد المعارف والعلــوم انطلاقا من الواقع الحسي تابعًا للواقع المحسوس، والوحي تابعا للعقل الوضعي المختزل.

وهكذا تســتبعد الرؤية التوحيدية للوجود الثاوية في الوحي، وتستبدل برؤية حلولية يعــاد من خلالها بنــاء علم أصول الدين وذلــك بالانتقال " من العقــل إلى الطبيعة، من الروح إلى المادة، ومــن الله إلى العالم، ومن النفس إلى البدن، ومن وحدة العقيدة إلى وحدة السلوك"[٢].

وتتضح من ذلك رؤية المدرســة الحداثية المعاصرة التــي وضعها روادها والتي تقوم على جملة خلاصتها "تفنيد الوحي إثباتا للعقل" زعما أن الوحي أقال العقل ولم يترك له أي مساحة يتحرك في نطاقها.

مناطق تسريح العقل:

تساءل الباحث البريطاني "ولسون" في كتابيه المعروفين " اللامنتمي" و "سقوط الحضارة" إلى أين يريد الغرب أن يصل بالإنسان؟ قال: لقد امتلكوا العالم. ثم ماذا بعد؟[٣].

هذا التصريح العميق ليس وحيدا بل يشاركه حشد كبير من المثقفين والكتاب الغربيين

---

(١) حسن حنفي "التراث والتجديد" ص (١٠٨) مطبعة التنوير ١٩٨٠م.

(٢)حســن حنفي "التراث والتجديد" ص (٤٥) مطبعة التنوير ١٩٨٠م. وأنظر لؤي صافي" إعمال العقل" ص (٣٢ ــ٣٣) طبع دار الفكر.

(٣)عماد الدين خليل (قالوا عن الإسلام) ص (٣٦) طبع الندوة العالمية للشباب الإسلامي الطبعة الأولى ١٩٩٢م

الذين تمردوا على ثقافة بلغت بهم شـوطا في الطريق، وهم يريـدون أن يواصلوا الرحلة صوب المصير، فلا تقدر معطياتهم الثقافية على منحهم المزيد.

سـيظل (العقل الغربي) تائهًا حائرا طالما لم يرسُ عقله على شـواطئ آمنة، وستستمر عمليات البحـث والتنقيب جاريـة في تضاريس عقله دون جدوى، طالما وقد اسـتبعد الوحي من مصادر معرفته الإنسـانية، وسـتبقى معرفته تضطرب وتتأرجح بأسئلة تائهة حائـرة، فعالم الغيب لا إمكان للعقل أن يسرح فيه وينقب، نظرا لمحدوديته في هذه المنطقة المجهولة.

يشـير المفكر العراقي عماد الدين خليل إلى أن الإنسـان بطبيعة تركيبه ذي النزوع إلى الماورائيات يريد أن يتجاوز العالم إلى الكـون، جريا من المادية إلى الغيب، والطبيعة إلى ما وراءها، والسـلطة إلى الحرية، إنه يريد أن يكسر الأسوار، وينطلق بحثا عن الإله المفقود. بعبـارة أخرى إنهم يريدون العقيـدة التي تلبي نزوعهم إلى الطمـوح، وإن المرء ليلمس بوضوح هذا التوجه صوب العقيدة الشـمولية المتوازنة في معظم المؤلفات الغربية، والتي حاول أصحابها أن يعالجوا أزمة الوجـود الثقافي الغربي على ضوء المصير المقفل والدرب المسدود[١].

يعتمـد العقل الغربي اليـوم كليا على النظريات المعرفيـة البحتة التي أصبح يضرب بعضها بعضا، وينقض بعضها بعضا، فجعلته تائها مشـتتا يصل بنفسـه إلى مشانق فكرية أليمة، وحيرة موحشـة، وأحيانا يعود من جديد من حيث بدأ، وهذا ما شكا منه كثير من مفكريهم وعلمائهم. ويعود ذلك إلى أنهم يودون أن يسرح العقل في عالم لا يستطيع اقتحامه مهما بلغ من المعارف الإنسـانية في عالم الشـهادة، ولن يصل إلى نتيجة واضحة تجعله يهدأ

(١) عماد الدين خليل (قالوا عن الإسلام) ص (٣٦) طبع الندوة العالمية للشباب الإسلامي الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

ويهتدي ويستقر مالم تكن معارفه يكمل بعضها بعضا في العالمين عالم الغيب والشهادة، وتسير وفق قوانين ثابتة تستمد من مصدر إلهي كالوحي الذي لم يكن مصدرا للمعرفة قط ضمن مصادرهم المعرفية مما ألحق بعقلهم ضررًا بالِغا وجعله يتردى في حفر سحيقة مظلمة.

والإسلام برؤيته الواضحة قد جعل الوحي الإلهي ابتداء مصدرا أساسيا للمعرفة الإنسانية يجب على الإنسان استكمال إيمانه به والاعتماد على هذا المصدر الإلهي القادم من عند الله تعالى في كثير من معارفه وعلومه، خصوصا في عالم الغيب ليستقر عقله ويستقيم تصوره، ويستدل بعالم الشهادة على عالم الغيب.

لقد قرر القرآن الكريم ابتداء أن المعرفة البشرية تابعة للحديث عن العلم الإلهي وتساءل ﴿ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة: ١٤٠] وأعلنتِ الملائكة عجزها المطلق ﴿ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ ﴾[البقرة: ٣٢]. إن المعرفة بالكون والإنسان ابتداء هي من عند الله تعالى وما قاله الله تعالى هو الصواب المطلق الذي لا شك فيه.

والوحي يختلف في رسمه لصورة المعرفة التي يريد أن يفهمها الإنسانُ بما يعود عليه بالنفع والفائدة بعيدا عن تلك السفسطائيات والفلسفات التي أغرق فيها الفلاسفة فلم يجنوا منها إلا الجدل دون تحقيق أي فائدة تذكر فأوغلوا في بحوثٍ لا طاقةَ للعقل بها، ووقعوا في مطباتٍ فكرية عنيفة أوصلتهم للتيه والاضطراب. فحصرت غاياتها في تلك البحوث عن ماهياتِ الأشياء دونَ نظرٍ إلى فوائدها التطبيقية وآثارها فلم تعط الإنسان سوى " فكرة جافة ترتسم في صورة جامدة" كما عبر عنها كثير من المفكرين.

إن الصورة التي قدمها القرآن الكريم للأشياء وابتعاده عن الإغراق في تفاصيل لا قيمةَ لها إنما أراد أن يقدم أنموذجا فعليا تطبيقيا للمعرفة التي يجب أن يهتم بها الإنسان فينشغل بما يعود عليه بالنفع والفائدة والأثر بعيدا عن القضايا والمسائل التي لن يجني منها شيئا مفيدا مثمرا.

ولقد كان العرض القرآني للكثير من القضايا بمنتهى الموضوعية وسلطَ الضوء على الدليل والبرهان العلمي والعقلي، بل وأعطى العقل البشري مجالا واسعا للتحقق من ذلك بنفسه ليصل إلى درجة الاقتناع، غير متجاهل لعقله والنتائج التي سيصل إليها حتى يتفاعل معها في حياته.

وقد ألمح بدر الدين الزركشي بطريقة ذكية إلى الصورة الإجمالية التي قدمها القرآن الكريم للمعرفة وأسلوبه في تقديمها فقال: " وما من دلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به، لكن أورده على عادة العرب، دون دقائق أحكام المتكلمين. "(١).

التنقيب الإسلامي للعثور على العقل:

عند التنقيب في القرآن الكريم عن البنية اللغوية للعقل وسياقات وروده فيه لم أعثر على أية إدانة قرآنية وجهها الوحي الإلهي للعقل تستدعي التوجس منه بل على العكس كان القرآن الكريم هو الكتاب الإلهي الوحيد الذي أعطى العقل دورا بارزا اهتماما وتمجيدا منقطع النظير في الكتب السماوية من قبله، وحث على إعماله وتوظيف قدراته في استخراج سنن الكون والنهي عن تعطيله.

فلم يكن "لالاند" ولا غيره.. هو الشخص المبتدئ في تعريف العقل بآثاره ونتائجه، بل عند البحث الجيد في التاريخ الإسلامي والتنقيب في محطاته نعثر على أن العلماء والباحثين في تلك العصور كان لهم دور كبير في التركيز على النتيجة بعيدا عن مناهج الفلاسفة التي ركزت في البحث عن كتلة العقل وجوهره في جسم الإنسان وأين تكمن بالتحديد، دون الوصول إلى نتيجة حاسمة، واستمر الصراع الذي قاده كثير من الفلاسفة وغيرهم في

(١) البرهان للزركشي. (٢/ ٢٤).

تحديـد ماهية العقل إلى يومنا هذا. حتى عمدت كثير من المركز العلمية المختصة للحديث عن القدرات العقلية ونتائجها للخروج من هذا الصراع الفلسفي العقيم.

التصور الذي أبداه القرآن الكريم ابتداء في حديثه عن العقل وكذا مشاركات العلماء البحثيـة كان تركيزا عـلى النتائج والأثار التي تدل على وجوده واحترام الإسـلام له، بل وذهب الجرد الفهرسي إلى تنويع الأسـاليب المسـتخدمة في إعماله وتسريحه في هذا الكون الفسـيح وإطلاق قدراته بانضباط مثمر بعيدا عن الفوضى والمجهول التي يود طرابيشي وزملاؤه الذهاب إليها.

ما العقل؟

ذهب كثير من علمائنـا في تعريف العقل إلى أنه التعقُّلُ وإدراكُ العلوم، ولم يلتفتوا إلى إثبات ماهية العقل، وآلته التي يعقل بها الإنسـان، بل عـدوا العقل هو ذات العلوم، ولم يعمم بعضهم في ذلك كل علم، بل جعلوه في حدود العلوم البدهية التي يدركها كل أحد، فقالوا: «العقل: مناط التكليف»[(١)]، و «العلم ببعض الضروريات»[(٢)]، فلا يكون تكليفٌ بالإيمان إلا بوجود العقل، أو بوجود تلك العلوم التي تُوصِلُ إلى إدراك الحقائق الإيمانية. والذي اختاره عدد من العلماء في تعريف العقل هو أن يقال: «العقلُ يقعُ بالاسـتعمالِ على أربعـة معانٍ: الغريزة المدركـة، والعلوم الضرورية، والعلـوم النظرية، والعمل بمقتضى العلم»[(٣)].

(١) كتـاب المواقف، ٢ / ٨٦، لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٧م. وذكر الإجماع على ذلك من أهل الملة.

(٢) وهو قول الإمام أبي الحسن الأشعري، المواقف: ٢ / ٨٦.

(٣) إحياء علوم الدين لأبي حامد بن محمد الغزالي ١ / ٨٥-٨٦، ومجموع فتاوى ابن تيمية ٩/ ٢٨٧، ٣٠٥، ١٦/ ٣٣٦، ودرء تعارض العقـل والنقل١/ ٨٩ والمسـودة ص:٥٥٨-٥٥٩، والذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص:٩٣ والفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٢/ ٢٠.

الأول: الغريزة التي في الإنســان، فبها يعلم ويعقل، وهي فيه كقوة البصر في العين، والذوق في اللسان، فهي شرط في المعقولات والمعلومات، وهي مناط التكليف، وبها يمتاز الإنســان عن ســائر الحيوان، يقول ابن تيمية: " الغريزة التي يعقل بها الإنسان، وهذه مما تتنوع في وجودها، والسلف والأئمة متفقون على إثبات هذه" [(١)] ويقول أيضا: "هو غريزة في النفس وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين"[(٢)]، وبه قال الإمام أحمد بن حنبل[(٣)].

الثــاني: العلوم الضرورية أو البديهيات العقلية: وهــي التي يتفق عليها جميع العقلاء كالعلــم بأن الكل أكبر من الجزء إلى غيرها من البديهيــات، وهي علوم لا تحتاج إلى دليل لإقرارها وغير مكتســبة، ولو لزم كونهــا تحتاج لبرهان لأفضى ذلك إلى التسلســل وهو محال[(٤)].

يقول ابن تيمية في تعريفه للمعنى الثاني للعقل: "علوم ضرورية يفرق بها بين المجنون الذي رفع القلم عنه، وبين العاقل الذي جرى عليه العقل، فهو مناط التكليف"[(٥)].

الثالــث: العلوم النظرية: وهــي التي تحصل بالنظر والاســتدلال، وتفاوت الناس وتفاضلهم فيها، أمــر جليّ وواقع، وهي التي "تدعو الإنســان إلى فعل ما ينفعه وترك ما يضره".

(١) بغية المرتاد لابن تيمية ص ٢٦٠-٢٦٣.
(٢) درء التعارض بين العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية (٨٩/ ١).
(٣) العقيدة بين السلف والمتكلمين - حسن بن محمد شبانة ص(٤٧).
(٤)أشار الفيلسوف اليوناني أرسطو لهذا المعنى حيث قال: (للمبادئ الأولى خصلتان، الأولى عدم احتياجها إلى الإثبــات بالدليل، والثانية كونها معلومة بيقين أعلى من جميع النتائج التي يمكن أن تُســتنتج منها) ويقول أيضا: (لو احتاجت كل معرفة إلى برهان لاستحال العلم).
(٥) درء التعارض بين العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية (٨٩/ ١).

الرابــع: الأعمال التــي تكون بموجب العلــم، ولهذا قال الأصمعــي [(١)]: "العقل: الإمساك عن القبيح، وقصر النفس وحبسها على الحسن" [(٢)] وقيل لرجل وصف نصرانيًّا بالعقل: "مه، إنما العاقل من وحَّد الله وعمل بطاعته"[(٣)]، وقال أصحاب النار﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ ﴾ [الملك] وكان للحارث المحاسبي [(٤)] محاولات عديدة في تعريف العقل وتحقيق معناه فقد ألَّف كتابًا سماه: "مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه"[(٥)]، بيِّنَ فيه معنى العقل عنده، وينتقد معاني العقل عند بعض مَن سبقه.

حيث بين أن للعقل عند العلماء ثلاثةَ معانٍ:

أولها أن العقل غريزة.

ثانيها أن العقل فهم.

ثالثها أن العقل بصيرة.

ويؤكِّد أن: «العقل غريزة» سابقا ابن تيميه وغيره من المتأخرين حيث يقول: "فالعقل غريزة جعلها الله -عز وجل- في المتحنين من عباده" [(٦)].

---

(١) أبو سعيد عبد الملك بن قُريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع وإليه نسبتُه من قبيلة باهلة القيسية. راوية ثقة صدوق، وإمام في اللغة والغريب والأخبار والمُلَح. "سير أعلام النبلاء" (١٠/ ١٧٦).

(٢) انظر كتاب "المخصص" لابي الحسن علي ابن اسماعيل العروف بابن سيده (١/ ١٦).

(٣) انظر الذريعة للأصفهاني ص٩٦.

(٤)الحارث بن أســد المحاســبي، أبو عبدالله، وُلِد ونشــأ في البصرة ســنة ١٦٥هـ، وكان عالمًا بالأصول والمعاملات والوعظ، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم، وقد أثر كثيرًا في علماء عصره في بغداد، من مؤلفاته: رســالة المسترشدين، وماهية العقل ومعناه، والتوهم، وآداب النفوس، وكتب أخرى كثيرة، ورد في تاريخ بغداد أن الحارث تكلَّم في شيء من الكلام فهجره أحمد بن حنبل، فاختفى في دار ببغداد، وتوفي فيها سنة ٢٤٣هـ؛ انظر (الأعلام) للزركلي.

(٥) طبع دار الكندي، دار الفكر بيروت تحقيق حسن القوتلي. الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.

(٦) العقل وفهم القرآن، للمحاسبي ص(٢٠٣).

وقال: "فهو غريزة لا يعرف إلا بفعاله في القلب والجوارح، لا يقدر أحدٌ أن يصفَه في نفسه ولا في غيره بغير أفعاله"[١].

وهذا الرأي الذي ذهب إليه المحاسبي هو قول معظم السلف [٢] وبه قال الإمام أحمد بن حنبل كما سبق ذكره، وأحمد هو ممن عاصر المحاسبي، وهناك إضافة دقيقة للمحاسبي في تعريف العقل لما سئل عن تعريفه فقال: "هو نور الغريزة، مع التجارب يزيد، ويقوى بالعلم وبالحِلْم "[٣].

ويعارض المحاسبي أن يكون العقل هو البصيرة حيث مال إلى أن البصيرة ظاهرة من ظواهر العقل، وليست هي العقل ذاته قال: وكذلك قالوا عن العقل: إنه البصيرة، والبصيرة ظاهرة عقلية، وليست هي العقل؛ لأن البصيرة هي فهم حقائق معاني البيان، وتحصل بعد العقل عن الله -تعالى-وبعد أن تعظُم معرفته بعظيم قُدْرة الله وبقدر نعمِه وإحسانه [٤].

وارتضى تعريف المحاسبي السابق الإمام الجويني (٤٧٨هـ) قال السبكي في "طبقات الشافعية الكبرى": "قال إمام الحرمين في البرهان عند الكلام في تعريف العقل: "ومَا حوَّم عليه أَحَدٌ من علمائنا غير الحارث، فإنه قال: "العقل غريزة يتأتَّى بها درك العلوم وليست منها"، وقد ارتضى الإمامُ كلامَ الحارث هذا كما ترى، وقال عقيبه: إنه صفة إذا ثبت بها التوصُّل إلى العلوم النظرية ومقدِّماتها من الضروريات التي هي مستند النظريات، وهي منه بناء على أن العقل ليس بعلم)" [٥]وذهب الأصولي الكبير حجة الإسلام أبو حامد

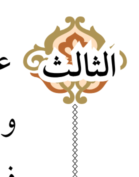
(١)الرد على المنطقيين لابن تيمية، ص(٩٤).
(٢)طبقات الشافعية للسبكي (٢/ ٤١).
(٣) العقل وفهم القرآن، للمحاسبي ص(٢١٠).
(٤) العقيدة بين السلف والمتكلمين - حسن بن محمد شبانة ص(٤٧).
(٥) طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢٠٨).

الغـــزالي في كتابه إحياء علوم الدين إلى أن العقل يطلق على أربعة معانٍ وتلك المعاني الذي أوردها تتحدث عن العقل باعتبار نواتجه وعوائده.

الأول الوصف الذي يُفارِق الإنســـان به ســـائرَ البهائم، وهو الذي استعدَّ به لقَبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاســـبي؛ حيث قال في حدِّ العقل: إنه غريزة يتهيَّأ بها إدراك العلوم النظرية.



هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميِّز بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد.



علوم تســـتفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فـإن حنَّكَتْه التجارب، وهذَّبَتْه المذاهب يقال: إنـــه عاقل في العادة، ومَن لا يتصف بهذه الصفة، فيقال إنه غبي غُمْر جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً.



أن تنتهي قوَّة هذه الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذَّة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوَّة سمِّي صاحبُها عاقلاً من حيث إقدامه وإحجامه، بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب، لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضًا من خواصِّ الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان" .

ومن كلام الغزالي الســـابق يتضح أن هناك اتجاها لكثير مـــن العلماء أن العقلَ يعرف بمظاهره وآثاره وتصرفات صاحبه، وهو ما أشـــار إليه ابن الجوزي في كتابه "الأذكياء" و "ذم الهوى": "يعرف العقل بســـكوتِه وسكونه ومراقبته للعواقب، وليس العقل محسوسًا، وإنما يدل عليه ظاهرُ قول العاقل وعمله".

ويقـــول: "إنما تتبيَّن فضيلة الشيء في ثمرته وفائدته، وقد عرَفْتَ ثمرة العقل وفائدته، فإنه هو الذي دلَّ على الإله، وأمر بطاعته وامتثال أوامره" [١].

والملاحظ أن رأي الحارث المحاسبي - رحمه الله - هو الأصل في آراء هؤلاء العلماء، وكلُّهم قد تأثر بـــه، وكتابه "وماهية العقل ومعناه، واختلاف الناس فيه" كان المرجع في عصره في هذا المجال.

العقل في السياق الدلالي في القرآن الكريم والسنة النبوية:

من خلال رصد مسحي للمواضع التي ذكر فيها العقل ومرادفاته في القرآن الكريم، نجـــد أن تعريفا للعقل يتشـــكل في القرآن الكريم من خلال ســـياق تلك المواضع بحيث يتكشف لنا أن العقل فعل إنساني يمارسه الإنسان في مواضع متعددة، وهو نسبي متغير من شخص لآخر وفي الشخص نفسه في مراحله العمرية ومواقفه المختلفة.

"في القرآن الكريم ورد من مادة (ع ق ل) الفعل دون الاســـم، وجاءت صيغ الفعل (عَقَلَ) في الماضي والمضارع: (عقلوه، نعقل، تعقلون، يعقلون، يعقلها) تسعا وأربعين مرة.
وبالنظر في موارد اللفظ وصيغه نلاحظ، أن أكثر الموارد جاء فيها اللفظ بصيغة الحض والتحريض: (أفلا تعقلون)، وبصيغة النفـــي (لا يعقلون)، وبعضها جاء بصيغة الترجي (لعلكم تعقلون)، كما جاء الفعل بصيغة الإثبات (لقوم يعقلون) ست مرات.

وأول ما يســـتوقفنا في اســـتعمال القرآن الكريم للفظ العقـــل وروده بالصيغ الفعلية دون الاســـمية، فلا نجد في القرآنِ المصدر ولا الاسم (عقل)، ولا اسم الفاعل (عاقل أو عاقلون) ولا اسم المفعول (معقول)، ويمكن تفسير هذا الأمر بأوجه من التفسير مختلفة:

---

(١) ابن الجوزي: الأذكياء، ص ١٠ - ١٥، وذم الهوى، ص (٨٠٥).

منها: أن القرآن الكريم بهذا الاستعمال يلفت النظر إلى مفهوم العقل بوصفه فعلا إنسانيا يطلب إعماله في عدد من القضايا العقدية والعلمية. وهذا أمر تؤكده سياقات ورود الفعل في المواضع التي تشير إلى الآيات التي جعلت وفصلت "لقوم يعقلون" :﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[البقرة] ، كما تؤكده الآيات التي حضت على استعمال العقل للتوصل إلى حقيقة الدين وطبيعة النبوة،﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾[يوسف] ، وصفات الخالق عز وجل:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المؤمنون] .

ومنها: أن عدم استعمال الصيغ الاسمية ينفي عن العقل صفة الثبات وصفة المطلق التي ألصقها به الفلاسفة حين اعتقدوا بأن العقل جوهر، فالعقل في المنظور القرآني «فعل إنساني نسبي ومتغير»، ومن ثم جاء نفي صفة العقل عن أصناف من الناس: كفارا ومشركين ومنافقين وأهل كتاب:﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة] ،﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [المائدة]. والعقل بهذا المعنى لا يدل على المعرفة النظرية، أو العلم المجرد عن العمل، وإنما يدل على العلم الذي يعمل به، ولذلك جاء ذكر العقل في معرض الحض على مطابقة القول للعمل:﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة] ، ولذلك أيضا قال الكفار حين أدخلوا النار: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك] •.وهذا يؤكد أن

العقل ليس جوهرا قائما بنفسه بل هو صفة عرضية وأمر يقوم بالعاقل، وبهذا المعنى جعل العقل شرطا في التكليف.

والملاحظ أن القرآن الكريم وإن لم يستعمل الصيغ الاسمية للعقل، فقد استعمل ألفاظا تقاربه بصيغة الاسم، ومنها لفظ: اللب الذي يأتي جمعا غير مفرد﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد]، ولفظ: الحِجر﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ ﴾[الفجر]، وسمي العقل حِجْرا لأنه ينهى صاحبه عن الفعل القبيح، ولفظُ: النُهى جمع نُهية، وهو ما ينهى صاحبه عن القبائح: ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [طه].

ومن أهم ما يميز مفهوم العقل في القرآن الكريم، أنه ملكة محلها القلب: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج]، وقد يأتي القلب بمعنى العقل والعكس أيضا، ومن ذلك ما جاء في سياق وصف المنافقين: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المنافقون] ، ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [التوبة][1]

ومما سبق يتجلى لنا أن سياقات العقل في القرآن الكريم تدل على المقصود به، ولم يرد لفظ «عقل» في القرآن الكريم على الإطلاق، وإنما جاء النظر العقلي بمعنى استخدام العقل في التعقل؛ لأن العقل ليس له ماهية قائمة بذاته، إنما هو عمليات عقلية صرحت بها الآيات الكريمة في مواضع كثيرة.

والألفاظ التي ورد بها العقل في القرآنِ الكريمِ أمثال: (النُّهى، اللُّبّ، القلبُ، الحِجرُ،

---

(١) فريدة زمرد، مقال (العقل في القرآن الكريم) نشر في ميثاق الرابطة المحمدية للعلماء يوم ٢٣ - ١٠ - ٢٠٠٩م.

الفكر) كلّها ألفاظٌ تُفيدُ معاني التّدبّرِ والفهمِ والوعي والإدراك وتعاطي الأشـياء بفحص نتائجها والتبصر بمآلاتها كما سـيأتي توضيحه في مباحث قادمة. وهو نفس المدلول الذي ورد في السُّـنّةِ النّبويّة ففي سـنن النّسائي من حديثِ سـهلةَ بنت سُهيل، رضي الله عنها، قالت: "إنّ سَـالِمًا يَدْخُلُ عَلَيْنَا وَقَدْ عَقَلَ مَا يَعْقِلُ الرّجَـالُ، وعَلِمَ مَا يَعْلَمُ الرّجَالُ.." [١]، وما في أبي داود من أنّ عبد الله بن عمرو يعلّمُ مَنْ عقل من بنيه حديثَ الاسـتعاذةِ بكلماتِ الله، ومَنْ لم يعقل كتبهُ فعلَّقه عليهِ" [٢]، وما في صحيح البخاري من حديثِ أبي سعيد عن رسـولِ الله، ﷺ، قال: "ما رأيتُ من ناقصات عقل ودين" [٣]، وورد في السُّـنّةِ بألفاظِ: الفقـهِ والقلبِ والبصر ..وكلُّ هـذه الألفاظِ تؤكد أن العقلَ، في الكتابِ والسّـنّةِ، «قوّةُ الإدراكِ والفهمِ والفقهِ والتفكيرِ السليم».

تفعيل العقل وإعماله:

تنوعت اسـتخداماتُ العقلِ في القرآنِ الكريمِ تنوعًا بديعًا ومقصودًا يدل على اهتمام القرآن الكريم بالعقلِ اهتماما بالغا نظرا لكونه مناطَ التكليف وبه تتوجه الحياة، وتسـتقيم وتنكشـف الحقائق وتتضح الأباطيل والدعـوة إلى إحيائه وتفعليه دعـوة لإعادة إعمار الأرض وتنشيط الحياة وإصلاحها بأمر الله تعالى كما ينبغي أن تكون.

إن القرآن الكريم هو الكتاب السـماوي الوحيد الذي أخذت آياته مساحات واسعة من الحديث عن العقل بألفاظ مختلفة وطرق متنوعة، ودعا أتباعه إلى الاهتمام بالعقل اهتماما بالغا مفيدا، على العكسِ من الكتب السماوية الأخرى التي ذهب طرابيشي يقارن بها.

(١) سنن النسائي حديث رقم (٣٢٧٠).
(٢) سنن أبي داوود حديث رقم (٣٣٩٥).
(٣) صحيح البخاري (رقم ٢٩٣، ١٣٦٩).

وتنكشف لنا من خلال عملية الجرد الفهرسي لحديث القرآن الكريم والسنة عن العقل وتفعيله صورة بانورامية واسعة، توضح لنا طبيعة العناية والمكانة التي أولاها القرآن الكريم للعقلِ حيثُ نزل القرآن الكريم على أمة أمية ونبي أمي؛ ليرفع عنهم حجاب الأمية، ويزيح رواسب الجهل الذي تشكل في الجزيرة العربية؛ ويعيدُ العقل إلى منصته الحقيقية بعيدا عن التصورات الجاهلية التي شغلت مساحات واسعة منه وبعيدا عن الأفكار التي زادته جهلا ونتجت عن جهله تصرفات جاهلية كثيرة عمل النبي ﷺ على مكافحتها ومداهمة مواقعها بطريقة حضارية رائدة.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾ [الجمعة] وسياق الآية يوضح أن التلاوة والتزكية والتعليم أدوات رفع أمية هذه الأمة وبدونها تقبع الأمة في ضلال مبين.

وعند الكشف الفهرسي لمادة (ع ق ل) في القرآن الكريم نجد:

ورد فِعلُ (العقل) في القرآن الكريم في تسعةٍ وأربعين موضعًا، ولم يَرِدْ اسمًا ولا مصدرا مطلقًا، وكل أفعال العقل تدلُّ على عملية الإدراك والتفكير والفهم لدى الإنسان، ويمكن حصر هذه الأفعال بما يلي:

أولاً: ورد فعل العقل بصيغة "تعقلون" في أربع وعشرين موضعًا في القرآن؛ منها قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٤٢ ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ [يوسف].

ثانياً: وَوَرَدَ بصيغة "يعقلون" في اثنين وعشرين موضعًا؛ منها قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ... صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٧١ ﴾ [البقرة].


ثالثاً: وورد بصيغة "يعقِلُها" مرةً واحدة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت].


رابعاً: وورد بصيغة "نعقل" مرةً واحدة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك].


خامساً: وورد بصيغة "عقَلوه" مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة].

إلى غير ذلك من الحديث عن العقل باعتبار عملياته، مثل التفكر، والاعتبار والتدبر والاستنباط والتذكر، والتعلم، والنظر وغيرها من الأعمال والقدرات التي يقوم بها العقل ويمارسها ورد ذكرها في القرآن الكريم، وكلها تدل على القيمة الكبيرة التي حفل بها موضوع العقل وعملياته ووظائفه في القرآن الكريم وضرورة تفعليه في هذا الكون الفسيح وتوظيفه بما يعود بالنفع على الإنسان والكون والحياة.

دعوة قرآنية لبيئة عقلانية منضبطة:

القرآن الكريم أخذت فيه العقلانية مكانًا واسعا، فالله لا يزال يقيم البراهين فيه، حتى في مناقشات الرسل لأقوامهم التي سجلها القرآن ما برح يكشف لنا عن البراهين والأدلة العقلية والعلمية ويدعو للنظر والتفكر والبحث والاكتشاف وكل ذلك يبين لنا تلك القيمة العلمية للعقل التي جعلت الإنسان مخلوقا مميزا عن غيره، كوعاء للعلم والمعرفة التي راح القرآن بها يكرم الإنسان ويصطفيه ويهديه سواء السبيل، ويحفظ العقل من مدارك الجهل التي تنحط به وتفتك وتجعله ينحدر للحيوانية ويعيش بعيدا عن الإفادة منه.

إن خلاصة ما استقرأناه من تلك المواضع القرآنية التي كشفنا عن طرف منها فيما سبق، يوضح أن القرآن نسيج مفاهيمي خاص بامتياز، فهو ما أنزل إلا لتصحيح مفاهيم الإنسان ونظرته إلى حقائق الوجود وهي الله والإنسان والطبيعة والغيب، ولهديه للتي هي أقوم في فهمه لهذه الحقائق بوسائل وهبه الله إياها باعتبارها وسائل للإدراك والمعرفة، ومن هذه الوسائل وظيفة التعقل، إذ ذهبَ القرآن يفيضُ في شرحِ النتائج ويسرد تفاصيل المآلات بعيدا عن الغرق في الدلالات المصطلحية والتقسيمات المعرفية التي أغرق فيها الفلاسفة حتى خاضوا فيما لا فائدة منه ولانتاج.

وعدم ورود الجذر(ع ق ل) بدلالته اللغوية العامة، في القرآن، يدل على أنه مصطلح يرمز إلى مفهوم خاص، وعرف محدد، وعدم وروده اسما ولا مصدراً يدل على أنه مفهوم وظيفي وفاعلي، وليس مفهوما ذاتياً أو جوهرياً ، فالقرآن الكريم حينما يحض على التعقل في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الأنعام]، أو ينفي التعقل عن قوم معينين في مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الحجرات]، أو يحصر التعقل في قوم مخصوصين في مثل قوله تعالى ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾[الرعد]، فهو يعرض مفهوم العقل باعتباره وظيفة وصفة وفاعلية محمودة ومطلوبة في القوم الراشدين المهتدين ، ومسلوبة من القوم المعاندين ، فهم لا يميزون بين حق وباطل، ولا بين خير وشر، فاستوت عندهم القيم، لذلك حجبت عنهم غاية الوجود والخلق، وهي عبادة الله تعالى، وحجبت عنهم معرفته، بينما الأصل في الإنسان أن يسخر وسائل الإدراك التي وهبها الله إياه من سمع وبصر وفؤاد وتعقل وتفكر وتدبر... ليدرك العلاقات الكامنة في هذا الوجود، فهو خلق منسجم ومتناغم ومركب على أسباب ومسبَّبات وسنن مطردة فمن عقل أي ربط بين الحقائق حقائق الخلق والغيب والآيات المبثوثة في الكون لاريبَ أنه يهتدي للحق الذي من أجله

خلق، فيعمر الأرض ويسخر ما فيها للاستخلاف فيها متناغما مع المخلوقات التي تسبحُ الله كرها فيسبح خالقه طوعا.

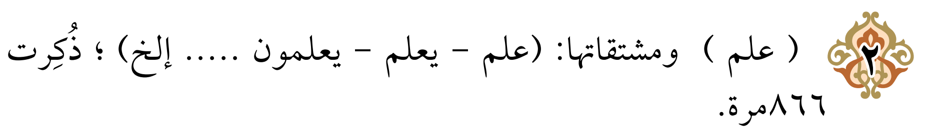
يقولُ العقادُ: "القرآنَ الكريم لا يذكُرُ العقلَ إلا في مقام التعظيم، والتنبيهِ إلى وجوب العمل به، والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارةُ إليه عارضةً ولا مُقتَضَبة في سياقِ الآية، بل هي تأتي في كلِّ موضعٍ من مواضِعِها مؤكدةً جازمة باللفظ والدلالة، وتكرَّر في كل مَعرضٍ من معارض الأمرِ والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيمِ عقلِه، أو يُلام فيها المنكِرُ على إهمال عقلِه وقَبول الحَجْر عليه، ولا يأتي تكرارُ الإشارة إلى العقل بمعنًى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيُّون من أصحاب العلوم الحديثة، بل هي تشمَلُ وظائفَ الإنسان العقليـة على اختلافِ أعمالِها وخصائصها، وتتعمَّدُ التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطنِ الخِطاب ومناسباته، فلا ينحصِرُ خطابُ العقل في العقل الوازع، ولا في العقل المدرك، ولا في العقل الذي يُناط به التأمُّل الصَّادق، والحُكْم الصحيح، بل يعم الخطابُ في الآيات القرآنية كلَّ ما يتسع له الذِّهن الإنساني من خاصةٍ أو وظيفة، وهي كثيرة؛ إذ هي جميعًا ما يمكن أن يُحيطَ به العقلُ الوازع، والعقل المُدرِك، والعقل المُفكِّر الذي يتولَّى الموازنة والحُكْمَ على المعاني والأشياء"[١].

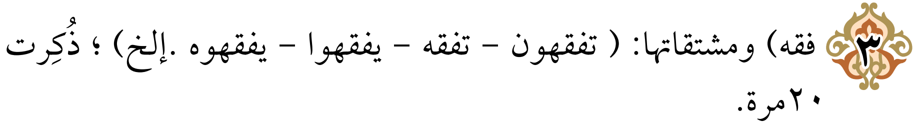
يأخذ الحديث عن العقل في القرآن الكريم مكانة مرموقة جدا ويعتلي هضبة مرتفعة من بين المفردات القرآنية إذا ما لجأنا لصنع فهرسة دقيقة لجميع مفردات العقل ومشتقاته وعملياته العقلية وما يتعلق به.

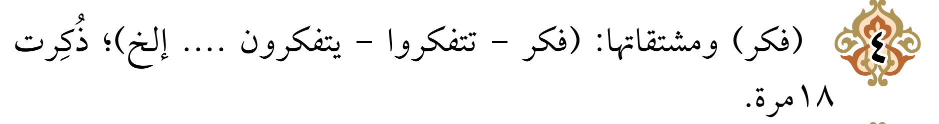
ففي عشرات من الآيات القرآنية، بل مئات منها، تتكرَّرُ لفظة (العقل)، وما ارتبط بها مِن ألفاظِ الفِقه والعلم والتفكير، فعلى سبيل المثال:

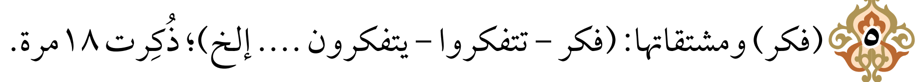
---

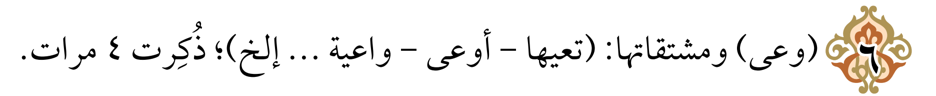
(١) العقاد: التفكير فريضة إسلامية (٥).


(عقل) ومشتقاتها: (عقَلوه - تعقلون - تعقل ... إلخ)؛ ذُكِرت ٤٨ مرة.


(علم) ومشتقاتها: (علم - يعلم - يعلمون ..... إلخ)؛ ذُكِرت ٨٦٦ مرة.


فقه) ومشتقاتها: (تفقهون - تفقه - يفقهوا - يفقهوه .إلخ)؛ ذُكِرت ٢٠ مرة.


(فكر) ومشتقاتها: (فكر - تتفكروا - يتفكرون .... إلخ)؛ ذُكِرت ١٨ مرة.


(فكر) ومشتقاتها: (فكر - تتفكروا - يتفكرون .... إلخ)؛ ذُكِرت ١٨ مرة.

(وعى) ومشتقاتها: (تعيها - أوعى - واعية ... إلخ)؛ ذُكِرت ٤ مرات.

ومجموع هذه "المواد": ثلاث وأربعون وألف لفظة، وكلها تدورُ على تقدير القرآن للعقل والنَّظر والتفكير[1].

إن اعتبارَ العقل كلية من الكليات الخمس التي تظافرت الشرائع على حفظها وعدم تعطيلها يوضح أن مقصد إصلاح العقل بكل الأدوات والوسائل الممكنة على رأسها العلم والمعرفة- كما رسمه القرآن الكريم- بات ضرورة حتمية لإعادة تأهيله وتفعليه للقيام بإصلاح الكون والحياة والإنسان.

يقولُ العقادُ: "ليس القرآن كما صوره بعض أعدائه كتابا يعيق النظر العقلي، ويدعو إلى التسليم الإيماني على الدوام، بل هو على العكس من ذلك إنه يدعو إلى التفكير العقلي ويقوم عليه.

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقي. وانظر: مقام العقل في القرآن الكريم. د جابر قميحة.

وليس ذلك بالمقارنة مع المناهج العقلية البشرية فحسب، بل بالمقارنة أيضا مع النزعات العقلية في كتب الأديان بمجرد إشارات صريحة أو مُضَمَّنة إلى العقل أو التمييز، حتى إن هذه الإشارات يلمح منها أحيانا نوع من الزراية بالعقل، والتحذير منه لأنه مزلة العقائد"[1].

إن الدعوات المتكررة في القرآن الكريم التي تتناول العقل الذي يحلل ويستخلص ويستنتج ويقارن دعوة صريحة واضحة إلى إيجاد الإنسان الذي يستخدم قدراته العقلية كاملة وبناء عقلية أكثر تطورا ونضجا فتكررت دعوات القرآن بصيغ مختلفة تحث على التفكير وتدعوا إليه ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ ﴾[الروم:٤]. والدعوات إلى النظر الفاحص في الكونِ والسير فيه﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ ﴾[الأعراف: ١٨٥]، والدعوات إلى التدبر﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾[محمد:٢٤]، والدعوات إلى التفقه﴿ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥ ﴾[الأنعام] والدعوات إلى التذكر ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩ ﴾[البقرة] والعوة إلى التبصر﴿ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢ ﴾[القصص] والدعوات إلى الاعتبار ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢ ﴾[الحشر].

وقد حمل القرآن على جمهرة المقلدين الذين يعطلون عقولهم ويلغونها ولا يستعملونها﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢ ﴾[الأنفال]، إن هذه الآية تكشف عن أولئك البشر الذين يدبون على الأرض لا يعرفون قيمة ما يحملونَ من عقل، ألغوا سمعهم، فكانوا صما، وألغوا ألسنتهم وأقوالهم وآراءهم، فكانوا بكما. إن سياق الآية دعوة لاستخدام العقل وإعماله والتمييز به، وهذا يمثل إعلاء لقيمة العقل وحفظا لمكانته وفرز المجتمعات إلى عقلاء ومجانين أو دواب كما سمتهم الآية.

وكثيراً ما وردت آيات تنتهي بهذه الجوامع﴿ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣ ﴾[العنكبوت]، ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ ﴾ [البقرة]، ﴿ أَفَلَا

---

(١) التفكير فريضة إسلامية. عباس محمود العقاد دار النهضة القاهرة ص(٣).

﴿تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾[القصص] ، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر]، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الذاريات] .

ولم يقف القرآن عند هذه الحدود، بل أمر بإحسان استعمال السمع والبصر والعقل، وسرد أدوات وأساليب بها يصحح العقل ويستيقن وتتضح له الحقائق وتلك الأدوات بمثابة غربال لتصفية الحقائق وتمحيصها، منها التثبت في قبول الحقائق، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[الإسراء] ، أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله. إن انتقال ذلك التحصيل والتمحيص إلى حيز المسئولية الفردية يضع الفرد في زاوية حادة يكون منها حذرا مما يقول ويفعل ويكتب ينشر وما تستقبله حواسه ويمتلئ بـه عقله، وذلك ضمانا لحماية العقل وتحصين المجتمع بهذا الأمن الوقائي حفظا للعقل من الإفراط والتفريط إذا ما عصفت به الشهوات وتناولته الشبهات.

ويتجلَّى في هذه الآية قواعد عامة في أصول النظر العلمي، وهما المشاهدة والتفكير فأمره بالمشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح ليضمن جودة المدخلات الفكرية والعلمية وعند ضمان المدخلات تكون صحة وسلامة المخرجات.

وفي آية أخرى يصور مكانة العقل بعملية النظر العلمي الهادي الذي يقود للإيمان ويصحح التصور، وهو نظر علمي يقوم على مختبرات ومؤشرات ومعطيات ومحددات ويكلف وقتا طويلا من البحث الهادئ والسير الدقيق للوصول إلى تلك الحقائق التي ذكرها القرآن وأشار إلى طرف منها ودعا العقل أن يكمل المسار، وفتح لها المسارات ليواصل المسير، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[الغاشية].

إن كمية تلك الدعوات بتلك الصيــغ المختلفة تدل على أن القرآن كتاب يحترم العقل ويضعه في موضعه المثالي الذي به يرتفع شأن الإنسان، يجعل منه مناط التكليف، وموضع الأهلية ويقــوم بتفعيل تلكَ العمليات العقلية بطريقة صحيحة، بل إن الحديث عن العلم والمعرفــة في القرآن الكريم ماهي إلا دعوة لإعادة إعــمار العقل وبنائه بالعلم المفيد النافع ليحقق نتائجه المرضية.

لقدْ نصّ "فرانسيس بيكون" على فكرة أنّ الإنسان لن يستطيع السيطرة على الطبيعة إلا عن طريق اكتشافها بالعلم، ولكن لكي يفعل ذلك ينبغي أن يخضع لها! بمعنى آخر: لكي نفهم القوانين التي تتحكّم بالطبيعة ينبغــي أن ندعَ الطبيعة تتكلّم لا أنْ نتكلّم بدلاً عنها، هذا هو الدرس الكبير الذي وعته أوروبا بعدئذٍ واســتطاعت عن طريقه أن تفهم قوانين الطبيعة وتسيطر على العالم عن طريق التكنولوجيا المدنيّة والعسكريّة" [١].

ومن هنا جاءت دعوات القرآن الكريم للعقل المنضبط أن يطلق العنان في هذا الكون ويستخرج ما سخره الله له من أسرار وخفايا، بها يحقق العمران ويقيم الحضارة، وأن النقل لا يقف أبدا في طريق العقل فكلاهما يسيران إلى هدف واحدا مالم يكن هناك خلل معرفي في أحدهما، خلل في فهم دلالة النقل أو ثبوته أو خلل في النتائج التي توصل إليها العقل[٢] .

العقل بين (الإهمال) و(الإعمال):

تتعاقب الآيات القرآنية في تناغم وانســياب يؤكد الوشــائج الحميمية التي تربط بين مصدري الفلاح الإنساني (العقل والنص الرباني) فلا تعارض ولا تناقض، بل هو تطابق وانسجام وتكامل، فبأي منها بدأت قادك إلى الأخر [٣].

(١) "القرآن والعقل" أبو زيد المقرئ الإدريسي. ط دار الإدريسي المغرب (المقدمة).

(٢) انظر تحليــلا جيدا لقضية الصراع بين العقل والنقل وطبيعتــه في "إعمال العقل" لؤي صافي ص(٧٩) الفصل الثاني "إشكالية تعارض العقل والنقل". دار الفكر المعاصر الطبعة الأولى ١٤١٩ ــ١٩٩٨م.

(٣) "إعمال العقل" لؤي صافي مقدمة الناشر ص (١٠) دار الفكر المعاصر الطبعة الأولى ١٤١٩ ــ١٩٩٨م.

لا وجـــود لتعارض بين العقل والنقل كما زعم بعضهم، فأغلقوا على العقل أســئلته الحائــرة بدعوى اصطدامهـــا بالنقــل، وأوقفت حركـــة الاجتهاد الفقهـــي بدعوى أن "بـــاب الاجتهاد قد ســـد" [١] وتوقفت تفاســـير القرآن الكريم بدعـــوى الاكتفاء بما دونه المتقدمون[٢] وغيرذلك من الأمور التي جعلت العقل مشلولا عن الحركة وصنعت حوله السلاسل والقيود الفكرية التي كبلته عن الابتكار والاستنتاج والاستنباط، وفتحت شهية الجابري وتلميذه طرابيشي لاستثمار مثل تلك الدعوات التي عبرت عن مخاوفها من إعمال العقل.

"إن اســـتدعاء العقل في الكثير من القضايا ظاهرة صحية تدل على أن ماكينته تعمل، كما أريد لها، لكن مجابهة هذا الاســـتدعاء توهمنا أن العقل لن يصل إلى ما وصل إليه النقل الصحيح، وهنا يولد الانحراف وفي شوارع هذا الظن يشيخ.

في ستينيات القرن الماضي صدر الكتاب الرائع للبروفيسور الأصولي محمد الطاهر بن عاشـــور والذي حمل عنوان (أليس الصبح بقريب) [٣] تناول فيه مؤلفه ظاهرة عقم العقل

---

(١) في أوائل القرن الســـادس ظهرت الدعوة إلى غلق باب الاجتهاد ، وكان من أسباب ذلك : التعصب الذي وُجد في تلك العصـــور لمذاهب الأئمة ، حتى قال البعض بالمنع من الخـــروج عن أقوال الأئمة المدونة في كتبهم وكتب أتباعهـــم ، فأطلقوا تلك الدعوى (غلق باب الاجتهاد) حتى يقطعوا الطريق أمام من يجتهد في فهم النصوص ويســـتنبط أحكاماً تخالف ما قاله الأئمة السابقون .يقول الشيخ محمد سعيد الباني رحمه اللهَّ تعالى عن دعوى ســـد باب الاجتهاد: "دعوى فارغة، وحجـــة واهنة، أوهن من بيت العنكبوت؛ لأنها غير مســـتندة إلى دليل شرعي أو عقلي سوى التوارث" عمدة التحقيق في التقليد والتلفيق ص ٦٢، وانظر: إرشاد الفحول ص ٢٥٣، أصول الفقه الإسلامي، الزحيلي (٢/ ١٠٨٥)، أصول الأحكام ص(٣٦٣).

(٢) يقول العلامة الطاهر بن عاشـــور في مقدمة تفسيره المســـمى (تحرير المعنى السَّديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد) المعروف بالتحرير والتنوير: "فجعلت حقّاً عليَّ أن أبدي في تفسيرِ القرآن نُكتاً لم أرَ من ســـبقني إليها، وأن أقفَ موقف الحكم بين طوائف المفسِّرين تارةً لها وآونةً عليها، فإنَّ الاقتصار على الحديث المعاد، تعطيلٌ لفيض القرآن الذي ماله من نَفاد".

(٣) "يعدُّ هذا الكتاب من أهم الكتب التي كُتبت في عصر ابن عاشـــور، اعتنـــى به مؤلِّفه بنقد التعليم ومناهج التأليف الســـائدة؛ فتكلَّم عن أوضاع التعليم وأسباب ضعفه، وأحوال البيئة الزيتونية ومبادرات إصلاح التعليـــم فيه، قال في مقدمته: "قد كان حَدا بي حادي الآمـــال وأملى عليَّ ضميري، من عام واحد وعشرين وثلاث مئة وألف، للتَّفكير في طرق إصلاح تعليمنا العربيِّ والإســـلاميِّ، الذي أشـــعرَتني مدةُ مزاولته، متعلِّماً ومعلِّماً، بوافر حاجته إلى الإصلاح الواســـع النِّطاق، فعقـــدت العزمَ على تحرير كتاب في الدَّعوة إلى ذلك وبيان أسبابه".بحث المؤلِّف في كتابه أسبابَ تأخُّر التَّعليم، وعزاه إلى انعدام خُطَّة تربويَّة متطوِّرة، وإهمال الضَّبط للدروس والمقرَّرات، والبعد عن التَّربية الأصيلة.

حيث لاحظ أن عملية الاجترار تجتاح الكتب والبحوث وتسيطر على مساحات واسعة من العقول الكسلى التي لا تملك إنجابا فكرياً جديداً سوى ما يتم استنساخه من عقول أخرى. ودعا في أثناء كتابه إلى ضرورة الاهتمام بالطالب وتشجيعه على الابتكار، وحرية النَّقد الصحيح في التعليم؛ لأن القصدَ من التعليم هو إيصالُ العقول إلى درجة التفكير والابتكار.

إن استدعاء أفكار المتقدمين ليس إلا لدعم تفكير المرء وما توصل إليه وأنتجه عقله وإيضاح مدى التوافق وتقارب الفهم.[1] إلا أنه يعشش في أذهانِ البعضِ أن سوقها لاستقبالها كمسلمات مقدسة ووقوف العقل أمامها يسمع ويطيع، ونسوا أن كُلًا يؤخذ من أفكاره ويترك إلا الوحي الصحيح الثابت. وعند هذا الوحي تتجلى قدرتنا على استدعاء النص ونحت حروفه وعصره واستخراج مكنوناته، حينها تمطر الهداية جنبات عقولنا وقلوبنا﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء] ومهمة تكسير الأقفال المحكمة وفتح مغاليقها وإنارة أبصار البصائر مهمة عملاقة تحتاج منا إلى جهاد ومجاهدة ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[محمد]

وكم كان العلامة الطاهر ابن عاشور ذكيا حين لمح تفشي هذه الظاهرة فكتب: "وإذا كان الرجل من الصالحين وألف تأليفا أو أنشأ شعرا أدخلوا صلاحه في آثاره فعصموه من الخطل وأعطوا شعره رتبةَ الاختيارِ ولبسوا لمن ينقدُ شيئًا من كلامه جلد النمر، وأحضروا له سياطَ الزجر، وهكذا كانوا يأخذونَ كلامَ الصالحينَ فيقضونَ به على العلم، وربما نزلوه منزلةً ما لا يقبل الطعن"[2].

(١) يقول الطاهر بن عاشور في مقدمة كتابه التحرير والتنوير: "ولقد رأيت النَّاس حول كلام الأقدَمين أحدَ رجلين: رجل معتكف فيما شادَه الأقدمون، وآخر آخذٌ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون، وفي تلك الحالتين ضررٌ كثير، وهنالك حالةٌ أخرى ينجبر بها الجناحِ الكسير، وهي أن نعمِدَ إلى ما أشاده الأقدمون فنهذِّبه ونزيده وحاشا أن ننقضه أو نبيده، علماً بأنَّ غمط فضلهم كُفرانٌ للنعمة، وجحد مزايا سلفها ليس من حَميد خصال الأمَّة" وسيأتي تفصيل هذه الرؤية في مبحث قادم.

(٢)أليس الصبح بقريب" محمد الطاهر بن عاشور ط: دار سحنون / دار السلام ص(١٤٠)

قادَ بدرُ الدينِ الزركشي [١] أواخر القرن السابع ثورةً تجديديةً في علم أصول الفقه، وخطب في مقدمة البحر المحيط يحدثنا عن مبادرته "وزدت فِي هذا الفن من المسائل ما ينيف على الألوف، وولدت من الغرائب غير المألوف، ورددت كل فرع إلى أصله وشكلٍ قد حيل بينه وبين شكله، وأتيت فيه بما لم أسبق إليه"[٢].

وسبقه المفردون في ذلك كالعبقري الملهم عبد الملك الجويني [٣]الذي ضرب على صدره عدة مرات يضمن عهدة استنتاجاته الملهمة، وينثر الثقة فيها ويرفع رأسه عاليا متكئا على تلك الاجتهادات التي أنجبها عقله إذا يقول: " فأعود وأقول: لست أحاذر إثبات حكم لم يدونه الفقهاء، ولم يتعرض له العلماء، فإن معظم مضمون هذا الكتاب لا يلفى مُدوَّنا في كتاب، ولا مضمَّنا لباب. ومتى انتهى مساقُ الكلام إلى أحكامٍ نظَّمها أقوام، أحلتها على أربابها وعزيتها إلى كتَّابها. ولكني لا أبتدع، ولا أخترع شيئا، بل ألاحظ وضع الشرع، وأستثير معنى يناسب ما أراه وأتحرَّاه" [٤].

ووقفت تلك الانتاجات الحصرية الحرة تغري رواد المدرسة التجديدية، كمدرسة الشاطبي، وابن تيمية، وابن القيم وغيرهم أن يسيروا على ذات الطريق.

في كلام بعضهم اليوم ما يوحي لك أن لديه مشكلة في العمليات العقلية العليا ولذا ترى في كلامه ما يشعرك بأن عقله بحاجة إلى إعادة تأهيل، وأنه يعاني من إعاقة فكرية

---

(١) محمد بن بهادر بن عبد الله الزَّرْكَشِيِّ المصري، فقيه شافعي، أصولي ومحدث، له مؤلفات في علوم كثيرة. وُلد في القاهرة سنة ٧٤٥ هـ، وتُوفي سنة ٧٩٤هـ، رحل إلى حلب وأخذ عن الشيخ شهاب الدين الاذرعي وأخذ عن علماء حلب وسافر إلى دمشق وسمع الحديث من شيوخها. انظر طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة، ج١، ص(١٨٣).

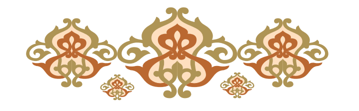
(٢) البحر المحيط (١/ ٤).

(٣) سبقت ترجمته.

(٤) غياث الأمم ص (٢٦٦).

تمنعه من التفكير، وتجعله يعادي تجليات العقل الهادية، ويقوم عليها بالنكير. ولا أشنع من اجترار الفكر الرديء وابتلاعه من جديد [١].

ومثـل تلك الدعوات المبتورة حـرص طرابيشي على الاسـتناد عليها والبحث عن مواقف وحكايات تسند فكرته التي يروج لها في أثناء أبحاثه ومؤلفاته.



(١) ينظر كتابنا (الانحرفات الفكرية في مسار التعليم الشرعي).



الفصل الثالث

إقالة العقل وتهميشه في ذهن الطرابيشي

الثورة على التراث:

بين التصلب العقلي والهلامية الفكرية:

تتجاذب ســاحتنا الفكرية منطقتان، كلاهما شكلتا أزمة علمية فكرية أصابت العقل بالشــلل المعرفي، وأقعدته عن ممارســة عملياته العليا، وأفقدته تركيزه عن عملية الإنتاج ومواجهة الأزمات التي تعيشــها أمة الشــهود الحضاري اليوم. وهاتان المنطقتان يمكن التعبــير عنهما بمنطقة (الجمود) ومنطقة (الجحــود) أو بتعبير لؤي صافي" التصلب العقلي والهلامية الفكرية" "ولنقل توخيا للدقة أزمة عقلين، عقل تراثي انكفأ على ذاته، وفقد الصلة بموضوعه، وعقل وضعي انبتَّ من جذوره، وانفك عن فلكه" [١].

وتولَّد على جنبات هاتين المنطقتين انحرافٌ حادٌ أودى بالعقل المسلم؛ فيسارية تدعوه للتجرد من تراثه والتخلي عن تلك التراكميــة المعرفية والرصيد العلمي المتين المدون عبر القرون، ليغدوا عاريًا يبدأ معارفه من المجهــول المضطرب، ويمينية تقول له: توقف عن المزيد يكفيك منتوج ما قد سبق. وتبقى كلتا الدعوتين هزيمة حضارية للعقل المسلم تجعلنا نعيد النظر في كلتا الدعوتين ونتخذ مكانا جيدا بينهما.

دعوات القطيعة (تيار الجحود):

النفر الذين تولوا كبر هذه الدعوة (القطيعة المعرفية مع التراث) جملة من منســجمي الطرح الحداثي المعاصر، منطلقين تحت تأثيرات مطارق الطرح الفلسفي الأوروبي بدايات هذا القرن، منهم المفكر اللبناني د. حســين مروة (١٩١٠ - ١٩٨٧م) في كتابه "النزعات المادية في الإسلام" والمفكر المصري د. حسن حنفي (١٩٣٥ -) في كتابه "التراث والتجديد"

(١) إعمال العقل لؤي صافي ص (٢٥) دار الفكر المعاصر الطبعة الأولى ١٤١٩ ـ١٩٩٨م.

وكتابــه "من العقيدة إلى الثورة" رغم تردده في بعض كتبــه، والجزائري د. محمد أركون في كتابه " تاريخية الفكر الإســلامي" والمغربي د. محمد عابد الجابري (١٩٣٦ - ٢٠١٠م) في كتابه "نحن والتراث" ومشروعه الموســوعي "نقد العقل العــربي" وكذلك تلميذه جورج طرابيشي(١٩٣٩م – ٢٠١٦م) في كتابه (نقد نقد العقل العربي) و (من إســلام القرآن إلى إسلام الحديث).

كانت بواكير هذه الفكرة "القطيعة المعرفية" تفتقت لأول مرة وسط القرن العشرين في أوروبا حيث طرح الفيلســوف الفرنسي (غاستون باشلار)[1] (١٨٨٤ – ١٩٦٢) سؤالاً مفــاده. هل تتقدم العلوم بطريقة الفصل والقطع ما بين الحقائق العلمية القديمة والحقائق العلمية الجديدة؟ أم بطريقة الاتصال والتراكم؟.

ورجح أن القفزات النوعية في تطور العلوم تحصل بالقطيعة مع العلوم السابقة؛ مخالفاً ما ذهب إليه رواد الفلسفة الوضعية المنطقية (Logical positivism) المجمعين على أن العلوم تنمو بالتراكم والاتصال؛ وتتصاعد من النقص إلى التمام[2].

ومن خلال تتبع منابت هذه الدعوة في عالمنا العربي يلحظ أنها محاولة استنساخ حداثية

---

(١) يعدّ غاستون باشــلار (١٨٨٤ - ١٩٦٢) واحداً من أهم الفلاســفة الفرنسيين، وهناك من يقول إنه أعظم فيلســوف ظاهري، وربما أكثرهم عصرية أيضاً. فقد كرّس جزءاً كبيراً من حياته وعمله لفلسفة العلوم، وقدّمَ أفكاراً في مجال الأبســتمولوجيا وتتمثل مفاهيمه: في العقبة المعرفية، والقطيعة المعرفية، والجدلية المعرفية، والتاريخ التراجعي، مساهمات لا يمكن تجاوزها بل تركت آثارها واضحة في فلسفة معاصريه ومن جاء بعده. ولعل أهم مؤلفاته في مجال فلسفة العلوم هي:

- العقل العلمي الجديد(١٩٣٤).
- تكوين العقل العلمي(١٩٣٨).
- العقلانية والتطبيقية (١٩٤٨).
- المادية العقلانية (١٩٥٣).

(٢)محمود إسماعيل (القطيعة الإبستمولوجية بين المشرق والمغرب حقيقة أم خرافة) ورقة بحثية مقدمة إلى (التراث بين القطيعة والتواصل) أبحاث المؤتمر الرابع لإقليم شرق الدلتا الثقافي في مصر) إعداد: محمد عبد الله الهادي، نشر في ٢٠٠٥ على الانترنت: www.nashiri.net.

لإعادة اســتنبات تلك النظرية في صلب التراث الإســلامي وميراثه المعرفي المتراكم عبر القرون، وهذا المنشأ مؤشر على مدى التأثر والاستجابة النفسية من أولئك النقلة بلا غربلة.

يحاول لؤي صافي التنقيب عن بدايات هــذه الدعوة الحداثية ومنابتها في العالم العربي والإسلامي فبعد اســتعراض سريع عن دعوات قديمة مشابهة يقول: "ولم تلبث إشكالية كفاية العقل أن أخذت شــكلاً جديدًا بعد انتشار الفكر العلماني الغربي في الساحة الفكرية العربية والإســلامية فقد تبنى رواد العلمانية العربية الأطروحة التي طورتها حركة الأنوار الغربية القائلة بكفاية العقل واســتقلال مرجعيته. والداعية إلى استبعاد الوحي من دائرة البحــث العلمي المطــرد والتفكير العلمي المنضبــط. وقدم الاتجاه العلــماني العديد من الدراســات الرامية إلى نقد العقل العربي من خلال نقد التراث الذي صنعه، والداعية إلى استبدال مفهوم العقل الثاوي في التراث الإســلامي، الذي تتداخل فيه الأحكام العلوية الماورائيــة والأحكام القيمية بالأحــكام التجريبية، بعقل وضعي يســتبعد المعرفة الغيبية والقيمية عن دائرة اهتماماته، ويتحدد تبعا لاحتياجات الواقع الحسي وفقا لتمظهراته.[١]

إن محاولات توطين القطيعة مع التراث الإســلامي قد عجــزت عملياً في إنفاد تلك القطيعة المعرفية داخل العقل الإســلامي، بل حتى الكثير من الفلاسفة الأوروبيين الذي عمدوا إلى نشر تلك الفكرة داخل الوســط الأوروبي عادوا يدعون إلى (تحجيم القطيعة) وتجزئتها فأعلنوا أهمية اســتدعاء أفكار اليونانيين وغيرهم من الحضارات الغابرة لتشكل مصدر إلهام، وقد اعترف الفيلســوف الفرنسي "جوســتاف لوبون" أن أوروبا اعتمدت بصورة أساســية على الحضارة الإســلامية ورصيدها المعرفي واســتمدت منها كثيرًا من علومها وبنت عليها أساسات جامعاتها[٢].

(١) إعمال العقل لؤي صافي ص (٣٠) دار الفكر المعاصر الطبعة الأولى ١٤١٩ ــ١٩٩٨م.
(٢) جوستاف لوبون حضارة العرب ص (٢٧٦).

ثم إنَّ حركةَ الهَدْمِ التي نشطت في أوروبا إنما قامت للقَضَاءِ علَى الركام اللاهوتي المليء بالخرافــة، المحمل بما يخالــف مقتضيات العقل بل والنقل، وهذا مــا كان يحفل بها العقل الجمعي الأوروبي ورأت كثير من النخب العلمية الأوروبية كيف أضحت الكنائس تمارس أكبر عملية تضليل في التاريخ للعقل البشري، فقامت الحركة البروتستانتية كحركة فكرية تصحيحية من معبد القديسـين تنكر على الكاثوليك مصادرة العقل الإنسـاني. فجاءت دعواتُ القطيعة محاولة نشــطة للقضاء على الميراث الضخم الذي أنتجه العقل السائد في تلك الحقبة وسبب لهم تاريخا من الانتكاسات والتغول الكنسي والاستبداد باسم الله، وآل حال أوروبا إلى عصور مظلمة لم يخف التاريخ شــيئا مــن صفحاتها، ومحاولة لإنتاج عقل جديد يضع تلك الأغلال طُهرة له من رجس تلك القيود الخرافية التي كبلته وقضت على تفكيره.

ويدلي حسن حنفي بملاحظة قيمة حول هذا الموضوع، فإن ثمة اختلافا واضحا بين طبيعة الفكر الغربي والفكر الشرقي. فالفكر الغربي بطبيعته، وفي أطواره التاريخية المختلفة: انفصالي هدمي. بخلاف الفكر الشرقي والإســلامي فهو فكــر اتصالي، إحيائي، فجميع نهضاته نهضات إحيائية، بخلاف الفكر الغربي الذي كانت جميع نهضاته هدمية للقديم[١].

ويشـــير أيضاً إلى معادلة خطرة هامة إذ كلما ازداد الشعور بالقطيعة مع القديم، ازداد التغريب، فينشــأ وعي حضاري معاكس كردة فعل على الوعي الحضاري الأول، يتمسك بالقديم كله ويرفض المعاصرة كلها، فتنقسم الأمة إلى فريقين، فريق يرى أن صلته بالقديم صلة انقطاع، ثم قطيعة؛ وفريق يرى أن صلته بالتراث صلة اتصال ثم وصال، والواقع في كلتا الحالين هو الخاسر [٢].

كانــت الهزيمة الحضارية التي منيت بها الأمة منذ ســقوط الأندلــس وحملة نابليون بونابــرت (١٧٩٨-١٨٠١م) هي التي دفعت عــدداً من الكتــاب والمفكرين المتأثرين

(١) حسن حنفي (مقدمة في علم الاستغراب) الدار الفنية للطباعة ١٩٩١م ص(٧٦).
(٢) حسن حنفي (مقدمة في علم الاستغراب) الدار الفنية للطباعة ١٩٩١م ص(١٥).

بالنهضة الأوروبية ونتائجها المثيرة، إلى التنقيب عن الأسباب والمشكلات التي أسهمت في نشأة تلك الهزيمة حتى آوى كثير منهم إلى تحميل التراث مسئولية هزيمة العقل الحضاري وبحسب الباحث "امبارك الحامدي" فقد كان التراث بوصفه الخزان الأعظم لمنتجات العقل وموئل خلجات الروح، والمرآة العاكسة للقيم والمعتقدات، هو أول من خضع للمساءلة"[١].

وبدلاً من إجراء عملية فرز وتحقيق للتراث والافادة منه، والتطوير والبناء على ما توصل إليه العقل السابق، قادهم الشطح المعرفي للمطالبة بالاستغناء عن التراث جملة، وشجعهم على ذلك استدعاء بعض النظريات الغربية لإعمالها في الميراث الإسلامي المعرفي الضخم.

دعوى (تجاوز التراث) التي أنضجها الجابري وتلميذه طرابيشي وآخرون كالعروي وأركون وحنفي. يظهر أنها فعليا مجرد دعوة انتقائية فقط لتوجيه مسار البحث لطرق مقصودة محددة سلفا؛ إذ لا تستقيم القطيعة الكلية لتراث علمي تراكمي متطور عبر القرون أنجب ثروة علمية معرفية أثرت الحضارة الإسلامية ونحتت في الواقع التطبيقي نحتا بديعا وأثرته ثراء يدعو إلى الإعجاب.

ومن حيث لا يشعرون فقد كانت دعوتهم الهلامية تلك تستبطن رفض تصحيح وإعادة ترميم القواعد والقوانين التي استنتجها السابقون ولا يزال العقل المسلم يعتمد عليها مهما كانت نتائجها، وهذا الهدم يقود إلى فوضى حقيقية واضطراب معرفي لا إلى نتاج علمي صحيح "فرفض التراث والدعوة إلى الانتهال من المنابع في حقيقته رفضٌ لعمليةِ تصحيحِ المبادئ والقواعد التي قادت إلى تشوه العقل التراثي الثاوي في الثقافة المعاصرة، وبالتالي العودة لقراءةِ القرآن والسنة بعقلية تراثية تستصحب المبادئ التي أدت إلى تشوهات

(١) (التراث وإشكالية القطيعة في الفكر الحداثي المغاربي)، امبارك الحامدي، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت سنة النشر: ٢٠١٧م.

معرفية وتفتقد الرصيد العلمي المكتسب عبر الأجيال، وبالمثل فقد أدى رفضُ الاتجاهِ العلماني للتراث الإسلامي إلى الاحتفاظِ بمثالب العقلية التراثية، وفي مقدمتها هيمنة نزعة المحاكاة والتقليد، ولذلك انتهى التيارُ العلماني إلى محاكاةِ مظاهرِ العلمانية الغربية، وفقدانه الحيوية الإبداعية والاجتهادية التي تملكها"(١).

ويبدو أن الدعوةَ ليست مستقرة علَى أرضٍ صلبة، فقد شهدت كتابات أصحابها تناقضات منهجية صارخة ألمح إلى كثير منها عدد من المفكرين الذي تفرغوا لتفنيد تلك الأطروحات(٢).

إن نموذج التراث الإسلامي يميزه عن غيره أنه استطاع أن يندمج بالحضارات الأممية السابقة دون أن يفقد هويته أمامها، بل تغلغل بداخلها يشربها تعاليمَ السماءِ، وقامَ بدورٍ رائدٍ في نقدها وتهذيبها بما يتوافق و معطيات الوحي الإلهي، مطورا لها، ومكملا لإنجازاتها، أينما حل، وهذا ما سمح له بالصمود وقوة الانتشار، وحسن التوغل الصامت، فظل إسلاميًا معاصرًا، ذاتيًا قادرًا على التعامل مع الآخر، وممثلًا للحضارات الإنسانية كلها.

إن تلك التراكمية الضخمة التي دونتها الأمة من العلوم والمعارف تدلُّ على مدى الاستجابة الفعلية للأمر الذي طولبت بتنفيذه ابتداء (اقرا)، وكان القَسَم بمخرجات القلم ونواتجه ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾ [القلم]، قسما بالأرشيف، قسما بالتراكمية المعرفية والانتاج الثر كما فهم منه المفكر المغاربي أبو زيد الإدريسي. وكان المستشرق الفرنسي المنصف جوستاف لوبون١٩٣١م صاحب كتاب "حضارة العرب" الذي يعد

(١)إعمال العقل لؤي صافي ص (٢٦) دار الفكر المعاصر الطبعة الأولى ١٤١٩ ـ١٩٩٨م.

(٢)انظر على سبيل المثال (التراث وإشكالية القطيعة في الفكر الحداثي المغاربي)، امبارك الحامدي، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت سنة النشر: ٢٠١٧م. و "إعمال العقل" لؤي صافي، دار الفكر المعاصر الطبعة الأولى ١٤١٩ ـ١٩٩٨م. ومن أمثلة هذه الاضطرابات والتناقضات أن طرابيشي في دعوته إلى (إسلام القرآن) استدل بها بـ(إسلام الحديث) فحين أراد إثبات سكوته- عليه الصلاة والسلام- عن أحداث معينة وانتظار نزول الوحي فيها اعتمد بشكل أساسي على مرويات السنة في ذلك!!!

من أمهات الكتب التي صـــدرت في العصر الحديث في أوروبا لإنصاف الحضارة العربية والإسلامية يثبت ذلك بالاستقراء التاريخي المسحي، قال " إن حضارة العرب والمسلمين قد أدخلت الأمم الأوروبية الوحشـــية في عالم الإنســـانية، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها موردا علميا ســـوى مؤلفات العرب؛ فهم الذين مدنـــوا أوروبا مادة وعقلًا وأخلاقًا والتاريخ لا يعرف أمة أنتجت ما أنتجوا"[١].

ونلحـــظ عند فحص قولـــه تعـــالى ﴿ أَئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف] الإشـــارة الواضحة إلى البحث في تراث البشرية وقيمة الإنتاج المتراكم عبر القرون، وتلك الإشـــارات القرآنية الواضحة تجهض الدعوة إلى التعري من اللباس العلمي المتراكم عبر القرون.

دعوات التصلب (الجمود):

وجاء الـــرد سريعاً جداً على تلك الدعوة بدعوة ترى التمســـك بكل ميراث الماضي وإيقاف العقل أمام اجتهاداته والتســـليم المطلق لاستنباطاته، فتحولت عددٌ من محاضن التعلم الشرعي للأســـف إلى مجرد مصانع لإنتاج الأصنام البشريـــة وتأليه أقوالها وآرائها المبنيـــة على الفهم الخاص، وتوليد الأتباع الذين لاعقل لهم ســـوى التقليد، وتلقيهم آراءَ الأستاذِ بالقبولِ المطلقِ دونَ إخضاعِهَا للمناقشةِ والتحليلِ في ضوء فهم النص والتدرب على المناقشـــة الذكية التي قادها الأمام أبو حنيفة (٨٠-١٥٠ ه)، وقد أشارَ العلامةُ أحمد بن تيمية (٦٦١ هـ - ٧٢٨هـ) إلى نتيجةٍ حتميةٍ يحكم من خلالها المرء على عقله ولســـانه بالســـجن المؤبد؛ إذ يصف نتائج ما يحدث اليوم ويصوره بقلم من الخبرة والممارسة الذكية الواعية بأن "العقول إذا اتسعت واتسعت تصوراتها اتسعت عباراتها، وإذا ضاقت العقول

---

(١) جوستاف لوبون حضارة العرب ص ٢٧٦.

وسيبويه، والجرجاني، والشافعي، ونظرائهم، واحتفلنا بكتابات الشراح والملخصين، ولو عشنا في تلك الأعماق لاكتشفنا كيفَ كانَ يعملُ أولئكَ العلماءُ، وكيفَ كانت تعمل ماكيناتُ عقولهم، وماذا كان يدور في أفكارهم لحظة الإنتاج، "ولا أجلَّ من المعرفة إلا أن تعرف كيف كشف العقل عن دقائق هذه المعرفة، وكيف أوجدها" بتعبير أستاذ البلاغة اللغوية الدكتور محمد أبو موسى[1].

وما كانت اختراعات الجرجاني لـ(نظرية النظم) إلا إغراء للزمخشري لإنتاج (الكشاف) وفق قوانينها، ودفعا بـ(البيضاوي) لإعادة تأطيره.

إغلاق باب العلم وإنتاج المعرفة هكذا بمثل هذه القواعد والعبارات نكبة علمية أليمة تذكرنا بإغلاق علماء الفيزياء قوانين العلم على (نيوتن)، فلما جاء من بعده وجد الباب مغلقا فأصر الألماني (ماكس بلانك) على كسره فكسره وتمكن من الدخول.

قال الأخفش تلميذ سيبويه يروي طبيعة ذلك التطوير: "مات سيبويه وهو أعلم مني بالكتاب، وأنا الآن أعلم بالكتاب منه"[2].

وينسب للجاحظ قوله:" إذا سمعت الرجل يقول: ما ترك الأول للآخر شيئًا، فاعلم أنه ما يريد أن يفلح"[3]. ونقل عنه القزويني أيضًا قوله: "وكلامٌ كثير جرى على ألسنةِ النَّاسِ وله مضرة شديدة، وثمرة مرة، فمن أضر ذلك قولهم: "لم يدع الأول للآخر شيئا".

فلو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمن قبلهم، لرأيت العلم مختلا"[4].

---

(١) المدخل إلى كتابي الجرجاني. للدكتور محمد أبو موسى (١/ ٢٥).

(٢) معجم الأدباء ياقوت الحموي (١/ ٤٨٢).

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني (١/ ٦٤).

(٤) القزويني "الإيضاح في علوم البلاغة" تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت ط٣،(١/ ٦)، والصعيدي، عبد المتعال، "بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح"، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٥م،(١/ ٣٩).

ويشير أحد الباحثين: "وليس في علوم القرآن الكريم علم نضج حتى احترق كما يتصايح به جمع، فينصرف طلبة العلم يائسين، إن حدائق العلم رحيبة الأرجاء كريمة العطاء" [(١)].

إن احتكار العلم والعرفة لعصر دون غيره عملية تنشيف للعقل الذي كساه الله تعالى بالعلم اللامحدود ينقب فيه ويكتشف وعلى قدر جهده وجهاده يفتح الله تعالى عليه فقد سمى سبحانه العلم "فتحا" في القرآن الكريم [(٢)].

وما هذه "المقولة" التي تعلن احتراق العلوم وانتهاء معينها إلا جزء من المحنة العلمية التي نعيش فواجعها إلى اليوم. وسامح الله من ألقى بذورها في قيعان عقلنا الباطن حتى غدت صَبَّارا عنيد الاجتثاث.

وها أنت ترى كيف تكتظ الجامعات والمحاضن العلمية بالبحوث الوصفية، وتمتلئ بسردية تجميعية من الأقوال والآراء السابقة لقضية ما من القضايا والمسائل العلمية، بينما يختفي رأي الباحث والمؤلف ولا تكاد تظهر مهمته العلمية ورأيه فيما يبحث، وسطَ غِيابٍ مشاهدٍ للبحوث التحليلية التي تتولى مهمة التوليد والإنبات.

إن ظاهرة الجمود على نقل القديم بكل تفاصيله وتصديره لعصر اليوم مجردا من النقد والتمحيص والمطابقة، بل والذهاب إلى إضفاء أجواء الهيبة والقداسة عليها والتنكيل بكل من ينقدها ويطرح رأيا مخلفا لها، أضحت راسخة في أذهان كثيرين حتى أثرت تأثيرا كبيرا في حركة الفكر والمعرفة.

قبل أكثر من مائة عام بث شيخ جامع الزيتونة الأصولي الكبير الطاهر بن عاشور (١٢٩٦ـ١٣٩٣ هـ) أحزانه في كتابه (أليس الصبح بقريب) وشكا من تفشي هذه الظاهرة في الأوساط العلمية وحذر من قضائها على حيوية النص، وحركة الاجتهاد والاستنباط، وللأسف لم تجد دعواته تلك أي تفاعل حقيقي إذ ما تزال تراوح مكانها دون إحراز أي تقدم.

---

(١) العزف على أنوار الفكر، د. محمود توفيق، ص(١٢٦).

(٢) في قوله تعالى (قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم).

وشرح رحمــه الله أحد القيود النفســية والفكرية التي قيدت مســار التعليم الشرعي وجعلــت حركة العقل أمام تلــك الأقوال تبدي إعجابا بها وتنزههــا من الخطأ، فوقفت العقول مشــلولة عن تفعيل مهارة النقد العلمي أمامها وسادت عقلية التقليد، بل سيقت كمية من المبررات والتخريجات التي لا تقوى على إسنادها. وكانت تلك العقلية الصنمية هي السبب الرئيس في سوء الحالة العلمية، فالإمام الشوكاني(١١٧٣ ــ ١٢٥٠ هـ) انتقد تلك البيئة العلمية التي شهدها في أروقة المدارس العلمية بصنعاء، قال: "فإذا تكلم عالم من علماء الاجتهاد بشيء يخالف ما يعتقدُهُ المقلدة قاموا عليه قومة جاهلية."(١)

وحكى الإمام ابن عاشــور واقعة طريفة تحكي شيئا من ذلك التصنيم في المغرب كما شــكا منه الشــوكاني في المشرق قال: "أصبح المبتكر عُرضة للنكاية أو الاضطهاد، ناهيك بالمعترض على بعضِ المتقدمين، وقد حدث أن تلميذًا فيما مضى اعترضَ مســألة، فقيل له: نصَّ عليها الأشموني، فقالَ: وما هو الأشموني؟ فرُفع لمن له نظرٌ فضربه ضربًا شديدًا" (٢).

ونظرا لطول تلك الظاهرة عبر القرون، فإنها تحولت إلى مســألة نفســية عميقة يحرر ابن عاشــور طبيعتها بأن عقول اليوم أصيبت بالانبهار أمام ما أحرزه المتقدمون من حركة تفعيل العقل ومقدرته على الاســتنباط والاســتنتاج والابتكار وعد ذلك النشاط العقلي المتقدم "شجاعة الأولين وإطلاقهم، لأنهم غير مسبوقين بما يوثق أفكارهم وأقلامهم، أما ركود المتأخرين فهو نتيجة سلوكية لما استقر في نفوسهم من "المتابعة أبدا"(٣).

ويوضح الميســاوي:" فكأنما الأمر في حقيقته ركونٌ إلى الشــعور بالدونية والقصور واســتصغار النفس أمام تراث الســلف لكثافته وثرائه واتســاعه وتنوعه، مما حوَّل هذا

---

(١) محمد علي الشــوكاني، القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، تحقيق الشــيخ إبراهيم حســن الأنبابي، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١٣٤٧هـ، ص(١٦-١٧).

(٢) أليس الصبح بقريب (١٨٠)

(٣) أليس الصبح بقريب ص(١٨١).

التراث نفسه إلى ما يمكن عده عائِقًا معرفيا حجب الخلف عن استيعاب ما قدمه السلف، ناهيك بنقده والبناء على الصالح فيه والإضافة إليه وتجاوز ما دون ذلك"[(١)].

وتحولت تلك الحالة النفسية إلى عكوف أمام تلك الأقوال تعلل فحواها وتشرح محتواها، وتشييد الأعمدة لإسنادها وترميمها لا غير، يقول ابن عاشور مشيرًا إلى تلك الحالة التي أدت إلى تمجيد "آراء أساتذتهم فعدوا كلامهم نهاية العلم، وصارت مخالفتهم معدودة من الهوس، فلم يسع الناس إلا خدمة كلامهم، وتطويل المسودات بالمناقشات في أفهامهم"[(٢)].

وقد تنبه أصوليون وفقهاء لخطر هذه الظاهرة الصنمية على حركة العلم والمعرفة، فطفقوا يحذرون منها وينبهون لخطرها ومضاعفاتها، ففقيه المالكية شهاب الدين القرافي رحمه الله يقول محذرًا: "فمهما تجدد في العُرف: اعتبره، ومهما سقط أسقطه، ولا تجمد على المسطور في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك لا تُجْرِه على عرف بلدك، واسأله عن عرف بلده، وأَجْرِه عليه، وأفته به دون عرف بلدك، ودون المقرر في كتبك، فهذا هو الحق الواضح.

والجمود على المنقولات أبداً: ضلال في الدِّين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين، والسلف الماضين، وعلى هذه القاعدة تتخرج أيمان الطلاق، والعتاق، وجميع الصرائح والكنايات، فقد يصير الصريح كناية فيفتقر إلى النية، وقد تصير الكناية صريحا فتستغني عن النية[(٣)].

وحذر من تغول ذلك الإمام العز بن عبد السلام، فقال: "فما أفسد أحوال طلاب العلم إلا اعتقادهم في مقلديهم أن ما يقولونه بمثابة ما قاله الشرع"[(٤)].

---

(١) أليس الصبح بقريب ص(٥٧).
(٢) أليس الصبح بقريب ص(١٨٠).
(٣) أنوار الفروق للإمام القرافي (١ / ٣٢١).
(٤) القواعد الكبرى (١/ ٢٧٧).

بين تيار (الجمود) وتيار (الجحود) نقف:

يحـدد الإمام بن عاشـور المنهجية الصحيحة في التعامل مع ميراث السـلف العلمي والمعرفي في مقدمة مدونته التفسـيرية (التحرير والتنوير) فيقول: "ولقد رأيتُ الناسَ حول كلام الأقدمين أحد رجلين: رجل معتكف فيما شاده الأقدمون، وآخر آخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون، وفي تلك الحالتين ضرر كثير، وهنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسـير، وهي أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده وحاشا أن ننقضه أو نبيده، علما بأن غمط فضلهم كفران للنعمة، وجحد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة"[١].

وهذه الوسـطية العلمية التي اقترحها الطاهر بن عاشـور تراكميـة منهجية موزونة تسـمح للعقل أن يتحرك في بيئة ثقافية علمية يطور ويتقدم ويبني على ما سبق ويبتعد عن تلك الفكرة التي تجرده عن بيئتـه العلمية وتلاقح العقول والأفكار التي دعا إليها أولئك النفر. وقـد أدلى رحمه الله بملاحظة قيمة وهو يشرحُ الهدف من التدوين الإسـلامي عبر القـرون بأنه يمثل أيضا" إغناء من بعدهم عن إضاعـة مثل الوقت الذي أضاعه الأولون في استقداح أفكارهم، ليصرفوه في الزيادة على ما وصل إليه الأقدمون، ولترتقي أفكارهم على ما كانت عليـه، فلا يفهم من وضع أي علم أمر الناس بمتابعة ما وضع لهم، أو تلقي ما بلغ إليهم من وضع الواضعين بكل تسـليم، بل إنما عنى الواضعون من تدوين العلوم اختصار الوقت للخلف، وعرض نتائج عقولهم عليه، لينظرها فيتبعها أو ينبذها إلى أحسن منها أو أصح، وفي ضمن ذلك أمر لنا بإعمال النظر كما عملوا والاستنتاج كما استنتجوا"[٢].

وألمح الطاهر بن عاشـور إلى التعامـل العلمي المنهجي للتركة العلميـة التي تركها السـلف: هو أن يقرأها الطالب ويدرسـها بعناية "لتخدم فكره لا لتستعبد أفكاره، ومتى استأسرت القواعد الأفكار بان خطأ النظر"[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧).

(٢) أليس الصبح بقريب ص(٥٥).

(٣) أليس الصبح بقريب (١٧٩ - ١٨٠).

إن رؤية ابن عاشـــور المتوازنـــة تدعونا أن نقف بين تيار (الجمـــود) وتيار (الجحود) الجمود الذي عبّد تلك الأقوال ونحت من حروفها أصناما، والجحود الذي أنكرها وعمد إلى إلغائها بالكلية.

لقد عد ذلك الاعجاب المقدس بتلك الأقوال وإنزالها منزلة النص في الاحتجاج سببًا من أســباب تأخر التعليم الشرعي وبقائه في مكانه يــمارس عملية الاجترار دون أن يقدم مستوى جديدا من الاجتهاد المعاصر المناسب لظروف الزَمَكان.

قال: "الإعجابُ بآراء المتقدمين كيف كانــت، وتنزيهها على الخطأ، فانحصر العلم في نقــل واحد عن آخر، وربما وجدت في التآليف نقــل قولين متجانبين، وهما متضادان، من غــير أن يبحث المؤلف في صحة أحدهما، فإذا بان له الخطأ وعسر التصحيح بوجه تلعثموا وأصلحوا الكلام بكل تكلف، من قلب الحقيقة للمجاز، وتقدير مضاف، وجعل الجزئي كليا، ونحو ذلك، ومن العجائب أنهم يردون قول من لا يعجبهم قوله بقول غيره .

واعلم أنا متى اقتصرنا في تعليمنا علَى ما أسسه لنا سلفنا، ووقفنا عندما حددوا، رجعنا القهقري في التعليم والعلــم لأن اقتصارنا على ذلك لا يؤهلنا إلا للحصول على بعض ما أسسوه، وحفظ ما استنبطوه، فنحن قد غلبنا بما فاتنا من علومهم ولو قليلاً، أما متى جعلنا أصولهم أســـا لنا نرتقي بالبناء عليها، فإنا لا يسوءنا فوات جزء من تعليمهم متى كنا قد استفدنا حظاً وافرًا قد فاتهم" [١].

فالحفاظ على روح العلوم لا تكون بمجرد العكوف على ما شـــاده الأولون وقوفا عند حروفه وإعادة إنتاج متونه بالــشرح والتعليق والاختصار بل تكون بالإضافة إليه والبناء عليه وفق ما تقتضيه الأحوال وتســتدعيه في المنهج والصـــورة والمضمون جميعا، عودًا في ذلك إلى الأصول الباقية التي قامت بها تلك العلوم وتأســس عليها الاجتماع الإنساني في الحضارة الإسلامية، ألا وهي الأصول التي يحتوي عليها الوحي الخاتم [٢] .

(١) أليس الصبح بقريب(١٧٩ - ١٨٠).
(٢) أليس الصبح بقريب ٥٥ الميساوي في مقدمة التحقيق.

وهكذا انعدمت ملكة النقد، وغابت عقلية الابتكار والتحقيق والاستنباط والوقوف عند النص كما وقف عنده المتقدمون، يستخرجو ما به من أحكام ويرسمون من خلاله الحياة الاجتماعية التي يعيشونها، ويقدمون من خلاله تلبية لتلك المتطلبات. حتى صارت أمثلتنا العلمية والفقهية إعادة تدوير لما سبق من التمثيل الذي قدموه من وحي بيئتهم، وهو ما يدل على مدى تغلغل تفكيرهم في الواقع الذي عاشوه وتنزيل حركة النص وإعمالها في الواقع الحي خاصتهم بينما توقفنا عاجزين عن تقديم أمثلة حية تدل على حيوية النص وواقعيته في حياة اليوم.

شكا ابن عاشور متضجرا من هذا الركود الذي أصاب العلوم الإسلامية حين أوقفت حركة العقل وبقيت تمارس عملية الاجترار، قال:"وقف بنا المسير وضاقت التآليف واختلطت العلوم، وأصبحنا نتابع ما وجدنا غير شاعرين ألِحُسْنٍ اتبعناه، أم لقُبح نبذناه، وتبدلت العصور وتقدمت العلوم وطارت الأمم، ونحن قعيدو علومنا وكتبنا، كلما أحسسنا بنبأة التقدم والرقي وتغيير الأحوال استمسكنا بقديمنا، وصفدنا أبوابنا، فإنك لتنظر الرجل – وهو ابن القرن الرابع عشر – فتحسه في معارفه وعلمه وتفكيره من أهل القرن التاسع أو العاشر، مما هو معلول لوقوف تقدم التآليف عند الحد الذي تركه الواقفون، رُزئ الناس فائدة الانتفاع بأخلاقهم وعوائدهم ومكتشفاتهم، وسُلبوا شرف النفس باعتيادهم التقليد والاستكانة لكلام الغير، واعتقادهم أن ما أتى به الأقدمون هو قصارى ما تصل إليه قُدَر البشر، فهم إذن عالة عليهم في العلم، والعبارة، والصورة، والاختيار أيضا." [1].

فنمو العلوم واستمرارها ووفاؤها بحاجات أهلها إنما الحق فيه أن يتلقى الخلف تراث السلف واجتهاداتهم بروح متحررة من الرهبة إزائها وبعقول منفتحة على حاجات زمانها وأوضاعه المتطورة، فلا يكون حينذاك التعامل مع نتائج عقول الأولين مجرد انقياد وتسليم

(١) أليس الصبح بقريب ص(٥٠).

لمذاهبهم في النظر، وإنما يكون اجتهادا، قوامه التمحيص والنقد فالإضافة والتجديد، وكأن ابن عاشـــور بهذا يذهب إلى رؤية تراكمية لحركة العلم والمعرفة، وكأنما هو أكثر هما بروح التواصل والتقدم التي ينبغـــي أن تسري فيه، بحيث لا تكون جهود الأولين واجتهاداتهم أغلالا على عقول الآخرين وأفهامهم، ولا تكون اسهامات هؤلاء وإضافاتهم اغترابا عن تراث أولئك وقطيعة معه، فهو بذلك إنما يدعو إلى موقف وســط، قوامه (أن نعمد إلى ما شاده الأقدمون فنهذبه ونزيده) لا أن نعتكف فيه أو أن نبيده. ذلك أن العلماء السابقين إنما غرسوا لننمي، وأسسوا لنشيد، وابتدؤوا لنزيد) فضلا عن أنهم لم يكونوا في درجة واحدة من العلم بل منهم العالم المنشـــئ لقواعد وأصول ومنهم الذي ما اشـــتهر اسمه إلا بفضل عوارض) [(١)].

إن حظر حركة النقــد والبحث والتحقيق في أقوال المتقدمــين أقعد العقل العلمي، وأدى إلى إبقاء الفاســد من الأقوال على فساده تحتج به الأمة عبر القرون والمطلوب اليوم من محققي كل فن أن يعمدوا إلى نخل العلوم والأقوال التي بين أيديهم وفق قواعد علمية كاشــفة تمنحهم مزيدا من تحريــر العلم وتدقيقه وقد دعا أحد الباحثــين إلى غربلة أقوال المفسريــن فيما يتعلق بالحقائق العلمية التي أثبتها العلــم اليوم وعارضتها أقوال المفسرين المتقدمين [(٢)] باعتماد قاعدة (الترجيح بنتائج العلم المعتبرة) لنخل كتب التفسير من الآراء الغريبة التي أجهضت نتائج العلم اليوم تصوراتها المبنية على الظن والتخمين [(٣)].

ونظرا لطول تلك الظاهرة عبر القرون فإنها تحولت إلى مســألة نفسية عميقة يحرر ابن عاشــور طبيعتها بأن عقول اليــوم أصيبت بالانبهار أمام ما أحــرزه المتقدمون من حركة تفعيل العقل ومقدرته على الاســتنباط والاســتنتاج والابتكار وعد ذلك النشاط العقلي

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٦٣). وانظر تعليق الميساوي عليه ص(٥٦)
(٢) كقولهم إن الجنين يتغذى على دم الحيض، وقولهم إن الجنين يبقى في بطن أمه ٤ ســنوات كما نقله مالك عن زوجة جاره محمد بن عجلان، وغير ذلك.
(٣)محمد إقبال العروي (دور السياق في الترجيح بين الأقوال التفسيرية. ص(٢٠) الطبعة الأولى (روافد) الكويت).

المتقدم "شجاعة الأولين وإطلاقهم، لأنهم غير مسبوقين بما يوثق أفكارهم وأقلامهم، أما ركود المتأخرين فهو نتيجة سلوكية لما استقر في نفوسهم من " المتابعة أبدا" (١) .

ويوضح ذلك الميساوي:" فكأنما الأمر في حقيقته ركونٌ إلى الشعور بالدونية والقصور واستصغار النفس أمام تراث السلف لكثافته وثرائه واتساعه وتنوعه، مما حول هذا التراث نفسه إلى ما يمكن عده ولنستعر أحد مصطلحات فلسفة العلم عائقا معرفيا حجب الخلف عن استيعاب ما قدمه السلف، ناهيك بنقده والبناء على الصالح فيه والإضافة إليه وتجاوز ما دون ذلك." (٢) .

إذن لا سبيل إلى تجنب (التصلب العقلي) و(الهلامية الفكرية)، وتجاوز الغثائية العلمية والاستلاب المعرفي إلا بربط العقل من جديد بحقائق الوجود الكلية بأبعادها الغيبية والطبيعية والتاريخية، بالتالي تسليط قدرات العقل التحليلية والتركيبية على النصوص النقلية والظواهر الطبيعية والوقائع التاريخية لتمييز الثوابت من المتغيرات والكليات من الجزئيات والشروط من الغايات، وبذلك نكون قد خطونا خطوة حاسمة وضرورية نحو إعادة الحيوية للعقل المسلم، وتهيئته ليقود الفكر الإنساني نحو آفاق علمية أوسع ومقامات معرفية أعلى متجاوزا الغثائية العلمية للعقل التراثي والاستلاب القيمي والروحي للعقل الوضعي(٣) .

الشافعي والحجر على العقل:

الدرس الأصولي بين تجديف الحداثيين وتطوير الأصوليين:

كان الدرس الأصولي زمن النبي – عليه الصلاة والسلام – وصحابته الكرام يتصدر

---

(١) أليس الصبح بقريب ص(١٨١).

(٢) أليس الصبح بقريب ص(٥٧). مقدمة التحقيق للميساوي.

(٣) إعمال العقل لؤي صافي ص (٢٦) دار الفكر المعاصر الطبعة الأولى ١٤١٩ ــ١٩٩٨م.

قوائم العقل النبوي والمجتمع التشريعي في القرن الأول، فملاحظة حركة النص الشرعي وطرق تنزيله وأسلوب إدارته وطرق الكشف عن دلالته والأرضيات التي يقوم عليها راسخ في الأذهان بالأسلوب الذي مارسه عليه الصلاة والسلام عند إطلاقاته للنص الشرعي فكانت حركة منضبطة دقيقة تسيرُ بالنص إلى الموضع الذي أريد أن يكون فيه.

مورست قواعد علم أصول الفقه وقوانينه نظريا بطريقة عملية تطبيقية، شأنها شأن علوم التجويد واللغة والبلاغة وغيرها من العلوم التي تشكلت فيما بعد استمدادا من ملاحظة اللسان العربي وطرق تعامله مع الكلمة العربية وطرق ترتيل الكلمة القرآنية.

واستمر استخدام القوانين العلمية التشريعية التي سميت فيما بعد بـ(علم أصول الفقه) طوال القرنين الأول والثاني بهذا الأسلوب الإقرائي بعيدا عن التدوين الذي بدا متأخرا عن العصر الأول.

لقد كان هدف الشريعة من رسم هذا المسار الأصولي المنضبط للدرس الأصولي يتمثلُ بدرجةٍ أولى في تعبيدِ طريقِ التشريع، وصيانة المصادر من عبث الفهم والفوضى الانحرافية، ورسم معالم المسار الأمثل الذي ستمضي عليه القرون للاستفادةِ من نصوصِ الكتابِ والسنةِ، وتحديدِ كيفيةِ استنباطِ الأحكام منهما، وإيضاح المنهج السديد في تفسير النص الشرعي، وتحديد دلالته الدقيقة، لبيان مراد الله تعالى من كلامه وتلقي الأمر والنهي الشرعي مُصدَّرا بدلالته التي تمنحه الحكم الذي يعمل من خلاله ويكشف عن مقتضاه الصحيح.

شرح الفقيه الحنبلي شمس الدين بن قيم الجوزية تلخيصا موجزا لطبيعة العصر العلمي الذي مثله الصحابة وكشف عن السلوك الفقهي الذي كانوا يمارسونه، قال: "لقد كان الصحابة أبرَّ قلوبًا، وأعمقَ عِلْمًا، وأقلَّ تكلُّفًا؛ لما خصَّهم الله تعالى به مِن تَوقُّد الأذهان، وفصاحة اللسان، وسعة العِلم وسهولة الأخذ، وحُسن الإدراك وسرعته، وقِلَّة المعارض أو عدمه، وحُسن القصد، وتقْوى الربِّ تبارك وتعالى، فالعربية طبيعتهم

وسـليقتهم، والمعاني الصحيحة مركوزة في فِطَرهم وعقولهم، ولا حاجة بهم إلى النظر في الإسناد وأحوال الرواة، وعِلل الحديث والجَرح والتعديل، ولا إلى النظر في قواعد الأصول وأوضاع الأصوليين، بـل قد غنوا عن ذلك كله؛ فليس في حقِّهم إلا أمْران: أحدهما: قال الله كذا، وقال رسـولُه كذا، الثاني: معناه كذا وكذا، وهم أسـعدُ الناس بهاتين المقدِّمتين، وأحظى الأمَّة بهما؛ فقُواهم مجتمعة عليهما، هذا إلى ما خُصُّوا به مِن قُوَى الأذهان، وصفائها، وصحَّتها وقوة إدراكها، وقُرب العهد بنور النبوة، والتلقِّي مِن المشْكاة النبوية"[١].

وهـذا التلخيص يوضح مدى قدرة الجيل الأول المهنية على امتلاك الأدوات العلمية وتوفر الظروف المناسـبة لعصرهم في استيعاب حركة النص المنزل عليهم، وقدرتهم تحت إشراف النبي – عليه الصلاة والسـلام– على الاسـتنتاج والاسـتنباط الدلالي بالآلات الأصولية الكامنة في أذهان عصر التنزيل.

وانقضى عصر ذلك الجيل وقوانين الدرس الأصولي شائعة في بيئتهم العلمية مستخدمة في أقضياتهم، ترتكز عليها فتاواهـم وآراؤهم إلا أنها لم تكن مدونة في عهدهم نتيجة لأن عصرهم لم يشع فيه التدوين والكتابة والتأليف.

ويوضح الإمام الشـافعي قيمة تلك المدرسـة العلمية القائمة عـلى الفهم الأصولي والشـهود التنزيلي لحركـة النص الشرعي والاعتـماد على مسـاراتها الأصولية في الفهم والاستنتاج: "أدَّوا إلينا سُننَ رسول الله ﷺ وشاهدوه والوحي ينزلُ عليه، فعلموا ما أراد رسـول الله ﷺ عامًّا وخاصًّا، وعزمًا وإرشـادًا، وعَرَفوا مِن سُنَّته ما عرفنا وجَهِلْنا، وهم فوقنا في كلِّ عِلمٍ واجتهاد وورعٍ وعقلٍ وأمرٍ اسْـتدرك به عِلمٌ واسـتُنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأَوْلَى بنَا مِن رأينا عند أنفسنا، ومَن أدركنا ممن يرضى، أو حكي لنا عنه ببلدنا، صاروا إلى قولهـم إنِ اجتمعوا، أو قول بعضهم إنْ تفرَّقوا، وهكذا نقول ولم نخرج عن أقاويلهم، وإنْ قال أحدُهم ولم يخالفه غيره، أخذنا بقوله"[٢].

---

(١) إعلام الموقعين ، ابن القيم، ج (٤)، ص: (١٤٨ – ١٥٠).
(٢) إعلام الموقعين ، ابن القيم، ج (١)، ص: (٨٠).

ثم جاء عصر التابعين يتتبع هذا السلوك الأصولي ويسير عليه وقامت المدارس العلمية على استقراء عصرهم والبحث والتنقيب في أقضياتهم وأسلوبهم في معالجة النص وفحص تلك القواعد المستخدمة وإجراء عمليات تجميع وترتيب دقيق لها وفق مسار التدوين والبحث العلمي القائم في العصر الذي بعدهم.

وفي الرسائل المتبادَلة بين العلماء في هذه الفترة يَظهر أثرُ الدرس الأُصولي، مثلما دار بين الليث بن سعد فقيه مصر الكبير، والإمام مالك بن أنس يُناقشه في بعض مسائل الفقه، فيظهر أثرُ الاستدلال الفِقْهي الأصولي في عبارات تلك الرسالة التي أوردها ابن عساكر في تاريخ دمشق. "وأما ما ذكرتَ مِن مقام رسول الله ﷺ بالمدينة، ونزول القرآن بها عليه بين ظَهْرَانَي أصحابه، وما علَّمهم الله منه، وأن الناس صاروا تبعًا لهم فيه، فكما ذكرتَ، وأما ما ذكرتَ مِن قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة]، فإنَّ كثيرًا مِن أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله؛ ابتغاءَ مرضاة الله فجنَّدوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسُنَّة نبيِّه، ولم يكتموهم شيئًا عَلِمُوه، وكان في كلِّ جُنْدٍ منهم طائفة يُعلِّمون لله كتابَ الله وسُنَّة نبيِّه، ويجتهدون برأْيهم فيما لم يفسِّره لهم القرآن والسُّنَّة، ويُقَوِّمُهم عليه أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم". [(١)]

يروي الدكتور محمد الزحيلي المعالم الأولى لتشكل علم أصول الفقه في عصر التابعين وإسهام مدرستي الحديث والرأي في تجميع شتاته: "وانتقل الأمر إلى التابعين الذين ساروا على خطى الصحابة- رضي الله عنهم- وتأثروا بمناهجهم، وتابعوا الاجتهاد، ووقع الاختلاف حتى ظهرت مدرسة الحديث في الحجاز، ومدرسة الرأي بالعراق، ولكل

---

(١) "تاريخ دمشق"؛ ابن عساكر، ج (٦٤)، ص (٢٤٩).

منها منهجها في الاجتهاد والاستنباط ومعرفة الأحكام حتى وقع الخلاف الشديد بين المدرستين، وصار النزاع على أشده، وثار النقاش العلمي، وعقدت المناظرات، واشتد الجدل، بل طعن كل منهما بالآخر، وعاب طريقته، وتشكك فيما وصل إليه من أحكام، وكان كل إمام أو مجتهد أو مناظر يحاول أن يدعم رأيه بالأدلة، والبراهين العقلية والعلمية واللغوية، وبرز التعصب للفريقين، وشعرَ العلماءُ حينئذ بالحاجة الماسة لوجودِ ضوابط للاستنباط يعتمدون عليها، ومنهاج للتفكير يبنون عليه، وشروط للاجتهاد والاستدلال، وقواعد لأساليب البيان العربي الذي وردت به النصوص، فجادت قرائح الأئمة والمجتهدين والعلماء بمجموعة من ضوابط الاستنباط، وشروط الاجتهاد، وقواعد البيان والفهم والاستدلال، والمنهاج للتفكير، وهي في مجموعها براعم علم أصول الفقه[١].

وظهرت مفردات هذا العلم ومصطلحاته ابتداء على ألسن العلماء الكبار في عصر التابعين، فكان الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى يستخدم جملة من تلك المصطلحات يضخها ضمن دروسه العلمية ويشرح معالم منهجه في القياس والاستحسان، فكان أصحابه ينازعونه بالقياس، فإن قال: أستحسن، لم يلحق به أحد، ثم يقول: "علمنا هذا رأي، فمن جاءنا بأفضل منه تركناه". كان ذلك بالعراق أما إذا اتجهنا إلى المدينة النبوية فالإمام مالك كان يجلس على كرسي الدرس والفتوى بالمسجد النبوي، فكانت معالم مدرسته تسير وفق منهج أصولي واضح تعتمد على الكتاب والسنة والاحتجاج بعمل أهل المدينة، وهو احتجاج بالبيئة التي استلمت الوحي واعتادت التعامل مع فحوى دلالاته وكانت تلك الأرضية عنده مقدمة على خبر الآحاد، إضافة إلى جملة من المبادئ الأصولية التي استقر عليها مذهب مالك وجمعها أصحابه من بعده لتنفض عن المذهب غبار الفوضى[٢].

---

(١) أصول الفقه لغير الحنفية ص(٢٩)، الملل والنحل (١/ ٢٠٦)، المدخل إلى علم أصول الفقه ص(٩٣).
(٢) علم أصول الفقه ص(١٠٧)، أصول الفقه، أبو زهرة ص(١٢)، مباحث الحكم ص(٤٥)، حجة الله البالغة(١/ ٣٠٧).

الشافعي رائد المدونة الأصولية:

نهاية القرن الثاني الهجري وفي وقت مبكر كان الإمام محمد بن إدريس الشافعي يمتلك إمكانات عقلية كبيرة مكنته من ملاحظة حركة النص الشرعي وتفاعله مع الواقع ثم عمد إلى وضع النص الشرعي تحت إشـعاع المصطلح اللغوي الذي كان ضليعا فيه لتنكشـف صورته بوضوح، وتتبع جزئيات الفروع الفقهية ومسـاراتها ومدى التناظر والانسـجام بينها، ثم قام باسـتقراء الجزئيـات الفقهية وفرزها ضمن جـداول خاصة، وتمكن أخيرا مع عمليات النخل والغربلة وتفاعلاتها المختلفة من نحت أطر وقوانين تضبط مسـارات الفهم، وتحمي النـص من الفوضى الفكرية المطلقة وقفزات العقل المتجاوزة لملابسـات النص وبيئته التي ولـد فيها. وكانت تلك اللحظات هي ميلاد (علم أصول الفقه) مدوناً على مائدة البحث العلمي لتسـتقبله المدارس العلمية بمدونته الشـهيرة (الرسـالة) التي طورها من بعده الجويني والغزالي وزملائهم الأصوليين بمدرستيهم الكلامية والفقهية.

بشهادة الأوساط العلمية المختلفة آنذاك فقد كان الشافعي يمتلك إبداعا معرفيا دقيقا وعبقرية لا حدود لها، وقدرة علمية محيطية لمدرسـتي الحديـث والرأي، جعلت الرجلَ قادرا على اسـتقراءِ حركة النص الشرعي، وتتبع دلالاته وملاحظة سـلوكه بدقة عالية. ذلك الإبداع المعرفي منحت تلك المبادرة الأصولية في التدوين.

تحركات طرابيشي تقول: إن الشـافعي قام بالحجر على العقل المسلم وأغلق فضاءات النص الشرعي عن عمد بوضع قوانين "علم أصول الفقه".

لقد تعرض الإمام الشـافعي لموجة حداثية مكثفة تستهدف النيل من مؤسس المدونة الأصولية ومنظر الدرس الأصولي بحيث لو نجح اسـتهداف جيل التأسـيس سـقطت قوانينهم التي تشـكل حصونا منيعة تصد فوضويات زحفهم الفكري. وهو اسـتهداف

يحمل من الغباء المعرفي ما يحمل، فالشـــافعي – رحمه الله – كان يسير ضمن تسلسل علمي معرفي منذ عهد النبوة، كما وضحنا من قبل ولم يكن ســـوى مدونٍ للحركة الأصولية من قبله، إلا إنهم لم يتمكنوا من الإمساك بأحد قبله؛ نظرا لغياب التدوين، فكان الشافعي هو منطقة الاســـتهداف المعرفي؛ كونه يمتلك دليلا علميا واضحا ومنهجا دلاليا يوضح آراءه الأصولية.

الحركة الحداثية لاستهداف الشافعي:

يعدُّ الإمام الشافعي صاحب "النشأة المستأنفة" كما هو مصطلح ابن خلدون، وعبر عن ذلك جورج طرابيشي، فكانت جهود المدرســـة الحداثية مكثفة لإسقاطه، محاولة تأسيس منهـــج جديد على أنقاض علم الأصول الذي حال بينهم وبين أطروحاتهم الفوضوية على الساحة العلمية بزعم إطلاق العقل المكبل بتلك القيود العلمية.

فحامد نصر أبو زيد يعتبر أن الشـــافعي قاد "معركة صراع على صياغة قوانين الذاكرة الجمعية للأمة، أي قوانين تشـــغيل تلك الذاكرة، وصياغة الآليات التي على أساسها تنتج المعرفة" ويتابع في غيظ" وهكذا ظل العقل العربي الإســـلامي يعتمد سلطة النصوص بعد أن تمـــت صياغة الذاكرة في عصر التدوين ـ عصر الشـــافعي ـ طبقا لآليات الاســـترجاع والترديد. وتحولت الاتجاهات الأخـــرى في بنية الثقافة والتي أرادت صياغة الذاكرة طبقا لآليات الاستنتاج الحر من الطبيعة والواقع الحي كالاعتزال والفلسفة العقلية إلى اتجاهات هامشـــية. وقـــد آن أوان المراجعة والانتقـــال إلى مرحلة التحرر لا من ســـلطة النصوص وحدها، بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان في عالمنا"(١).

---

(١) حامد نصر أبو زيد (الشافعي وتأسيس الأيدلوجية الوسطية) ص (١١٠) سيناء للنشر الطبعة الأولى ١٩٩٢م

ومحمد شحرور يتهم آراء الشافعي بأنها سبب "بذور ذهنية التحريم في العقل العربي الإسلامي"[١]. ومحمد أركون يتهم الشافعي بأنه "ساهم في سجن العقل الإسلامي داخل أسوار منهجية معينة"[٢].

أما علي مبروك: فاتهم الشافعي بمحاولة إضفاء القداسة على شخصه وايجاد حالة مماثلة بينه وبين النبي واستدل على ذلك بتسمية الشافعي لكتابه بـ(الرسالة) [٣].

أما جورج طرابيشي، فقد استمتع بسردية طويلة لمصادرات الشافعي للعقل وتوجهاته، لتنفيذ الانقلاب على (إسلام القرآن) إلى (إسلام الحديث) فيلخص جميع تحركات الشافعي على ظهر (الرسالة) بأنها تتمثل في خلاصة مفادها: "حيثما وجدت السنة بقيت يد العقل مكفوفة"[٤] ويذهب إلى ما أسماه" تصليب القرآن وتغليق مسامه"[٥] الذي تم على أيدي الشافعي. وتشارك مع زكريا أوزون فيما أطلق عليه "جناية الشافعي"[٦]، وتحت عنوان "تهميش العقل" صرح أن الإبستمولوجيا الشافعية تقوم على مصادرتين صغرى وكبرى. بعيداً عن نقاش تلك التفاصيل إلا أننا نوضح حجم الاستهداف الذي تعرض له الإمام الشافعي بحشد كمية من المصطلحات الفكرية للتقليل من شأنه ومحاولة إسقاطه. وسنعود لشرح الآية التي اتكأ عليها طرابيشي ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل].

(١)محمد شحرور (نحو أصول جديدة للتشريع الإسلامي) ص(١٧١) الأهالي للطباعة والنشر الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.
(٢) محمد أركون (تاريخية الفكر العربي الإسلامي) ص (٧٤) مركز الانماء القومي الطبعة الثانية ١٩٩٦م.
(٣) ما وراء تأسيس الأصول، علي مبروك ص:(١١٠).
(٤) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٢٥١) ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.
(٥) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٢٢٨) ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.
(٦) زكريا أوزون "جناية الشافعي" منشورات رياض الريس ٢٠٠٥م و (من إسلام القرآن) ص (٢٢٨) ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

ولم يكن طرابيشي يملك من النزاهة العلمية ما يؤهله لإجراء عملية رصد لسياقات ألفاظ الشافعي ووضع عباراته في مواطنها المناسبة سوى عملية تشريح تأطيرية، ترسم في ذهن القارئ بشاعة الفعل الذي أقدم عليه الشافعي - رحمه الله تعالى - وهذا يحسنه كل أحد حتى مع القطعيات المعلومة من الدين بالضرورة.

وفي عنوان آخر يسقط طرابيشي مصطلح (وسطية الشاطبي) [١] الذي نعته به عدد من الباحثين كأحمد أمين ومحمد أبو زهرة وكثير ممن كتب في مناقب الشافعي.[٢] حين وقف موفقا بين مدرستي الرأي ومدرسة الحديث، وشكل من نقاط القوة لكلتا المدرستين قوة علمية أقرت بها الأوساط العلمية عبر القرون، إلا أن هذا لم يعجب طرابيشي!! فاتهام الشافعي بالتطرف هو المسلك المعتمد لديه لذا لابد من اسقاط باقي الألقاب. وأخذ على مشرحة الاستهداف ينقد حتى على ناقدي الشافعي إعجابهم به أمثال أستاذه محمد عابد الجابري ونصر حامد أبو زيد الذي سمى كتابه (الإمام الشافعي وتأسيس الأيدلوجيا الوسطية) مع ما اتسم به أبو زيد من جناية على الشافعي في كتابه هذا. إلا أن هذا اللقب لا يستحقه الشافعي في نظر طرابيشي مهما قاله باحث يدعي الحياد والمهنية العلمية.[٣]ثم يقول معلقا على ما اتفقت عليه كلمة الباحثين من عبقرية الشافعي ووسطيته بأنها مجرد انقلاب سافر لا علاقة له بالوسطية في شيء، قال: " ويتراكم هذه الدراسات وأمثالها القول بوسطية الشافعي وتوفيقيته وتركيبه بين المدرستين الرأيية والحديثية ضربا من سقط المتاع في شتى الدراسات المدرسية والتبسيطية التي تراكمت عن مؤسس المذهب في الآونة الأخيرة. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن هذه المصادرة ولهي كذلك أكثر منها أطروحة كما سنرى

---

(١) زكريا أوزون "جناية الشافعي" منشورات رياض الريس ٢٠٠٥م و (من إسلام القرآن) ص (٢٢٨) ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

(٢) أصول الفقه لغير الحنفية ص(٢٩)، الملل والنحل (١/ ٢٠٦)، المدخل إلى علم أصول الفقه ص(٩٣).

(٣) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٢٦٢) ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

للتو قد غدت أشـبه بعقيدة إيمانية لابد أن يشـهرها كل قادم جديد إلى ساحة الدراسات الشـافعية. إن هذه المصادرة التي آلت إلى مُسْلَّمة شبه مجمع عليها تحجب أولا عن الوعي واقعة الانقلاب اللاهوتي والإبستمولوجي الذي قاده الشافعي، كمؤسس ثانٍ للإسلام في "نشأة مستأنفة" حسب التعبير الخلدوني،[١] وتخلع ثانيا على هذا الانقلاب مشروعية تنفي عنه الصفة الانقلابية بقدر ما تصوره على أنه (جمع) و(توسط) و(توفيق)، وبالتالي مصالحة بين الفريقين النقيضين، فليس منقلب ولا منقلَب عليه، بل بات الحدان المتعاكسان، الرأي والحديث، أو العقل والنقل وكأنهما جناحان لطائر واحد لا يطير ولا يحلق إلا بهما. والحال أن كل ما تقدم من دراسـتنا لا يدع مجالا للشـك في أن طائر الشافعي مقصوص الجناح، وعلى نحو غير قابل لمعاودة النبت، أولا لأنه ونعني جناح العقل قد استؤصل من جذوره، وثانيـا لأن الجناح الثـاني ونعني جناح النقل قد غذي وأعطي مـن شروط النماء ما يعود يكفيه للطيران بمفرده.[٢].

طرابيشي مسـكون بعقلية الانقلاب والانقلابيين التي كررها عشرات المرات، ومنها وضـع عنوان كتابـه وهو تعبير عن البرمجة التـي يود طرابيشي ترسـيخها في ذهن قارئه "انقلابية الشـافعي" ليرسـم منها انطباعا لدى القارئ بأن الشافعي - رحمه الله- منقلب على النص الإسلامي، ووفق هذه التأطيرية ترسم الأجيال انطباعها عن الشافعي فيقول: (أفنغالي إذا قلنا إن الشـافعي نفذ انقلاباً حقيقياً على الصعيد اللاهوتي والإبتسـمولوجي

(١) بالرغـم من محاولة طرابيشي توظيف مفهوم ابن خلدون عن «النشـأة المسـتأنفة»، من جهة ما يحمله المفهوم من مركبات ومعاني القطيعة والاسـتمرارية في الوقت نفسه، إلا أنه لم يقدم رؤية جديدة تفسر اعتماد العامل العقلي بوصفه محركاً للتاريخ، مع العلم أن ابن خلدون أورد مفهومه عن النشأة المستأنفة في سياق تبدل أحوال الجماعة البشرية وتحوّل العالم من حولها، حيث يقول: «إذا تبدَّلت الأحوال جملة، فكأنّما تبدل الخلق من أصله وتحوِّل العالم بأسره، وكأنَّه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدَث». عمر عكوش.

(٢) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٢٦٢) ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.

معاً عندما جعل للسنة الرســـولية نصاباً إلهياً وبوأها منزلة الأصل مع الكتاب ..."[١]. (إذا استعرنا لغة الحركات الانقلابية الحديثة، مؤسساً لـ" جمهورية جديدة "[٢] ويمضي مؤكدا صدارة الشـــافعي في العملية الانقلابية: (ولا يعسر علينا أن ندرك خطورة النتائج المترتبة على هذا الانقلاب - والتعبير لا يبدو لنا مبالغاً فيه - الذي نفذه الشـــافعي ...)[٣] مما يؤكد أن هذا الإرهاب الفكري مجرد محاولة انتقامية لإســقاط الشافعي لكن وفق عنوان جديد يمنحه الأهلية لتنفيذ تلك العملية وعند إجراء عملية جرد فهرسي لكلمة "انقلاب" التي اســتخدمها طرابيشي في كتابه ســيجد الباحث أن الهدف بات واضحــا أمام هذا البحث المتمثل في ٦٤٨ صفحة.

ويحاول طرابيشي أن يجرد صفة (الوسطية) من الإمام الشافعي وتسفيه كل الدراسات التي جعلت منه كذلك، وهي محاولة بائسة لم تسعد بها الأوساط العلمية بل تلقتها بالرفض واعتبرت طرابيشي مســتشرق آخر يصطاد على ضفاف المدرســة الاستشراقية التي قادها "جوزيف شاخت" في كتابه (بداية الفقه المحمدي) والتي حشدت كل قواها لتحقيق ذلك دون فائدة. [٤].

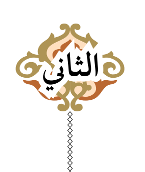
إن جناية الشـــافعي في نظر طرابيشي التي ســـماها (انقلابا) أنه حوّل الرسول- عليه الصلاة والسلام- (من مشرّع له إلى مشرِع) فقد شبه الشافعي ببولس الذي حوّر المسيحية، فيقول: "أعاد تأسيس الإســـلام القرآني في إسلام صحابي أو حتى تابعي في انقلاب يشبه - أكثر ما يشـــبه- الانقلاب الذي نفذه بولس الرسول المؤسس الثاني للمسيحية، بتحويله إياها من مسيحية إنجيلية إلى مسيحية حوارية"[٥].

---

(١) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (١٩٤) ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.
(٢) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (١٩٥) ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.
(٣) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٢٧٢) ط دار الساقي الطبعة الأولى ٢٠١٠م.
(٤) انظر: الجناية على الشـــافعي. مروان كردي الطبعـــة الأولى ٢٠١٨م . طبع دار المعراج، وعبقرية الإمام الشافعي المدد والمداد. مشاري الشثري. طبع دار البيان.
(٥) جورج طرابيشي (من إسلام القرآن) ص (٢٦٠).

وعند الحفر قليلا في سبب هذه الحملة المكثفة على الإمام الشافعي يرصد أحمد قوشتي في مدونته" موقف الاتجاه الحداثي من الإمام الشافعي عرض ونقد"[١] أن خلاصة استهداف الشافعي يتمثل في ثلاثة أسباب:

الأول: تأسيس الشافعي لمنهج علمي له قوانينه في فهم النص الشرعي، من خلال استقراء وتحليل منهج النبيﷺ وأصحابه وتابعيهم، وهذا المنهج الذي رسخه الشافعي يعد اليوم عقبة كئودا أمام زحف المناهج الحداثية لقراءة النص الإسلامي بما يخرجها عن حقيقتها وطبيعتها. فالقراءة الحداثية للإسلام تواجه سدًا منيعًا لا يمكن لها العبور من خلاله إلا بتصويب هزات عنيفة لهدمه.



: تأصيل الشافعي لمبدأ عمومية نصوص القرآن والسنة، وصلاحيتها للبشرية وختامها للحياة، وهذا ما يزعج أبناء المدرسة الحداثية الذي يبذلون جهودا مضنية في إثبات تاريخية القرآن والسنة وتحجيم النص بمرحلة زمنية ماضية لا تناسب مقاسات العصر.



: تركيز الجهود في مرحلتهم الأولى على هدم مؤسسي العلوم الشرعية والتخلص من إرثهم الذي يشكل خرسانة صلبة تمنع مشروعهم من التقدم في المجتمع الإسلامي.

لقد شكل مشروع الإمام الشافعي للاتجاه الحداثي صداعا شديدا منعهم من القفز بمشاريعهم الفوضوية للوصول للشارع الإسلامي وتقديمها كمنهجيات حديثة تتناول النص الإسلامي، فمثلت تلك الصرامة الأصولية المطورة عبر القرون من شتى المدارس

(١) أحمد غوشتي عبد الرحيم "موقف الاتجاه الحداثي من الإمام الشافعي" ط مركز التأصيل للدراسات والبحوث. وهو كتاب جدي يرصد أسباب الخصومة بين الاتجاه الحداثي وبين الشافعي ولماذا اتسم موقفهم منه بالنقد الشديد والهجوم المتشنج.

العلمية ومراكز البحث العلمي الأصولي ســدا منيعا أوقفت التلاعب بدلالات الخطاب الشرعي ومسارات النص الذي يرغبونه.

كان هــذا المنهج الذي رســم تدويناته الإمام الشــافعي باســتقراء مدارس الدرس الأصولي السابق يمثل إصابات فكرية قاتلة لمشروعهم وقادهم إلى خسائر فادحة، لذا ترى أن هناك اتفاقا حداثيا لاستهداف الإمام الشافعي بطرح متشابه في جميع أطروحات البيت الحداثي.

لقد أزعجهم ثناء الأوســاط العلمية عبر القرون لعقلية الإمام الشافعي وجهوده في ضبط تحركات العقل المســلم، وهم يبحثون عن العقل الهلامي المشــبع بالفوضى، حيث شكل لهم ذلك الانضباط مأزقا وجعل جهودهم الحداثية في مهب الريح.

ولقد أرسى الفكر الشــافعي معالم العقلية العلمية الاسلامية التي ترفض القول بلا حجة ، وتطارد التقليد وتلك المعالم أعطت بعدا هاما للعقل المســلم ووجهته إلى مسارات تفعيله كما حددته النصوص. ولم يكن الشــافعي معصوما بالوجه الذي يمنعه من الخطأ في اجتهاداته بل كانت للعلماء من بعده حتى أتباع مذهبه وتلاميذه انتقادات وآراء تخالفه، لكن ليس لحد الاستهداف والاسقاط الذي قاده طرابيشي وزمرة المدرسة الحداثية المعاصرة.

كان للشــافعي من الإمكان العلمي والإقدام المعرفي ما مكنه من إتلاف جميع مذهبه القديم وإعلانه "لا أجعل في حل مــن رواه عني"[١] بعد انتقاله إلى مصر. فأحرق قديمه ليشيد جديده وينهي مسيرة(٣٠) عاما من الأداء العلمي والبحث والتأليف في أكبر عملية تحديث ومراجعة لمفردات الفكر الإسلامي في التاريخ.

(١) مدخل إلى المذهب الشافعي (رجاله وأصوله وكتبه واصطلاحاته). دكتور نعمان جغيم ص(١٤٧) دار الكتب العلمية.

ملاحظة هامة:

ومن خلال هذا التتبع لتوجهات المدرسة الحداثية المعاصرة المنزعجة من الإمام الشافعي انزعاجا شديدا أود أن أرصد ملاحظة استنتاجية لمحتها في كتاباتهم الأخيرة، فسلوك التيار الحداثي اليوم قد تنبه لخطئه بالأمس، حيث كان يعمل من الخارج مما أكسبه ضعفا شديدا، وشهية مسدودة لدى الجمهور الإسلامي، إلا أنه في الآونة الأخيرة بدأ يعمل من داخل المنظومة الأصولية الفقهية، وفي مسلاخ "أستاذ الدرس الفقهي الأصولي"، ليمنح نفسه صلاحية الحديث، ويحمل تصريحا معتمدا يمكنه من عملية التجديد والنقد الأصولي بمشروعية ومنطقية، ويُسمح له أن ينخرط في سلك الفقهاء والأصوليين منازعا لهم أطروحاتهم ومتحدثا بذات الأسلوب، وهي عملية تسلل ذكية لتلغيم الإسلام وتفجيره من الداخل بتعبير علي حرب الذي يكشف بنفسه توجهات ذلك السلوك فيقول: "فنحن نجد أن حسن حنفي الفيلسوف الناقد الهادم بعقله لكل شيء والساعي في الوقت نفسه إلى إعادة بنائه وتأسيسه يقدم نفسه بوصفه فقيها من فقهاء المسلمين يجدد لهم دينهم"(١).

الشافعي ومنهج الدلالة والبيان:

يشير لؤي صافي في إعمال العقل إلى بدايات تجليات التفكير المنهجي عند علماء المسلمين التي رامت تحديد طرائق منضبطة لفهم معاني القرآن وتبيين أوامره ونهيه، والحيلولة دون تفسيره تفسيرا يخرجه عن دلالاته التي وضع لها أو تطويع هديه وتوجيهه

---

(١) غالبا ما يتم تقديم كتاب أبي المعالي الجويني (البرهان) وفق التصنيف الذي اعتمده ابن خلدون في تاريخ علم الأصول: حيث قرر أن:" من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لإمام الحرمين والمستصفى للغزالي وهما من الأشعرية وكتاب العمد لعبد الجبار وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري وهما من المعتزلة، وكانت الأربعة قواعد هذا الفن وأركانه ثم لخص هذه الكتب الأربعة فحلان من المتكلمين المتأخرين، هما الإمام فخر الدين بن الخطيب في كتاب المحصول وسيف الدين الآمدي في كتاب" الإحكام في أصول الأحكام" انظر مقدمة ابن خلدون (١/ ٥٧٦).

إلى رغبــات النفس ونوازع الهوى وهكذا أدت الرغبــة في وضع ضوابط واضحة ومحددة لطرائق وإجراءات تحليل النــص المنزل وفهم معانيه وتحديد دلالاته إلى بروز علم أصول الفقه." [١].

كانت للإمام محمد بن إدريس الشــافعي ريادة التدوين الأصولي لإنجاز تلك المهمة العلمية الكبرى والحجر على الهوى ورغبات النفس وشطحات الرأي من التوغل في تفسير النص الإسلامي تفسيرا خارج حدوده أوفتح باب للعقل المقاد بالفوضى وعدم الانضباط ليسرح عبر الأزمان في دلالات يمليها الهوى بحســب اختــلاف ثقافات الأجيال. فكان لمشروعه العملاق (الرسالة) البداية التأسيسية والمحاولة الرائدة لتعيين طرائق الاستدلال، وضبط منهجيات التعامل مع النص متكئاً على الإمكانات العلمية التي منحتها له مدرسة أهل الرأي ومدرسة أهل الحديث وقدراته اللغوية والفقهية. وقد ربط الشافعي- رحمه الله تعالى- فهم القرآن الكريم بنهجين من الاستدلال. ونبه إلى واجب" طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاســتكثار من علمه (أي علم القرآن) والصبر عــلى كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في اســتدراك علمه نصا واستنباطا، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لا يدرك خير إلا بعونه. فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصا واســتدلالا، ووفقه الله للقــول والعمل بما علم منه فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الريب، ونورت قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة" [٢].

وأوضــح دور العقل في فهم الكتاب وضبط مناهج الاســتدلال ليتمكن العقل من الاســتنباط المنضبط، قال "إن الله جل ثناؤه منَّ على العباد بعقول فدلهم بها على الفرق بين المختلف وهداهم السبيل إلى الحق نصا ودلالة" [٣].

---

(١) محمد بن ادريس الشافعي (الرسالة) ص(١٩) دار الكتب العلمية بيروت. وانظر إعمال العقل ص(١٦٧).

(٢)محمد بن ادريس الشافعي (الرسالة) ص(١٩) دار الكتب العلمية بيروت. وانظر إعمال العقل ص(١٦٧).

(٣) محمد بن ادريس الشافعي (الرسالة) ص(٥٠١) دار الكتب العلمية بيروت. وانظر إعمال العقل ص (١٦٧).

تناول العلماء آراء الشافعي الاجتهادية من تلاميذه وأصحاب مذهبه بالنقد والتعليق والفحص والتطوير ولم يكن أحد منهم يتحدث أن الشافعي مارس انقلابا كالذي وصفه به طرابيشي محاولا اسقاطه بأيد استشراقية واضحة.

ثمنت الأمة الثروة العلمية التي قدمها الشافعي والجهد العملاق الذي بذله في عصره وتفهمت ملابسات عصره في بعض اجتهاداته ووقفت إجلالا لها واحتراما للقيمة العلمية التي قدمها في الدرس الأصولي وإيضاح أهميته في حسم الخلاف ووضع التصورات في أماكنها الصحيحة "والفضل للمبتدي وإن أبدع المقتدي".

لقد كان مدركا العلاقات المعقدة بين الألفاظ ودلالاتها والنصوص ومعانيها، وسعى جاهدا لوضع تقسيم دقيقٍ للكشفِ عن تلكَ العلاقات، كما رأيناه واضحا في الرسالة وإن كان لمن بعده من الأصوليين مزيد إيضاح وتقسيم إلا أن جيل التأسيس يتعرض لضغط علمي معرفي شديد.

تطوير الدرس الأصولي:

تتابع الفعل التأريخي لإثراء وتطوير علم أصول الفقه، وتعرض لعملية تطوير دقيقة وخضع لنقد وتقويم من مختلف البيئات العقلية والمدارس الفكرية، ما أكسبه المتانة والإحكام وقوة الانضباط. فجهود الإمام الجويني (٤١٩هـ-٤٧٨هـ) وتلميذه الغزالي (٤٥٠ هـ- ٥٠٥ هـ) في تطوير الدرس الأصولي كانت ثمينة جدا وأسهمت في استقرار الشكل الختامي للعناوين الأساسية للمنهج الأصولي[١].

ففي القرن الخامس الهجري كان أبو المعالي الجويني يقدم مرئياته وأبحاثه المتينة في إعادة صياغة المدونة الأصولية التي ابتدأها الشافعي، ويشرح الدكتور عبد الوهاب أبو

(١) نقد النص، علي حرب ص(٣٠) ط المركز الثقافي العربي الطبعة الخامسة ٢٠٠٥م

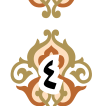
سليمان في كتابه الفكر الأصولي ملامح التجديد الأصولي الذي قاده الجويني "التجديد الذي أبرز ثوابته ومعالمه الواضحة التي لا يعزب عن المتخصصين الذين يعيشون على الفكر الأصولي في مدوناته ومصادره الأصلية...هو كما يقتضيه الإنصاف بالحكم ما تفرَّد به إمام الحرمين في هذا المجال بكل ما قيل، بل والأحرى أن يعد كتابه البرهان في أصول الفقه مشروعا لتجديد هذا العلم بكل ما يعنيه التجديد موضوعا وشكلا أيضا في صورة غير مسبوقة وغير ملحوقة أنموذجا رفيعا لتحقيق هذه الغاية.

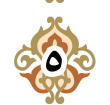
وتمثلت عناصر تجديد الفكر الأصولي عند الجويني في:


التسليم التام لأصول الشريعة وإبقاؤها على الرأي.


التحليل الموضوعي وتصويب المجتهدين في المظنونات.


تفهم آراء المخالفين وإنصافهم.


كيفية استخلاص الرأي الصحيح.


إعطاء كل موضوع خاصيته وعدم اعتباره بغيره.


إحكام صياغة المصطلحات الأصولية [١].

أما تلميذه أبو حامد الغزالي فقد قدم جهودا ثمينة في تطوير الدرس الأصولي من خلال عدد من كتبه المطولة والمتوسطة والمختصرة وكان "المستصفى" الذي ختم به تدويناته الأصولية آخر حياته يدل على الكمال الأصولي المعرفي الذي بلغه حجة الإسلام،

---

(١) راجع الفكر الأصولي لعبد الوهاب أبو سليمان، تم النقل بواسطة: "بين علمي أصول الفقه والمقاصد" لمحمد الحبيب ابن الخوجة. ص (٥٢٠).

وقد أثنى فيه الغزالي على دور العقل وقيمته في الإسلام حيث عبر عنه أنه حاكم ضروري يقول: "أما بعد فقد تناطق قاضي العقل وهو الحاكم الذي لا يعزل ولا يبدّل شاهد الشرع وهو الشاهد المُزكّى المعدّل بأن الدنيا دار غرور لا دار سرور ومطية عمل لا مطية كسل كما بين أن العقل هو أشرف الأشياء لأنه مركب الديانة وحامل الأمانة"[١] وقدم صياغات جديدة للمصطلح الأصولي، وملاحظات هامة في التكوين الأصولي. وقدم تتابعا منهجيا في التدوين الأصولي كانت نقطة فاصلة عمن سبقه بأسلوب تقريري قائم على تداعي الأفكار وتسلسلها وترابطها وإفضاء بعضها إلى بعض.

ولسنا هنا بصدد رصد التطوير الذي حدث للدرس الأصولي ولكن نشير إلماحا إلى أن الدرس الأصولي قد كان طوال القرون على مائدة التشريح العلمي المنهجي، ولم يتوار لحقبة من الحقب كما يزعم أبناء المدرسة الحداثية التي قامت على هدمه لا على تطويره وفق منهجية علمية ضابطة.

ثم كان الدرس الأصولي على موعد في القرن الثامن مع الإمام إبراهيم بن موسى الشاطبي (٧٢٠ـ ٧٩٠هـ) الذي أحدث فيه معمارا جديدا يتمم النقص الجزئي الذي لمحه في الساحة الأصولية.

يقدم الدكتور قطب الريسوني في" التجديد الأصولي عند الشاطبي" صورة بانورامية جيدة عن مسار هذا التجديد الذي أحدثه الشاطبي فيشير إلى أن " الشاطبي كان بحق وصدق مجددا في هذا المضمار بموافقاته بينَ الظاهر والباطن واعتصامه بحبل المقاصد، ودلالتها الحاكمة على التصرف، والتدين، والصنيع الاجتهادي بأفراده المتعددة، وقيامه على تصحيحِ المفاهيم الأصولية انطلاقا من الحاجة التدينية لعصره، وليس هذا النزوع التجديدي ضربا من الترف الفكري أو الرياضة العقلية، بل أوجبته دواع إصلاحية متحفزة إلى ترميم العقل الفقهي، وتصفية الدين، وتأصيل سؤال الأخلاق في إطار

---

(١) المستصفى (٢/ ١٩٠).

العقلانية القاصدة، بعد أن أوشكت الحضارة الأندلسية على الأفول، وتغشى الأمة ما تغشاها، من ألوان التردي السياسي والاجتماعي والفكري.

بيد أن أصداء مشروع الشاطبي تعدت حقل التجديد الأصولي إلى حقول الممارسة الاجتهادية والدعوية، وأسهمت في تشكيل وعي جديد لدى أرباب الفتوى، والدعوة، والفكر، لا نغالي إذا سميناه صحوة علمية، والصحوة إنما تكون بعد سبات وخمول ودعة."[1].

ويشير إلى البعد الأخلاقي الذي كان الشاطبي يرسمه من خلال مشروعه التجديدي وغاياته النبيلة من هذا المشروع. "إن التجديد الأصولي عند الشاطبي مواكب لضرورات الإصلاح في عصره، ومنخرط في مشروع حضاري طموح إلى ترميم تناقضات المجتمع الأندلسي واستئناف الدور القيادي للشريعة، تحت شعار الأوبة للأصول، ومواجهة التدين الزائف، وصياغة النموذج الأمثل للتحلي والتخلي، ولا يستد الحديث عن التجديد عند الشاطبي إلا برسم إطاره التاريخي والمعرفي، وتفسيره في ضوء الظواهر والأعراض التي عج بها واقعه، والناس بواقعهم أشبه منهم بآبائهم.

ولعلنا لا نحيد عن مدرجة الحق إذا قلنا: لا يعرى ملمح أصولي تجديدي عند الرجل عن مقصدية دعوية أو أخلاقية أو تربوية، وهذا التماهي بين (الأصولي) و(الأخلاقي) ينبثق من رسوخ اقتناعه بالبعد الرسالي لعلوم الشريعة، وكونها وسيلة إلى التعبد وإخراج العبد من داعية هواه، يقول في المقدمة السابعة من(موافقاته) "كل علم شرعي، فطلب الشارع له إنما يكون من حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله تعالى، لا من جهة أخرى، فإن ظهر فيه اعتبار جهة أخرى، فالتبع والقصد الثاني لا بالقصد الأول، وكل علم لا يفيد عملا فليس في الشرع ما يدل على استحسانه"[2].

---

(١) التجديد الأصولي عند الإمام الشاطبي. قطب الريسوني ص(٦) ط دار الميمان للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ٢٠١٨م

(٢) الموافقات للشاطبي (١/ ٦٠-٦١) والتجديد الأصولي عند الإمام الشاطبي. قطب الريسوني ص(١١) ط دار الميمان للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ٢٠١٨م

وهنا ندرك الفرق بين مسار التجديد الأصولي الذي قاده الأصوليون عبر القرون ونتائجه على تطوير علم أصول الفقه، ومسار التيار الحداثي المعاصر ومدارس الاستشراق من ذلك.

ويظهر أن المشروع الشاطبي التجديدي في مدونة "الموافقات" كان من أهدافه تطوير العقل الفقهي وإخراجه من حالة الركود التي عاشها في تلك الفترة والقفز بالدرس الأصولي قفزة كبرى إلى الأمام "فالعقل الفقهي في عصر الشاطبي كان نائياً عن معتركه الحقيقي مزبونا في هوامش ضيقة من الانتساخ، والاجترار، وترداد المسطور المكرور، كأن طاقته من النزارة بالقدر الذي لا يسعف على اقتحام غمرة فكرية أو استشراف أفق جديد من آفاق النظر الاجتهادي!

وإن استدعاء سياق العصر الأندلسي عموما، والغرناطي على وجه الخصوص، لينهض الدليل الدامغ على ان استقالة هذا العقل من قبل النوازل المتسارعة مسوغة باستفحال آفتين: آفة التعصب المذهبي، وآفة العبث التأويلي، ولذلك سعى الشاطبي سعيه لمقارعة المقلدة المؤولين، وآثر أن يكون تجديده الأصولي متنفسا لذلك، بدءا من المصطلح، ومرورا بالتقعيد، وانتهاء بالصياغة [(١)].

وكانت ظنية الطرق المؤدية إلى الفقه التي أشعلت الأراضي الأصولية بمعارك مختلفة ونزاعات شديدة ترويها كتب الأصول منفذاً لهؤلاء لتجديد التقليل من شأن الشافعي وزملائه أعضاء المدرسة الأصولية، فتركزت جهود الشاطبي مجددا لحسم هذه المعركة فقد كان شعوره بضرورة حسم تلك المباحث الظنية في ثنايا علم الأصول ونقلها لمنطقة القطع، فعمد إلى عمليات استقراء واسعة وتجميع لجزئيات تلك الظنيات ولم شتاتها حتى بلغت التواتر فحكم بقطعيتها.

---

(١) التجديد الأصولي عند الإمام الشاطبي. قطب الريسوني ص(١٣) ط دار الميمان للنشر والتوزيع.

هذا المجهود العملاق الذي قاده الشـاطبي تجلت فيه قدراته الأصولية فقد اسـتهل كتابه (الموافقات) بحسـم هذه القضية من خلال منهجية علمية مسحية تمنحه قدرا كبيرا من الصحة والثبات يقول في افتتاحية كتابه "أصول الفقه في الدين قطعية لا ظنية"[(١)] ويعلق الريسـوني على هذه القاعدة بأنها امتداد لفكرة قطعية الأصول عند الجويني، ووسـيلة إلى عقلنة التكليف، ونشـدان الوفاق، ونقـل المعرفة الأصولية من وضـع البيان إلى وضع البرهان، استنادا إلى منهج الاستقراء، والمبادئ العقلية الضابطة، وانتهاء إلى انبساط الحكم (حكم الله تعالى على ما لا نهاية) [(٢)] .

كشـف الباحث أحسن الحساسنة عن تحركات الشـاطبي في حسم هذه القضية التي أرقـت الأصوليين، في كتابه "معالم التجديد في أصول التشريع الإسـلامي"[(٣)] وهو بحث عميق مشبع لتفصيلات وخطوات هذا الحسم، حيث تمثلت تحركات الأصوليين من قبله لمواجهة هذه القضية بصور مختلفة، فالباقلاني اضطر إلى إخراج القضايا الظنية من الدرس الأصولي، والجويني من قبله قدم اعتذارا عريضا عن إدخالها فيه، وقدم لائحة من المبررات التي رآها مناسـبة لهذا الحشو. أما ابن حزم فقد القى بالبحث الأصولي في رحاب البراهين العقلية سعيا إلى محاولة بناء قواعد تعطي نتائج قطعية.

وإضافة إلى قيام الشـاطبي بتنقية المنهـج الأصولي من المسـائل العارية عنه ونخله

---

(١) الشاطبي (الموافقات) (١/ ٢٩).

(٢) الجويني (الغياثي) ص ٦٤٨. والتجديد الأصولي عند الإمام الشـاطبي. قطب الريسوني ص(٣٧) ط دار الميمان للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ٢٠١٨م

(٣) يسـعى الكتاب إلى كشـف منابع الفكر الأصولي عند الإمام الشـاطبي وخصائصـه العلمية وآرائه التجديدية، وجوانب إبداعه في مجال أصول الفقه، مع إبراز منهجيته العلمية الأصولية التي شـكلت في مجموعها تكاملًا معرفيًّا جديرًا بالاعتبار، ومما يحسـب لهذه الدراسـة تناولها للمضامين الأصولية التي تمثلت في بعض آراء الشـاطبي الأصولية، مقارنًا إياها بغيرها من آراء علماء الأصول، أو عارضًا إياها عرضًا تحليليًّا قصد الكشف عن مختلف الأبعاد النظرية والتطبيقية للمسائل الأصولية. [إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر – العدد ٧٨]

للقواعــد الأصولية لطرد كل ما علق بها من غير فنها كعلم الكلام واللغة والمنطق التي تم تلفيقها بالقوانين الأصولية يقول:" كل مسألة مرسومة في أصول الفقه لا ينبني عليها فروع فقهية، أو آداب شرعية، أو لا تكون عونا في ذلك، فوضعها في أصول الفقه عارية"[١].

وعمد إلى جذور هذا العلم فضخ جهوده الفكرية وقدراته العلمية في تطوير "المصطلح الأصــولي" كما رصده فريد الأنصاري [٢] "ولا يكون التجديد في العلم صلبيا راســخا إلا إذا مس اللبنة الأولى من نسـيجه وهي المصطلح، ولذا آثر الشــاطبي البداءة به في تجديده الأصولي وأدار عليه أنظاره المقاصدية المسددة حتى استوى معجونا بماء المقاصد، ومفصلا بمعيار الخدمة لها.

وإن تجديد مصطلح ما، في علم ما، في زمن ما، يعني أن تحريفا اعتراه، وأزاله عن حق مفهومــه، والتحريف ديدن أهل الأهواء، ولا يلفي متنفســه إلا في بيئة فكرية متحجرة لا سبيل فيها إلى إحياء العلوم، ونقد أدبياتها السائدة [٣].

أما المقاصد الشرعية فكان رائد التجديد فيه بل المستقدم الأول لها في الساحة الأصولية بعــد لبنات قادها عدد من الأصوليين من قبله فكان التنظير الأصولي معجونا بماء المقاصد في الموافقات من رأسه إلى قدمه بتعبير الريسوني[٤] .

وتعد هذه القفزة التي أحدثها الشاطبي في الدرس الأصولي قفزة نوعية، فتحت شهية العلماء للبناء عليها والاعجاب بمستواها المنهجي الرائد غير أن المدرسة الحداثية ذاتها كان لها رأي آخر من هذا التطوير كما سنذكره فيما بعد.

---

(١) الشاطبي (الموافقات) (١/ ٤٠).

(٢) المصطلــح الأصــولي عند الشــاطبي فريد الأنصاري الطبعــة الأولى ٢٠٠٤م المعهــد العالمي للفكر الإسلامي.

(٣) التجديد الأصولي عند الإمام الشــاطبي. قطب الريســوني ص(٦٣) ط دار الميــان للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ٢٠١٨م

(٤) التجديد الأصولي عند الإمام الشــاطبي. قطب الريســوني ص(٤٧) ط دار الميــان للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ٢٠١٨م

وجاء العلامــة محمد الطاهر بن عاشــور (١٢٩٦ـــ ١٣٩٣هـــ) ليضع الإطار الفلســفي لتلك الخطوات الإجرائية التي صنعها الشاطبي فبحسب إسماعيل الحسني فإن "نظرية المقاصد عند الإمام الشــاطبي لم تكن عند التأمل الدقيق إلا أداة إجرائية في البحث المقاصدي عند ابن عاشــور"[١]. وكانت الإمكانات العلمية واللغوية التي امتلكها الإمام الطاهر بن عاشور مؤهلة له في تحليل الابتكار الأصولي الذي دونه الإمام الشاطبي، ونقد أدبياته يقول: "فنحن إذا أردنــا أن ندون أصولا قطعية للتفقه في الدين حق علينا أن نعمد إلى مســائل أصول الفقه المتعارفة، وأن نعيد ذوبها في بوتقة التدوين ونعيرها بمعيار النظر والنقد، فننفي عنها الأجزاء الغريبة التي غلثت بها، ونضع فيها أشرف معادن الفقه والنظر ثم نعيد صوغ ذلك العلم ونســميه: علم مقاصد الشريعــة، ونترك علم أصول الفقه على حاله تستمد منه طرق تركيب الأدلة الفقهية"[٢]. كانت مرئيات ابن عاشور تقوم على فصل "المقاصد" عن مفردات الدرس الأصولي وجعلها مســتقلة تماما عنه مع إبقاء أصول الفقه علما مستقلا، ولعل جهود الشــاطبي ومحاولاته العلمية الناجحة في الدرس الأصولي هي من أغرت ابن عاشــور لمزيد من التطوير وعليها اتكأ الرجل واثقا بلا تردد. "إن الشاطبي بصَّر ابن عاشور بدروب التجديد فانتحاه، ثم شعبه إلى دروب أفضت به إلى قرار الفصل. بيــد أن تأثر المعلم الثاني بالمعلم الأول لا يدور في فلك التكرار والاجترار، بل فيه جوانب لا تخفى من الإضافة والابتكار"[٣].

واستمرت عجلة التطويرات الأصولية تتابع من خلال سلسلة من البحوث والرسائل العلميــة الجامعية والمؤتمرات العلمية وغيرها.. التي قدم فيها العلماء والباحثون مســالك شــتى وتصحيحات فريدة، لكن عــلى طاولة بحثية متينة مبنية عــلى منهجية تطور العلم

(١) نظرية المقاصد عن الإمام محمد الطاهر بن عاشــور ص (٣٠) إسماعيل الحسني الطبعة الأولى. المعهد العالمي للفكر الإسلامي ٢٠٠٥م

(٢) محمد الطاهر بن عاشــور "مقاصد الشريعة الإسلامية" ص١٧٢ دار النفائس للنشر والتوزيع الأردن. الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

(٣) التجديد الأصولي عند الإمام الشاطبي. قطب الريسوني ص(١١٢) ط دار الميمان للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ٢٠١٨م

وتبحث في وجهات النظر العلمية المختلفة للعلماء فيها وتعكف على تقديم المفيد الذي يسهم في إطلاق العقل المنضبط البعيد عن الفوضى الذي يتمثل دين الله الذي ارتضى.

لقد صادفت دعود الشاطبي من أحلاف التجديد جَنانا واعيا، وأذنا صاغية، فأداروا عليها رؤاهم وعناوين بحوثهم، ومن هذه الرؤى أو تلكم العناوين:

مدخل التجديد الأصولي: مدخل التنخيل [١].

ما يجدد علم الأصول بإزالته منه[٢].

تجديد تصفية في محتوى الفكر الأصولي[٣].

الوظيفة الأصولية جدل المفهوم [٤].

حذف المسائل العارية [٥]. [٦] إضافة إلى ما قام به آخرون من جهود عملاقة في خدمة مسار التجديد الأصولي في عصرنا، وتطوير الآلة المقاصدية ودراسة متعمقة لنظرياتها.

تحركات المدرسة الحداثية في ساحات الأصول:

أما المدرسة الحداثية، فقد عمدت إلى الدعوة إلى هدم تلك القوانين الأصولية وإطلاق مسارات العقل ليعمل في بيئة خالية من الانضباط، تقول في النص ما تشاء وفق المدخلات العقلية التي يمتلكها كل عقل، وهي دعوة متمردة على العقل والنقل تسير في ضوء أهداف مشبوهة.

---

(١) نظرية التجديد الأصولي للحسان شهيد، ص(١٣١،١٥٥).

(٢) تجديد علم أصول الفقه لمولود السريري ص(١٨٩، ١٩٠).

(٣) قراءات معرفية في الفكر الأصولي لقطب سانو(١٥٩ ــ١٦٧).

(٤) غمرات الأصول. مشاري الشثري، ص(١٩ ــ٦٤).

(٥) التجديد في أصول الفقه ، لجميلة بو خاتم ص(٤١٠).

(٦) التجديد الأصولي عند الإمام الشاطبي. قطب الريسوني ص(٤٧) ط دار الميان للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ٢٠١٨م

تذهب القراءة الحداثية للنص القرآني مذهبًا مختلفًا فهي تود تفسيرَ القرآنِ مجردا من أي انضباطات أو شروط مهنية، تساعد على الكشف عن المقصود الدلالي للآيات القرآنية، بل على العكس تود التجرد من أي التزامات سوى أن تسمح للعقل أن يسرح أفكاره فيها، وقد شرح ابن النقيب قديما الطرق التي يسير عليها دعاة التفسير بالرأي الفاسد، قال: " جملة ما تحصل في معنى حديث التفسير بالرأي، خمسة أقوال:

أحدها: التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير.

الثاني: تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

والثالث: التفسير المقرر للمذهب الفاسد، بأن يجعل المذهب أصلا والتفسير تابعا، فيرد إليه بأي طريق أمكن وإن كان ضعيفا.

الرابع: التفسير على أن مراد الله كذا على القطع من غير دليل.

والخامس: التفسير بالاستحسان والهوى"(١)

وهي نفسها ما تصبو إليه المدرسة الحداثية، التخلص من أي التزامات مهنية في العملية التفسيرية والانطلاق المجرد في فضاءات النص، وسيادة العقل في هذه المناطق. لذلك يرى عبد المجيد الشرفي أن إحاطة القرآن بالقداسة يجعلنا لا نهتدي إلى دلالاته العميقة، قال: "مهما كان التوجه فإن معظم التفاسير حاولت أن توجد معنى للقرآن في إطارِ القداسةِ فلم نوفق إلى بلوغ منطقه العام."(٢) ويرفض محمد أركون تسمية "القرآن الكريم"، ويطلق عليه بـ"الظاهرة القرآنية"؛ لأن كلمة "قرآن" "مثقلة بالشحنات والمضامين اللاهوتية والطقوس الشعائرية"، ولأنها تقف عائقا أمام المراجعة النقدية الجذرية للتراث الإسلامي وإعادة تشكليه. فأركون يتحدث عن الظاهرة القرآنية كما يتحدث عن الظواهر

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي، (٢/ ٤٠٢).

(٢) "في قراءة النص الديني" لعبد المجيد الشرفي وآخرين، ص٨٩، سلسلة موافقات، طبعة١٩٨٩م.

العلمية والاجتماعية، ويهدف من وراء ذلك إلى "وضع كل التركيبات العقائدية الإسلامية وكل التحديثات اللاهوتية والتشريعية والأدبية والبلاغية والتفسيرية.. إلخ على مسافة نقدية كافية كباحث علمي"[١].

أما محمد شحرور في "نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي" فيرى أننا "بحاجة إلى وضع أسس جديدة للفقه، ولا يغرنك شعار باب الاجتهاد المفتوح، فهو شعار تسويقي بحت، لأننا نتحدث عن إعادة تأصيل الأصول بتقديم مفاهيم جديدة لآيات الأحكام، مثل نظرية الحدود في التشريع، وفكرة أن السنة القولية ليست وحيا، وفكرة أن الإجماع هو إجماع الأحياء لا إجماع الأموات، وفكرة أن القياس هو بتقديم البينات المادية الإحصائية لا بقياس شاهد على غائب"[٢] ثم أخذ يوضح تلك القضايا بطريقته بعيدا عن السياقات العلمية المستمدة من الإطار الذي تتابع عليه العلماء في كل عصر ومصر، ثم يدعي الارتماء في أحضان النص زعما أنهم ينحتون منه فهمًا واستنباطا بعيدًا عن سياقات لغة التنزيل ودلالاتها.

وقد رصد الريسوني في (التجديد الأصولي) تحركات المدرسة الحداثية وموقفها من التجديد الذي أحدثه الإمام الشاطبي، فقال: "كان لموافقات الشاطبي حضور في القراءة المعاصرة للنص الديني، وكانت أنظاره الأصولية التجديدية مثار احتفال عند بعض المفكرين المعاصرين، كنصر حامد أبي زيد، وحسن حنفي، ومحمد عابد الجابري، بيد أن هذا الحضور وذاك الاحتفال لم يصادف محله، أو يؤتي أكله، لكون المحتفي والمحتفى به على طرفي نقيض في تصور المجال الحركي للعقل، وفهم الدور الوسطي للمقاصد، بوصفها ميزانا عاصما من تفريط الحرفيين، وإفراط المتقولين.

(١) الفكر الأصولي، واستحالة التأصيل، محمد أركون. ترجمة هاشم صالح. دار الساقي، بيروت. ط٢. سنة ٢٠٠٢، ص (٢٠٠).

(٢) محمد شحرور "نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي" ص(٥٦) طبع دار الساقي.

ولعل محمد عابد الجابري أكثر المفكرين العصرانيين اتكاء على المدخل المقاصدي لبناء منهجية جديدة في التأصيل والاستنباط، تقوم أول ما تقوم على تنصيب المقاصد المعاصرة، كالحرية والمساواة، والعدالة الاجتماعية، حكما على النصوص الجزئية، فلا يسلم منها إلا ما أقرته الأوضاع الحادثة والمصالح المستأنفة بوصفها أسباب نزول جديدة، تصنع معقولية الحكم، وتجدد روح الفقه، وتجعل باب الشريعة مشرعا في وجه مستجدات العصر، يقول:" بناء معقولية الحكم الشرعي على أسباب النزول في إطار اعتبار المصلحة، يفسح المجال لبناء معقوليات أخرى، عندما يتعلق الأمر بأسباب نزول أخرى، أي وضعيات جديدة، وبذلك تتجدد الحياة في الفقه، وتتجدد الروح في الاجتهاد، وتصبح الشريعة مسايرة للتطور، قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان"[١].

وفي إطار الجهل بمنظومة الشرع، وتراتيبها، وتكامل كلياتها وجزئياتها، استغنى أرباب هذا الاتجاه عن أسباب النزول المأثورة بأسباب جديدة مدارها على المصلحة الوقتية الناسخة للحكم التفصيلي، فغدا لكل عصر مقاصده وأسباب نزوله، التي تصنع معقولية الأحكام، وحيوية الفقه، واتساع صدر الشريعة للمستجدات، بيد أن المنصفين من مفكري الأمة وسعوا أوعية النصوص، واستثاروا دلالاتها الإضافية ببصيرة مقاصدية حذّاء، وفتحوا للشريعة أكثر من نافذة لمواكبة النوازل المستأنفة، فكانت آثار ابن عاشور، وأبي زهرة، وفتحي الدريني، وعبد الرحمن السنوسي، صدى عطرا ومرنانا لتجديد الشاطبي وعبقريته الأصولية".[٢]

ونلاحظ أن الحفريات الحداثية لأعمال الشاطبي كان لها عدد من وجهات النظر،

(١) "وجهة نظر" محمد عابد الجابري، ص(٦٣).
(٢) "التجديد الأصولي عند الإمام الشاطبي" قطب الريسوني ص(١٢١ ـ ١٢٧) ط دار الميمان للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ٢٠١٨م

فمحمد عابد الجابري عمد إلى التضخيم الابستمولوجي [١] لأعمال الشاطبي. واعتبر أن الإمام الشاطبي شكل قطيعة ابستمولوجية مع الشافعي وكل الأصوليين من بعده؛ كونه دعا لبناء أصول الفقه على المقاصد بدل بنائها على استثمار الألفاظ [٢]، وهذا التحليل الجابري يعد ممهدا لإحلال المقاصد محل الأحكام الشرعية بطريقة ما.

وأما جورج طرابيشي، فقد كان أكثر وضوحا في استهداف الشاطبي من غيره فما هو عنده إلا صورة أخرى للشافعي منفذ "الانقلاب الأول"، وانتقد رأي الجابري فيه. وفي رأيي أن كلا الرجلين استهدف الشاطبي فكان الجابري أكثر ذكاء وحرفنة من طرابيشي؛ حيث أراد أن يكون الشاطبي بابا شرعيا لعبور عربة الحداثة من خلال طريقها، فعمد إلى الثناء على الشاطبي لكن بالفهم الذي يوده لأدوات الشاطبي في العبور، بينما كانَ طرابيشي أكثر وضوحا في نقد الشاطبي الذي ما هو في الحقيقة عنده إلا نسخة أخرى من الشافعي "لكن العصر الذي صنف فيه الشاطبي كان أكثر انحطاطاً من العصر الذي صنف فيه الشافعي، ثم يتأدب أخيراً مع الشاطبي ويلقبه "بشافعي عصر الاندثار"[٣]؛ وذلك اعتمادًا على أن الشاطبي لم يراع المعاني والمقاصد كما ينبغي؛ ذلك لمراعاته أحياناً للنصوص بحرفيتها. [٤]

ويعكس كلام طرابيشي هنا الأزمة التي شكلها علم الأصول للمدرسة الحداثية

(١) ماهية الابستمولوجيا: كلمة "معرفي" في الخطاب الفلسفي العربي هي عادةً ترجمة لكلمة "ابستمولوجيا"، وهي كلمة مشتقة من كلمتين يونانيتين "ابستيم" بمعنى "معرفة" أو "علم" و"لوجوس" بمعنى "دراسة" أو "نظرية". والابستمولوجيا هي علم دراسة ما نزعم أنه معرفة، إما عن العالم الخارجي (المادي) أو عن العالم الداخلي (الإنساني)، وهو علم يدرس (بشكل نقدي) المبادئ والفرضيات والنتائج العلمية بهدف بيان أصلها وحدودها ومدى شموليتها وقيمتها الموضوعية ومناهجها وصحتها. والابستمولوجيا، في اللغة الإنجليزية، هي بشكل عام نظرية المعرفة (التي تتناول العلاقة بين الذات العارفة والموضوع المعروف).

(٢) مقال بعنوان "إعادة تأصيل الأصول"، محمد عابد الجابري.

(٣) وحدة العقل العربي، جورج طرابيشي، ص(٣١٩).

(٤) مقال بعنوان: "حفريات الحداثة في الحقل المقاصدي" منة الله علي.

وضرر التطوير الذي قاده الشـاطبي عليها، فمع تكاثف الغبـار على الأدوات الأصولية وأفول الكثير من قواعدها عن العصور التي سـبقت الشـاطبي، إلا أن تجديد الشـاطبي قـد أعادَ بعث هذا العلم من جديد إلى المنصة العلمية؛ مما شـكل تهديدا حقيقا على جهود المدرسـة الحداثية ومنطلقاتها في إقصاء النص وإعادة تنصيب العقل منفردا. لذا نلحظ في كلام طرابيشي خيبة أمل من ظهور شـافعي جديد في عصر الاندثار، وهو ما يؤكده وائل حلاق الذي رأى أن الشاطبي رغم تجديده إلا أنه لم يخرج عن فروع الفقه المالكي والتزامه بالتأصيل ضمن ناطقاته، وهو ما لا يرجونه ويأملونه.

لقد كان احتفاء بعض رواد المدرسة الحداثية بالمقاصد كالجابري مجرد منفذ لعبور أفكار الفوضى التي أرادوا أن يسوقوها، فوجدوا أن فكرة المقاصد فكرة فضفافة لنشر بضاعتهم الاستنباطية، وعبور عربة المعقولية عبر الطريق المقاصدي مجردا عن طرق ثبوتها، ومجالات إعمالها، وعلاقتها بالجزئيات وتنوعها بحسب المراتب الشرعية. وفق الطرح الدقيق الذي وضع إطاره الشاطبي، ومن بعده ابن عاشور، وهو ما أدركه طرابيشي فعبر عن خيبة أمله من ظهور شافعي جديد في القرن الثامن الهجري.

على أبواب القياس [١]:

كانت نفس طرابيشي مسدودة من "القياس" أيضا باعتباره حركة موهومة تسمح للعقل بالحراك، لكنه محكوم بحركـة النص يدور معه حيث دار، وهذا ما لا يرغب به طرابيشي، فهو يرغب بإطلاق العقل بعيدا عن النص وفي فضاءات مفتوحة. إذ يعبر عن ذلك بقوله: " الشـافعي حصر العقل في دائرة ضيقة من الاسـتتباع ولم يلغه إلغاء تاما، فالدليل يقدمه

(١) اختار الآمدي تعريفا للقياس حيث قال: " والمختار في حد القياس أن يقال إنه عبارة عن الاستواء بين الفرع والأصل في العلة المسـتنبطة من حكم الأصل، وهذه العبارة جامعة مانعة وافية بالغرض عرية عما يعترضها من التشـكيكات العارضة لغيرها على ما تقدم ". الآمدي - الإحكام في أصول الأحكام - دار الحديث القاهرة جزء ٣ ص(٢٣٧).

تأسيسه النظري لآلية القياس... وبالفعل قبل أن يفرد الشافعي بابا على حدة للقياس، كان صاغ من طلع الرسالة المصادرة التالية: (ليس لأحد أن يقول في شيء حل ولا حرم إلا من جهة العلم، وجهة العلم الخبر في الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس، والقياس ما طلب بالدلائل على موافقه الخبر المتقدم من الكتاب أو السنة)[١].

إن طرابيشي لا يرغبُ أن يكون النص هنا هو المستند الذي تقاسُ الحوادث عليه، ولكنه يود للعقل أن ينطلق بلا رباط يعود إليه، وهذا ما يظهر جيدا مشكلة الرجل مع النص وليس مع آلية القياس. فالشافعي لا يشق طريقا للعقلِ بعيدا عن النص، واتهامه بتهميش العقل وتحجيمه اتهام مقصود إلا إذا كان النص هو الذي همش العقل، وهذا ما لا يستطيع طرابيشي التصريح بها صراحة فلجأ إليه تعريضا. "فالنص الذي يتحرك عقل الشافعي في إطاره نص لا تتناهى معانيه، فهو نص من لدن المطلق، وتتلاقى آياته وصحائفه مع آيات الله "[٢].

النص الذي يتخذه الشافعي أرضية للاجتهاد في استنباط معانيه لا يقيد عقله كما يقول طرابيشي، ولكنه يفتح أمامه آفاق الممكنات، ويحثه على استنفاد أقصى طاقته في محاولات لا تنتهي؛ لأنه نص مطلق غير قابل للتحديد ليس في ذاته بل بنسبة علم الإنسان إليه ولا متناهٍ في ذاته بالفعل، وليس بنسبة علم الإنسان إليه[٣].

إن الشافعي كان يدور في دائرة النص، وهي تهمة طرابيشية كافية للحكم بأنه يمارس إلغائية العقل وإقالته بعيدا عن التغلغل في تحليل معاني القياس وموضوعاته، وسبر العلل، وتقسيمها، وتحقيق المناط وتخريجه، والكشف عن مسالك العلة، وهي البيئة التي أراد الأصوليون بمن فيهم الشافعي أن يعمل فيها العقل ويجري قدراته وعملياته فيها، فحراك

(١) طرابيشي (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث) دار الساقي ص(٢٥٣).
(٢) "من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث والموضوعية المستحيلة" ص(٤٣).
(٣) "من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث والموضوعية المستحيلة" ص(٤٣).

العقل في بيئة تسمح له بالعمل المنضبط أما أن يترك بلا قاعدة يتحرك من خلالها فتلك فوضى لا يقبلها العقل نفسه[(١)].

هذا الذي فهمه الأصوليون من القياس أنه يمثل بيئة اجتهادية تحت ظلال النصوص، فإطلاق الطاقات العقلية لاستخراج الأحكام الشرعية التي لم تأت به النصوص صراحة يمكن استخراج الكثير من فروعها بالتنقيب عنها من خلال القياس ويشير محمد أبو زهرة إلى تلك العملية التنقيبية التي تتم في منطقة القياس فيقول: " وإذا كان القياس في الفقه الإسلامي هو ما قررنا من أنه إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر منصوص على حكمه لاشتراكهما في علة الحكم، فهو إذن من باب الخضوع لحكم التماثل بين الأمور الذي يوجب التماثل في أحكامها، لأن قضية التساوي في العلة أوجدت التماثل في الحكم، فهو إذن مشتق من أمر فطري تقره بداءة العقول، إذ أساسه ربط ما بين الأشياء بالمماثلة إن توافرت أسبابها، ووجدت الصفات المتحدة المكونة لها، وإذا تم التماثل في الصفات فلا بد أن يقترن به حتما التساوي في الحكم على قدر ما توجبه المماثلة. وإن الاستدلال العقلي في كل ما تنتجه براهين المنطق قائم على الربط بين الأمور بالمماثلة الثابتة فيها ليتوافر الشرط في

---

(١) " الركائز التي تقوم عليها الحداثة المعاصرة:
- الحركة الدائمة التي همها توليد الحركة.
- تقديس الجديد من حيث هو جديد لا لاعتبار آخر.
- الاهتمام بالحاضر والرفض التام للماضي.
- التمركز حول الذات.
- تمجيد العقل والسعي نحو العقلنة.
- التمدن والتصنيع والتكنولوجيا.
- الشك في صحة الكتب المقدسة وفي كل ما هو ديني.
- الانفتاح الكامل على الكون.

وقد اصطبغت القراءات الحداثية للنص القرآني بأغلب هذه المواصفات وقامت على أهم هذه الركائز؛ لذلك فهي تحاول قطع الصلة بالتراث التفسيري، وتغلب العقل على ما سواه من الأصول للنظر في القرآن الكريم، كما أنها تستبعد مفهوم القداسة في التعامل مع نصوص الوحي. [القراءة الحداثية للنص القرآني. فاطمة الناصري جامعة محمد الأول ندوة دولية حول الحداثة والهوية الثقافية، أية علاقة؟ يومي ٢٩-٣٠ أبريل ٢٠١١].

إنتاج المقدمات لنتائجها، وإن هذه المماثلة لا تنتج نتائجها المقررة الثابتة إلا بالاعتماد على البديهة المقررة الثابتة، وهي أن التماثل يوجب التساوي في الحكم.

ولقد وجدنا القرآن الكريم يستعمل قانون التساوي في الأحكام لتشابه الصفات والأفعال، فقد قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد] وبين افتراق الأحكام عند عدم التساوي في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[الجاثية] وبهذا نرى القرآن يطبق قانون التساوي العقلي أكمل تطبيق، فيثبت الحكم عند التماثل وينفيه عند التخالف، ولقد تظافرت الأخبار عن رسول الله ﷺ في الأخذ بهذا القانون المحكم وإرشاد الصحابة إليه.."[(١)].

فهو إذن قبضة من أثر النصوص، ومساحة جيدة يعمل في بيئتها العقل بفاعلية ويجري عملياته فيها وتعليلاته واستنتاجاته ومقارناته، وهي من أعلى العمليات والقدرات التي وصل إليها العقل.

إن طرابيشي لا يريد نقاش موضوع القياس بالطريقة التي ناقشها الأصوليون، ما بين مقر له كدليل ضمن الأدلة الشرعية المتفق عليها أو المختلف فيها، وما بين الشروط المتعلقة به، ولكن يبحث عما يسميه بمصادرات العقل وتضييق مساحاته، فيقول: "وظيفة العقل القياسي إذًا ليست أولى بل ثانية، وليست بادئة بل تالية، وبمفردات الشافعي نفسه، وظيفة عاملة على مستوى الفروع لا على مستوى الأصول."[(٢)]

ثم يوضح ذلك أكثر فيقول: "والواقع أن الهامش الذي تركه الشافعي للعقل القياسي

(١) محمد أبو زهرة (أصول الفقه) ص(٢١٩ ــ ٢٢٠). دار الفكر العربي.
(٢) طرابيشي (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث) دار الساقي ص(٢٥٤).

من حرية الاشـــتغال كان أضيق" [١]فهي محاولة أخرى غير تلـــك التي دارت في الأروقة الأصولية، من البحث عن حجيته من عدمها، ولكنها التوغل في إثارة غبار كثيف حول ما أسماه "تصنيم النص واستقالة العقل".

طاقات القياس الداخلية:

صحيح أن الأوعية القياســية في أصول الفقه قبضــة من أثر النصوص، لكن طاقاتها الداخلية لا تســعفها لالتهام القضايا المفصلية والطروحات العملاقة لذا لجأ المجددون في الدرس الأصولي إلى البحث عن وعاء أوسع وأكبر يتمكن من ذلك الاستيعاب لمجالات الحياة العامة وجعله رافدا قويا في مواجهة التحولات العملاقة في أمة الشهود الحضاري.

انحــسر القياس في دوائر ضيقــة وأحاطت به شروطه ومناطاتــه حتى أحجمته عن تناولات القضايا الاجتماعية الكبرى للأمة، فعمد الطاهر بن عاشــور والشاطبي وغيرهم إلى ما عمد إليه ابن خلدون من التفتيش في أصول النظام الاجتماعي وطريقة تركيبه علهم يعثرون على كليات جامعة تســمح أن تكون دعامات قوية للبناء عليها وتفتح مساحات واسعة لما عجزت ساحات القياس عن الاتساع له.

وتركــزت دعــوات الباحثين في الدرس الأصــولي إلى التواضع عــلى منهج أصولي يضبط التفكير الإســلامي حتى لا تختلط الأمور، وترتبك المذاهب ويكثر ســوء التفاهم والاختلاف في مسائل تتصل بالحياة العامة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدولية.

وتكمن ضيق مســاحات القياس الفقهــي الأصولي في اقتصاره عــلى قياس حادثة محدودة على سابقة محدودة معينة ثبت فيها حكم بنص شرعي، ولذا فإنَّ القضايا العملاقة والواجبــات الكفائية لا يفي بحقها مثل هذا القياس، فتعددت طروحات الأصوليين على مائدة البحث لنقاش هذه القضية.

---

(١) طرابيشي (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث) دار الساقي ص(٢٥٥).

ويشرح الدكتور عبد الحميد أبو سليمان في كتابه "أزمة العقل المسلم" الإشكالات الواقعة في منطقة القياس الفقهي فيقول: "إن الاجتماع الإسلامي لم يكن اجتماعا ساكنًا وإنما كان يشهد مع اتساع دار الإسلام تطورات سكانية واجتماعية وسياسية وحضارية كبرى" أدى ذلك إلى بعض أوجه القصور المتأتية من كون القياس الجزئي المعتمد على العلة بشروطها المحددة في علم الأصول لا يفي بتحقيق المصالح المنوطة بالأحكام الشرعية في سياق تلك التطورات، ولذلك فقد حاولوا تدارك الأمر باعتماد أصول أخرى، مثل الاستحسان والمصالح المرسلة حتى يتمكنوا من تخطي النظر الجزئي إلى النظر الكلي، والحكم بما تمليه روح الشريعة ومقاصدها وأولوياتها الصحيحة، فيأتي الحكم في الحادث بما هو أولى بالإسلام وروحه ومقاصده وأولوياته." [١]

ويقف وقفة خاصة مع القياس بوصفه من أهم مناهج استنباط الأحكام الشرعية وتطبيقاتها على الوقائع المستجدة، فيلاحظ أن " أداءَ هذا الأصل بشكلٍ سليم يفترضُ أساسا ثبات الصورة الكلية للمجتمع، وأن كل متغير إنما هو متغير جزئي وحادث محدود لا يقتضي التعامل معه والتوصل إلى حكم بشأنه إلا النظر في الحوادث الجزئية الماضية، والعثور على الحادث المشابه الذي يشترك معها في العلة ليأخذ معها نفس الحكم" [٢].

ويناقش الميساوي التحليل الجيد الذي وضعه الدكتور لؤي صافي في (إعمال العقل: من النظرة التجزيئية إلى الرؤية التكاملية) فيقول: " وفي سياق محاولة لتطوير رؤية تكاملية تتجاوز النظرة التجزيئية في التعامل مع نصوص الوحي وتتأسس على " نظام الخطاب ومنهجية القواعد القياسية" وبعد مناقشة مستفيضة للإشكالية القديمة المتجددة الخاصة بالعلاقة بين العقل والنقل صحبتها مداخلات مع العقل الوضعي كما تحددت ملامحه

(١) عبد الحميد أبو سليمان " أزمة العقل المسلم" ص٧٤. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية.١٩٩١م.

(٢) عبد الحميد أبو سليمان " أزمة العقل المسلم" ص٧٤. مقاصد الشريعة الإسلامية (مقدمة التحقيق) محمد الطاهر الميساوي ص(١٠٤).

في ســياق التجربة الحضارية الغربية، ينتهي الأستاذ لؤي صافي إلى تقرير الآتي: إن منهج الاجتهاد كما تبلور في علم أصول الفقه قد آل في تطوره التاريخي إلى أن أصبح مجرد منهجية نصوصية. وقد كان من نتائج ترســخ هذه المنهجية الثقافية والعملية للمســلمين أن أقيل العقل وتراجعت الرؤيــة القرآنية تدريجيا حتى كادت تختفي عنــد القاعدة العريضة من الفقهاء في عصرنا هذا [١].

ويقترح وضع منهجية للقواعد القياسية بحيث يعتمد على القياس على الكلي بدلًا من القياسِ على الجزئي. وهذه المنهجية تســمحُ للمجتهــدِ بفهم النصوصِ عن طريق تحليلها إلى مفرداتها، وتحديد معانيها ومنطقها الداخلي، ثم إعادة تركيبها بناء علَى تشــابه دِلالاتها، ومقاصدهــا. [٢] ويرى الدكتور محمد الدســوقي في كتابه "التجديد في الفقه الإســلامي" أن إمكانــات القياس العلمية وشروطه المهنية لا تســمح له بأكثر من الدور الذي رســم له "ومثل هذا القياس المحدود ربما يصلح اســتكمالا للأصول التفســيرية التي تبين بعض الأحكام كأحكام النكاح والآداب والشعائر، لكن المجالات الواسعة من الدين لا يجدي معها إلا القياس الفطري الحر.. فالقياس على الحكم والعلل والمقاصد والمناســبات يجعل من القياس ميدانًا واســعا للاجتهاد والاســتنباط، ومجالا فسيحًا للعقل الإنساني لتحقيق مصالح الناس، وتنمية الفقه." [٣].

ثم كانت دعوة الدكتور الترابي لما أسماه (القياس الفطري)، ويقصد بالقياس الفطري الحر الموسع ذلك القياس الذي يتتبع طائفة من النصوص ويستنبط من جملتها مقصداً معيناً مــن مقاصد الدين ومصلحة من مصالحه". [٤] وكانت لدعوتــه تلك كثير من الانتقادات الأصولية والنقاشات العلمية المختلفة.

---

(١) ملــؤي صافي. " إعمال العقل: مــن النظرة التجزيئية إلى الرؤية التكاملية. ص١٦٥ دمشــق دار الفكر ١٩٩٨م . ومقاصد الشريعة الإسلامية (مقدمة التحقيق) محمد الطاهر الميساوي ص(١٠٨).

(٢) المصدر السابق ص (١٠٩).

(٣) التجديد في الفقه الإسلامي. الدكتور محمد الدسوقي ص (١٠٠).

(٤) تجديد علم أصول الفقه، حسن الترابي، ص:(٢٤).

ونلاحظ أن هموم الأصوليين في هذه القضية لا تخرج عن هموم ابن عاشور والشاطبي وغيرهما فاقترح ابن عاشور النظر المقاصدي في كتابه (مقاصد الشريعة الإسلامية) فالمصلحة التي تتحقق بواسطة القياس الفقهي إلحاقا لجزئي حادث غير معلوم حكمه بجزئي ثابت حكمه في الشريعة مصلحة جزئية ظنية لقلة صور العلة المنصوصة، وإذا كان مثل هذا القياس قد عد حجة عند الأصوليين والفقهاء "فلأن نقول بحجية قياس مصلحة كلية حادثة في الأمة على كلية ثابت اعتبارها في الشريعة باستقراء أدلة الشريعة الذي هو قطعي أو ظني قريب من القطعي، أولى بنا وأجدر بالقياس وأدخل في الاحتجاج الشرعي."[١]

لقد كان النقد الأصولي الموجه للقياس ليس من قبيل ذلك النقد الذي وجهه ابن حزم في اثبات حجيته من عدمه، أو غيره من الأصوليين، وإنما كان في المقامِ الأولِ يتوجه إلى كفايته العلمية والمنهجية بتحقيق الحكم والمصالح التي تنطوي عليها نصوص الشريعة وأحكامها الخاصة بشئون المجتمع العامة وقضاياه الكلية بتعبير الميساوي.

وقد اتجهت جهود الأصوليين إلى سد تلك الثغرة والبحث عن تغطية واسعة أعم وأوسع من حركة المناطق القياسية بشروطها القاسية التي وضعها الأصوليون أنفسهم فكانت توجهاتهم إلى الحديث عن مقاصد الشريعة بصياغتها المختلفة وتناولاتها المتنوعة[٢].

وقد عمد عدد من المختصين الأصوليين في عصرنا إلى توسيع الآليات الاجتهاد وإضافة أدوات جديدة إليه، وإكساب الاجتهاد الفقهي مساحات جديدة أوسع من تلك المساحات التي بقي متربعا عليها فيما مضى، فكانت على سبيل المثال دراسة الدكتور أحمد الريسوني "نظرية التقريب والتغليب وتطبيقاتها في العلوم الإسلامية" التي عمد إلى تأصيل

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية محمد الطاهر بن عاشور. ص(٣٠٩) دار النفائس بتحقيق محمد طاهر الميساوي.

(٢) مثل: "مقاصد الشريعة الإسلامية ليوسف العالم" "نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي"، أحمد الريسوني، "نظرية المقاصد عند الإمام ابن عاشور"، لإسماعيل الحسني، وغيرها.

نظرية النسبية في الفقه الإسلامي واعتمادها مساحة جديدة تلتهم بداخلها عددا من النوازل المستجدة واعتماد المصلحة مناسبا جديدا في التعليل وبناء الأحكام.[١]

وحاول الدكتور طه جابر العلواني وزملاؤه بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي "بولاية فرجينا الأمريكية" سد بعض الثغرات التي رآها في المنظومة المقاصدية التي صنعها المتقدمون حين لاحظ أنها "لم تولد منظومة من الأحكام التي يُحتاج إليها في تغطية المستجدات، بل ودعّمت من الاتجاه الجزئي في النظر الفقهي"[٢]، ووضع ما أسماها بالقيم العليا الحاكمة التي استقرأها من القرآن الكريم ضمن ثلاثية (التوحيد، التزكية، العمران) التي رآها تمكن الأصولي المعاصر من غربلة الفقه الإسلامي وتعينه على معالجة الواقع بمستجداته دون البحث المضني عن الشبه أو النظير في كتب الأقدمين، وذلك توسيع على الفقيه والأصولي عند التطبيق العملي للقياس[٣].

ولم تكن قط دعوتهم المتابعة لتطوير الدرس الأصولي والإضافات المنهجية عليه تقود إلى طرحه واستبداله بأمور أخرى كالذي تدعو إليه المدرسة الحداثية، حتى الإمام ابن عاشور الذي دعا إلى تأسيس علم مقاصد الشريعة وضع له الإطار الفلسفي لم يكن يدعو إلى طرح علم أصول الفقه والتخلي عنه جملة وإنما الاستفادة منه في أداء مهمته التي وضع لأجلها في الاجتهاد الإسلامي حيث" تستمد منه طرق تركيب الأدلة الفقهية" ولن يغض من قيمة هذه الوظيفة إلا متعالم جاهل بمسائل علم أصول الفقه ومنطقه، أو ذو غرض يرى التجديد والاجتهاد نقضا وهدما لما تعاقبت على بنائه وتشييده أجيال من العلماء.[٤]

---

(١) أحمد الريسوني " نظرية التقريب والتغليب وتطبيقاتها في العلوم الإسلامية ص (١٣١) الطبعة الأولى مطبعة مصعب بمكناس المغرب.

(٢) آفاق التجديد، جمع عبد الجبار الرفاعي، مقال بعنوان "مقاصد الشريعة للدكتور طه جابر علواني"، ص(٨٤).

(٣) مقاصد الشريعة، طه جابر علواني، ص(١٦٧).

(٤) مقاصد الشريعة الإسلامية محمد الطاهر بن عاشور. ص(١١٢) دار النفائس بتحقيق محمد طاهر الميساوي.

على سواحل الاستحسان:

استغل طرابيشي رفضَ الإمام الشافعي للاستحسان المجرد ليجعل منه وثيقة علمية لإدانة الشافعي ومصادرته الأخيرة للعقل بتعبيره. لكن عند البحث العلمي المنهجي الذي لا يرغب به طرابيشي نكتشف غير ذلك.

لم يكن الاستحسان الذي أنكره الشافعي هو القائم على أصل يضبطه، وإنما الاستحسان بالتشهي والهوى وهو حجر مبكر من الشافعي لكبح جماح الفوضى التي ينشدها رواد المدرسة الحداثية، فالاستحسان غير المنضبط هو الذي رد الشافعي أوراقه، ورفض أن يكون دليلا شرعيا، وما كان استحسانا منضبطا فقد احتج به الشافعي في عدد من المواضع في كتبه لو تتبعها طرابيشي لوجدها ولكنها المنهجية [(١)].

في أروقة الدرس الأصولي ثارت معركة علمية دقيقة حول حجية الاستحسان، وكانت جذورها تعود للبنية الحقيقية في فهم مصطلح الاستحسان وما الذي يدور في أذهان الأصوليين، فمالك- رحمه الله تعالى- الذي احتفى به طرابيشي وشاد برأيه في الاستحسان ومنحه الريادة فيه كونه يدعم توجهاته التي تعد كل استثناء من كليات النص جرأة محمودة تستحق التقدير يقول عن الاستحسان: ""تسعة أعشار العلم الاستحسان"[(٢)] فيوضح معناه الإمام الشاطبي فيقول:" مقتضاه الرجوع إلى تقديم القياس المرسل على القياس فإن من استحسن لم يرجع إلى مجرد ذوقه وتشهيه وإنما رجع إلى ما علم من قصد الشارع في الجملة في أمثال تلك الأشياء المفروضة"[(٣)] وبالتالي فالمدرسة المالكية فهمت من

(١) البحر المحيط، للزركشي ٨/ ١٠٦-١٠٩، الواضح في أصول الفقه، للأشقر، ص١٤٥. قال الشافعي: استحسن في المتعة ٥٠ درهما، الشفعة: استحسن أن يثبت للشفيع الشفعة إلى ثلاثة أيام، وقال في المكاتب أستحسن أن يترك عليه شيء.

(٢) الموافقات، للشاطبي (٥/ ١٩٨).

(٣) الموافقات، الشاطبي، (٤/ ١٤٨-١٤٩).

كلام مالك ما لم يشأ طرابيشي أن يفهمه وهو مراعاة مقاصد الشرع من المصلحة والعدل إن كان القيـــاس خلافها فمضمون ذلك في المذهب المالكي يكمن في الأخذ بجزئية في مقابل قاعــدة كلية لدليل ينقدح في نفس المجتهد "فيلجأ إليــه الفقيه في هذه الجزئية لكيلا يؤدي الأخذ بالقاعدة التي هي القياس إلى الابتعاد عن الشرع في روحه ومعناه"(١) واشـــتهر على ألسنة فقهاء المذهب المالكي قولهم: "ترك القياس والأخذ بما هو أرفق بالناس" إشارة منهم إلى أصل الاستحســان؛ الذي نشــأ في ذهن الفقيه لدفع الحرج الناشئ من اطراد القياس، أي أن معنى الاستحســان طلب الأحســن للاتباع، وهذا ضمن الأصول المالكية المراعية للمقاصد لمن كان يجيد فحص أروقة المذهب المالكي على نحو علمي منهجي.

أما الشافعي – رحمه الله تعالى – فرد الاستحسان الذي لا يستند إلى أصل يضبطه وعبر عنه أنه "تلذذ"(٢) قال "إنّ حلال الله وحرامه أولى أن لا يقال فيه بالتعسف ولا الاستحسان أبداً، إنّما الاستحســان تلذذ، ولا يقول فيه إلاّ عالم بالأخبار، عاقل بالتشبيه عليها"(٣)و"أن من استحســن فقــد شرع"(٤) فتعود مواجهة الشــافعي للاستحســان القائم على الهوى

---

(١) أصول الفقه الإسلامي، محمد أبو زهرة، ص:(٢٥١).

(٢) الرسالة، للشافعي، ص(٥٠٧).

(٣) مقدمة الجزء الأول من (الأم) (٧٠).

(٤) الأم ٧: ٣٧٣، شرح تنقيح الفصول للقرافي: ٤١٥، كتاب الحدود لأبي وليد الباجي: ٦٥، كشــف الأسرار ٤: ١١٢٤. تنقــل أكثر كتب الأصول هذا القول عن الشــافعي. انظر: المســتصفى، للغزالي، ص١٧١، الإحكام، للآمــدي٤/ ١٥٦، الفروق، للقرافي ٤/ ١٤٥. وقد قال الدكتور عجيل النشــمي بعدما ذكر أنه اســتقرأ كتب الشافعي: "فنكاد نجزم أن الشــافعي لم يقلها، ولو قالها لذكرت في مواضعها من مبحث الاستحسان" وذكر في الحاشية ان ابن السبكي سبقه لذلك، ونقل كلام ابن السبكي من حاشية ابن العطار، قال ابن العطار: "ولكن قال المصنف-أي ابن السبكي- في الأشباه والنظائر أنا لم أجد إلى الآن هذا في كلامه نصًا ولكن وجدت في الأم أن من قال بالاستحســان فقد قال قولا عظيًما ووضع نفسه في رأيه واستحسانه على غير كتاب ولا ســنة موضعها في أن يتبع رأيه"، وصحيح أن الشافعي لم يقلها بهذا اللفظ، لكنها معنى كلامه؛ ففي آخر الكلام الذي نقله الســبكي عن الشــافعي في الأم أن من استحســن وضع رأيه موضع الكتاب والســنة، قال الشــافعي بعد هذا النقل:"... في أن يتبع رأيه كما اتبعا، وفي أن رأيه أصل ثالث أمر الناس باتباعه"، فما معنى أن المستحســن يجعل رأيه موضع الكتاب والســنة، ويريد أن يتبع رأيه كما اتبعا، وأن رأيه أصل ثالث إلا "أن من استحســن فقد شرع"!. انظر: الاستحسان، للنشمي، ص(١٢٩)، حاشية العطار على جمع الجوامع (٢/ ٣٩٥)، الأم، للشافعي (٦/ ٢١٦).

والفوضى وهذا ما يشـــاركه فيها أساتذة الدرس الأصولي وعلماء المذاهب الفقهية فهو "إنما أنكر استحسانًا بلا دليل"[١]، وقد اعتبره الغزالي في ميدان التشريع هوساً؛ لأنه خلط ووهم وخيال"[٢].

أما الاستحســـان المنضبط بالمقاصد الشرعية وملاحظ النصوص فقد قال به الشافعي وغـــيره، ونقل الزركـــشي قريبًا من عشرين مســـألة فقهيـــة قال بها الشـــافعي وأصحابه بالاستحسان؛ مما يبين أن ما استنكروه من الاستحسان هو ما كان من غير دليل [٣]. وهذا أيضا ما حكاه الآمدي "إنّ الشـــافعي قد أخذ بالاستحســـان واعتبره مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي"[٤].

فالجملـــة المفيدة من هذا أن الـــدرس الأصولي متفق على حجية الاستحســـان الذي يتخـــذ من الدليل ودلالاته، أرضية صلبة له يســـتند عليها، وهو ما أشـــار إليه بدر الدين الزركشي ولخصه بقوله: "نبه ابن الســـمعاني على أن الخلاف بيننا وبينهم لفظي؛ فإنَّ تفسير الاستحسان بما يشنع عليهم لا يقولون به، والذي يقولون به إنه العدول في الحكم من دليل إلى دليل هو أقوى منه، فهذا مما لم ينكره، لكن هذا الاسم لا نعرفه اسمًا لما يقال به بمثل هذا الدليل، وقريب منه قول القفال"[٥].

فالاستحســـان تذوق مســـار الشرع الحنيف ومـــآلات مصالحه واتجاهـــات غاياته والوصول بتلك الملاحظ الدقيقة بالأحداث إلى نهاياتها الغائية، والتقائها مع النصوص في تلك المحطات النهائية. إنه يمثل ملاحظة دقيقة بعدسات تجيد فهم المسارات التي يعبرها

(١) التحبير شرح التحرير، للمرداوي (٨/ ٣٨٢٢).
(٢) المستصفى (١: ١٣٨).
(٣)البحر المحيط، للزركشي (٨/ ١٠٦-١٠٩)، الواضح في أصول الفقه، للأشقر، ص(١٤٥).
(٤) الآمدي في الأحكام(٤: ١٣٧).
(٥) البحر المحيط، للزركشي(٨/ ٩٩).

النص ومصباته النهائية. أما الاستحسان القائم على الفوضى والتشهي وإطلاق عنان العقل المؤدي إلى طرق الفوضى، كما تنبه له الشافعي، فهو مرفوض إسلامياً، بل يؤدي إلى التلاعب بمقدسات الإسلام[1].

(التبيان) في مصادرات طرابيشي:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ [النحل].

اتهم طرابيشي الإمام الشافعي باستغلال هذه الآية في إغلاق منافذ العقل المسلم وتغييب وعي القارئ بهذه العمومية التي توحي بأن الكتاب أبان كل شيء في الوجود وما على العقل إلا أن يصمت.

وعلى طريقته في التهويل اللغوي وصنع التأطير قال إن الشافعي نفذ مصادرتين للعقل:" أما الكبرى فهي التي تقول إن الله ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[النحل:٨٩]وأما الصغرى فهي أشبه ما تكون بالنتيجة المستخلصة من الأولى لزوما: "ليس تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها".

وليس يخفى طبعا أن المصادرة الأولى تستوحي نص القرآن بالذات ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ولكنه لا تستوحيه إلا لتؤوله في غير سياقه، فالشافعي يجعل من القرآن كتاب العلم الكلي، فهو الكتاب الذي يتضمن علم كل شيء، وما من شيء إلا وعلمه في الكتاب. ومن منطق كلية العلم هذه يضيف الشافعي مصادرة ثالثة: " لا يعلم من جهله، ولا يجهل من علمه" (ص١٩) وهكذا تتضامن كلية علم الكتاب الذاتية: فمن جهله لا يعلم شيئا، ومن علمه لا يجهل شيئا.

---

(١) انظر تفصيلا جيدا لهذا الموضوع في بحث "الاستحسان عند الإمام الشافعي" للدكتور محمد أسعيد لعمور. جامعة الأقصى غزة. بحث عن مؤتمر الإمام الشافعي. وبحث "مقومات منهج التشريع بالاستحسان عند الأصوليين" رائد نصري أبو مؤنس.

وبدهي أن ما يحجبه الشافعي عن وعي قارئه هو أن الآية ٨٩ من سورة النحل لا تمت بصلة، من قريب أو بعيد، إلى العلم بالمعنى المعرفي للكلمة. بل إن ما يحجبه عن وعي قارئه هو أن تأويله العلمي لها لا يكتسب ظاهرا من استقامة ومن قوة الإقناع إلا بقدر ما يفصلها عن سياقها ويعمل فيها مبضع التشطير، ذلك أن عبارة﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ليست آية قائمة بذاتها، كما توحي به مداورة الشافعي لها، بل هي جزء غير قابل للتجزئة بالمعنى وإن يكن قابلا للتجزئة باللفظ صنيع ما يفعل به الشافعي من الآية الحاوية له، ونصها كالآتي ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[النحل] .

فمدار الآية، كما هو واضح من مساقها بتمامها، هو على الحساب يوم الحساب، وهي بذلك تتمم الآية التي تسبقها مباشرة: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النحل] فالتبيان الذي تتكلم عليه الآية ليس تبيانَ كلِّ شيء من أمور الدنيا، بل تبيان كل شيء من أمور الآخرة والمحاسبة يوم الآخرة. وليس للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أن يماروا فيما آتاهم الله من هذا التبيان"[1]

هذا ما دار في ذهن طرابيشي وهو أقرب إلى تغييب وعي قارئه من الشافعي، فقراء الشافعي ليسوا قراء طرابيشي ابتداء، فقد نخل الأصوليون الرسالة نخلا علميا منهجيا وناقشوا مفرداتها سطرا سطرا، ولم يكن الشافعي يخاطب الجمهور الذي استهدفه طرابيشي بكتاباته ليمارس عملية التغييب التي مارسها طرابيشي على جمهور ربما لم يسبق له أن اطلع على مصطلحات الدرس الأصولي ليفهم فحوى تلك الأفكار.

(١) من إسلام القرآن" ص(٢٤٧ ــ ٢٤٨).

لقد كانت حرفنة طرابيشي تسلك بقارئه عملية حجب وتغييب مستغلة ضعف البنية التحتية للقارئ العادي وقلت ارتوائه من علوم اللغة ومخبأ الدلالات التي كان الشـــافعي يخاطب من خلالها عبر رسالته مختصي الأصول ورواد الاجتهاد.

أولًا: يقول: "فالشـــافعي يجعلُ من القرآنِ كتاب العلم الكلي، فهو الكتاب الذي يتضمـــن علم كل شيء، وما من شيء إلا وعلمه في الكتـــاب. ومن منطق كلية العلم هذه يضيف الشـــافعي مصادرة ثالثة: " لا يعلم من جهله، ولا يجهل من علمه" وهكذا تتضامن كلية علم الكتاب الذاتية: فمن جهله لا يعلم شيئا، ومن علمه لا يجهل شيئا."

هذه المغالطة العلمية يحمل من خلالها القارئ على تصديق تهمته وتدعيمها، فالشافعي حـــين يجعل من القرآن كتاب العلم الكلي، فهو باعتبار أن فيه من جوامع العلوم، وســـنن الحياة وهداياتها العامة، وضبط مســـار البشرية ما يجعله كتاب هداية وإرشاد مبين لكل ما تحتاجه البشرية في مســـارات حياتها، فهو يقدم تراكمية سميكة لما سارت عليه البشرية من قبل، ويهدي للتي هي أحســـن من فعالها وسلوكها ونواضج تجاربها، واتجه كلام المفسرين لهذا المعنـــى، فعند قوله تعالى ﴿ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ تحدث الإمام الطاهر بن عاشـــور في مدونته التفســـيرية (التحرير والتنوير) فقال: و "كل شيء يفيد العموم، إلا أنه عموم عرفي في دائرة ما لمثله تجيء الأديـــان والشرائع: من إصلاح النفوس، وإكمال الأخلاق، وتقويم المجتمـــع المدني، وتبين الحقوق، وما تتوقف عليه الدعوة من الاســـتدلال على الوحدانية، وصدق الرســـول ﷺ، وما يأتي من خلال ذلك من الحقائق العلميـــة والدقائق الكونية، ووصف أحوال الأمم، وأسباب فلاحها وخســـارها، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم. وفي خلال ذلك كله أسرار، ونكت من أصـــول العلوم والمعارف صالحة لأن تكون بيانا لكل شيء على وجه العموم الحقيقي،

إن سلك في بيانها طريق التفصيل، واستنير فيها بما شرح الرسول ﷺ ، وما قفاه به أصحابه وعلماء أمته، ثم مـا يعود إلى الترغيب والترهيب من وصف ما أعـد للطائعين، وما أعد للمعرضين، ووصف عـالم الغيب والحياة الآخرة، ففي كل ذلـك بيان لكل شيء يقصد بيانه للتبصر في هذا الغرض الجليل، فيؤول ذلك العموم العرفي بصريحه إلى عموم حقيقي بضمنه ولوازمه، وهذا من أبدع الإعجاز."[1].

ولمح ابن جزي الكلبي (ت: ٧٤١هـ) في آية الأنعام ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام] ملمحا آخر يشـير إليه الفهم الجمهوري العام، أي:" ما فرطنا فيه من شيء فيه هدايتكم والبيان لكم"[2].

بل إن التوراة التي أنزلت على موسـى كانت تتحدث عن شمول هذا العام واندراج التفاصيل الكثيرة تحت عموميات قواعده العامة ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأنعام].

فهـذا المنطق اتجهت أفهـام المفسرين إليه بعيدا عن فهم طرابيشي الذي سـار يسرح فكرته في سـاحات لا يقبل بها العقل العادي فضلا عن العقل الأصولي المدرك لدلالات النصوص.

ثم إن القرآنيين الجدد يسـوقون للاستغناء عن السـنة بأن القرآن يمثل حاوية لكل شيء، ويعمـدون إلى تركيب التفاصيل بطريقة ما إقحاما متزاحمـا لا يقبله العقل إلا على سبيل الربط والتأويل، ويسندون فعلهم بهذه الآية، بينما يخالف طرابيشي نفسه وهو داعية (إسلام القرآن) عند حدود هذه الآية.

ثم إن الشـافعي بنفسـه بعد أن ذكر هذه الآية في مقدمة خطبة الرسالة قال ما يوحي

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٢).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل: (٢ / ٨).

بفهمه لها: "فليســـت تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها، قال الله- تبارك وتعالى-: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾[إبراهيم] وقـال ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل] وقال ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[النحل] وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] وذلك لأنه – ســبحانه – بين فيه التوحيد؛ والمبدأ؛ والمعاد؛ والأمر؛ والنهي؛ والحلال؛ والحرام؛ والحدود؛ والأحكام؛ بالنص على بعضها؛ وبالإحالة على السنة في الآخر؛ وعلى الإجماع في نحو قوله (تعالى): ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النســاء: ١١٥] ؛ وعلى الاقتداء بالخلفاء الراشــدين؛ في قولهﷺ: "فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي؛ وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي"؛ وبالاقتداء بجميــع أصحابه – رضي الله عنهــم–؛ في قوله ﷺ: "أَصحَابِي كَالنُّجُــوم، بِأَيِّهِم اهتَدَيتُمُ اقتَدَيتُم"؛ وقد اجتهدوا، وقاســوا، ووطؤوا طرق القياس والاجتهاد، ولم يخرج أحد منهم عن الكتاب، والسنة، فهو من دلائل النبوة في كونه ﷺ شهيدا؛ لكونه ما أخبر عنهم إلا بما هم أهله." [١].

ثانيًا: معنى شيء في القرآن الكريم:

يفهم الشــافعي وغيره من الفقهاء والأصوليين والمفسرين وأســاتيذ اللغة أن التعبير القرآني بلفظ (شيء) لا يعني في جميع مواضعه شمول تفاصيل القضايا مع ورود مستثنياتها في نفس الســياق، من ذلك قوله ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[النمل]

(١) الرسالة (٢٠) تحقيق أحمد محمد شاكر (خطبة الكتاب)

وكذلك قوله تعالى ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾[الأحقاف:٢٥] فتحدثت الآيتين عن كل شيء ثم استثنت من ذلك الشيء أشياء، ويوضح ذلك الطاهر بن عاشور: "ومعنى ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ نالت من كل شيء حسنٍ من شئون الملك.

فعمــوم كل شيء عمــوم عرفي من جهتــين يفسره المقــام، وكقول سـليمان عليه السلام:﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾[النمل: ١٦]، أي: أوتيت من خصال الملوك ومن ذخائرهم وعددهم وجيوشــهم وثــراء مملكتهم وزخرفهــا ونحو ذلك من المحامد والمحاســن." [١] والمعنى في الآية الأخرى: "تدمر ما من شــأنه أن تدمره الريح من الإنســان والحيوان والديار."[٢] وإمكانات الشافعي اللغوية لا تخفي مقصوده من الاستدلال.

ثالثًا: في قوله تعالى في ختام الآية ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ ما يشــير إلى أن القرآن ليس مقصوده التبيان مجردا وينضم إليه في سياق الآية الهداية والرحمة والبشــارة للمسلمين. "وخص بالذكر الهدى والرحمة والبشرى لأهميتها، فالهدى ما يرجع من التبيان إلى تقويــم العقائد والأفهام، والإنقاذ من الضــلال، والرحمة ما يرجع منه إلى سعادة الحياتين الدنيا والأخرى، والبشرى ما فيه من الوعد بالحسنيين الدنيوية والأخروية.

وكل ذلك للمســلمين دون غيرهــم؛ لأن غيرهم لما أعرضوا عنه حرموا أنفســهم الانتفاع بخواصه كلها.

فاللام في (لكل شيء) متعلق بالتبيان، وهي لام التقوية؛ لأن كل شيء في معنى المفعول به لـ تبيانا، واللام في للمســلمين لام العلة بتنازع تعلقهــا (تبيانا وهدى ورحمة وبشرى) وهذا هو الوجه." [٣]

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٣٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٦/ ٥١).

(٣) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٢).

أراد طرابيـــشي أن يحتج بالســياق العام للآية وأنها خاصة بالكافرين كما ســبق، بينما تجاهل نهايتها القاضي بأن التبيان والهداية والرحمة والبشرى للمسلمين، فأينَ ذُهِبَ بباقي السياق ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

رابعًا: يمضي طرابيشي سادرا في حجب وعي قارئه بتفسير للتبيان مناسب لتدعيم ما يدور في ذهنه يقول: "فالتبيان الذي تتكلم عليه الآية ليس تبيان كل شيء من أمور الدنيا، بل تبيان كل شيء من أمور الآخرة والمحاسبة يوم الآخرة. وليس للذين كفروا وصدوا عن ســبيل الله أن يماروا فيما آتاهم الله من هذا التبيان". ولندع مجالا للمفسرين يوضحوا معنى الآية ثم لنقارن ذلك بالتفسير الطرابيشي.

قال ابن عطية": "وقوله: (لكل شيء): مما نحتاج في الشرع ولا بُدَّ منه في المِلَّة، كالحلال والحرام والدعاء إلى الله والتخويف من عذابه، وهذا حصر ما اقتضته عبارات المفسرين"[١].
وقال الآلوسي: "والمراد من (كل شيء): على ما ذهب إليه جمع: ما يتعلق بأمور الدين، أي: بياناً بليغاً لكل شيء يتعلق بذلك"[٢]

وقال ابن الجوزي: "فأما قوله تعالى: (لــكل شيء): فقال العلماء بالمعاني: يعني: لكل شيء من أمور الدين، إما بالنص عليه، أو بالإحالة على ما يوجب العلم، مثل بيان رســول الله ﷺ أو إجماع المسلمين"[٣].

فهذه الأقوال التفســيرية لمعنى التبيان تخالف ما ذهــب إليه طرابيشي من أن المقصود تبيان أحكام الآخرة.

لقد مارس طرابيشي تغييبا لوعي قارئه بطريقة ما، إلا أنها تسقط عند البحث والتحقيق العلمي المنهجي الذي لا يود طرابيشي أن يسير عليه.

(١) المحرر الوجيز: (١١١١).
(٢) روح المعاني: (٧/ ٤٥٢).
(٣) زاد المسير: (٧٩٠).

ختام:

ربما أستطيع أن أضع عنوانا إجماليا جديدا يعبر صراحة عن محتوى كتاب (من إسلام القرآن إلى إســلام الحديث) هو: (من إسلام القرآن إلى إســلام العقل المجرد)؛ لأن إلغاء حركة النص الشرعي وإيقاف إمداداته كانــت في الحقيقة ظاهرة جلية لمن تمكن من قراءة الكتاب واســتطاع أن يلم بأطرافه، فظاهر الاتكاء على (إسلام الحديث) يقبع تمريرا خطرا لإلغاء (إســلام القرآن) الذي لا يؤمن به طرابيشي ابتداء، ولكنه (إسلام العقل) والعقل فقط إن صح التعبير، العقل مجردا عن الوحي، العقل الذي لا علاقة له بكتب السماء، ولا برسالات الأنبياء.

يظهر من خلال موسوعة طرابيشي (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث) أن مشكلة طرابيشي هي نفس مشــكلة زملائه الحداثيين (مشــكلة مع النص)، عــبروا عنها بصور مختلفــة واتكؤوا في صياغتها على أرضيات متنوعة، وطالبوا صراحةً أو خجلا باســتبعاد النص الشرعي من مسارات الحياة، والتشكيك ليس في حجية السنة أو مصدريتها، ولكن أيضا في صحة القرآن ونزع لباس القداســة عنه ليصبح مشــاعًا تحــت مشرحة النقد، كما عبر عنهــا صراحة محمد أركون الذي دعا إلى "وضع كل التركيبات العقائدية الإســلامية وكل التحديثات اللاهوتية والتشريعية ... إلخ على مسافة نقدية كافية كباحث علمي"[(١)]. ويرى إعادة تعريف القرآن الكريم بأنه: "التجلي التاريخي لخطاب شــفهي، في زمن ومكان محددين"[(٢)].

وتحتَ تفعيــلِ مطارق المصطلحات اســتكمل طرابيشي حربــه الفكرية على النص

(١) االفكر الأصولي، واســتحالة التأصيل، محمد أركون. ترجمة هاشم صالح. دار الساقي، بيروت. ط٢. سنة ٢٠٠٢، ص (٢٠٠).

(٢) قضايا في نقد العقل الديني، أركون، ترجمة هاشم صالح. دار الطليعة، بيروت. ط٢. سنة ٢٠٠٠، ص (١٨٦).

(القرآن والسنة)، وليس على السنة وحدها، كما قد يظهر للقارئ للوهلة الأولى "العقل المعقلن، تصحيح الصحيح، قائد الانقلاب، تصنيم النص، قرأنة السنة، تسنين القرآن، تنفيذ الانقلاب، نبي بلا معجزة، من الأمية إلى الأممية" وغيرها من المصطلحات التي راح يعنون بها المواقف التاريخية وأبحاث العلماء، وينصب تحتها المحاكمات الفكرية للآراء الاجتهادية.

والملاحظ أن إمكانات طرابيشي العلمية لم تكن تسعفه لإجراء التحقيق العلمي المنهجي الجيد، ولكن يظهر أن الرجل يتكئ على عددٍ من المساعدين الذين يقومون بعمليات التجميع تلك للأقوال والآراء، ثم نسجها تحت فكرة واحدة تعبر عما في نفسه، وهي لعبة بحثية سهلة لكنها للأسف بعيدة جدا عن التحقيق العلمي والفحص والتحليل المحايد.

إجمالا عند مقارنة ما كتبه رواد الحداثة المعاصرة ومدى الانسجام بين أفكارهم يظهر من قراءتهم الحداثية للنص الشرعي أنها تنطلق من مضامين الحداثة الغربية وأسسها وجعلها النموذج الأمثل للبشرية، وسعيهم لإلحاق الفكر الإسلامي بهذه الحداثة، وتبني منصة الاستشراق كمنطلق تقوم على تطويرها، ووظفت مناهج البحث في العلوم الاجتماعية واللسانية المعاصرة، التي وظفها الفكر الغربي لاختبار مدى صدقية النصوص الدينية القديمة، وإثارة الشبهات حولها، والحكم على قيمتها التاريخية، وإسقاط نتائج إعمال هذه المناهج الغربية في النصوص الدينية اليهودية والمسيحية على النصوص الشرعية الإسلامية، رغم وجود فارق كبير بين الحالتين.

وهذا ما ترتب عليه فوضى كبيرة في القراءة والتأويل، وغياب المعرفة اليقينية، وأدّى إلى فقدان الموضوعية وضياع المعنى الشرعي في القراءة الحداثية.[1]

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ ﴾

---

(١)"في القراءة الحداثية للنص القرآني وقضاياه". البويسفي محمد.



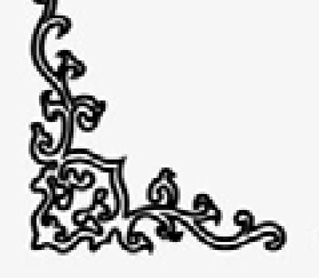
البحث الثاني

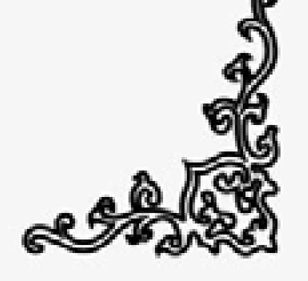
السنة في مضمار الوحي الإلهي المصدرية والحجية

تعقُّبٌ نقديٌ لمقولات جورج طرابيشي بشأنها في كتابه

إعداد

د. عبدالوهاب أحمد السعيدي





قال تعالى:

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[النور:]

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "سَتَجِدُونَ أَقْوَامًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَكُمْ إِلَى كِتَابِ اللهِ وَقَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ فَعَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّبَدُّعَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّعَمُّقَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ"[١] تشكيك طرابيشي المستمر في الأخبار المنقولة في كتب الحديث والسير لم يمنعه من العودة إلى هذه الأخبار حين يرى أنها تخدم فكرته. آليات التفكير النقدي عند جورج طرابيشي، آمنة عطوطه.

(١) جامع بيان العلم وفضله، باب فيمن تأول القرآن أو تدبره وهو جاهل بالسنة(٢/ ١٩٣).

المقدمة:

الحمــد لله رب العالمين، والصلاة والســلام على أشرف الأنبياء والمرســلين، نبينا محمدﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

تعرضت الســنة النبوية منذ الزمن الغابر وحتى الحــاضر لموجة من إنكار حجيتها والطعــن في مصدريتها فضلا عن افتراض خصومتها للعقل والفكــر، من قِبل القرآنيين والمستشرقين[(١)] والحداثيين والعلمانيين والمستغربين[(٢)] بوجهات متعددة وطرائق متنوعة، يجمعهــا محرك الجهل ودافع الحقد. تتدثر هذه الكتابــات بالموضوعية والحيادية في زعمها البحثي والعلمــي ومعولها الهادم منهجيــة التفكيك الغربي في تحليــل النصوص الدينية والخطابات والمواقــف النبوية، غير آبهة بالحق والحقيقة في مســعاها ومصيرها، ظنا منها أنها بهــذا الفعل والانجاز المعرفي قــد اخترقت أهم حصون الإســلام وهدمتها، ومحت الرسالة والرســول من وجدان وإيمان الناس فتهتدي في ســلوك حياتها بمرجعية العقل والهوى والاشــتهاء، وتكون الفوضى والعبثية هي الحادي لهــم في دربهم ودروبهم. وما يؤكد هذا التوصيف والتهديف مــن اللائكين لهذه المقولات هو التكرار والاجترار لها في

(١) كلمة اســتشراق مشتقة من كلمة شرق وهي تعني مشرق الشمس، والاستشراق علم الشرق، أو علم العالم الشرقي، وهو حين يتناول الشرق إنما يســتهدف الإســلام دينا ونبيــا، بحيث يقدمه في صياغة جديدة ، مملؤة بالحقد والعداء الشديد للإسلام والمسلمين. أما المستشرقون فهي عملية عقلية يقوم بها المستشرق ، فهو الفرد العاقل غير المســلم الذي يعنى بدراسة الشرق والكتابة عنه والعمل على فصل المسلمين عن دينهم من خلال التشكيك في مصدرية القرآن والسنة النبوية وحجتها. انظر: الاستشراق والعمليات الاســتخباراتية، علي عزب، ص٩٣ وما بعدها، نقلا عن الاســتغراب وخطره على السنة النبويــة، مريم محمد علي المغربي، حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، عدد٣٣، لعام ٢٠١٤م، ص٩ وما بعدها.

(٢) المســتغرب هو الفرد العاقل الواعي من أبناء الشرق المقبل على تراث الغرب المادي، إلى حد الإعجاب به، والســعي لتطبيقه في أنماط حياته ، مع إضافة معتقداته وآدابه وأخلاقه. انظر: الاستغراب وخطره على السنة والنبوية ص(٢٠).

العصـــور المتعددة، باختلاف التعبير والبيان من واحــد لآخر، واتحاد المضمون والدلالة. إنه ســجال ثنائــي دائم الحراك والجــدل في حركة الحياة جدل الأصــول المتمثل في الحق والباطل والشر والخير والضلال والهدى والدين والحياة، وجدل الشــخوص المتمثل في الاســلامي والعلماني، وجدل الزمان المتمثل في الغيب والشهادة، وجدل المكان المتمثل في الطبيعة والأكوان، وجدل المرجعية المتمثل في الوحي والهوى، إنه جدلُ الوعي والســعي في الوجــود ، وهذه مصاديق الدفع والابتلاء التي أرادها الله في الوجود ليحيا من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

وفي هذا البحث نســتعرض مقــولات أحد هؤلاء الطاعنين الذيــن تحزموا بالمعرفة المؤدلجــة الخالية من الاســتقامة والعدل والرحمة حول مســائل عديــدة أهمها مصدرية الســنة وحجيتها، وهو الباحث جورج طرابيشي في كتابه "من إســلام القرآن إلى إســلام الحديث" الصادر عن دار الساقي بلبنان في العام ٢٠١٠م، الذي أبرز فيه انحصار الدين في مرجعية القرآن دون إيمان، وأن السنة والحديث ورواتها وعلماءها صناعة مرجعية معرفية وأيديولوجية، وذلك لعرضها على مشرحة الوحي لكشف الحقيقة من الأسطورة والهرطقة من الحق، ومع أن الصمتَ أبلغ من الكلام في بعض الأحيان، كما أنه موقف إلا أن الكاتب والكتاب رمز ونهج لجمهرة الحداثيين العرب، وأحد ينابيع الغواية الفكرية والمعرفية فكان اســتدعاء وظيفة البيان عن الكتمان، والأمانة العلمية لحراســة أصول الإســلام وثغوره المعرفية بالإسهام النقدي لهذه المقولات التي تزملت بنقد التراث والتأريخ شعارا وسهاما نحو شريعة الإسلام حضارةً وأعلاما.

ويأتي هذا البحث الموسوم بـ: السنة في مضمار الوحي الإلهي المصدرية والحجية ضمن مشروع نقدي يهدف إلى افتراءات جورج طرابيشي ونقضها.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

ويتكوَّن البحث من ثلاثة فصول، هي:

الفصل الأول: السنة النبوية في معترك البهتان (المحرك – المؤسسات – المنهج – المعالم)

الفصل الثاني : السنة النبوية في مفتتح البيان(التعريف – التدوين)

الفصل الثالث: السـنة النبوية في مقصد القرآن (االسـنة النبويـة في معترك البهتان المحرك، المنهج ، المؤسِّسات ، المعالم)





الفصل الإول

السنة النبوية في معترك البهتان

(المحرك – المؤسسات – المنهج – المعالم)

القصد من هذا الفصل تقديم مدخل كشفي عن الأفكار المراد مناقشتها وبيان مأصولها من مدخولها، وحقيقتها من زعمها، فيكون كشفا مشرحيا أولياً ترتكز عليه عملية الوزن والميزان ويستند عليه البيان للأعيان، ويتكون هذا المدخل من أربعة مسارات هي: مسار البواعث المحركة للأشخاص والأفكار المدونة أو المنقولة، ومسار المؤسّسات المصدرية المرتكز عليها البناء الفكري، ومسار المنهجية التي اتبعها منتجو الأفكار ومروجوها، ومسار السمات والمعالم الإجرائية التي تحلَّو بها في هذا الإنتاج والترويج، وهي على النحو الآتي:

أولاً المحركات الغائية للأفكار والتصورات:

السببية الغائية التي تدفع كاتبا أو باحثا عن فكرة ما تظهر من خلال الأفكار واللغة المبثوثة في أثناء البحث، ولقد درجت أعراف البحث العلمي المعاصرة على توخي الموضوعية التي تعني الحياد الابتدائي في العرض وأثنائه عن الحكم مالم تكتمل عملية الاستدلال فتتدشن الاستقامة في الاستدلال والاستنتاج، والعدل في الحكم، فهذه قيمٌ إسلاميةٌ أصيلةٌ حث عليها الاسلام في نهج الإنسان القولي والسلوكي بل والنفسي الوجداني.

وحين يسود الشخص فكرة قاهرة مسبقة وتصبح حالة من الوسوسة والرهاب فتجعل منه آلة تشتغل وفق هذه الفكرة مستنصرا لها بأي قناع كان متبطِّراً عن الحقيقة مستنكفا عن الحق، واضعا أفكاره موضوع الاحتمال والظنون محل اليقين القاطع، عند هذه الحالة تزل الأقدام وتجور الأقلام فيختل منطق البيان والبنان عن الرشد والسداد، ويتحول الموضوع إلى ادعاء وعداء، وربما يقود إلى أشلاء، وهي سلسلة متوالية تراتبية لنتيجة حتمية أدى إليها العوج والانحراف الابتدائي السببي. وقد قال الله تعالى عن هذه

الحالة الفصامية بين الظاهر والباطن ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [آل عمران] تلك هي طبيعة الكتابات المعاصرة أو الغابرة ممن شنئوا السنة النبوية في حجيتها ومصدريتها.

فالمحركات الحقيقية الفاعلة التي تقف خلف تبني الأفكار والمعتقدات والتصورات ليست المعرفة الصرفة للمجهول، وإنما هناك عوامل أخرى أكثر أثرا في تحريك المشهد الفكري المعاصر، وتبني الأفكار والتصورات كمعطى الهوى والعصبية والكبر والحسد والمصالح الشخصية العاجلة[1]، وهذه حالة تعتري الأفراد كما تعتري المكونات والجماعات كالموقف المسبق الذي يضغط باتجاه الإقرار أو الإنكار.

فكثير من الانحرافات المعاصرة في المجال العقدي والفكري والثقافي ليس عائدا في حقيقته إلى إشكال معرفي علمي مندرج في إطار التساؤل المشروع أو الشبهة الطارئة، بل ثمة محركات أخر تقف خلف المشهد تمثل مكينة تشغيل لها كهيمنة النموذج الثقافي الأجنبي مع ضعف التسليم لله ورسوله ﷺ[2] . وهذه الهيمنة تنعكس على الجهة الغالبة في كل أطوار الحضارات التاريخية، فزمن العلو الإسلامي زعم بعض اليهود والنصارى أن رسول الله ﷺ حق من عند الله مبعوث للعرب خاصة، وهذه أولى شبهات وإشكاليات النصرانية قديما وحديثاً وكررها جورج طرابيشي في كتابه :" من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث"، وقد فنَّدها سابقاً الإمام ابن تيمية في كتابه :" الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح".

وربما تستقوي اليوم كثير من المفاهيم المنحرفة بالهيمنة الغربية الطاغية، إضافة لنزعة الهوى؛ لهذا يغدو التركيز على تقوية مناعة الأمة حاجة ملحة ككل والأفراد كجزء من

(١) انظر: ينبوع الغواية الفكرية ص(١٥) وما بعدها.
(٢) المرجع السابق ص (١٩).

خلال ترسيخ أصل الانقياد والخضوع والإذعان والتسليم للوحي في النفوس. فأكثر الجدالات الحاصلة في جملة من المفاهيم والرؤى، وإن رأيتها تتسور ببعض النصوص الشرعية مما يظهر للوهلة أنه جدل، يدور في فلك الشرع ومؤسس على الوحي القرآني، كما فعل جورج طرابيشي في كتابه :" إسلام القرآن" تحركها أفكار مسبقة تشكلت نتيجة ضغط الواقع أو الهوى النفسي والخواء الروحي أو الحقد والغيظ، وهم ينساقون مع النص تذرعا لمآربهم واتساقا مع هذا المزاج، وللقارئ أن يتأمل التصوير القرآني لهذا المزاج المشخص، الذي يقترب خداعا أنه مع حكم الله، وقصده هواه وحظ نفسه تظاهراً وتنكراً وتستراً، لا بقصد الخضوع والانقياد والتسليم، ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠ ﴾[النور] وفي واقعنا الحي :" إسلام القرآن" لجورج طرابيشي الذي يتستر بإقرار إسلام القرآن لإنكار إسلام النبي محمد ﷺ. وفضلا عن غرابة هذا المزاج لتركيبة هؤلاء الأشخاص المخادع، والناكر الماكر، فإن الخلل المنهجي والحيدة الموضوعية تبدو واضحة في عطاءاته المعرفية للمسائل الشرعية كالقراءة الانتقائية للوحي، وعدم استيعاب الأدلة الشرعية، والتعلق بالمتشابه منها، وتبعيض الدين، ومحاولة تقليص دوره في الحياة إلى حد الإلغاء، وإنزاله عن مقام التوجيه والارشاد والهدى و"حصره في زوايا التكايا والمعابد ومنعه من الحضور المعنوي النفسي والاجتماعي والسياسي في أداء المسلمين[1] ، والتوسل بمناهج مخالفة لمنهج الإسلام وعلمائه الكرام ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣ ﴾ [البقرة].

ومن هنا يأتي التساؤل عن موضع الخلل والزلل والزيغ في مثل هذا السلوك، وهذه الاتجاهات المعرفية والثقافية والأمزجة المضطربة، والجواب يكمن في أصل التسليم لله

---

(١) تجديد الموقف الاسلامي ص(١١٨).

ورسـوله على درجات متفاوتة مـن دائرة الدين بعداً وقرباً، تحـاول نقض الوحي ورده ونزع قدسـيته، وزحزحة ثوابته[١]، وجعلها سائل التشـكُّل والتشكيل كما يتوهمون، كما يتشكل هاجسـهم بفعل ضغط الماديات واللهو والهوى. ويحاول بعضهم تبني مسلكيات الحـرب القتالية كعملية الالتفافات على الخصم بعد مخادعة وترصد، وربما تظاهر بالإقرار والتسليم، وهو التفاف على التسليم ذاته، كما يفعل من يظهر التسليم للنصوص من خلال عرضها وسردها في موضع الإشـكال، وهو يستبطن نقضها وهدمها من الجهة الأخرى، كما يفعل طرابيشي في كتابه:" إسـلام القرآن" لنقضِ إسلام السـنة النبوية، وهذا أسلوبٌ يشبهُ أساليبَ السحرة العظيمة، التي سرعان ما ينكشف زيفها عن الأعين، ويبين ضعفها لذوي الأفهام أمام نور الوحي المبين الصادق في كله وجزئه: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف].

وإذا أراد كاتـب أن يكون باحثا منهجيا بعيدا عن وهدة الإرهاب الفكري والعبث، فلابد له من اتباع أسلوب التوثيق المرجعي والالتزام بالموضوعية وتناسق الأهداف المعلنة والنيات المبطنة، وعناوين الكتب مفاتيح لتصنيفها، والناظر في عنوان:" من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث" يلحظ مضمونه بين الإسفاف والاعتساف الخارج عن منهاجِ الاعتدالِ والاسـتقامة، وكانَ أقـرب إلى الدجل الفكري والمكر الثقافي ليـس إلا، وكما يقال : أول مقروء مـن الكتاب العنوان، وإن عنوان كتاب طرابيشي "من إسـلام القرآن إلى إسـلام الحديث " يوحي أنه خاص بالبحث في الموضوع بينما المهمة الأساسـية للكتاب غير ذلك، وهي الهدم والنقض لشـمول الإسلام زمانا ومكانا وإنسـانا، وتقطيع أوصاله من خلال التظاهـر بقبول النص القرآني ونفي النص النبوي، ثم يكر على ما قَبِلَ به فيحصره في دائرة الضمير والوجدان الشخصي ولا يتعداه إلى حركة الحياة ومكوناتها، ثم خلخلة هذا الحصر في دائرة الشك والظن بسلامته وصحته.

---

(١) انظر: ينبوع الغواية الفكرية ص(٢٦).

يفترض القارئ أن كل كاتب حُرٌ فيما يكتب، بمعنى أن محرك بحثه الإشــكال المعرفي الذاتي والتطلع الثقافي والتزود العلمي واكتشــاف المجهول ونفي الجهل، وتنمية العقل، غير أن هذا الوضع لا يطرد دوما مع كل كاتب خصوصا القضايا الإسلامية في ظل الهيمنة الغربية وسيطرة الغواية الفكرية، وبملاحظة جورج طرابيشي في كتابه " من إسلام القرآن " تظهر علامة التسيير على التخيير، أي أنه مسير لا مخير، مسير لشحن نفسي ودفع أيديولوجي وحقد قلبي على الإســلام، فيحاول جاهدًا من خلال هذا المنزع النقض والتشــكيك في مســلمات الدين وركائزه المصدرية والمرجعية، والمكانة والتشريع، متقنعا بقناع إســلام " النص القرآني" للوصول إلى هدف يبتعد عن العنوان نفســه، بما يثير الرِّيب ويُســقط قيم العناوين ويُتلاعب باســتخدامها، وهو نوع من التضليل الثقافي والدجل المعرفي. ويحاول طرابيشي من خلال عنوانه " من إســلام القرآن" الرامي إلى نفي مصدر الإسلام في توجيه الحياة تشكيل إرباك في عملية التوجيه، والخلط الظاهر بين العقيدة القرآنية والبيان النبوي لها الذي يسميه الصناعة الأيديولوجية البشرية. يحاول الكاتب الإيهام بالحياد، وهو غارقٌ في الانحياز من خلال آلية التأويل والقراءة الذاتية للنص والسيرة. ومن باب الإيهام يحاول كتاب:" من إســلام القرآن " محاكمة بعض الآثار والأحاديث النبوية إلى منهجية المحدثين حين يكون الحديث منسابا مع انحيازاته وقناعاته وأهدافه، ويلتف على أي حديث يتعاكس مع هذه القناعات والأهداف، وهو تحكم صرف لا يتساند والاحتكام للحقيقة. وإذا كان هذا هو المحرك للأفكار المتذرعة بنص الوحــي إلى مآربها، فإن لهم منهجاً يقرأون به هذه النصوص ويتأولونها ، نتعرَّف على بعض ملامح هذا المنهج في الفقرة الآتية::

ثانياً منهج قراءة الوحي وتأويله عند الغاوين وأهل الزيغ:

مراعــاة منهج الفهم الصحيح للوحي هو الســبيل الأوفق للفهــم القويم والتطبيق الســليم ، فقراءة الوحي ليست عملية اعتباطية عبثية، بل لها ملامح وخصائص ومحددات

دقيقة، وقد عمل العلماء المسلمون على بذل الجهود التي شيدت القواعد والأسس وسورت التحصينات للنص من التلاعب، فكانت مسالك فهم النص وتحرير ضوابطه حصنا حصينا من التسور والاختراق، وأدوات فهم الوحي (قرآنا وسنة) مبثوثة في الوحي ذاته متضمن لها ، كقاعدة: الجمع بين النصوص وعدم تبيعضه، وقاعدة: درء التعارض المتوهم عنه، وقاعدة: المحكم والمتشابه، وقاعدة: فهم الوحي بمقتضى اللغة العربية وفق استعماله لها.

وأصل مشكلة التأويل يكمن في الباعث، فحين تسبق جملة من الأصول والعقائد واحتلالها موقع الصدارة في النفس على حساب الحقيقة والوحي فإذا ما وقع في الوحي ما يعكر صفو تلك الأصول، فإنه يتم الكر عليها بالتحريف تحت مسمى التأويل[١]، والقاعدة:" أن كل تأويل يعود على الأصل بالإبطال فهو باطل". وطبيعة المنهج الذي استعمله المستشرقون في دراسة النص الإسلامي يعتمد على مفردات البيئة الغربية التي تعادي الدين بسبب تصرفات الكنيسة آنذاك، فكان منهجا مفترقا في أهدافه عما يوجد في المجتمعات الإسلامية عموما والعربية خصوصا، فاصطدموا بكل ذلك التراث الذي بُني على معتقدات دينية وروحية تحت عبق الشرق وقيمه المخالفة، روحا وعقيدة ومذهبا وسلوكا لكل توجهات الغرب المادية والدينية والعقدية [٢]، كما يستخدمون منهج القراءة التفكيكية التي تعني النقض الكامل، والتوظيف السلبي لمناهج اللسانيات المعاصرة، والتأويل المفتوح تحت شعار القرآن " حمال أوجه" وبالتالي تمرير ما يريد القارئ من القرآن أن يقوله، وهي نزعة تجعل النص القرآني كأي نص بشري وأدبي يتم مقاربته بمناهج الأدباء ونقاد النصوص [٣].

(١) انظر: ينبوع الغواية الفكرية ص(٢٣٠)

(٢) إشكالية فهم القرآن عند المستشرقين ص ٩ وما بعدها.

(٣) انظر: بنية القراءة مدخلا لإعادة القراءة، عبدالرحمن حللي، ضمن كتاب المناهج الحديثة في الدرس القرآني، مدارك للنشر، ط١/ ٢٠١١م، ص (٧٢).

والفهم في حقيقته معرفتك الشي بالقلب[١] ، فكانت الأســس التي يمكن ملاحظتها في عمليــة الفهم من خلال نظرة ابن منظور لطبيعة مفردة الفهم في العرف العربي هو ثقافة المتلقي وقابليته على الفهم، وهذا الأمر متعلق كثيرا بالجانب الاجتماعي والسيكلوجي له، وفي تنزيل هذه الأســس على فهم جورج طرابيشي بخلفيته الثقافية وحالته السيكلوجية، ســيتبين أن النتائج التي توصل إليها وحاكم الآخرين على ضوئهــا إنما تتوافق مع ثقافته وسيكلوجيته.

لفهم الخطاب القرآني ونصه قواعد ناظمة وأصول حاكمة لهذا الفهم والتأويل دوَّنها علماء الأصول في كتبهم ، فالخطــاب في عرفهم:":" اللفظُ المتواضعُ عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه"[٢] ،وهم بهذا التعريف ينفون عن الخطاب العبثية والاعتباط ويثبتون له الأهمية والأحقية، فيكون الساعي به واعيا له مدركا لمقاصد الجهاد به والاجتهاد فيه فهماً وتنزيلاً، وبقدر حصيلة المتلقي المعرفية يكتشف مقصودات الخطاب[٣] . والنص في معناه العــام: الدلالة على كل خطاب أفاد حكما معينا،وهو يعني القرآن كاملا في شــكله الكلي من بداية فاتحة الكتاب إلى آخره ســورة الناس، كما هو مكتوب في المصاحف المعتمدة. أما النص في معناه الخــاص عند الأصوليين فهو الذي يعني الوضوح القاطع وعدم الاحتمال في دلالته..

أما مدلول الخطاب في الثقافة الغربية وبالذات عند أصحاب الفلسفة التفكيكية التي ينتمــي لها جورج طارببيشي، كما يذكرها في كتابه:" من إســلام القــرآن"، فيتجه التفكيك بشــكل أســاسي إلى نقد التصور البنيوي من حيث إنكار ثبات المعنى في منظومة المعنى، وتهميش مرســل الخطاب والاســتغناء عن مؤلفه، والاســتغناء بالقارئ ليشكل النص ومدلولاته كيفما يشاء، ويكون حُراً في التعامل مع تراكيب النص وأنساقه، دون الالتفات

(١) لسان العرب لابن منظور،(١٠/ ٣٤٣) مادة فهم.
(٢) الإحكام في أصول الحكام علي بن محمد الآمدي(١/ ١٣٦).
(٣) انظر: استراتيجية الحمل على غير الظاهر ص(٨٣).

إلى مقاصدِ الشارع[١] . ويعتبرون الخطاب القرآني خطابا يعتمد على المجاز والرمز، وليس خطابا تواصليا، وهو نتاج ثقافي وتأريخي يخضع للنقد، شأنه شأن أي منتج بشري. فالخطاب تحول في تصورهم من وسيلة تواصلية إلى وسيلة من الرموز، تغذي التأمل والخيال والفكر والعمل، وتغذي الرغبة في التصعيد والتجاوز[٢] . فالخطاب في عرفهم ملك للقارئ وله كامل الحق في التصرف بالمعاني، وهو فضاء للتأويل الحر المفتوح [٣]. فتحليل تراكيب الخطاب ينبغي ان يخضع للتحاليل الأسلوبية التي تبحث عن التوقعات الدلالية في بنية الخطاب، ولكن بمفاهيم عرفانية، وتاريخانية كونه منتجا ثقافيا يخضع للنقد شأنه شأن أي منتج بشري[٤] . وهم بهذا ينزعون القداسة عن الخطاب القرآني ومساواته بالخطابات البشرية. والله يقول: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ ﴾ [النمل]، فلا يصح مساواة النص الديني بالنصوص الأخرى،﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ [السجدة].

والمناهج التي تدعو إلى إقصاء المؤلِّف بل وتعلن موته لا تصلح أبداً في دراسة النص الديني؛ لأنها لا تتناسب و نص شرعي قانوني يراد منه تطبيق تعاليم محددة وفق مراد الشارع [٥]. والمؤولون الجدد أوقعوا أنفسهم في مغبة التحاليل العرفانية الذوقية، فانتهى بهم إلى نتائج اصطدمت مع الثوابت القطعية في الدين الإسلامي.

يرتكز المؤولون الجدد في قراءاتهم للوحي (القرآن والسنة) على ركيزةِ السياق، وهي ما يرددها دوما جورج طرابيشي في كتابه:" من إسلام القرآن" في محاكمة النص القرآني إلى السياق في حالِ إنكاره السنة النبوية، غيرَ أن السياقَ له مساران، هما: المسار اللغوي، والمسار

(١) انظر: استراتيجية الحمل على غير الظاهر ص(٨٩).

(٢)انظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي محمد أركون ص ٢٩٩، نقلا عن استراتيجية الحمل على غير الظاهر ص ٩٠ وما بعدها.

(٣) نقد النص علي حرب ص(٢٤).

(٤) استراتيجية الحمل على غير الظاهر ص (٩١).

(٥) المرجع السابق ص(١٠٠).

المقامي يستند عليهما المفسر للوصول لفهم مقصد المتكلم. والسياق يحقق من الناحية اللغوية الوحدة والانسجام بين أول النص وآخره، ويضبط حركة الدلالات والمعاني في النص ويفسر بعضه بعضا[١] . وآلية المسار اللغوي ثلاثة، هي: معرفة المناسبات بين الآيات، ومعرفة الفواصل ورؤوس الآي، ومعرفة الوقف والابتداء[٢] ، أما المسار المقامي والذي يهتم بظروف التنزيل، مثل: أسباب النزول المحتوي على قضية العام والخاص، ومعرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، وطريقة نزول القرآن منجما ، والناسخ والمنسوخ، والمدني والمكي، في مجموع هذه القواعد التي تتعاضد فيما بينها للوصول لمقصد الشارع من تشريعه، ولا تُؤخذ مجزأة على حدة كما يعمل طرابيشي مستشهداً بأسباب النزول منفردة عن باقي القواعد، أو المكي والمدني ليحبس فيه النص ويحصره في فترة تأريخية، أو اتجاه فردي بعيدا عن توجيه الحياة والإنسان في مختلف المجالات نحو الاستخلاف الرشيد .

ولم يتناول الحداثيون والمحدَثون السياق اللغوي حسب قواعده التي قعدها الأصوليون وعلماء القرآن؛ وإنما حسب دعمها لفكرتهم كما يفعل جورج طرابيشي في الاستشهاد بالسياق لحصر القرآن في التاريخية الزمانية والسببية الواقعية؛ لنفي عالمية الرسالة، كما يعضد بها فكرته في عدم صحة السنة النبوية، وهو احتكام إلى هذه القواعد من باب الخداع للذات ليس أكثر، كما يقول أحد الحداثيين العرب[٣] ، وهي نظرة تخشى القيود المنهجية التي أصَّلها الأصوليون، وهم واقعون تحت تأثير العقدة النفسية والفكرية التي تجعلهم يرون المعارف الدينية واقعة تحت الكينونة السلطوية من واضعيها العلماء أصحاب السلطات والصناعات ، وتنعكس هذه الرؤية على تحليل القواعد الأصولية، ويدَّعون امتلاك الحقيقة بهذا السلوك.

---

(١) استراتيجية الحمل على غير الظاهر ص(١٠٨).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن، أبو محمد بن بهادر الزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت لبنان، ١٣٩١هـ،
(١/ ٣٥).

(٣) علي حرب في كتابه نقد النص ص(٢١١).

وقاعدة السياق المقامي، أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ في تفسير وتأويل نصوص الوحي التي اعتد بها علماء القرآن إنما جاءت على فهم سليم لمقاصد الوحي، فهو نص يحوي أحكاما تشريعية واقعية.

وهم باحتكامهم إلى قاعدة السياق واستعانتهم بها ليس لفهم النص وإنما لإفادته بأن النص الديني نص لغوي[١]، وبالتالي فهي قواعد لا تصلح لقياس النصوص ذات المصدر الإلهي[٢]. وفي هذا يقول جورج طرابيشي:" ابن حزم يغلق عملية تدوين المصحف وختمه بالخاتم الإلهي، فإزاء نص ناجز ومصنَّمٌ تولى الله نفسه تأليفه وجمعه وترتيبه لا يبقى أي خيار آخر للعقل ... سوى أن يؤسس نفسه في تبعية ذليلة لا تطرح حتى سؤال كيفَ أو لمَ، وأن يحصر وظيفته بالانقياد لمعاني ألفاظ الآيات"[٣]. وهو بهذا يظن أن النص أغلق العقل عن الانفتاح على الفكر، وهو ظن شك؛ إذ الاجتهاد في النصوص فهما وتنزيلا مطلوب شرعا من أولي العلم والمقتدرين، فيعالجون المسائل وفق مقتضيات الأدلة الأصلية المتفق عليها كتابا وسنتة، والأدلة التبعية كالإجماع والقياس والاستصلاح والاستحسان والذرائع والعرف، كل هكذا يؤكد مدى فاعلية العقل الإسلامي على خلاف ما يظنه جورج طرابيشي الذي بمحاولته هذه أعلن التمرد على النص الإلهي بحجة الانتصار للعقل والوهم، بينما العقل في الإسلام محترم مكرم كما وضحه باحث في نقده لجورج طرابيشي في القسم الأول من هذا الكتاب.في أثناء سلسلة التعقيبات عليه.

وما قام به جورج طرابيشي من نقد للسنة النبوية لم تكن وليدة أفكاره الحرة، وإنما هو بناء على أسس أسسها من قبله بعقود من الزمن نقاد النصوص وفي العهد القديم والجديد، وهذه المؤسسات نستجليها في الفقرة الآتية:

(١) انظر: حوار مع نصر حامد أبو زيد، مجلة العربي الكويت، عدد ٤٥٠ مايو ١٩٩٦م، ص١٦٩.
(٢) استراتيجية الحمل على غير الظاهر ص(١٢٨).
(٣) من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث، ص(٣٦٨).

ثالثاً: المؤسّسات التي بنى عليها المنكرون للسنة نقدهم:

لم تكن عملية إنكار السنة والتشكيك فيها منبتَّة الجذور بحيث كانت نتاج طفرة فكرية وفضول معرفي شخصي، بل كانت توجهًا فلسفيًا متأسساً على أسس ظرفية تاريخية فكرية، فالقرآنيون تلقفوا هذه الأسس، ومن خلالهم جاء المنكرون ليتذرعوا بها توسل به القرآنيون بالاعتماد على القرآن دون السنة مع اختلاف القصد والإرادة بين المنكرين والقرآنيين، ولو اعتمدوا على القرآن كما زعموا لقادهم للتسليم بمصدرية السنة وحجيتها؛ كونه يؤسس الاقتداء بها واتباعها.

ولقد كان المنبع التاريخي لظهور فكرة إنكار السنة هو أن دوائر الفكر الديني اليهودي قديما وحديثا يقوم مذهبهم على فكرة التمسك بما جاء في العهد القديم وحده، وعدم الاعتراف بأحكام التلمود وتعاليم الربانيين والحاخامات[1].

وظهرت فلسفات خلال القرنين التاسع عشر والعشرين أدت إلى هذه المناهج، ومن أبرزها:

١- فلسفة مناهج نقد النصوص الكتابية.

يذهب علماء نقد نصوص العهد القديم إلى أن أسفاره لم يدونها موسى، وإنما هي مجموعة من التقاليد المتراكمة التي تشكلت مادتها في أوقات متباينة، وأن الزمن الطويل للنقل الشفوي أفسح المجال لنفاذ أفكار وأحداث تاريخية إلى متن التوراة لعبت دورها في صياغة التوراة الحديثة[2]، وما ذهبوا إليه كان بفعل جهود علمية هائلة ودراسات

(١) القرآنيون والسنة النبوية، قراءة في أثر الظرفية التاريخية والفكرية في ظهور القرآنيين المعاصرين، د. رقية طه العلواني، ص (٧).

(٢) المرجع السابق ص(٩).

مضنية في تلك الكتب أدت إلى الوقوف على تناقضات حقيقية بين ما ورد في العهد القديم والجديد، جعلهم يقولون بتاريخية تلك المرويات،لكن تسوية واقع عصورهم على واقع السنة النبوية والتبشير بهذه المناهج في ساحة الفكر الإسلامي ركوب لموجة التأثير والتاثر والتطبيق دون وعي أو بمكر وخداع، ونابتة سوء في صرح الفكر الإسلامي دون حقائق تؤيدها أو تدحضها وتنفيها.

ولم يكن طرابيشي في أحسن أحواله قرآنيا مؤمنا به، وإنما كان نائحاً مستأجراً من قِبَل نوازع النفس والحقد والهوى، أو من قِبَلِ اعتقاده الديني المسيحي للتشكيك بعقائد غيره والتذرع بوسائل خادعة خائبة. مع أن واقع الدين اليهودي يتناقض وحال السنة النبوية وحفظها من قبل العلماء والمحدِّثين، فنظرية النقد التاريخي تنظر إلى النصوص الكتابية باعتبارها صدى لتراكم تاريخٍ ماضٍ خاضعٍ لسنة المكان والزمان والتحولات وبهذا ظهر من يؤيد هذه الفكرة ومحاولة مقايسة السنة النبوية بها.

٢ أثر فلسفة تطور الأديان:

نظرية التطور العضوي للكائنات انتقلت إلى حقل الدراسات الإنسانية، ومنها الدين الذي أخضعوه للتطور، وهي نظرية تحاول إلغاء المرجعية الإلهية للنصوص الكتابية في العهد القديم والجديد، ولقد نظر علماء الأديان إلى الدين باعتبارات ثلاثة:



أ نفي تأسس الدين على الوحي.

ب تطور الدين كتطور الكائنات الداروونية.

جـ- الدين وليد صنعة بشرية وتراكم كمي لعناصر ثقافية متوارثة عن الأمم والشعوب وليس مفارقا خارجا عنهم وأصحاب هذا الاتجاه سوَّوا بين الدين المعصوم والفكر الديني؛ مما ساق إلى النظر في الأحكام الشرعية الثابتة بالوحي على أنها ذات قيمة تاريخية نسبية التغير والتطور، ومن هنا تسللت هذه النظريات إلى المجتمعات المسلمة فنظروا إلى السنة باعتبارها تراكماً لعناصر ثقافية متوارثة عن الأمم والشعوب قبل التاريخ .

والقول بتاريخية السنة يسوق إلى القول بعدم حجيتها وإلغاء التشريعات والأحكام التي جاءت بها إضافة لارتباطها بالإقليم الذي جاءت فيه لتقويض عالمية الرسالة وتقويضها في كل زمان ومكان، وهذه مغالطات تنكرية بالعلم والموضوعية، وهي تهمٌ وشكوكٌ وغيظٌ نفسي على دين الإسلام، ولو نظروا بعين العدل واستقامة الفكر لعلموا أن الشريعة الصادرة عن دين صحيح سماوي لا تخضع في أصولها وأساسياتها للتطور والتبدل بحكم مرجعيتها الإلهية المعصومة[1]، ولم يقتصر صدى هذه الفلسفة على نصوص السنة بل تجاوزوها لنصوص القرآن ، وهي سياسة حربية في تحطيم الحصون حتى يصلوا لمركز القيادة والريادة فينسفوه، وتكون العبثية واللعب دون أصول حاكمة وقواعد ناظمة لمصالح الدين والدنيا.

٣- إساءة فهم مناهج التعامل مع السنة:

أسهمت عمليات الفهم غير السليمة والتأويلات المنحرفة إلى توجيه بعض الكتاب أصابع الاتهام والعلوم إلى الأحاديث النبوية وأثرها في تكريسِ توجهات متطرفة، مناقضة لوسطية الإسلام[2]، أو تكبيل العقل عن التسريح في حركة الحياة، والسبب وراء كل هذا

(١) المرجع السابق ص(٢١).
(٢) المرجع السابق ص(٢٢).

هو القراءة خارج مقاصد الإسـلام وحِكَمه المبثوثة في الوحي بعمومه وشموله، كذلك قراءة النصوص متقطعة عن بقية النصوص القرآنية والحديثية سياقا ومقاصدا. فالحكمُ لا يؤخذ من حديثٍ مفصول عن غيره، وربما ركز بعضهم على نص دون نص، ودون ضوابط تحكم هذا التركيز والحكم، وربما تعاملوا مع السياق كما يفعل طرابيشي حيث يحبس النص فيه وفي بنيته الدلالية اللغوية، ويعزله عن محيط المقاصد الكلية الشرعية والإنسـانية، وهو منهج للزيغ والضلال لا للرشد والاهتداء. وحل هذا الإعضال هو التزام ضوابط تأويل النصوص، كما قعَّدها أولوا الخبرة العلمية والاختصاص الشرعي، والارتياض بنصوص القرآن والسـنة ، دون التحاكم إلى مناهج بيئية مغايرة للبيئة والمنهجية الإسلامية، فعنوان المنهجية الإسلامية القراءة باسم الله ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾[العلق].

وإذا كان لمنكري السنة ومن يسـمون أنفسهم بالقرآنيين محركات فكرية ومؤسِّسات نقدية فإن لهم معالم إجرائية هي رابع هذه المسارات نستعرضها في الفقرة الآتية:

٤ معالم نهج الطاعنين في الوحي:

يتسم نهج الطاعنين في الوحي بسماتٍ متعددةٍ سواء أكان قرآنا أو سنة، فهم بين منكر ومشـكك ومؤول ومحرف؛ مما يؤكد عمق الشـبهات واسـتفحالها، ومرد هذه الشبهات والأسـاليب إلى سـوء النية والجهل باللغة العربية وعلوم الإسلام، وفي هذه الفقرة نسرد أهم المعالم والسـمات التي يتبعها الطاعنون في الوحي وفي مقدمتهم أساتذتهم المستشرقين ومن هذه المعالم ما يأتي:

- الاعتقادُ ثم الاستدلال، فهم عند دراساتهم للوحي ينطلقون من سوء نيةٍ وفسادِ طوية وتصورات كاذبة، كما يؤمنون بفكرة سابقة ويضعون أدلة تؤيدها مهما كانت موضوعية أو واهية أو محرفة.

❁ الحقد والتعصب والتحيز، فهم لا ينطلقونَ من البعد المعرفي والاستفهام العلمي للبحث عن إجابات، ولكن الحقد على الإسلام، والتعصب لمعتقداتهم، والتحيز لأفكارهم ولا يتسع المقام لاستعراضِ الشخوص وأقوالهم في ذلك.

❁ التوهم والتخيل والتشكيك والاتهام، فهناك أرتال كبيرة من الكتابات والدراسات تولت كبر هذا المخطط المؤسساتُ الاستشراقيةُ ومن هؤلاء الفرد جيوم، وجولد زيهر، والأب هنري، لامنس ومرجليوث ونولدكه وغيرهم(١).

❁ التحريف للنصوص بالزيادة والنقصان والتأويل.

❁ الاعتماد على روايات وأحاديث ونفي أخرى ما دامت تنصر مذهبهم وتسند اعتقادهم.

❁ التعمية أو ذكر المعنى في صورة ضبابية ومن أشكالها: استنباط القواعد الكلية العامة من الحوادث الجزئية الفردية التي لا يصح منطقيا تعميمها(٢).

❁ تحويل النظر عن دائرة المسألة الأساسية، وتعظيم السفاسف وتكبير الصغائر وتضخيم الأخطاء.

❁ قلب الحقائق ومعاكسة الأصول، وتحويل كل خير وفضيلة وتحضر وسمو وعلم إلى شر ورذيلة وتخلف وهبوط وجهل.

❁ الاختلاق والافتراء والكذب والخداع(٣).

ويمكن ختم هذه السمات باستعراضِ بعضاً من أقوالِ جورج طرابيشي التي بثها

---

(١) انظر: أساليب المستشرقين في طرح الشبهات بحق الإسلام وطرق مواجهتها، أ.د. مصطفى مراد صبحي، نسخة pdf ص (١٢٧٣).

(٢) المرجع السابق ص (١٢٨١).

(٣) للمزيد عن هذه السمات انظر: أساليب المستشرقين في طرح الشبهات بحق الإسلام وطرق مواجهتها من ص(١٢٦٥- ١٣٠٣).

في كتابه :" من إســلام القرآن" كمصداقٍ على هذه الســمات المنهجة؛ ليكون القارئ على علم وبصيرة من هذه الحملة المســعورة. ومن ذلك قوله:" من علماء المســلمين يتملصون من منطــوق الآيات لتواكب رؤاهم، وأن كتب الحديث حولت النبي الأمي المرســل إلى قومه إلى نبي أممي مرســل إلى الأمم قاطبة، وأن أهل الحديث أسســوا لأنفسهم من خلال اتقان سلســلة المدونة الحديثية والفقهية والإفتائية سلطة تشريعية، وأن الموالي وراء تطوير صناعة الفقه والحديث[١]، وأن آلية الإســناد إنما أتاحت فرصة الكذب على الرسول تحت حماية سلسلة الضامنين[٢]،وأنها آلية توهيمية[٣]، وآلية بعدية لا قبلية جرى اختراعها لسد ثغرات السلســلة وتوثيق الرواة والتمرير الأركيولوجي على أنهــا آثار فعلا[٤]، وأنها آلية لا مرجعية لها إلا التقويم الشــخصي غير المعلل بأي دليلٍ وغير المقرون بأي حيثيةٍ العائدة مرجعيته إلى الإمام الحافظ[٥]، وأنها آلية قابلة للاختراق والتلاعب بها من خلال التعديل المجروح أو الاســتنكاف عن تجريحه[٦]، وأن آلية الناسخ والمنسوخ من أجل التملص من منطوق الآية[٧]، وتشــتغل لصالح إفقار النص لا إغنائه[٨]، وأن العلماء أمثال ابن شاهين والحازمي عملا من خلال هذه الآلية على رأب ما قد ينجم من صدوع في العمارة الحديثية بطريقة توظيفية اســتعارية[٩] وأن توليد النصوص الحديثية بعد وفاة الإمام مالك كان في

(١) انظر: من إسلام القرآن إلى إسلام السنة ص(١٠٥).
(٢) المرجع السابق ص(١٤٣).
(٣) المرجع السابق ص (٢٢٣).
(٤) المرجع السابق ص(٣٧٩).
(٥) المرجع السابق ص (٥٥١).
(٦)المرجع السابق ص(٥٧٢).
(٧) المرجع السابق ص(١٤٧).
(٨) المرجع السابق ص(٢٠٧).
(٩) المرجع السابق ص(٤٣٩)

إطار الصراع الأيديولوجي والسياسي بين أهل الحديث والمعتزلة[١]، وأن الشافعي كرّس السـنة بعد الكتاب وخرج عن معيارية اللغة العربية في فهم الكتاب[٢]، وأنه أي الشافعي يمـرر التأويل الذي يريده في مفردة الحكمة لدعم هـذا التكريس[٣]، وهو أول من جعل النصاب الأبسـتمولوجي للكتاب والسنة واحدا في المرجعية كما في الحجية[٤]، ومشروعه في قرأنة السـنة صودم بالمقاومة، وأنه نفذ انقلابا على الصعيد اللاهوتي والأبستمولوجي عندما جعل للسـنة الرسولية نصابا إلهيا وبوأها منزلة الأصل مع الكتاب وكرسها شريكة له في التحكم بمصائر العقل في الإسلام سـواء العقل الديني أو المعرفي[٥]، وأنه المؤسس الثاني للإسلام[٦]، وأن الانتصار للسنة غايته كف يد العقل عن الاشتغال[٧]، واستؤصلت شـأفت العقل بصورة جذرية وفظة من حقل الفقه وسـائر الحقـول المعرفية للحضارة الإسـلامية العربية[٨]، وأن المسـاواة بين القـرآن والحديث بالاسـتعارة من اللاهوت المسـيحي[٩]، وأن الصناعة الحديثية صناعة إسـقاطية، فهي لا تقوم على الحفر للوصول إلى طبقات الماضي الغائرة، بل تعيد تصنيع الماضي وفق هوى الحاضر وضرورات الساسة والتفقه، أو محض الشـهرة ومحض التجارة[١٠]، وأن الحضارة الإسلامية حضارة متمركزة على هوى النصوص المقدسة[١١]، وأن الثقات من منتجي الحديث هم شركاء حقيقيون في

---

(١) المرجع السابق ص(١٥٨).

(٢)المرجع السابق ص (١٧٥).

(٣)انظر: من إسلام القرآن إلى إسلام السنة ص (١٧٦).

(٤) المرجع السابق ص(١٨٦).

(٥) المرجع السابق ص(١٩٤).

(٦)المرجع السابق ص(٢٦٣).

(٧) المرجع السابق ص(٢٦٥).

(٨) المرجع السابق ص (٢٧١).

(٩)المرجع السابق ص(٣٧٢).

(١٠) المرجع السابق ص (٣٨٠).

(١١) المرجع السابق ص(٣٨١).

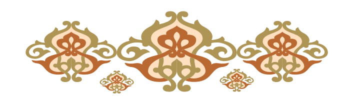
صناعة القول الإلهي، وهذه الشراكة تأخذ بعدا فاضحا في الإسلام تحديدا من أنه دين قائم في أساسه على التوحيد[١]، ويعتبر أن صنعة التخريج (الذي يعني التوفيق بين النصوص ظاهرة التعارض) ومنهجيته ضربا من التورية أو حتى من الكذب، وأنه أسس لمشروعية الكذب طلبا للمخــرج[٢]، وأن إنكار التناقض بين الأحاديث وتخريج الاختلاف على أنه ائتلاف غدا أشبه بعصاب وسواسي لدى أهل الحديث[٣]، وأن آلية الجرح والتعديل لعبة لاعبة وملعوب بها في آن واحد[٤]، وأن عوامل الزمان والمكان والهوى المذهبي تتحكم في شروط إنتاج المدونة الحديثية[٥]، وأن ابن قتيبة ألجأه وســواس نفي التناقض عن الحديث إلى مــداورة العقــل التخريجي على نحو لا يخلو مــن ارتباك وقصور باع[٦]، وأســهمت الصناعة الحديثية في تحويل الإســلام عن منطلقه الروحي كما تمثل بالقرآن ولا سيما المكي إلى منظومــة دنيوية معنية بالأحكام أكثر منها بالإيمان وبطهارة الجســم أكثر منها بطهارة النفس، ويستشهد لصحة قوله بثائية الإسلام الصوفي في مواجهة الإسلام الفقهي[٧]، وأن إنكار واقعة التناقض في المدونة الحديثية ورد ظاهرة التناقض إلى باطن مزعوم من التوافق، وهذا الهاجس الإنكاري شبه العصابي طبقا للمعجم التحليلي النفسي ضرورة قهرية أملتها الحاجة إلى التســييج الدوغمائي للمدونة الحديثية وإلى صيانة لحمتها الأيديولوجية[٨] وأن السلطة الدينية في الإســلام لم تكن خلافا لواقعها في المسيحية سلطة دينية مركزية، ولكن انبثاثها بلا مركز في جميع مسام العلوم هو ما أتاح لصناعة الكذب أن تفلتَ من قيدِ الرقابة

---

(١) المرجع السابق ص(٣٨١).
(٢)ا انظر: من إسلام القرآن إلى إسلام السنة ص(٣٩٥).
(٣)المرجع السابق ص(٤١٤).
(٤)المرجع السابق ص(٤٢٣).
(٥)المرجع السابق ص(٤٤٠).
(٦)المرجع السابق ص(٤٤١).
(٧) المرجع السابق ص(٤٤٦-٤٤٧).
(٨) المرجع السابق ص(٤٧٧).

النقدية[١]، وأن الوعي الديني كما سـيعممه أهل الحديـث ووضاعه على نطاق الجمهور الكبير هو وعي غث ومسطح، يعوزه البعد الميتافيزيقي والعمق الروحي معا، وهي غثاثة لاهوتية وسـوقية فكرية[٢]. هذه جملٌ بثها جورج طرابيشي في كتابه لتؤشر إشارة ضوئية واضحـة على حالة التقلب النفسي والتعكر المزاجي وغياب مبدأ الأمانة والعدل في القول وترصد حالة المراوغـة والالتفاف لتحقيق النصر الموهوم في معركة محو السـنة من مقام المرجعية ومكانتها المصدرية، وتثبيت المعقول أمام اللامعقول المزعوم كما يدعي طرابيشي.

وإذا عرفنا المداخل الأساسـية والمعالم الرئيسـية المحركة لحركة منكري السنة سواء المحركات والمناهج والمؤسِّسات والسـمات كمقدم لهذا البحث فإن تاليه يحتم استعراض تعريف السنة وتدوينها وهو ما سيكون في الفصل الآتي:



(١) المرجع السابق ص(٤٩٦).
(٢) انظر: من إسلام القرآن إلى إسلام السنة ص(٥١٢).



الفصل الثاني

السنة النبوية في مفتتح البيان

(التعريف- التدوين)

تعددت تعريفات السنة بتعدد معانيها سـواء في العرف العربي أو الاستعمال القرآني والنبـوي، ومن خلال هذا الفصل نسـتعرض مدلولاتها ونتبين المداخـل التي نفذ منها منكرو السنة وتشبثوا بتعاريفها اللغوية دون العرفية والاصطلاحية، كما نستعرض تدوين السنة ومراحل هذا التدوين والشبه التي بثها المنكرون من خلاله، ونبتدئ بتعريف السنة ونلحقه بتدوينها.

أولا: تعريف السنة (العلاقةُ بينَ سنةِ الله وسنةِ رسول الله):



١ السنّة والحديث لغة واصطلاحاً:

هنـاكَ فوارق بين معاني الكلمات ودلالات الألفاظ أدركها علماء المسـلمين سـواء في مسـتوى الدلالة اللغوية والاصطلاحية، العرفية والشرعيـة، وحددوا أولوية الأخذ والاعتماد فيما يخـص التكليف والامتثال الشرعي، فالاسـتعمال الشرعي له حق التقديم على العرفيـة واللغوية[١]، وربما ابتعد المعنى الاصطلاحي عـن المعنى اللغوي لما للكلمة من معان متعددة كما في كلمة "السنة" فلها معان لغوية متعددة، وكذا اصطلاحية، فهي عند المحدثين

غيرها عند الفقهاء، والأصوليين، ومن لا يعرف هذه الفوارق الاصطلاحية، يقع في الخطأ، وربما اسـتغلها الطاعنون في الإسلام والسنة اسـتغلالا بشعا، والجُهال والغالون، فيركزون عـلى بعض معانيها اللغويـة أو الاصطلاحية دون بعـض، فأعملوا اصطلاح

(١) انظر: الفروق في اللغة لأبي هلال العسـكري، الفرق بين الاسم العرفي والاسم الشرعي ص ٥٦، وانظر: ضوابـط الرواية عند المحدثين للأسـتاذ الصديق بشـير نصر ص ٢٥، وانظر السـنة في مواجهة أعدائها للدكتور طه حبيشي ص ٢٣ وما بعد

الفقهاء وأهملوا اصطلاح الأصوليين[١] القاضي باعتبارها مصدرا تشريعيًا دائمًا لازماً[٢]، وربما أعملوا معنى السنة بالطريقةِ والسيرة، معبرين عنها بالعادة والعرف المقصود بنظرهم عادة المجتمع الجاهلي وعرفه التي نُقلت إلى الإســلام وتم تعديل جوهري عليها، كما قاله المســتشرق "جولد تســيهر" [٣] وتابعه على ذلك ســائر من جاء بعده من المستشرقين[٤].

وإذا كانت الســنة تعنــي في مدلولها اللغوي العــرف والعادة والطريقة فإن الاســتعمال القــرآني والنبوي لها لا يعني التــزام مدلولها اللغوي وإنما الشرعي بحســب الوحي جاء لبيان الشرعيات لا اللغويات، فهي تعني في الاصطلاح الشرعي (ســنة رســول الله ﷺ الشــاملة لأقواله وأفعاله وتقريراته وصفاته الخلقية والخلقية ...) وهي بهذا المعنى مصدر تشريعــي ملزم ولازم للقرآن الكريم لا ينفك أحدهما عن الآخر. فهي عادة الرســول في ســيرته العملية القولية والفعلية والتقريرية لا العادات والتقاليد الجاهلية[٥]، واعتبروا أن

---

(١) انظر: السُّنّة النّبَويّة وحيٌ ربانٌي مناقشة لدعاوى أعداءِ السُّنةِ النّبويّة. إعداد: محمد احمد صبرة، ص ٧، حقوق الطبع والنشر للجميع ولكل دور النشر الطبعة الأولى الإلكترونية للتراسل مع المؤلف: https: / /www. facebook.com /m.s.tartus m.s.tartus@gmail.com

(٢) لزوم ودوام الســنة باعتبار المصدرية والحجية لا بمعنى الحكم التكليفي الواجب، فهي تأخذ الأحكام الخمسة، لهذا يمكن العودة لكتاب السنة تشريع لازم ودائم، د. فتحي عبدالكريم، مكتبة وهبة – مصر ، ط١/ ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م.

(٣) العقيدة والشريعة في الإســلام ص ٤٩، ٢٥١. وهو مســتشرق مجرى يهودي، رحل إلى سورية وفلسطين ومــصر، ولازم بعض علماء الأزهر. له تصانيف باللغات الألمانية والإنكليزية والفرنســية. ترجم بعضها إلى العربية، قال الدكتور الســباعي: "عرف بعدائه للإســلام وبخطورة كتاباته عنــه، ومن محرري دائرة المعارف الإســلامية" كتب عن القرآن الحديث، ومن كتبه: "تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي" و"العقيدة والشريعة في الإسلام" وغير ذلك مات سنة ١٩٢١م له ترجمة في: الأعلام للزركلي ١ / ٢٨٤، والاستشراق للدكتور/ للســباعي ص ٣١–٣٢، وأراء المســتشرقين حول القرآن وتفســيره للدكتور عمر إبراهيم(١ / ١٦١ – ١٦٢).

(٤) ادائرة المعارف الإســلامية ٧ / ٣٣٠، وانظر دراســات في الحديث للدكتــور الأعظمي ١ / ٥–١١، ومنهجية جمع الســنة وجمــع الأناجيل للدكتورة عزية على طــه ص ٦٢، ١٢٢، ١٢٣، كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها د. عماد السيد محمد إسماعيل الشربيني طبعة٢٠٠٢ م ص:(١٩).

(٥) انظر: حجية السنة للدكتور عبد الغنى عبد الخالق ص٤٩–٥١، والمدخل إلى السنة النبوية، الدكتور عبد المهدى عبد القادر ص(٢٦،٢٥).

اصطلاح السنة ظهر في القرن الثاني للهجرة مع أنه معلوم في صدر الإسلام والنبي ﷺ بين ظهراني أصحابه، كما أن بعض الكُتّاب والمشككين حكموا أحد معاني السنة اللغوي وهو الطريقة في حصر السنة النبوية في الطريقة العملية منكرين الأقوال والتقريرات أن تكون سنة ومعتبرين إطلاق لفظ حديث أو سنة على ذلك إنما هو استحداث من المحدِّثين ولا تعرفه اللغة ولا يستعمل في أدبها[١]، ويرتكزون في هذا الإنكار على ألفاظ السنة الواردة في القرآن أنها سنة الله في أمره ونهيه وسائر أحكامه وطريقته لا يشترك معه الرسول فيها، كما يقول محمد نجيب في كتابه (الصلاة)[٢] وأحمد صبحي منصور في كتابه (حد الردة)[٣]، وقاسم أحمد في كتابه (إعادة تقييم الحديث)،واعتراضهم عن عدم ذكر سنة النبي في القرآن تدحضه قاعدة:" العبرة بالحقائق والمعاني" وأمر القرآن باتباع الرسول وطاعته وهذا لن يتأتى إلا باتباع هديه وسيرته. وكل ما ذكروه عن السنة وسببه الخلط بين معانيها في اللغة ومعانيها في الاصطلاح.، سواء كان هذا الخلط بجهل أو بمكر وخداع، ومن خلال عرض اصطلاحات العلماء لها حسب فنونهم سيتضح قصدها ومعلوميتها للنبي ﷺ وأصحابه الكرام. السنة والحديث[٤].

(١) كما زعم محمود أبو ريه في كتابه (أضواء على السنة المحمدية) تبعا للدكتور توفيق صدقي ونيازي عز الدين في كتابه (إنذار من السماء) ،والدكتور المهندس محمد شحرور في كتابه (الكتاب والقرآن قراءة معاصرة) ص ٥٤٦-٥٤٨، ومحمود أبو رية، أضواء على السنة ص ٣٩، ونيازي عز الدين، إنذار من السماء ص (٤٠، ١١١)

(٢)احمد نجيب كاتب معاصر أنكر في كتابه السنة المطهرة وزعم أن تفاصيل الصلاة واردة في القرآن الكريم نشر دائرة المعارف العلمية الإسلامية، الصلاة ص(٢٧٦، ٢٧٧).

(٣) أحمد صبحى منصور تخرج في الأزهر وحصل على العالمية في التاريخ من الجامعة وتبرأ من السنة فتبرأت منه الجامعة، سافر إلى أمريكا وعمل مع المتنبئ رشاد خليفة، يحاضر بالجامعة الأمريكية بمصر، ومدير رواق بن خلدون بالمقطم. من مصنفاته: الأنبياء في القرآن، والمسلم العاصي، وعذاب القبر والثعبان الأقرع، ولماذا القرآن، باسم مستعار وهو عبد الله الخليفة. انظر قصته هو ورشاد خليفة في كتابي مسيلمة في مسجد توسان، والدفاع عن السنة الجزء الأول من سلسلة "الإسلام واستمرار المؤامرة كلاهما لفضيلة الأستاذ الدكتور طه حبيشي ، وراجع كتابه: حد الردة ص(٤٠).

(٤)انظر: كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها، د. عماد السيد محمد إسماعيل الشربيني، الطبعة: الأولى ٢٠٠٢ م، ص: ٢٤. نسخة المكتبة الشاملة. السُّنّة النّبَويّة وحيٌ ربانيٌ مناقشة لدعاوى أعداءِ السُّنةِ النّبويّة.إعداد: محمد احمد صبرة، ص ٧ وما بعدها.

٢ السنة في اللغة:

السـنة في اللغة: من سن الإبل إذا أحسن رعيها والقيام عليها، وقيل: من سن الماء إذا والى صبه، وقيل: من سننت النصل إذا حددته وصقلته[١]، وفي حالة المقايسة والإسقاط لهذه المعاني على السـنة النبوية، فإن ما واظب عليه النبي ﷺ فقد أحسن رعايته فهو سنة، وأقوال النبي وأفعاله مستقيمة كشيء واحد، فهي أشبه بالماء الذي توالى صبه تتجه كلها في مقصد التوحيد وإصلاح الإنسان والحياة، وما أُثر عن النبي فقد خلصه علماء المسلمين من كل دخيل وخليط. وكذا تطلق السنة في جذرها اللغوي على العادة والطريقة والسيرة[٢]، والجذر هو السن بمعنى الجريان؛ لكن المعنى هو الطريقة والعادة، والطريقة سواء أكانت حسـنة أم قبيحة، وبهذا المعنى جاء قول النبي ﷺ: "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سـن سـنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة"[٣] والسـن بمعنى الإرسـال والصب، ومن أقوال عمرو بن العاص عند موته: "فسنوا علي التراب سنا" [٤] أي ضعوه وضعا سهلا [٥].

فإذاً مادة سن وجمعها سنن تطلق على:

❁ السيرة المتبعة والطريقة المسلوكة والمنهج والمذهب، ومنه في القرآن قوله تعالى ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[النساء:٢٦].

---

(١)انظر: هذه المعاني في لسان العرب مادة سنن، والصحاح للجوهري.

(٢) مختار الصحاح للرازى ص(٣١٧)، ولسان العرب(١٣ / ٢٢٥).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، رقم ١٠١٧، وأخرجه في كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة رقم١٠١٧ من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (بشرح النووى) كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج ١ / ٤١٤ رقم ١٢١، وأحمد فى مسند(٤ / ١٩٩).

(٥) لسان العرب ١٣ / ٢٢٧، والقاموس المحيط ٤ / ٢٣٩، والمعجم الوسيط(١ / ٤٥٥، ٤٥٦).

❁ الأنموذج المحتذى به والمثال المقتدى به والصورة التي يتمثل بحسنها والإمام الذي يُؤتم به ومنه قول لبيد: من معشر سنت لهم آباؤهم .. ولكل قوم سنة وإمامها،وقول ذي الرمة: تريك سنة وجه غير مقرفه.. ملساء ليس بها خال ولاندب[١].

❁ البيان يقال: سن الأمر بينه.

❁ ابتداء الأمر فكل من ابتدأ أمرا وعمل به قوم بعده فهو الذي سنه، قال نصيب : كأني سننتُ الحبَّ أول عاشقٍ ...... من الناس إذ أحببتُ من بينهم وحدي[٢]، وهذه الإطلاقات الأربعة لها صلة بمعنى السنة في الاصطلاح[٣].

٣ السنة في الاصطلاح:

اختلفتْ عبارات العلماء حول مدلول السنة الاصطلاحي لاختلاف الاعتبارات حسب العلوم والقصود، فهي بالاعتبار الأصولي غيرها بالاعتبار الفقهي والحديثي، وهذا الاختلاف متنوع ومتكامل لا تقوقع فيه ولا تفاصل، ينطلق الجميع في خدمة الدين من هذا الأصل كل في تخصصه ومعرفته، فالمحدثون عنو بسنة الرسول من كل جوانبها الذاتية والحركية، والأصوليون عنو بسنة الرسول من حيث هو مصدر للتشريع تُستمد منه الأحكام، والفقهاء عنوا بسنة الرسول ﷺ من حيث هي مصدر للتشريع تستمد منها الأحكام الشرعية، وهذا واضح عند من بنوا فقههم وأسسوا أحكامهم عليها واستقرؤوها، وهذا الاصطلاح العام يستند على الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة الدالة

---

(١) الصحاح للجوهري (٥/ ٢١٣٩)، وشرح المعلقات العشر ص (٢٢٧).

(٢) الحديث والمحدثون لأبي زهو ص (٩).

(٣)انظر: حجية السنة وتأريخها، د. الحسين شواط، الجامعة الأمريكية العالمية، ط١/ ٢٠٠٤م ص(١٧).

على أن السـنة وحي يجب اتباعه، وأنها شقيقة القرآن ومثيلته في الحجية والاعتبار ومصدر للدين مع القرآن الكريم[١].

تعريف الأصوليين للسـنة، خاص بما يتصلُ بالجانبِ التشريعي بحيث تكون مدركاً من مدارك اسـتنباط الأحكام، لذلك قالوا: السنة هي: ما صدر عن النبي غير القرآن من قول أو فعل أو تقرير، فخرج ما صدر عن غيره رسولاً أو غير رسول، وما صدر عنه قبل البعثة، والصدور هنا بمعنى الظهور، ويخرج القـرآن، ويتناول الحديث القدسي وتدخل الإشـارة والهم[٢] بالفعل باعتبار الفعل يشـمل العمل الجوارحي والجوانحي، ويدخل الترك، والكتابة والإشـارة المفهمة والهمِّ المصحوب بالقرائن مما يُثبت الأحكام ويقررها، مما لم ينطق به الكتاب العزيز[٣] وقد شرط بعض علماء الأصول[٤] ألا يكون الفعل الصادر عن النبي من الأمـور العادية الطبيعية كالأكل والشرب ونحوهـا، غير أن هذا الرأي لا يستقيم؛ إذ من شأن الفعل العادي أن يمدنا بحكم شرعي أحيانا لا أقل من الإباحة[٥].

إذاً غاية الأصوليين البحث عن رسولِ الله المشرِّع الذي يضعُ القواعدَ للمجتهدينَ من بعده ويبين للناس دستور الحياة من خلال اقواَله وأفعاله وتقريراته[٦].

أما السنة في اصطلاح الفقهاء، فقد اتجهت عنايتهم لها من أساسين أحدهما:

---

(١) حجية السنة وتأريخها ص(١٨).

(٢) أضاف الزركشي الهم إلى السنة كما في البحر المحيط،(٢/ ٢٣٦)، وأخرجه الشوكاني منها ،(١/ ٢٢٣-٢٢٤)، بحجة أنه ليس مما آتانا إياه الرسول ، ح لكن دليل العصمة للنبي يشمله كما قال صاحب كتاب حجية السنة في الفكر الإسلامي حيدر حب الله ص(٣٨)وما بعدها.

(٣) الإحكام في أصـول الأحكام للآمدي ١ / ١٢٧، والتقرير والتحبير لابن أمير الحاج ٢ / ٢٢٣، وغاية الوصول شرح لب الأصول زكريا الأنصاري ص ٩١، ومناهج العقول للبدخشي ٢ / ٢٦٩، وإرشاد الفحول للشوكاني ١ / ١٥٥، وأصول الفقه للخضري ص(٢٥١،٢٥٠).

(٤) انظر: التقرير والتحبير ابن أمير الحاج(٢/ ٢٩٧).

(٥) انظر: حجية السنة في الفكر الإسلامي ص ٤٥، والسنة تشريع لازم دائم، فتحي عبدالكريم.

(٦) انظر: مكانة السنة ص١٤.

❁ بيان الحكم الشرعي الذي خاطب الله به المكلفين، فيقولون مثلا: هذه مسألة واجبة بالكتاب والسنة ، والسنة تعني هنا شطر الوحي ومصدر الاستدلال على العقائد والأحكام، والقول بأن تعريف الفقهاء للسنة هو ما يقابل الفريضة أو النافلة هو قول غير محرر، وتعميم يحتاج إلى تفصيل وتحديد، وتعريفهم بأنها: ما دل عليه الشرع من غير افتراض ولا وجوب، ليس للسنة وإنما قصدوا اصطلاحا يميز بين الفرض والنفل، وليس المراد السنة التي هي مصدر للدين[١].

❁ وثانيهما: البحث عن حكم الشرع على أفعال العباد وهنا تجد أكثر الفقهاء عبروا بالسنة عما ندب إليه الشرع ورغب فيه، والسنة هنا أحد الأحكام التكليفية الخمسة، وليس المراد السنة التي هي مصدر تلك الأحكام، ومن هنا يأتي قولهﷺ: "إن الله فرض عليكم صيام رمضان وسننت لكم قيامه"[٢]. ومن أشهر تعريفات السنة الواردة للفقهاء قول أكثر المذاهب: السنة ما دل عليه الشرع من غير افتراض ولا وجوب، وقول الحنابلة والمغاربة من المالكية: ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، أو ما يحمد فاعله ولا يذم تاركه. وقول الشافعية والمشارقة من المالكية: الفعل المطلوب طلبا غير جازم. وقول الحنفية: ما واظب النبي على فعله مع ترك ما بلا عذر[٣].

أما السـنةُ عند علماء العقيـدة، فهي: هدي النبيﷺ في أصـول الدين وما كان عليه مـن العلم والعمل والهدى، وما شرعه أو أقره مقابل البدعة والمحدثات في الدين، فيقال:

---

(١) انظر: حجية السنة ، شعوط ص(٥٩-٦٠).

(٢) سنن النسائي باب من صام رمضان إيمانا واحتسابا ، رقم ٢٢١٠، ٤/ ١٥٨، وحكم الألباني بضعفه ، لكن جاء من رواية أخرى مع اختلاف ترتيب الألفاظ تقديما وتأخيرا في مسند أحمد رقم ١٦٦٠ ، ٢/ ٣٠٦، وقال محقق المسند أحمد شاكر إسناده صحيح.

(٣) حجية السنة وتأريخها ص(٢٠).

فلان على سنة إذا كان متبعاً لهدي النبي في أصول الاعتقاد ومنهج الفهم والتلقي والعمل، ويقال: فلان على بدعة إذا كان خلاف ذلك، وهذا المعنى واضح في نحو قول الرسول ﷺ: " فمن رغب عن سـنتي فليس مني "[(١)]، وقوله: " إنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين "[(٢)]. واقتصار تفسير الإرشاد إلى التزام سنة الخلفاء في أمر الحكم، كما جسـده الخلفاء الأربعة تحكم بلا دليل، بينما ما ذكر سـابقا هو الأشمل الموافق لسـياق الحديث ، وقد ظهر في القرنِ الثالث فما بعده علماء ألفوا كتبًا تحمل عنوان السـنة وضمنوها مسائل العقيدة وأصول الدين والرد على المبتدعة،منها : السنة لأحمد بن حنبل، والسنة لأبي بكر بن الأثرم، وصريح السـنة لأبي جعفر الطبري، والسنة لابن أبي عاصم، والسنة لمحمد بن نصر المروزي، والسنة لأحمد بن محمد الخلال.

أما السنة في اصطلاح المحدثين، فإنهم عنوا برسول الله ﷺ وبحثوا عنه الإمام الهادي، والرائد الناصح، والأسـوة القدوة مـن الله لنا، فنقلوا كل ما يتصل به من سـيرة وخلق وشمائل، وأخبار وأقوال وأفعال سواء أثبت المنقول حكما شرعيا أم لا[(٣)]، فتعريفهم يشمل حتـى ما ليس له أدنى صلة بالتشريع، فيقولون: السـنة ما نقل عـن النبي ﷺ من قول أو فعل أو إقرار (تقرير) أو صفة خلقية أو صفة خلقية حتى الحركات والسـكنات في اليقظة والمنام قبل البعثة أو بعدها. فلذلك من الأثر ماله في إثبات النبوة وإعطاء الأسوة وتعميق الإيمان، وتوكيد العلاقة والمحبة والتوقير بيننا وبينه ﷺ والالتزام بسنته المطهرة، وتعريفهم هـذا مبني على عنايتهم بإثبات وتصحيح كل ما يتصـل بالنبي ﷺ من أقوال أو أفعال، أو تقريرات، وخلق وسيرة، وشمائل، وأخبار، سواء أثبتت أحكاما شرعية أو لا، وهو مستمد

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح ، رقم(٥٠٦٣، ٧/ ٢).

(٢) سنن أبي داوود باب في لزوم السنة ، رقم ٤٦٠٧، ٧/ ١٦، قال محققه الأرنؤوط بعد جمع طرقه: حديث صحيح.

(٣) أصول الحديث، علومه، ومصطلحه، للدكتور محمد عجاج الخطيب ص(١٨).

من تفسير السلف للسنة بأنها آثار رسول الله[١]. والنسبة بين تعريف الأصوليين والمحدِّثين هو العموم والخصوص المطلق (ترادف السنة والحديث).

يقول الدكتور صبحي الصالح: "ولئن أطلقت السـنة في كثير من المواطن على غير ما أطلق الحديث؛ فإن الشعور بتساويهما في الدلالة أو تقاربهما على الأقل كان دائما يساور نقاد الحديث، فهل السنة العملية إلا الطريقة النبوية التي كان الرسول يؤيدها بأقواله الحكيمة وأحاديثه الرشـيدة الموجهة؟ وهل موضوع الحديث يغاير موضوع السـنة؟ ألا يدوران كلاهما حول محور واحـد؟ ألا ينتهيان أخيرا إلى النبي الكريـم في أقواله المؤيدة لأعماله، وفي أعماله المؤيدة لأقواله؟ حين جالت هذه الأسـئلة في أذهان النقاد لم يجدوا بأسـا في أن يصرحوا بحقيقة لا ترد إذا تناسـينا موردي التسـميتين كان الحديث والسنة شيئا واحدا، فليقل أكثر المحدثين أنهما مترادفان"[٢]، فإذن معنى السنة والحديث عند علماء الشرع واحد من حيث إطلاق أحدهما مكان الآخر، ففي كل منهما إضافة قول أو فعل أو تقرير أو صفة إلى النبي إلا أن أهل كل اختصاص قد نظروا إلى السـنة من الزاوية التي تعنيهم من حيث تخصصهـم وموضوع علمهم، وإذا تبين هذا نوضح معاني الحديث في اللغة والاصطلاح، ليكون البيان أبلغ وأكمل.

(١) الحديث والمحدثون: ص ١٠، وانظر "مجموع فتاوى" شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ١٨، و"إرشاد الفحول": ص ٣٣، و"السـنة قبل التدوين": ص ١٦، و"السـنة ومكانتها في التشريع": ص ٥٩، و"السـنة النبوية ومكانتها" عباس متولي حمادة: ص ٢٣، شـذرات من علوم السنة لفضيلة الأستاذ الدكتور الأحمدي أبو النور ١ / ٤٤، وعلوم الحديث لفضيلة الأسـتاذ الدكتور مروان شـاهين ص(١٦).

(٢) الحديث والمحدثون : ص ١٠، وانظر "مجموع فتاوى" شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ١٨، و"إرشاد الفحول": ص ٣٣، و"السـنة قبل التدوين": ص ١٦، و"السـنة ومكانتها في التشريع": ص ٥٩، و"السـنة النبوية ومكانتها" عباس متولي حمادة: ص ٢٣، شـذرات من علوم السنة لفضيلة الأستاذ الدكتور الأحمدي أبو النور ١ / ٤٤، وعلوم الحديث لفضيلة الأسـتاذ الدكتور مروان شـاهين ص(١٦).

٤ الحديث لغة:

للحديث في اللغة معان متعددة، فيأتي بمعنى الجديد الذى هو ضد القديم، تقول: لبست ثوبا حديثا أي جديدا، وبمعنى الخبر والنبأ كقوله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١ ﴾[الغاشية] ﴿ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ ﴾ [طه] ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ ﴾ [الذاريات]، ﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾[التحريم:٣]، وبمعنى الكلام كقوله تعالى﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا ﴾[الزمر:٢٣]، ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ٨٧ ﴾ [النساء] ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ٥٠ ﴾ [المرسلات][(١)]، وقد سميت الكلمات والعبارات حديثا؛ لأن الكلمات إنما تتركب من الحروف المتعاقبة المتوالية، وكل واحد من تلك الحروف يحدث عقب صاحبه، أو لأن سماعها يحدث في القلوب من المعاني والعلوم الشيء الكثير، قال تعالى﴿ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤ ﴾[الطور]، وبهذا الإطلاق اللغوي جاءت كلمة "الحديث" في السنة المطهرة مرادا بها كلام رب العزة، وكلام رسول الله، وفي الحديث قول النبيﷺ على منبر الجمعة: فإن خير الحديث كتاب الله ..."[(٢)] وقوله: "من حدث عني بحديث يرى أنه كذب؛ فهو أحد الكاذبين" [(٣)] .

---

(١) الحديث والمحدثون : ص ١٠، وانظر " مجموع فتاوى " شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٠/ ١٨، و " إرشاد الفحول ": ص ٣٣، و " السنة قبل التدوين ": ص ١٦، و " السنة ومكانتها في التشريع ": ص ٥٩، و " السنة النبوية ومكانتها " عباس متولي حمادة: ص ٢٣، شذرات من علوم السنة لفضيلة الأستاذ الدكتور الأحمدي أبو النور ١ / ٤٤، وعلوم الحديث لفضيلة الأستاذ الدكتور مروان شاهين ص(١٦).

(٢) أخرجه مسلم (بشرح النووى) كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة ٣ / ٤١٨ رقم ٨٦٧.

(٣) أخرجه مسلم (بشرح النووى) فى المقدمة، باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين والتحذير من الكذب على رسول الله ﷺ. (١ / ٩٥).

٥ الحديث اصطلاحا:

الحديث لغة يطلــق على الجديد والخبر والكلام، أما تعريفه من حيث موضوعه: فهو عِلم يعرف به أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وأحواله، وينقسم قسمين: علم الحديث رواية، وعلم الحديث دراية، أما من حيث الرواية، فهو علم يشتمل على أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وروايتها وضبطهــا، وتحرير ألفاظها، وأما من حيث الدراية فهــو علم يعرف منه حقيقة الرواية، وشروطها، وأنواعها، وأحكامها، وحال الرواة، وشروطهم، وأصناف المرويات، وما يتعلق بها (١).

ويمكن الســؤال هنا بعــد عرض تعريفات الســنة والحديث عند العلماء بحســب أغراضهم وفنونهم، هل الســنة والحديث مترادفــان أم متباينان؟ والجواب: هما مترادفان متســاويان عند بعض، متباينان عند بعض آخر، فأصحاب التســاوي اعتبروا الحديث ما حُدِّث به عن النبي بعد النبوة من قوله وفعله وتقريره وســيرته، وليس هذا فحســب بل الحديث والأثر والخبر مترادفة ، وأصحاب التباين بين الســنة والحديث اعتبروا أن السنة طريقته الدينية التي ســلكها في ســيرته، والحديث من التحديث وهو الإخبار عن القول والفعل والتقرير، فالسنةُ خاصة بالأعمال، والحديث عام لكل شيء، وأجمل بعضهم التمايز في أمرين هما: السنة الواقعية، والسنة المحكية.

وفي ضوء هذا التباين بين المفهومين فإن المحدِّثين يقولون هذا حديث مخالف للســنة والاجمــاع والقياس، ويقولــون: إمام في الحديث وإمام في الفقه، ممــا يُفهم منه أنه عالم في الحديث، وعالم بالســنة يطبقها على نفسه، ويلتزم بها في سلوكه، والسنة بهذا المعنى الأخير تباين البدعة التي ليســت من الدين، فالحديــث هو الرواية اللفظيــة للأقوال والأفعال والتقريرات ، والســنة كيفية عمل الرسول المنقول إلينا بالعمل المتواتر بأنه عمله النبي ثم

---

(١) تدريب الراوي : (١/ ٤٠ – ٤١).

من بعده الصحابة ثم التابعون، ولا يتـشرط تواترها بالرواية اللفظية بل يمكن أن يكون الشيء متواترا عملاً، ولا يكون متواترا لفظاً، فطريقة العمل المتواترة هي المسماة بالسنة[١] . والمتداول عنـد المتأخرين أنهما بمعنى واحد وإطلاقهما واحـد[٢] ، باعتبار أن كل منهما إضافـة قول أو فعل .. الخ، والتباين إنما هو في الإطلاق اللغوي [٣]، وفي دواوين السـنة أفعال النبي ﷺ مبثوثة بين أحاديثه القولية، دون إفراد كل منهما بالرواية فيما يُعلم [٤]، بعد اسـتقرار الدواوين إلا في القرن الخامس تقريبا حيث جمع الشيخ ابن العاقولي، وهو محمد بن محمد بن عبـد الله (٧٣٣ – ٧٩٧ هـ) كتابه " الرصف لما روي عن النبي ﷺ من الفعل والوصف"[٥] وجاء السـيوطي، فأفـرد الأفعال عن الأقوال، وجاء بعـده المتقي الهندي، فجمع القسمين من كتاب السيوطي مرة أخرى في ترتيب مخالف [٦].

فسـنة المصطفى ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير أو ... طريقة متبعة عند المؤمنين ليس لهم خيرة في أمره، كـما قال رب العـزة ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب][٧].

خلاصـة القول كما يقول الدكتـور محمد مصطفى الأعظمي: إن السـنة معناها في اللغة "الطريقة" و"العادة" و"السـيرة" سواء كانت سيئة أو حسنة، وقد استعملها الإسلام

---

(١) تحقيق معنى السـنة للعلامة سيد سليمان الندوي، ص١٧، نقلا عن مكانة السنة في التشريع الإسلامي ودحض مزاعم المنكرين والملحدين ص(١٨).

(٢) المرجع السابق ص(١٨).

(٣) انظر " توجيه النظر ": ص(٢ – ٣)، و " كشاف اصطلاحات الفنون ": (١/ ٢٧٩).

(٤) أفعال الرسول ﷺ: ص(٥١ – ٥٣) بتصرف.

(٥) الرصف لما روي عن النبي ﷺ من الفعل والوصف :(١/ ٣).

(٦) الفهارس عند المحدثين ": ص ٢٦٢ وما بعدها والمستشرقون والسنة ص:٢٩ وكلاهما للدكتور سعد المرصفي.

(٧) الحديث النبوي للدكتور محمد الصباغ ص(١٣٩).

(القرآن والنبيﷺ) في معناها اللغوي كما رأينا في الآيات والأحاديث السابقة، ثم خصصها الإسلام بطريقة النبيﷺ وطريقة أصحابه- رضي الله عنهم- وليس معنى هذا أن معناها اللغوي قد بطل أو انعدم بل بقي استعمالها ولكن في نطاق ضيق[١].

وبعد هذا العرض لمعاني السـنة والحديث في عرف أهـل اللغة والاصطلاح يلحظ الانسـجام بين العرفـين لا الانفصـام والاضطراب الفكري حسـب مـا يظنه بعض المسـتشرقين[٢] من اعتبارهما متباينين متضاديـن بينما هما متباينان متكاملان متناسـقان في مـؤدى الاتباع ومعطى التعبير، والحديث دليل السـنة، فهما بمعنى واحد في اصطلاح الأصوليين، ومن هنا جاء قولهم: سـنة ثابتة عن الرسول، وسـنة غير ثابتة عنه، فالأولى: لأنه ثبت عن الرسـول الكريم أنه قال ذلك الشيء أو فعلـه أو أقره، وطريقة ثبوت ذلك عن الرسـول هو وجود الحديث الشريف الذى يتضمن ذلك ويشهد عليه، الثانية: لأنه لم نجد حديثا عن النبي قولا أو فعلا أو تقريرا يؤكدها، فهي بذلك سـنة غير ملزمة وكذلك إذا قيل: السنة كذا، ومن السنة كذا، وهكذا السنة كلها دليل شرعي ملزم؛ لأن ذلك ثابت عن النبي بوجه من الوجوه[٣].

وقد جاء لفظ السـنة في القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ فماذا تعني كلمة السنة في القرآن؟ وماذا تعني في أحاديث النبي؟من خلال الإجابة عن التسـاؤل سـتظهر العلاقة بـين الإطلاقين، حيث المنكرون للسـنة النبوية الموهمون للقرّاء أنهـم مؤمنون بالقرآن لا

---

(١) دراسات في الحديث النبوي(١ / ٥، ١١) بتصرف.

(٢)جولد تسيهر الذي قال أنهما ليسا بمعنى واحد وإنما السنة دليل الحديث. العقيدة والشريعة في الإسلام جولد تسيهر ص(٤٩)، وممن فرق بينهما أيضا الأستاذ محمد رشيد رضا، انظر: مجلة المنار المجلد (١٠ / ٨٥٣،٨٥٢).

(٣) السُّـنّة النّبَويّة وحيٌ ربانٌي مناقشـة لدعاوى أعداءِ السُّـنةِ النّبويّة.إعداد: محمد احمد صبرة، ص ١٥، ضوابط الرواية عند المحدثين، ص (٣١٤ - ٣٢٢) ، كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها، د. عماد السيد محمد إسماعيل الشربيني، م، ص: (٢٤).

بالسنة فيقولون: لم ترد كلمة سنة النبي في القرآن، وبالتالي لا دلالة على وجودها المصدري والمرجعي، أي: لا هي وحي ولا ملزمة تشريعاً، وهي مقولات سيظهر زيفها في أثناء البحث عن الحديث عن التأسيس القرآني لمصدرية السنة وحجيتها، وهنا نستعرض دلالات كلمة السنة في القرآن وأحاديث النبيﷺ.

استعمالات السنة في القرآن الكريم:

جاء استعمال السنة في القرآن الكريم في ست عشرة مرة، مفردة ومجموعة، منكرة ومضافة أحيانا إلى الله وأحيانا إلى المخلوقين، والغالب فيها أنها القوانين الثابتة التي أقام عليها نظام الخلق باعتبار أنها الطريقة المعتادة التي يجري عليها القدر الإلهي في سياسة الخلق عامة وعقاب الطغاة خاصة. وقد وردت بمعاني الدين، الشرائع، المصالح، المناهج، المقامات، والحالات، بيان ما فيه مصلحة، وإليه بطشات. قال تعالى﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ [آل عمران]، أي: وقائع وبطشات سنها الله في الأمم المكذبة، وهي انقضاء سنن الهلاك والاستئصال، وهو ترغيب للإيمان[1] ، ومنها عذاب المكذبين، قال تعالى﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[فاطر:٤٣]، ﴿ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنفال] ، ومنها طريق الله ونصر أوليائه على أعدائه ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ﴾[غافر:٨٥] [2] ، ومنها عادة الله في هلاكِ المكذبين ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ

---

(١) التفسير لكبير في مفاتح الغيب، الرازي، (٩/ ١١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد عبدالعليم البردوني، دار الشعب، القاهرة، ط٢/ ١٣٧٢هـ، (١٥/ ٢٩٣).

قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾[الكهف] [١]، وحكم الله في الذين خلو ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ ﴾[الأحزاب:٣٨] [٢] وغيرها من الآيات.

ويستفاد من معاني السنة أن فيها معنى التكرار والاعتياد، وفيها معنى التقويم، وإمرار الشيء على الشيء من أجل إحداده وصقله [٣].

استعمالات السنّة في حديث الرسول ﷺ:

في القرآن استُعملت السنة بمعنى الطريقة والعادة، كقوله تعالى ﴿ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [النساء] ، وقوله: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[الأنفال] ، وقوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾[الفتح]، أي سنّة الله وعادته في خلقه.

أما السنة في كلام الرسول واستعماله لها فهي الطريقة والشريعة اللازمة لا السنة التي تقابل الفرض حسب اصطلاح العلماء، فمنها قولهﷺ :

- لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع" [٤] لتتبعن سنَنَ بفتح المهملة أي طريق [٥].

---

(١) المرجع السابق(١١/ ٩).

(٢) تفسير اين كثير، اسماعيل بن عمر بن كثير ، دار الفكر بيروت ط١٤٠١هـ، (٣/ ٤٩٣). وانظر هذه الاطلاقات في : السنة النبوية والحديث حجيتها واستعمالاتها في اللغة والقرآن ، سميرة الفارسي نورالله كورت وابراهيم السائح، مجلة بحوث إسلامية واجتماعية مجلد ٣، عدد ٧تموز ٢٠١٣، ص(٥٢٨).

(٣) الفكر المنهجي عند المحدثين ص (٢٧).

(٤)أخرجه البخاري في صحيحه مع الفتح ٦/ ٤٩٥ كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر بني إسرائيل ح (٣٤٥٦).

(٥) فتح الباري(٦: ٤٩٨).

❁ قصة الثلاثة الذين رغبوا عن سنة النبي في الزواج، والإفطار والصيام، والنوم والقيام، ، فقال لهم رسول الله ﷺ: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" [(١)] والمراد بالسنة هنا الطريقة" فمن رغب عن طريقتي في الحياة فليس مني"، وليس المراد بالسنة هنا ما يقابل الفرض.....» [(٢)].

❁ قول النبي ﷺ : "صلوا قبل صلاة المغرب – قال في الثالثة – لمن شاء، كراهية أن يتخذها الناس سنة" [(٣)] أي كراهية أن يتخذها شريعة وطريقة لازمة.[(٤)]

❁ قول النبي ﷺ : "أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه" [(٥)] أي متبع طريقة الجاهلية في سلوكهم وأقوالهم.

❁ قال سالم "كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يفتي بالذي أنزل الله عز وجل من الرخصة بالتمتع(الحج تمتعا) وسن رسول الله ﷺ فيه: فيقول ناس لابن عمر: كيف تخالف أباك؟ وقد نهى عن ذلك، فيقول لهم عبد الله: ويلكم ألا تتقون الله. إن كان عمر نهى عن ذلك فيبتغي فيه الخير، يلتمس به تمام العمرة، فلم تحرمون ذلك؟ وقد أحله الله وعمل به رسول الله ﷺ أفرسول الله أحق أن تتبعوا سنته

(١) أخرجه البخاري في صحيحه مع الفتح ٩/ ١٠٤، ح ٥٠٦٣، وأخرجه مسلم ٢/ ١٠٢٠ كتاب النكاح، باب استحباب النكاح ح ٥ (١٤٠١)
(٢) فتح الباري(٩: ١٠٥).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه مع الفتح(٣/ ٦٠)، كتاب التهجد، باب الصلاة قبل المغرب، ح(١١٨٣).
(٤) فتح الباري(٣: ٦٠).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه مع الفتح(١٢/ ٢١٠)كتاب الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حق ح (٦٨٨٢).

أم سنة عمر؟ "[١].

فاستعمال النبي ﷺ لكلمة السـنة كما في الأحاديث بمعناها اللغوي أي الطريقة، ونجد في دواوين السـنة عشرات النصوص وردت فيها كلمة السـنة، وهي في معناها لا تخرج عن طريقته وسيرته وهديه في أقواله وأفعاله وتقريراته، لحديث العرباض بن سارية عن النبي ﷺ أنه قال:".... عليكم بسـنتي "[٢]، وتطلق السـنة في الخطاب الشرعي ويُراد بهـا ما يقابل القرآن كما قال النبي ﷺ :"يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القرآن سـواء فأعلمهم بالسنة"، وإذا قال الصحابي من السـنة[٣] كذا أي من طريقة النبي وهديه كذا[٤]. وتطلق السنة على أقوال النبي على الخصوص، مما لم ينص عليه في الكتاب، وتطلق في مقابلة البدعة.

قال ابن الأثير في النهاية: قد تكرر في الحديث ذكر «السنة» وما تصرف منها، والأصل فيهـا الطريقة والسـيرة، وإذا أطلقت في الشرع فإنما يراد بها ما أمـر به النبي ﷺ ونهى عنه ونـدب إليه قولا وفعلا، مما لم ينطق به الكتاب العزيز، ولهذا يقال في أدلة الشرع: الكتاب، والسنة، أي: القرآن والحديث. [٥].

كما أن الشـعراء في الجاهلية والإسلام اسـتعملوها بمعناها اللغوي، أي الطريقة المتبعة سـواء أكانت حسـنة أم قبيحة، واسـتعملت في القرآن بمعنـى الطريقة والعادة، واستعملها الرسول في هذا المعنى كما رأينا في حديث ابن عمر، ونُقِلت الكلمة من عمومها

(١) أخرجه احمد بن حنبل في المسـند (٢: ٩٥) مسـند عبد الله بن عمر، قال أحمد شـاكر في تحقيقه للمسند ح(٥٧٠٠): إسناده صحيح.
(٢) سنن الترمذي رقم (٢٦٧٦)، وقال حديث حسن صحيح.
(٣) صحيح مسلم رقم(٦٧٣).
(٤) انظر: أفي السنة شك ص(١٢).
(٥) النهاية (٢: ٤٠٩)، مادة (سنن) .

هذا إلى المعنى الاصطلاحي عند المسـلمين وأضيف إليها (أل التعريف) أي طريق رسول الله وشريعتـه، وليس معنى هـذا أن معناها اللغوي قد بطل أو انعدم، بل بقي اسـتعمالها ولكن في نطاق ضيق [(١)]. أما في اصطلاح أهل الشرع فحسب اختلاف فنونهم وأغراضهم، فهي عند الأصوليين غيرها عند المحدثـين والفقهاء كما مرّ، فعلماء الحديث إنما بحثوا عن رسـول الله ﷺ الإمام الهادي، الذي أخبر عنه أنه أسـوة لنا وقدوة، فنقلوا كل ما يتصل به من سيرة، وخلق، وشمائل، وأخبار، وأقوال، وأفعال، سواء أثبت ذلك حكما شرعيا أم لا، وعلماء الأصول إنما بحثوا عن رسول الله المشرع الذي يضع القواعد للمجتهدين من بعده، ويبين للناس دسـتور الحياة، ولذلك عنوا بأقواله، وأفعاله، وتقريراته التي تثبت الأحكام وتقررها. وعلماء الفقه إنما بحثوا عن رسـول الله الذي تدل أفعاله على حكم شرعي، وهم يبحثون عـن حكم الشرع في أفعال العباد وجوبا، أو حرمـة، أو إباحة، أو غير ذلك. إذاً فالسـنة في اصطلاح الفقهاء: هي ما ثبت عن النبي من غير افتراض ولا وجوب، وتقابل الواجب وغيره من الأحكام الخمسة وقد تطلق عندهم على ما يقابل البدعة، ومنه قولهم: طلاق السـنة كذا وطلاق البدعة كذا، ونحن هنا نريد بالسـنة ما عناه الأصوليون، لأنها بتعريفهم هي التي يبحث عن حجيتها ومكانتها في التشريع [(٢)].

وإذا تبين معنى سـنة النبـي عند المحدثـين والفقهاء والأصوليـين، والفروق بين اصطلاحاتهم، وكذا معانيها في اسـتعمالات القرآن الكريم وحديث النبي ﷺ فهل إطلاق السـنة على عمل الصحابة مثل إطلاقه على سيرة النبي، حيث أنكر منكرو السنة- ومنهم جورج طرابيشي- على توسـع مفهوم السنة وتمدده ليشمل سـنة الصحابة، معتبرين أن

---

(١) من أراد التوسع في مادة المعنى اللغوي فليراجع كتاب: دراسات في الحديث النبوي للأعظمي، وكتاب: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي.

(٢) مادة التعريف الشرعي للسـنة أخذت بتصرف من كتاب: السنة قبل التدوين للخطيب، وكتاب السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي.

هذا التمدد عمل صناعي لشرعنة القداسة على سلوك البشر، فما الذي عناه العلماء بسنة الصحابة؟.

السنة والحديث وعمل الصحابة:

يطلق العلماء (محدثون وأصوليون وفقهاء) لفظ السنة أحيانا على ما عمل به أصحاب رسول الله سواء أكان ذلك في القرآن الكريم أم في المأثور عن النبي أم لا، لكنه اتباع لسنة ثبتت عندهم، أو اجتهاد مجمع عليه منهم، كحد الخمر بثمانين [(١)]. والمراد بالسنة هنا: ما أراده المحدثون وذهب إليه جمهورهم، وهي: أقوال النبيﷺ وأفعاله وتقريراته وصفاته الخلقية والخلقية وسِيره ومغازيه قبل البعثة، مثل تحنثه في غار حراء، ومثل حسن سيرته، لأن الحال يستفاد منها ما كان عليه من كريم الأخلاق ومحاسن الأفعال، وهذا ما جعلَ العلماء يعتبرون كل ما يتصل بهﷺ قبل البعثة جزءا من السنة؛ فالسنة عندهم تشمل كل ما يتصل بالرسولﷺ قبل وبعد البعثة، ويدخل في التعريف ما كان عليه عمل الصحابة، وهذا أجمع تعريف لها [(٢)]، وقد تطلق السنة عندهم على ما دل عليه دليل شرعي، سواء كان ذلك في الكتاب العزيز، أو عن النبي، أو اجتهد فيه الصحابة، كجمع المصحف وحمل الناس على القراءة بحرف واحد، وتدوين الدواوين، ويقابل ذلك «البدعة» .

قولهﷺ: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي" [(٣)]، فإطلاق السنة على عمل الصحابة الراشدين المهديين وجُد ذلك في الكتاب أو السنة أو لم يوجد ؛ لكونه اتباعا لسنة ثبتت عندهم، ولم تنقل إلينا أو اجتهادا مجمعا عليه منهم [(٤)]، وفي الحديث:" عليكم

(١) أخرجه مالك فى الموطأ كتاب الأشربة، باب الحد فى الخمر (٢ / ٦٤٢ رقم ٢).
(٢) انظر: جامع العلوم والحكم(٢ / ١٢٠) ، والمدخل إلى السنة النبوية ص(٣٣، ٣٤).
(٣) أخرجه أبو داود ٥/ ١٣ كتاب السنة، باب في لزوم السنة،ح ٤٦٠٧ والترمذي ٥/ ٤٤ كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة، واجتناب البدع، ح(٢٦٧٦).
(٤) انظر: مكانة السنة في التشريع الإسلامي ص(٢١).

بسنتي وســنة الخلفاء الراشــدين المهديين" [١]فالأمر باتباعهم ليس لأن سلوكهم في ذاته ســنة؛ وإنما لكون أفعالهم كاشفة عن الســنة، ، كخبر الواحد كاشفا عن السنة، وليس هو عينها[٢]. ففعل الصحابة حســب ما ورد في القرآن الكريم أو ما ورد في السنة النبوية يعتبر في اصطلاح العلماء سنة لقرب عهدهم بالنبي وصحبتهم له، وحجيتها استئناسية إرشادية، وليســت تشريعية إلزامية؛ إذ هذا الإلزام خاص بالنبيﷺ ومن هنا يطلق طرابيشي النكير والنفير على الســنة؛ كونها متمددة لا انضباط فيها ولا إحــكام، وإنما تهويش صناعي من أرباب الشريعة، ولم يدرك مغزى قولهم بسنية عمل الصحابي في ضبطه واختلافه عن سنة النبيﷺ كما تم بيانه وتوضيحه.

ومن أجل حفظ الدين المتمثل في ســنة النبيﷺ بنى العلماء والمحدثون علما تفرعت عنه علوم بما يســمى بعلوم الحديث ليكونَ ميزانا ضابطا لصحة السنة من سقمها، فما هو هذا الميزان؟ وما مقاصده ؟

الميزان في حركة الرسول بالبيان والتبيين:

من أجل مقصد اتباع ســنة النبيﷺ وهديه النبيل في تبيين القــرآن الكريم وتطبيقه الرســالة في عالم الوجود من الرســولﷺ فقد شــيّد علماء الحديث معمارا علميا ومنهجاً رصينــا لوزن صدق الأخبار من كذبها، وصحيحها من ســقيمها، دون التأثر بالذوقيات والحدسيات التي ادعاها جورج طرابيشي ومن لفّ لفه، فهي قواعد ضابطة ناظمة كاشفة لا تقبل الانحياز والتشكل الذوقي ولا العاطفي، ويشهد لذلك غير المسلمين[٣]، أن أول

(١) سبق تخريج الحديث، وانظر ما قاله : الشاطبي ٤/ ٣٩٠-٣٩٢، والمغني في أصول الفقه ، جلال الدين الخبازي ص(٨٥).

(٢) انظر: حجية السنة في الفكر الإسلامي حيدر حب الله ص(٣٨).

(٣) الدكتور أسد رستم المسيحي أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت.

من نظم نقد الروايات التاريخية، ووضع القواعد لذلك علماء الدين الإسلامي، للاعتناء بأقوال النبيﷺ وأفعاله لفهم القرآن وتوزيع العدل، فقالوا: إن هو إلا وحي يوحى، ما تلي منه فهو القرآن، وما لم يتلَ فهو السنة، فانبروا لجمع الأحاديث ودراستها وتدقيقها، فأتحفوا علم التاريخ بقواعد لا تزالُ في أسسها وجوهرها محترمة في الأوساط العلمية حتى يومنا هذا، وسماه بعضهم[(١)] في كتابه (مصطلح التاريخ)، اعتمدوا فيه على القواعد التي قررها علماء مصطلح الحديث، لنقد الأصول، وتحرى الحقائق التاريخية وإيضاحها وعرضها. كما أنَّ قواعد مصطلح الحديث أصح طريقة علمية حديثة لتصحيح الأخبار والروايات، وقد دقَّق علماء الحديث في هذا العلم في عدالة الراوي وضبطه وتوثيقه بما يفيد علم التأريخ[(٢)]. فالحديث مجهر كاشف لأصول الحياة الطيبة، والعيش الكريم الرشيد، وأحكام الموت على سواء، و هو مصدر لكل معرفة، ومنه تعلموا الآداب والأخلاف والفضائل والتكليفات وحالات التدين الفردي والجماعي وحالة الحرب والسلم والعلاقات والآخرة والمآلات، وما يتحرزون منه، وما يقدمون عليه وما هو مفيد وما هو ضار على كل مستويات الحياة، من أمور المعائش والمهالك والمعاد[(٣)].

ومن هنا كان التشكيك في الأحاديث النبوية تشكيكًا في الإسلام، وفي جميع العلوم والمعارف ولفُقِدت الثقة بها، ناهيك عن علم الحديث الذي بذل فيه العلماء جهودا جبارة في ضبطها بمعايير رصينة ودقيقة من أجل حفظ السنة، وسيأتي معنا الحديث لا حقا عن أهمية علوم الحديث خصوصا الإسناد الذي حاول الطاعنون النفاذ من هذا الحصن للتشكيك في السنة من أجل إنكارها لا من أجل تحري الحق والحقيقة فيها.

(١) انظر: الحديث النبوي للدكتور محمد الصباغ ص(١٦ : ١٨) بتصرف. نقلا عن السُّنّة النّبَويّة وحيٌ ربانيٌ مناقشة لدعاوى أعداءِ السُّنةِ النّبويّة.إعداد:محمد احمد صبرة ، ص(١٨).

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور السباعي ص(١٠٨) بتصرف يسير.

(٣) انظر: أعلام الموقعين عن رب العالمين(٤/ ٣٧٥، ٣٧٦).

وفي أثناء الحديث عن تدوين السنة ومراحله سيكون الحديث عن الإسناد وتفرد الأمة المسلمة به، وأهميته والدليل عليه، لهذا نُتْبع حديث تعريف السنة بتدوين السنة في الفقرة الآتية.

ثانيا: تدوين[١] السنة النبوية البدايات و المقصد:

يفتتح جورج طرابيشي مقولاته بسؤال ملتوٍ يخفي وراءه إنكار السنة وجحدها، مفاده:كيفَ حدث هذا التحول من الإسلام القرآني إلى الإسلام السني؟ ويقول أنه للإجابة عليه لابد من التحول من الرسالة إلى التأريخ[٢]. كما ينص على أن كتب الحديث حوّلت النبي الأمي المرسل إلى قومه إلى نبي أممي مرسل إلى الناس كافة ، وأن سيرورة تأسيس السنة لا تنفصلُ عن سيرورة تأسيس الفقه وتطوره[٣]، وأن تضخمَ المدونة الحديثية خلع على السنة أهلية تشريعية، وأنه لابد من الانعتاق من سلاسل الإسناد[٤]، وأن اتقان آلية الإسناد في القرن الثالث الهجري لم تكن وظيفته ضمان عدم الكذب على الرسول ﷺ بل إتاحة الفرصة للمزيد من الكذب على الرسول تحت حماية سلسلة الضامنين وهذا ما يفسر تضخم المدونة الحديثية[٥]، وأن عيب المنظومة الحديثية الابستمولوجية (المعرفية) لما تضخمت هو قلب معيار الصحة وإزاحته من المتن إلى السند، وهذه النقطة هي المسؤولة عن كل اللامعقول في المنظومة الحديثية[٦]، وأن الصحة التاريخية لكل الأحاديث النبوية من علم الباطن الذي لا يعلمه إلا الله[٧]، ويخضع الرواية المتواترة والآحادية لقانون

(١) يقصد بالتدوين هنا المعنى العام الذي هو الجمع .
(٢) من إسلام القرآن ص٨٥..
(٣) المرجع نفسه ص(١٠٤).
(٤) المرجع نفسه ص(١٤٠).
(٥) المرجع نفسه ص(١٤٣).
(٦) من اسلام القرن ص(١٤٤).
(٧) المرجع نفسه ص(١٩٢).

المسافة الزمنية[١]، وهذا سكون منه للماثلة بين كتبة السنة والأناجيل في الديانة النصرانية، ثم يشـــكك في رواية الآحاد بالمقايسة بين الشهادة والرواية والفروق بينهما[٢]، وأن تثبيت الشـــافعي مبدأ حديث الثقة عـــن الثقة، وحجية خبر الواحد قد فتـــح الباب للتقول على الرســـول[٣]ﷺ وأن من أســـباب تضخم الحديث غلبة نصوص الأحكام في الحديث عن القرآن[٤].

وهدف طرابيشي الرئيس إنكار السنة التي هي بيان القرآن، ونفي الشرح نفي للمتن، ومنهجه قياس العكس، وتاريخانية السنة التي تتشكل بتطور الواقع والمجتمعات. إنه يعتبر أن الكتبة للســـنة في مسيرهم التاريخي هم من حوَّل الإسلام من مركزية القرآن إلى مضمار الحديث وهذا انقلاب بزعمه بفعل فاعل لأغراض لا تمت لإسلام القرآن بصلة. إنه إيحاء بأن تدوين الســـنة كان بمزاجية وقصدية شـــخصية لا علاقة لها بالإســـلام القرآني، فهي حالات رغبوية ذوقية، اقتضتها النزعة العاطفية أو النفســـية التآمرية. ومن هنا ســـنحاور صاحب إســـلام القـــرآن في مقولاته ومزاعمه حول الســـنة تدويناً وإســـناداً لتبيُّن الخيط الأبيض من الأســـود ، وتبيين حقيقة الأمر ، فالقيام بحفظ السنة النبوية من اتجاهاتها أمانة لا خيانة ، وحماية لا جناية حتَّمها شعور المسؤولية بنشر الدين وحفظه وتحصين سياجه.
هذه المقولات التي شكك فيها جورج طرابيشي نناقشها في عنوان تدوين السنة نشأته ومراحله والإسناد وأهدافه في الفقرة الآتية:

تدوين السنة ومراحله:

من المعلوم دينا وتأريخا أن الإســـلام جاء مشـــعلا للهداية والخـــير جاعلا من العلم

(١) المرجع نفسه ص (٢٠٣).
(٢)المرجع نفسه ص(١٩٧) وما بعدها.
(٣) المرجع نفسه ص(٢١٧).
(٤) المرجع نفسه ص(٣٧٣).

ووســيلته القراءة والاستماع سبيلا لرشد الهداية واستقامة الحياة تكليفا تعبديا واستخلافاً عمرانياً. ودينٌ هذا مسلكه منذ أول آية نزلت فيه، وهي:﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلــق] اقرأ وربك الأكرم، الأكرم الذي يزيد من شــكره ويعطي مَنْ سأله، ويوفق من رجاه، كما أنَّ الرحمن الذي خلق الإنســان علمه البيان والميزان ، لا شــك أنــه يجعل من كل أدوات تحصيــل العلم محل تقدير وإجلال، القلم، البيان، البنــان؛ كونها محققات للهداية والميزان ومحفــزات القيم الخير والفضيلة، فالكتابة عمل حضاري وتكريم للإنســان، بل تعد من أبــرز معالم الحضارة البشرية وثبوت الحجة بها ، وقد أجمع العقلاء على أهميته وفضله وعلى أهمية الكتاب وفضله[1]. كما أنها من أهم وســائل حفظ المعلومــات ونقلها للأجيالِ[2]، وكذا الخــط أداة من أدواتِ التبليــغ ومظهر من مظاهر التحضر وأثــر من آثار الاجتماع والتمدن[3]، وقد اعتبرت نصوص القرآن والســنة الكتابة واحدًا من أفضل النعم الإلهية التي ألهمها البشر، ومن أحســن الآداب البشرية التي يمتاز بها الإنســان ، فقد أقســم بها في:﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾[القلم] ، والقســم منه ســبحانه لا يكون إلا بأمر مهم ومقدس، وعرّف نفســه به، الذي علَّم بالقلم، وقد احتج ابن فارس بهذه الآية على إباحة التدويــن للحديث[4]، وندب للكتابــة في الدَّيْن بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ [البقــرة]، ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ [البقرة]. وألفاظ مادة كتب في القرآن الكريم ذُكرت سبعا وخمسين موضعاً[5]، ولفظ كتب في مئتين واثنين وســتين موضعاً، وذَكَرَ الأقلامَ في بعض الآيات، كل هذا يدل

(١) انظر: تقييد العلم للخطيب(١١٣-١١٧)، ودراسات حول القرآن والسنة ص(١٩٠)، وتدوين السنة محمد رضا الحسيني ص(٣٤).

(٢) انظر: منهج النقد عند المحدثين ص(٣٩-٤٠).

(٣) انظر: الحديث والمحدثون محمد أبوزهو ص (١١٩-٢٢٥).

(٤)انظر: محاسن الاصطلاح للبلقيني ص(٢٩٩).

(٥) انظر: المعجم المفهرس ص(١-٥٩٥).

على أن للكتابة مكانة مرموقة في القرآنِ الكريمِ، وكذلك السنة النبوية أَوْلَت الكتابة نفس المكانة كونهما وحيا، وقام الرسولﷺبكل ما يرفع من قيمة الإنسان، ويسمو به إلى المكارم، فهي أهم وسائل التمدن والكمال والتحضر ومحو الأمية، فأدخلها الرسول في فداء أسرى بـــدر من المشركين[١]. و أمـــر صحابته بتعليم الخط في المدينة، منهم عبدالله بن ســـعيد بن العاص[٢]. كل هذا الاحتفاء بالعلم والكتابة والقراءة والخط دليل على أن وسيلة التدوين للعلم مباحة عامـــة وربما اقتضى الأمر الندبية والإلزام؛ إذ كان ذلك ســـبيلا لحفظ الدين ونقله وللأجيال تلو الأجيال، كما حصلَ مع الوحي قرآنا وسنة، وما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجب، وإن جاءت آثار تمنع تدوين السنة، فهي مخصوصة واستثنائية لا تُلغي الأصل المباح، ولزوم الوسيلة المؤدية لمقصدها المشروع.

ولأن الســـنة واســـعة الأكناف عن القرآن فهي أكثر عرضة لأشكال التحريف، اتَّجه علماءُ الإســـلامِ إلى وضع ضوابط علـــم الدراية للمحافظةِ عليهـــا والتوثيق والتوثُّق من ســـلامتها وحفظ الصدور وتدوين الســـطور أداتان للحفظ ، وكلها وسائل مهمة لضبط السنة النبوية وصيانة الحديث الشريف من معاول التحريف والتجريف والتجديف..

ومن هنا يأتي التســـاؤل : هل حصل تدوينٌ للســـنة في العهـــد النبوي والقرن الأول الهجـــري؟ أم أن تدوينها كان في القـــرن الثاني الهجري؟ كما يتعلق منكرو الســـنة ومنهم جورج طرابيشي بتأخر تدوينها مماثلة لها بما حصل في الأناجيل المســـيحية ليتشكل الوعي من خلال هذا الزعم في وجود التحريف والصناعة بحسب التاريخ والواقع سواء للسلطة السياسية التي تولاها الملوك فشكلوا مشروعيتهم من خلال وضع النصوص الحديثية، أو الســـلطة الدينية التي تولاها العلماء ودعَّموا سلطتهم هذه بالنصوص. ومن أجل الإجابة على هذا التساؤل والرد على زعم المنكرين سيكون الحديث عن حقيقة ابتداء التدوين.

---

(١) للمزيد ينظر كتب السير والتاريخ.
(٢) أدب الدنيا والدين ص(٦٨).

ابتداءُ التدوينِ الحقيقةُ الكاملةُ:

دار خلاف بين العلماء والباحثين حول الزمن الحقيقي الذي تأسس فيه التدوين ، أهو القرن الثاني الهجري؟ أم هو القـــرن الأول الهجري وبالتحديد في العهد النبوي. كثير من الباحثين اســـتقر الرأي عنده أنه في القرن الثاني الهجري خصوصا التدوين الرســـمي بأمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز[١] وهي حقيقة مشـــاعة صحيحة، مع الخلاف بينهم على ســـنة البـــدء فيها[٢]، إلا أن حقيقة التدوين بدأت منذ القرن الأول الهجري، وإن حكى الزهري أنه لم يُدوِّن الحديث أحد قبله[٣]، والظن أنه يقصد التصنيف الرسمي بعد أمر الخليفة، فكان النفـــي متوجها لزمنه لا لكل الزمن قبله، وما يؤكد هذه الحقيقة هو حكاية بعض الباحثين أن أول مصنف في علم الحديث هو كتاب همـــام بن منبه (ت ١٣١ه) جمع فيه روايات أبي هريرة في الصحيفة الصحيحة[٤]، وقال ثلة من العلماء أن السنة دُونت في عصر الرسولﷺ بإذنه وإشرافه وكذا في عصر الصحابة الكرام، وأن القول بتأخر التدوين فكرة خاطئة كما قال الشيخ عبدالحليم محمود[٥]، والأحاديث متواترة على تقييده في العهد النبوي[٦]، وهذا لا مجال فيه للشـــك[٧]، وحُملت حجج المنع أمام الأحاديث الصريحة الواضحة الجواز على صور خاصة أو حـــالات معينة. وقد أقر النبيﷺ بعض من في عصره كســـعد بن الربيع

(١) انظر: تدريب الراوي(١/ ٤٠).

(٢) قيل ســـنة ١٠١ه، وسنة ١٠٤ه، وسنة ١٠٥-١١٠ه، سنة ١٢٥ه، سنة ١٣١ه، سنة١٣٢ه، سنة١٤٣ه، ســـنة١٥٠-١٩٨ه والجامع بين هذه لأقـــوال الاتفاق على عدم تقدم زمن التدويـــن على نهاية القرن الأول. انظر: تدوين السنة محمد رضا الحسيني ص(٢٢).

(٣) انظر: تهذيب التهذيب(٩/ ٤٤٩).

(٤) مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن ، عبدالله الحبشي ص(٣٨).

(٥) انظر: السنة مكانتها وتأريخها ص(٤٨).

(٦) منهج النقد في علوم الحديث د. نور الدين عتر ص(٤٠).

(٧) انظر: علوم الحديث لصبحي الصالح ص(٣٣).

وبشير بن سعد[١]، وراسـل الملوك وكتب العقود والمعاهدات، وقد احتج ابن عمر وهو أصغر القوم عمن يحدث عن النبيﷺ وقد سـمعوا الوعيد لمن حـدث كاذبا، فقالوا : يا ابن أخينا إن كل ما سمعنا منه فهو عندنا في كتاب[٢]. وهذه السنة الفعلية آكد في موضوع التدوين، فقد دعا رسـول اللهﷺ عليًا بأديم ودواة فأمـلى عليه وكتب[٣]. وخبر صحيفة عـلي بن أبي طالب واضحـة[٤]، وكان عند فاطمة كتابه، فيه: مـن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره[٥]. وكذلك ماكتبه النبيﷺ إلى بعض عماله مما يتعلق بأمور الدين كعمـرو بن حزم عاملـه في اليمن ، ووائل بن حجر الحضرمـي إلى قومه ، وكتاب الزكاة والديات عنـد أبي بكر[٦]. وفي حالة احتضار النبي في مرض موته طلب قرطاسًـا ودواة ليكتب لهم كتابا[٧]، كل أفعال النبي ﷺ هذه دليل على جواز الكتابة ، ويعزز هذه الدلالة حديث علي عن سـول الله قوله:" اكتبوا هذا العلم"[٨]، وقولهﷺ :" اكتبوا لأبي شـاه"[٩]، وعن عبدالله بن عمرو قال: قلنا يا رسول الله: إنا نسمع منك أشياء لا نحفظها ، أفنكتبها؟ قال: بلى فاكتبوها[١٠]، وعن رجل قال يا رسول الله: إني لأسمع منك الحديث فيعجبني ولا أحفظه ، فقال رسـول الله: " استعن بيمينك وأشار بيده إلى الخط [١١]. وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص، قال يارسول الله: أُقيد العلم؟ قال: نعم[١٢].

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٢٢، ٥٣١).
(٢) الكامل لابن عدي(١/ ٣٦)، وتقييد العلم ص(٩٨).
(٣)محاسن الاصطلاح للبلقيني ص(٣٠٠).
(٤) السنة قبل التدوين ، محمد عجاج الخطيب ص(٣١٧، ٣٤٥).
(٥) تقييد العلم للخطيب ص(٩٩، ٢١٨).
(٦) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ، وطبقات ابن سعد (١/ ٢٧٨).
(٧) رواه البخاري في صحيحه في عدة كتب وأبواب منها: كتاب العلم ، باب كتابة العلم، (١/ ٣٩).
(٨) كنز العمال ،(١٠/ ٢٦٢ رقم ٢٩٣٨٩).
(٩) صحيح البخاري
(١٠) تقييد العلم ص(٧٤).
(١١) سنن الترمذي(٥/ ٣٩).
(١٢) تقييد العلم ص(٦٨).

فهذه الأحاديث تدل على حسن فعل الكتابة في نظر الشارع، والحسن مرغوب ومطلوب، وقد حكى جمع كثير من العلماء الإجماع على إباحته وأهميته[١]، بل أكثر الصحابة على جواز الكتابة، وهو الصحيح[٢] وذلك لمؤداها إلى حفظ السنة من الاندراس[٣]، ولا يقتصر هذا على العصور المتأخرة بعد الصحابة والتابعين، وإنما في العهد النبوي الذي وردت فيه أحاديث تبلغ حد التواتر في وقوع الكتابة فيه[٤]. وقد استشار عمر بكتابة السنن، فأشار عليه كافة الصحابة بالكتابة[٥] وأكثرهم كان يبيح الكتابة ويحتفظ بالمكتوب منها والبعض يكتب بالفعل[٦]، وممن كتب وأوصى بنيه بتقييد العلم[٧] أنس بن مالك، يقول: هذه أحاديث كتبتها عن رسول الله أو سمعتها وكتبتها وعرضتها[٨]، وكان لجابر الأنصاري صحيفة[٩]، ومعاذ بن جبل كان لديه كتاب يحتوي على أحاديث[١٠]، ورافع بن خديج في حديث مكة التي حرم رسول الله ما بين لابتيها، قال: وذلك عندنا في أديم خولاني إن شئت أقرأتكه[١١]، وعبدالله بن أبي رافع يحكي عن أبيه أنه كان يأتيه ابن عباس فيقول له ما صنع رسول الله يوم كذا، فيملي عليه الحديث، ومعه ألواح فيكتبها[١٢]، وسعد ابن عبادة الخزرجي كانت له صحيفة روى ابنه منها حديثا[١٣]، وقيل: هي صحيفة عبدالله

(١) محاسن الاصطلاح ص(٣٣).
(٢) الباعث الحثيث، أحمد شاكر ص(١٢٧).
(٣) مقدمة ابن الصلاح لابن الصلاح، ص(٣٠٢).
(٤) منهج النقد ص٤٠، والمدخل إلى فتح الباري، أحمد صقر ص(٧).
(٥) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٨٦).
(٦) حجية السنة، عبدالغني عبدالخالق ص(٤٤٨).
(٧) سنن الدارمي(١/ ١٠٤).
(٨) المحدث الفاصل ص(٣٦٧، رقم ٣٢٥)
(٩) مصنف عبدالرزاق(١١/ ١٨٣.)
(١٠) سيرة ابن هشام ص(٨٨٦، ٩٥٦).
(١١)صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة ،(٢/ ٩٩٢، رقم ١٣٦١).
(١٢)تقييد العلم ص(٩١-٩٢).
(١٣)سنن الترمذي، كتاب الأحكام، باب اليمين مع الشاهد ،(٣/ ٦٥٧، رقم ١٣٤٣).

بـــن أبي أوفى بعينها، وأنه جمع فيها طائفة من أحاديث الرســـول[١]، وكان البراء بن عازب يحدث ويكتب من حوله[٢]. وعائشـــة- رضي الله عنها- أقرّت ابن اختها عروة بن الزبير وهو يســـمع منها ويكتب[٣]، وعبدالله بن عمرو الذي قال أبو هريرة فيه: ما أجد أحدا من أصحاب محمد ﷺ أكثر حديثا من عن رسول الله إلا عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب وأنا لا أكتب[٤].

كل أفعـــال الصحابة هذه تدل على جواز كتابة الحديـــث، ولو كان هناك نهي شرعي لنهوا عنه فضلا عن تركه والامتناع عن فعله.

وأما إجازة كتابة الحديث من التابعين فكثير كالحسن البصري وعطاء وأبي قلابة وأبي المليح[٥]. ومن كبـــار التابعين حجر بن عدي الكندي كان ثقة، وكانت عنده صحيفة فيها حديث علي[٦]، وعروة بن الزبير كتب عن عائشـــة[٧]، وســـعيد بن جبير كان يقول: كنت أكتب عند ابـــن عباس في صحيفة وفي نعلي[٨]، ومجاهد بن جبر كان يقول : لا تكتبوا عني كل مـــا أفتيت وإنما يُكتب الحديث[٩]، وســـالم بن أبي الجعد كان ممـــن يكتب[١٠]، وعطاء بـــن أبي رباح يكتب تلامذته بين يديه[١١]، وعامر الشـــعبي يحث على كتابة العلم ولو على

(١)السنة قبل التدوين ص(٣٤٢).
(٢)جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٣).
(٣)الكفاية للخطيب ، ص(٣٠٩-٣١٠).
(٤)صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب كتابة العلم (١/ ٣٩).
(٥)محاسن الاصطلاح ص ٣٠٢، والإلماع لقاضي عياض ص(١٤٧).
(٦)صحيح مسلم(١/ ٧).
(٧)الكفاية للخطيب ص(٢٠٥).
(٨)سنن الدارمي (١/ ١٠٥رقم ٥٠٦).
(٩)قواعد التحديث للقاسمي ص(٥٢).
(١٠)سنن الدارمي (١/ ١٠١).
(١١)سنن الدارمي(١/ ١٠٦).

الجـــدار[١]، و على الحائط كما يقول الضحاك بن مزاحم، الذي أملى كتاب مناســك الحج على حســين بن عقيل[٢]، ومعاوية بن قرة أبو إياس لا يُعدُّ العلم علما حتى يُكتب[٣]. وما ثبت من الأحاديث الصحاح واحتوت عليه المجاميع والأســانيد قد كُتب ودُوِّن في عصر النبوة والصحابة قبل الموطــأ[٤]، أي أودعوه المدونات الكبرى نقلا من عمل الصحابة في الصحــف والرقاع والعظام[٥]. والخلاصة أن دلالة فعــل الصحابة ومن بعدهم واضحة على الجواز، وهو مقدم على دلالة الترك عــلى الحرمة [٦]، ولا يمكن أن يؤدي منع تدوين الحديث إلى عدم حجيته والتشكيك فيه ونفيه وإنكاره، كما يحاول أن يسلك منه الطاعنون والمســتغربون والمســتشرقون، فجمهور المســلمين متفقون على حجية الحديث وقدسيته والالتزام بها تؤديه ألفاظه وعباراته[٧].

واختــلاف الصحابة في أمر التدوين مَنْ فَعَلها منهــم أكثر ممن منعها، ومن منعها إنما كان لمصلحة رأوها وهو تدبير إجرائي وقتي أجاب عنه العلماء بتعليلات متعددة، فأبو بكر جمع أحاديث ثم أحرقها[٨]، ومنع عمر تدوين الأحاديث لتصوره أن الناس سيلجؤون إلى الكتب ويهملون القرآن، كما فعل أهــل الكتاب بما لديهم من الكتب، وحديث النهي عن الكتابة أورده مســلم في صحيحه في باب التثبت في الحديث، مما يدل على عدم لزوم النهي

(١)المحدث الفاصل ص(٣٧٦).

(٢)جامع بيان العلم وفضله ١/ ٧٢، وحجية السنة عبدالغني عبدالخالق ، ص(٤٥١).

(٣)سنن الدارمي(١/ ١٠٤، رقم ٤٩٦).

(٤)نقل هذا التقرير الشــيخ عبدالحليم محمود عن أبي الحســن الندوي في كتابه رجــال الفكر والدعوة وعن مناظر أحسن كيلاني في كتاب تدوين الحديث. انظر: القرآن والنبي ، عبدالحليم محمود ص(٣٣٦-٣٣٩).

(٥)السنة قبل التدوين ص(٣٣٢).

(٦)السنة قبل التدوين ص(٣٢١).

(٧)تدوين السنة محمد رضا لحسيني ، ص(٢٣٣- ٢٣٤).

(٨)تذكرة الحفاظ ، للذهبي ،(١/ ٥).

للتحريم عنده من خلال هذا التبويب، والجمع بين أحاديث الإذن والنهي، أن الإذن عام والنهي خاص؛ لأن الأصل الإذن، كما أنه متأخر عن النهي عن الكتابة[١]، ومن اعتبر النهي من بعض الصحابة نسخا للإذن استشكله بعضهم أن النسخ لا يكون بعد وفاة النبي طالما لم يثبت تحريم شرعي، فالنسخ لا يمكن هنا طالما أمكن الجمع، فلما اطمأن النبي إلى تميز الحديث تمام التميز أذن في كتابة السنة[٢]. فأقدم الصحابة على التدوين وأجمعت الأمة على ذلك .

والحديث من أهم وسائل حفظ الإسلام، وليس منافيا للقرآن في أهدافه ومحتوياته من عقائد وأحكام وأخبار، ولا يتصور أن يعارض الحديث القرآن، والسنة آثار رسول الله وتفسير القرآن ودلائله[٣]، واعتبار أن النهي عن الكتابة كان لهدف خوف الاتكال عن القرآن وخوف إهمال الحفظ[٤]، لا يلزم منه تفضيل الحفظ ولا حرمة الكتابة شرعا، ومجرد الكراهة لا تعني الحرمة الشرعية بل تعني عدم الرغبة فيها، والاعتماد على الحفظ يجعل الحديث عرضة للنسيان وهي آفة إنسانية قلما يسلم منها أحد قلة وكثرة، فقوة الحفظ قليلة عند أقوام وليست عملا اختياريا بل موهبة إلهية[٥]، ووجوب صيانة السنة مهم جدا؛ لتوقف مهمات هذا الدين عليها، كما أن الكتابة تأكيد للخاطر لا متنافية معه. والمنع لعدم معرفة المحدثين بالكتابة لا يستقيم مع بلوغ كتبة الوحي أربعين كاتباً[٦]، ولا دليل يسند

---

(١)فتح الباري ، ١/ ١٤٩، منهج النقد عند المحدثين ص٤٢، والباعث الحثيث ص(٧-١٢٨).
(٢)حجية السنة ، عبدالغني عبدالخالق ص(٧-٤٢٨).
(٣) المرجع السابق ص(٣٣٢).
(٤) الإلماع ص(١٤٩).
(٥)مقدمة تقييد العلم ص(٨).
(٦) مباحث في علو م الحديث صبحي الصالح ص(٧٣).

هذا التبرير[١]. وهو تدبير ولائي القصد منه الحيطة للدين وحسن النظر للمسلمين[٢]، وهو تشديد من عمر في باب الرواية وليس للتهمة[٣].

وقد حاول الطاعنون في السنة النبوية والمنكرون لها الاستناد على قول تأخُّر التدوين إلى القرن الثاني الهجري؛ لتثبيت الوعي لدي القارئ والمتابع أن السنة انفصلت عن مصادرها الأصلية طيلة قرن من الزمن، وأن التحريف قد دخلها، من باب الصناعة الحديثية الأيديولوجية متعددة الأغراض لمراكز القوى السياسية والدينية، ولكن هيهات أن تنطلي هذه الشبهة على المتعلمين والقارئين للعلوم الإسلامية، فقد بان زيفها وظهر عوارها، وبدت سوأتها، فهي سهام نقد ملطخة بسموم الحقد لا تستبطن إنكار السنة فحسب بل وصم الأمة بالأمية والصد عن التثقيف. وتتطابق فكرة القول بوضع الحديث أيام خلافة بني أمية بينَ الشيعةِ وكثيرٍ من المستشرقين والمستغربين والطاعنين، ولعلها فكرة منبعها الاتجاه الشيعي الذي اعتبر إجراء عمر بمنع كتابة الحديث لبعض الصحابة أنه تدبير سياسي قصده إبعاد الناس عن آل البيت وعلي وشيعته ونصوص الولاية له[٤]، وهذا محض افتراء وهراء وفرية بلا مرية، وهيهات أن يؤثر الاتهام والإبطال في الواقع الذي لا ريب فيه. كما يرومون من وراء قولهم: بأن السنة منفصلة عن معينها لتأخر تدوينها[٥]، نفيَ أن يكون العربي المسلم اعتمد في تكوين عقليته على نصوص مقدسة ثابتة، بل أحاديث وحكايات مختلقة مصنوعة، وهم بهذا الزعم عمون عن إدراك أصول التفكير الإسلامي ومبانيه، فأصول الفكر الإسلامي مأخوذة من القرآن والسنة القطعية، و قضايَا الفكر تعتمد على العقل والنظر لا النص والأثر، وهذه مقولات تهريج[٦]، لا تمت للموضوعية

---

(١) أصول الحديث، محمد عجاج الخطيب ص(١٤٦).

(٢) شرف أصحاب الحديث ص(٩٧-٩٨).

(٣) تاريخ دمشق(٣٩/١٠٨-١٠٩).

(٤) انظر: محو السنة أو تدوينها، حسين غيب غلامي، مطبعة الهادي ١٩٩٨م.

(٥) تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري ص(٦٤).

(٦) تدوين السنة محمد رضا الحسيني ص(٥٢٩).

ولا للعلم بصلة. والمستشرقون يحاولون اســتغلال المنع من كتابة الحديث للإيحاء بأن أن انتشار الإسلام كان على أســاس القوة دون المعرفة. كما ينكرون التدوين في القرن الأول الهجري بحجة عدم وجوده في المخطوطات، وعــدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، إضافة للحوادث التي تعرض لها التراث الإســلامي مــن الحرق والغرق[١]، وقد ذكرت كثير من المصادر التاريخية أســماء كتب كثيرة في الحديث ومؤلفيها في القرن الأول، كما ذكر ذلك ابن النديم في الفهرســت ، وما وصلت إلينا من كتب الحديث من النصف الأول من القرن الثاني، كالموطــأ لمالك والجامع لمعمر هم تلاميذ العلماء الذين ألفوا الكتب في القرن الأول، وقد أضحت كتب أولئك الشيوخ والأساتذة ضمن كتب تلاميذهم[٢]. والخلاصة لا يوجد نص واحد على ذكر النهي عن رسول الله ﷺ[٣].

ثم كان من الشُّــبَه التي بثتها دوائر الحقد على الســنة لتعزيز موقفها الرافض للسنة هو القول بــأن الحديث نقل بالمعنى، فكان من تعبير الرواة بحســب مقاصدهم وفهمهم وزياداتهــم واختلاقهم، فهل هذه الشــبهة صحيحــة؟، وما الموقــف الصحيح في نقل الحديث؟، ومتى يصح نقله بالمعنى؟ هذا ما تجيب عليه الفقرة اللاحقة.

نقل الحديث بين اللفظ والمعنى:

اعتــبر بعضهم ومنهم جــورج طرابيشي أن نقلَ الحديثِ بالمعنى هو الســببُ الذي ضاعــفَ الأحاديثَ وأضفى عــلى مقولات البــشر الصبغة اللاهوتيــة واعتلاء منصة الشرعية التشريعية، وهذا محل تهجم في متون الأحاديث وخدشــة في اعتبارها، وتجاهلوا أو لم يدروا أن الســند ومعايير الضبط قد قننت هذا الأمر ، بحيث يكون الضبط للمعنى ولا يــضر فوات نفــس الألفاظ والعبارات، وحــدود جواز نقل الحديــث بالمعنى عند

(١) تاريخ تدوين السنة وشبهات المستشرقين ، د. حاكم عبيسان المطيري ص(١١١-١١٢).
(٢)المرجع السابق ص(١١٤).
(٣)الأنوار الكاشفة للمعلمي ص(٣٧-٣٩).

المحدّثين وأرباب الصنعة محصور جدا، وليس مشــاعا دوما، وهذا أمر أجمع عليه الفقهاء والمحدثون، كــما أن الجواز مشروط لمن كان عارفا بالمعنى بدقــة وعارفا بكل خصائص اللغة. إنهم بهذا القول يجهلون قوانين الرواية وشروط النقل، وبما عليه المحدثون من كمال المحافظــة على الألفاظ والمعاني، وصدق الله القائل﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحــج]، ولم يعــدُ الحقيقة الباحث المغربي طه عبدالرحمن حين قال أن منتقدي التراث من الحداثيين والمســتغربين سواء لتقييمه أو لهدمه لم يدركوا الشروط والآليات المنتجة لهذا التراث والمصادر الإســلامية، بــل تجاوزوها إلى شروط وآليات التأويل الغربي من خارج البيئة الإســلامية وبنيته المعرفية[1] مع أن قوانين تفســير وتأويل التراث ومنهجية النظر فيه قد أعدها العلماء المسلمون من داخل المعرفة الإسلامية ونصوصها فكانت أصيلة بأصالة مصادرها (الوحي).

ولم يقف حد الإنكار والطعن عند ما ذُكر ســابقا من شــبهٍ بــل تتوالى بهم حكايات التشكيك والنقد إلى القول بأن كمية الأحاديث في المدونات الحديثية متضخم، وهو دليل التحريف والاختلاق، مستبعدين أن يكون هذا القدر قاله الرسول ﷺ أو صدق الرواة في نقله، فهل لهذا القول حظ من الصحة ؟ هذا ما ستجيب عنه الفقرة الآتية:

تضخُّم المدونة الحديثية:

لم يعلم دعاةُ الطعنِ والتشــكيكِ في السنةِ النبويةِ وإنكارِها مدى غيابهم عن الحقيقة وغيابها عنهم، وتعلقهم بقشةٍ من أستارِ خيوطِ العنكبوت الواهية ينجون بها من ملاحقة الحقيقة لهم وعُريهم أمامها، هذا الغياب من فرط جرأتهم بالتحدث عن تخصصات وفنون عميقة دقيقة لا يحسنون مفاهيمها فضلا عن مصطلحاتها، فضلا عن مقاصدها وأهدافها، ومن هذه الأستار التي تعلقوا بها كثرة الأحاديث وتضخم المدونة الحديثية.

والجواب أن موطأ مالك والجامع لمعمر متطابقا الأسانيد والأحاديث، وهم تلاميذ

لشـــيوخهم من القرن الأول، ما يؤكد أخذهما من مسندٍ واحدٍ، كما أن المتن الواحد الذي له إسنادان يعتبر حديثين في اصطلاح المحدثين، وربما انصراف العلماء إلى مؤلفات القرن الثـــاني الهجري لكبر حجمها وكثرة مادتها وحســـن ترتيبها، فأقـــدم كتب الحديث التي وصلتنا من مؤلفات النصف الأول من القرن الثاني الهجري كالجامع لمعمر والموطأ لمالك والجامع لابن جريج والســـنن للأوزاعي والســـنن لابن أبي عروبة وغيرها مادة الكتاب موجودةً عند من سبقهم قبل تاليفه وترتيبه وهم طلاب علم في آخر عهد الصحابة[١].

وعندما خرجت الموسوعات في أواخر القرن الثاني تضمنت واستوعبت كتب مالك ومعمر وابن جريج وغيرها من صحف وكتب حديثية كالمصنفات والمسانيد الكبيرة التي ترى بينها تطابقا مع الكتب التي قبلها، فموطأُ مالكٍ وجامعُ معمرٍ وابن جريج ومصنف حماد وسنن ابن أبي عروبة ضمن مسند أحمد التي قرأها على شيوخه، وأحمد يكرر الحديث الواحد لعدد المرات التي قرأ فيها الكتاب الواحد على عدد من شـــيوخه، أو بعدد تكرره في الكتـــب الخاصة، وفيما يكون بين نســـخهم من اختلاف في الألفاظ أو المســـانيد وهو ما يســـمى اثبات الفروق، فأصبحت تلك الكتب في مســـند أحمد مرتبة على الطريقة التي اختارها أحمد وليس على طريقة أصحابها[٢]. ومصنف عبدالرزاق جمع فيه ما ســـمعه من كتب شـــيوخه مع بقائها عـــلى نفس ترتيبها على الأبواب الفقهية، وهكذا ابن أبي شـــيبة، وهذه كلها عشرات المصادر الموســـوعية التي حفظت وتضمنت كتبَ علماءِ القرنِ الأولِ وكتب علماء النصف الأول من القرن الثاني الهجري[٣].

وصحيفـــة وهب بن منبه التي كتبها في مجلس أبي هريـــرة، وكُتبت في منتصف القرن الأول الهجري أوردها تلميذه معمر في جامعه مفرقة، وهكذا انتقلت الصحيفة إلى الجامع ثـــم إلى المصنف، ثم إلى المســـند وإلى عشرات المصادر، وتم العثـــور على الصحيفة، وهي

---

(١) تاريخ تدوين السنة وشبهات المستشرقين ص(١١٤).

(٢) تاريخ تدوين السنة وشبهات المستشرقين ص(١١٦).

(٣) المرجع السابق ص(١١٧).

مطابقة تماما لما في المسند والجامع[١]. ومن حفظ هذه الأحاديث في الموسوعات هم تلاميذ مؤلفيها وقد قرأوها وسمعوها منهم، وهذه حقائق علمية تاريخية، فهَمّامُ تلميذُ أبي هريرة، ومعمر تلميذ همام، وهكذا السلسلة، وما يرويه أحمد في المسند عن شيخه عبدالرزاق مطابق لما في المصنف، مما يؤكد الدقة وأمانة النقل والضبط والاتقان، وقد جرموا الرواية بالمعنى والتزموا الحرفية[٢]، وسماعهم الحديث الواحد عدة مرات في أوقات وأزمان مختلفة ليتأكدوا من قوة حفظه، فقد نسخ أحمد وسمع أحاديث شيخه سفيان بن عيينة أربع مرات، وعدم اشتراطهم الرواية الشفهية واشتراطهم أن يخرج الشيخ كتابه ليقرأ عليهم كتابه، وإذا رأوا في كتاب الشيخ زيادة خارجة عن الأصل أو بخط جديد يخالف الخط القديم تركوه ولم يقبلوا حديثه وحكموا عليه بالضعف[٣].

لا يقبلون تحديث الشيخ من كتاب لم يسمعه من مؤلفه ولم يأذن له المؤلف بروايته حتى وإن كان الكتاب مشهورا، فقد توقف العلماء في قبول رواية الحكم بن نافع لكتب شيخه شعيب بن أبي حمزة؛ لأنه هل أذن له أم لا؟ ويقدمون ويرجحون رواية التلاميذ الذين كتبوا ونسخوا من كتاب الشيخ على رواية من سمعوا وكتبوا أحاديث الشيخ من حفظه[٤].

وقد مات آخر الصحابة في حدود المئة الهجرية، ومنهم أنس بن مالك وكثير من علماء الصحابة أحياء في هذه الفترة، كعائشة وابن عباس وأبي هريرة وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو وجابر بن عبدالله، ألقوا دروسهم في المسجد الحرام كابنِ عباسٍ وحضره مئاتٌ من طلبةِ العلم، وفي المسجد النبوي، كجابر بن عبدالله، وأنس بالبصرة، وعبدالله بن عمر

(١)المرجع السابق نفس الصفحة.
(٢) المرجع السابق ص(١٢٠).
(٣) انظر: علل أحمد رواية المرداوي ص١٢٧، وتاريخ تدوين السنة وشبهات المستشرقين ص(١٢٣).
(٤) تاريخ تدوين السنة وشبهات المستشرقين ص(١٢٣-١٢٥).

بمصر، وتلاميذهم العلــماء أدركوا العصر العباسي، وكثيرٌ منهــم قد كتب الأحاديث في صحف، وقام تلاميذ هؤلاء العلماء بتـــأليف كتبهم المشـــهورة من مادة هذه الصحف في العصر الأموي وإن تأخرت وفاة مؤلفيها إلى بداية العصر العباسي[١].

والموســـوعاتُ الكبيرةُ قد أخذت مادة كتبهم من مصادر واحدة كانت أسبق وجودا من مؤلفاتهم الموســـوعية بما يدل على انتظام الرواية والكتابة متسلسلة من العهد النبوي، فمقارنة مســـند أحمد مع ســـنن الترمـــذي وأبي داوود وابن ماجة والنســـائي وصحيحي البخاري ومسلم يدرك ذلك التطابق.

وبهذا الضبط والاتقان قطعت جهيزة قول كل زنيم ، من قول التضخم في الأحاديث وصناعتها بمحـــض الكذب على النبيﷺ لمقصد بناء مراكز القـــوى في الحياة، والتنافس المحموم عليها بالارتكاز على الشرعية الإلهية، وهذه أقوال من لم يحط خبرة بالعلم الشرعي ومصطلحاته ومفاهيمه، فضلا عن علوم الحديث وقواعده المنهجية التي هي في أعلا سلّم الدقة والموضوعية والمصداقية والعدلية والاســـتقامة الشرعيـــة والمهنية، فهذه الدقة تنفي مزاعم التضخم والصناعة، والإشـــكال الذي استشـــكله المنكرون للســـنة من محض ما استشـــكله المفسرون للعهد القديم والجديد، وقد مر معنا في الفصل الأول بيان مؤسِّسات هذا الاشكال.

ولم يقف تشكيكهم وشبهم عند حدّ ما ذُكر سابقا بل استطال تَقَوُّلهم إلى علم الإسناد، أنه كما يقول جورج طرابيشي: آلية وهمية توهيمية، أتاحت فرصة الكذب على الرسولﷺ تحت حماية سلســـلة الضامنين[٢]، اخترعها أصحابها بعد التدوين لســـد ثغرات السلسلة وتوثيق الرواة والتمرير الأركيولوجي على أنها آثار فعلا[٣]، ومرجعية الإســـناد التقويم

(١) المرجع السابق ص(١٤٠-١٤١).
(٢) من إسلام القرآن المرجع السابق ص(١٤٣، ٢٢٣).
(٣) المرجع السابق ص(٣٧٩).

الشخصي (الإمام - الحافظ) غير المعلل بأي دليل وغير المقرون بأي حيثية[١]، وأنها آلية قابلة للاختراق والتلاعب بها من خلال التعديل المجروح أو الاستنكاف عن تجريحه[٢]، فهل هذه الأقاويل تنطبق على هذا العلم الفريد؟ هذا ما ستُجيب عنه الفقرة الآتية:

الإسناد وتفرد الأمة الإسلامية به:

لطالما تبرم الطاعنون في الإسلام من هذه الخصيصة وحاولوا جاهدين ثقب جدارها للنفاذ منها إلى الطعن باعتبارها آلية التلاعب وصناعة الخديعة في مسار تشكيل الدين المصنوع حسب تعبير جورج طرابيشي، منطلقا من خلفية الخداع والاختلاق والتصديق الذي تتسم به أذهانهم وتفكيراتهم ومن ثمّ سلوكياتهم، وأن المسألة كلها لعب في لعب وتنافس في مركز الحياة والتسلط ونسج الوهم المقدس، فـ"الحديث النبوي بالسند المتصل خصيصة فريدة من خصائص الأمة الإسلامية وانفراداتها على غيرها. فالأمم على مدى التاريخ البشري الرسالي لم تسعد بمثل هذه المجموعة الناطقة، وبهذا السجل الخالد لنبيها بالسند المتصل، بل انقطعت صلتها العلمية والتأريخية بأنبيائها وانعدمت مصادر الحديث عنهم، وفقدت عوامل الصلة بعصر الرسل وشئون حياتهم، وهي حلقات مفقودة لا يمكن البحث عنها، والاهتداء إليها، بعكس النبي محمدﷺ فقد سُجلت حياته بكل تفاصيلها الظاهرة والباطنة أخلاق وعادات وميول ورغبات، وقول وعمل وكل ما يُعَرِّفه بنبيه وكأنه حاضر مجلسه يشاهد ويستمع كفلق البدر الطالع المترائي من كل الاتجاهات. وهذا ما كان بفعل الرصد والتتبع الدقيق من أصحابه والنقل الأمين بالسند المتصل. فالحديث المتصل: هو السجل الخالد الذي حفظ لنا هذه الحياة المباركة وميزان عادل لحركة هذه الأمة في سبيل الخير والفلاح والرشد والصلاح.

وقد كان صحابة النبيﷺ أقوياء الذاكرة والصدق والأمانة والعدل والتحمل للرواية

(١) المرجع السابق ص (٥٥١).
(٢) المرجع السابق ص (٥٧٢).

بوعي كل ما ســمعوه وشاهدوه وحرص على تبليغه ونشره، وتابعهم المسلمون جيلا بعد جيل للتحمل والبلاغ[١].

فبالحديث عُلم ويُعلم كيف عمل الرسول وأصحابه بالقرآن، وبه يُعرف أن القرآن قانــون قد عُمِلَ به ونجحت أصوله الإدارية، والسياســية، والمدنية، والأخلاقية ... إلخ. وليس هو مجموعة نظريات محتاجة للإثبات بالتجربة والتطبيق، وبغير الحديث لا يُستطاع إثبات حركة الرســول بالقرآن، ويضيع تأريخ الإسلام، وهذا ما يتغياه الطاعنون في السنة والحديث[٢]. غير أن الحديث لم يكن ترجمة صاقة للرســالة والبلاغ، والإرشاد والتوجيه، والتطبيق والســلوك ما لم يكن الإســناد حامي حماه من التقــوُّل والاختراق والاختلاق، فسيكون نهشة لكل أفاك لهذا كان وجوده للحديث كالنسب للمرء.

قانون الإسناد للخبر كالنسب للمرء:

ثبــت بالأدلة التاريخية أن بعض الصحابة كتــب الحديث في عهد النبيﷺ وكثير من تلاميذهــم قد كتب ما أملاه عليه الصحابة في مجالســهم العلمية وأمر عمر بن عبدالعزيز بتدوين السنة. كل هذا تم في القرن الأول الهجري، وحفظت بالكتابة والتدوين والتصنيف واشــتهرت وتداولها العلماء وطلابهم ، ولهذا الاشــتهار احتاج العلماء إلى علم الإسناد؛ لقصد إثبات السماع من الشيوخ، وحصول الإذن منهم بالرواية، والتأكد من ضبط الرواة وسلامة حالهم واستقامة ســلوكهم. وهذا الإسناد لا أثر له في إثبات الصحة من عدمها، فهم يســندون إلى الصحيفة مثلا ما ســمعوه وقرأوه إلى شــيوخهم وأذنوا لهم بالرواية،

---

(١) انظر: السنة بين أنصارها وخصومها د. سعيد المرصفي، مخطوط بكلية أصول الدين بالقاهرة رقم٧٤٨ جـ١ / ١٩، ١٨ بتصرف نقلا السُّنّة النَّبَويّة وحيٌ ربانيٌ مناقشة لدعاوى أعداءِ السُّنةِ النّبويّة. إعداد: محمد احمد صبرة، ص (١٧).

(٢) تحقيق معنى السنة وبيان الحاجة إليها للعلامة السيد سليمان الندوي ص ١٢، ١٣، وقارن بالإسلام على مفترق الطرق للعلامة محمد أسد ص (٩٣).

فالأســانيد كالشــهادات العلمية، وواصل العلماء استخدام الإســناد في كتبهم حتى بعد القرن الثاني والثالث الهجريين، وهي كتبٌ مشــهورة في عصر مؤلفيها، مع أن الإسناد هنا لاقيمةَ له فهي كالكتبِ المطبوعة في هذا العصر، فلو كانت الأســانيد للاختلاقِ والكذب لما كان هناك داعٍ لبقاء الأســانيد بعد القرن الثالث، الذي تم فيه تدوين الســنة، وإلى الآن نجد علماء الحديث يروون كتب الحديث معزوة إلى مؤلفيها بأسانيدهم، فمصطلح حدثنا إذا كان الشــيخ يقرأ من كتابه ويملي، ومصطلح أخبرنا إذا كان التلميذ يقرأ كتاب الشيخ وهو يسمع ويصحح[1]، وحدثنا وأخبرنا تدل على اتصال السند، واشترط علماء الحديث الإسناد من أجل الاحتياط في حفظ السنة وقبولها، واشترطوا لذلك القبول عدالة الراوي وضبطه وإتقانه وحفظه وسماعه ممن فوقه، وعدم وجود راوٍ يخالفه وأن لا تعارض الرواية نصا قرآنيا - تعارضا حقيقيا بحيث يســتحيل الجمع بينهما، أو إجماع العلماء والأحاديث المتواترة القطعية عن النبيﷺ.

والأســانيد ليســت مخترعة ولو كانت كذلك لأوجدوا أحاديث لكثير من القضايا الفقهية التي تختلف فيهــا المذاهب، ولماذا يحتج العلماء بالقياس وبأقوال الصحابة وقاعدة المصالح والذرائع وغيرها من القواعد الأصولية الاســتدلالية ما دام باستطاعتهم اختراع أحاديث تؤيــد أراءهم[2]، بل كيف يحكمون على أحاديث بأنهــا ضعيفة مع أنها قد تؤيد مذهبهــم!!، وفقهاء يخالفــون مذاهبهم الفقهية إلى أراء مخالفيهم، وما فائدة كتب أســماء الرواة ونقدهم وتقويمهم وقبول رواية بعضهم وإن لم يكونوا في السنة!!، وما فائدة النقد للرجال وبيان درجات الأحاديث ما دامت المسألة اختلاق وصناعة وافتراء وكذب!!.

هل هناك أشــد سذاجة ممن يخترع أحاديث ويركب لها أســانيد، ثم يعود فينتقد هذه

---

(١) تاريخ تدوين السنة ص(١٥٥- ١٥٧).

(٢) المرجع السابق ص ١٦١-١٦٣.

الأسانيد هؤلاء الرجال الذين اخترعهم ويحكم عليها بأنها غير صحيحة!![1]، بل يحكمون على رواية أبنائهم وعلى آبائهم كما حكم علي بن المديني على أبيه بالضعف[2]. فهل يُعقل أن يكــون كل هذا العناء والبحث والتحري للاختلاق والاختراق!!. لكن الحقيقة أن خدمة الدين وحفظ السنة من حتمت هذا الأمر تدينا يقوم به العلماء، مع قمة الموضوعية والأمانة العلمية.

أي باحث موضوعــي لا يمكن أن يهدر هــذه الجهود التوثيقيــة، وكل هذا العمل النقدي باعتبار أنه عمل يتســمُ بالعبثِ والاختلاقِ والافتراءِ، فمالكٌ، يقول: حدثني نافع أنه ســمع بن عمر، فهل يكــون مالك قد اخترع واختلق وهو المعــروف بالصدق والثقة والدقــة والأمانة العلمية، قد يقع وهم وخطأ من إمام وراوٍ؛ لكن الكذب والافتراء منهم محال[3]. الإســناد طريق موصل إلى المتن الذي هو منتهى الإسناد، ونزع الثقة به يقود إلى إدخال النص في دائرة الشك، فهو في نظرهم محط إتهام متعدد، منها: تدني الثقة به في كيفيته ونشأته وســهولة اختراقه والتلاعب به ومناقضته لمفهوم الشهادة، وهذه شكوك اخترعها المســتشرقون وتبعهم المستغربون، وهي شكوك لم تحضر في تاريخ منظومة أهل الحديث لما أحاطوها من قوانين ومعايير صارمة.

الإســناد خصيصة مهمة من الناحية المنطقية حيث لا خبر إلا بمصدر، ثم إنه يتوصل بــه إلى المتن، ووصفه بأنه من الدين إنما هو تعبير عن الغاية بالوســيلة[4]، وعن المســبَّب بالســبب، والملزوم باللازم، وغايته حماية حديث الرسولﷺ من التحريف والوضع فهو صمام أمان.

---

(١) انظر: العواصم والقواصم في الذي عن سنة أبي القاسم ، محمد بن إبراهيم الوزير تحقيق الأرنؤوط، ط الأردن ١٩٨٦م، (٢/ ٣٧٩).

(٢) تاريخ تدوين السنة ص(١٦٣-١٦٤).

(٣) المرجع السابق ص(١٦٧).

(٤)الاتجاه العقلي وعلوم الحديث جدلية المنهج التأسيس ص(١١٢).

والاتهام بأدائــه وظيفة الاختلاق أمر في غاية التوهــين والتهويم، كون المحدثين قد جمعوا الحديث بسنده منذ بداية العهد النبوي والصحابي ومن بعدهم، فلم يخفَ عليهم ما يسنده المسندون. كما أن الإسناد دليل مادي محسوس حيث أفراده شخوص غير مجهولين ، وما كان في إســناده مجهول فحديثه يُطَّرح، ولم يقل أحد أن كل حديث رُوي بالإسناد فإنه صحيح لا محالة، وإنما يروون بالإسناد الصحيح والمكذوب، كما أن التصحيح والتضعيف أمر نســبي تتفاوت فيه الفهوم والمدارك، وهذا ظاهر على الموضوعية التامة التي يتميز بها موضوع المحدثين[١].

ويعتبر طرابيشي أن الاسناد للحديث هو تمكين للحديث من اختلال مركز الصدارة مع القرآن فيكون مخــلا للحقيقة الدينية، المطلوب الإيمان بهــا والعمل على وفقها، وهذا لا يكــون إلا للقرآن المأمور بالبلاغ فهو مــشرَّعٌ له لا مشرِّع، والقول الفصل عندهم قطع الوصل مع هذه الأحاديث رحمة بالإســلام. والرد عليهــم أن التثبت من الاخبار منهج قــرآني، قال تعــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ [الحجرات]، والحكم على الحديث الصحيح المســند بأنه حقيقة دينية ليس في ذلك من مؤاخذة فإن الحديث إذ صح ســنده إلى رســول اللهﷺ أصبح حقيقة دينية؛ لأن الأخذ به استجابة للأمر القرآني ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧ ﴾[الحشر] ، ومجرد مناقشة الاسناد والتشــكيك فيه مجرد توسل وســلّمٍ توظيفي غير أمين لخدمة عقيدة إنكار السنة[٢]. ومما قالوه في الطعن بعلم الإسناد مقايســتهم الرواية بالشهادة، فهل هذه المقايسة صحيحة أم لا؟

(١) المرجع السابق ص(١١٢).
(٢)الاتجاه العقلي وعلوم الحديث جدلية المنهج التأسيس ص(١١٥).

مناقضة الإسناد لمفهوم الشهادة:

يتوســـل المنكرون بذريعة المناقضة بين الرواية والشـــهادة لإثبات عدم مصداقية هذه الوسيلة وعدم جدواها على فرض التسليم بشرعية السنة وهو تذرع مدحوض بالبراهين، أدركتـــه العقلية الفذة للمحدثين فبينوا موطن الاتفـــاق والافتراق، وآخذين في اعتبارهم كل أنواع المفاهيم المختلطة التي قد تشـــوش على القارئين والمتعلمين. وهم بهذه الذريعة قد قايسوا بين رواية غائبة وشهادة حاضرة، وهذا قياس خطأ لعدم استواء طرفي القياس، فالأصل المقايســـة بين شهادة غائبة ورواية غائبة، ولو افتُرض شهادة موثقة لشخص ميت فهل يصح العمل بها؟ أم ستُبطل شهادة الميت، وتهدر الحق المترتب عليها لعدم رؤية الميت وعدم سماع شـــهادته؟، وهكذا الرواية، فإنها شهادة موثقة ومكتوبة، فهي شهادة الرجال العدول بعضهم على بعض[١]. والمقارنة بين الرواية والشهادة مقارنة غير صحيحة لأوجه الاختلاف بينها التي أوصلها بعض العلماء إلى تسعة عشر فرقا[٢]. والحس النقدي العارف الألمعي الذي تحـــلى به المحدِّثون وعلماء الإســـلام جعلهم يســـتدركون الفروق ومقاربة المصطلحـــات والمفاهيم وبيانها خشـــية الاختلاط، ولو لم يكن هـــذا الحس الألمعي الذي أوضح الفروق بين الرواية والشـــهادة ما حاول اختراقها العقل المســـتشرق والمســـتغرب للتشكيك في السنة وكأنه مَنِ اخترعها وأدرك الانفصام والاصطدام بين الرواية والشهادة.

وعـــماد الرواية هو الصدق وإنْ كل شرط وقيد وضابط ومعيار يؤكد هذا الصدق إلا وطبقه المحدِّثون النقاد على الرواية واحتاطوا إلى الحد الذي وصل حد التعنت في رد رواية من تاب من الكذب، والعجب ليس ممن جرحوا بل ممن وثقوا[٣].

واستشكالهم في مناقضة الرواية للشهادة اعتمدت على فرضية أن الراوية غير مسجلة،

(١) الكفاية للخطيب ص (٧٧).

(٢)تدريب الراوي ص(٣٣١).

(٣) التنكيل للمعلمي(١/ ٣٠).

بل مشـــافهة بين الصحابة ومن بعدهم، وبُعد التدوين عن القرن الأول، وهو أمر سـبق تفنيده في ما مضى من بحوث.

وهم ينطلقون من رؤية ماديـة متطرفة للتأريخ البشري فتجعل الحوادث الاجتماعية شـبيهة بالحوادث الفيزيائية[1]، فتتعاطى معه بمنطق الحس والمشاهدة لضياع الحقيقة[2]. كما يعتبرون أن الإسـناد قائم على الظن والشك في أصله، فهو بهذا يناقض المنهج العلمي والعقل المنطقي، والاختلاف في التحديد الزمني للحوادث الكبرى كوفاة الرسـول وفتح مكـة وحجة الوداع ليُؤكد أن الاختلاف في الإسـناد حاصلٌ طبعـا من باب أولى، وعلى التسـليم بكون الإسناد قائما على الشك والظن، فإن سـؤال السبب عن ذلك، هل لأجل بشرية رجال الإسناد ؟ أم لخلل في معايير الضبط عند المحدثين؟ فإن كان الأول فلم يسلم خـبر في الدنيـا ؛ لأن مصالحها قائمة على الأخبار الظنية، وفي حال رفض هذه الوسـيلة ستفسـد مصالح الدنيـا[3]، وإن كان الآخر فمنهج المحدثين قائم عـلى الضبط والمعايير الدقيقة المتقنة ، ووقوع الاختـلاف في الأحداث الكبرى طبيعي أن تكثر الروايات حول الحوادث الكـبرى لا أن تقل، وفي واقعنـا أحداث مفصلية تتكاثر فيهـا الروايات زمن حضور الناس لها إلى درجة التناقض ومع ذلك لم يوهن ذلك من أهميتها فضلا عن الطعن في ثبوتها.

فنظام الإسـناد نظام منطقي وعلمي وعناية المحدثين به كانت فائقة ومحاولة توهينه وإسقاطه محاولة غير أمينة من الجهة العلمية وتفتقد لأدنى قدر من الموضوعية والنزاهة[4].

فهي موازين منضبطة للنقـد في غاية الدقة والموضوعية والبعد عن الهوى في معالجته للمادة النقدية، وهذه الموازيين هي الإسـلام والعدالة والضبط وتحديد وسـيلة الاتصال،

---

(١) جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي ، محمد الكتاني، (٢/ ٤٧٤).

(٢) الاتجاه العقلاني في علوم الحديث ص (١١٨)وما بعدها.

(٣) التنكيل للمعلمي (١/ ٣١).

(٤) الاتجاه العقلي في علوم الحديث ص(١٢٠).

وفقــدان هذا الشرط يفقد الخــبر قيمته وأهميته، ونقدوا متن الحديــث فما صح من النقل ووافق قواعد الإسلام وأصوله ومقاصده قبلوه[١]. فميدان علم نقد المحدثين منصب على الرواة والمرويات، فلا بد للراوي من العدالة والضبط معروفا بذاته غير مبهم ولا مجهول. وقد بحثوا عن أهلية الرواة للرواية من عدمها وكتب الرجال شــاهدة بذلك ، والتعريف بحال الرواة قد أوجد أنواعا من العلوم التي اســتقل كل منها بذاته ومصنفاته وخصائصه بــما يدل على مزيد الاهتمام والعناية والرعاية، ككتــب معرفة الصحابة، وكتب الطبقات، وكتب الجرح والتعديل، وكتب الأســماء والكنى والألقاب، وكتب المؤتلف والمختلف، وكتب المتفق والمفترق والمتشــابه، وكتب الوفيات، ومصنفات تعرِّف بالموالي من الرواة ، ومصنفات اهتمت ببيان مواطن الرواة وبلدانهم لتمييز من تشــابهت أسماؤهم من الرواة، وهذا يدل على التتبع الدقيق يفوق الوصف من حيث الأشخاص والتعريف بهم[٢].

وعلم الجــرح والتعديل علم نفيس يبحــث عن أحوال الرواة مــن حيث توثيقهم وتضعيفهم، تفردت به الأمة الإســلامية عن ســائر الأمم، وتميزت بتأسيســه، وإنشائه، والتفنن فيه، لهدف الحفاظ على ســنة المصطفى من التقول والدخيل، والمكافحة للدجالين والمشعوذين والخراصين، وتعود نشأته إلى العهد النبوي ثم نما وزاد واشتد في القرن الأول، والثاني، وامتد واتسع وبدأ يتكامل في القرن الثالث، والرابع، وهكذا حتى اكتمل في القرن التاسع من الهجرة الشريفة، فكثرت فيه الكتب، وتنوعت فيه المؤلفات، والدراسات حتى عصرنا الحاضر، تمكن به الســلف والخلف من كشف العلل والخلف من كشف العلل في كل علم منقول حديثا نبويا، أو كلاما عاديا، أو شــعرا أو نثرا أدبيا، أو تاريخا شــخصيا أو سياســيا، فكان مجهرا صادقا، ونظارة صافية لتمييز الصحيــح عن القريح، والصدق من

---

(١) دراسات في منهج النقد عند المحدثين ، د محمد علي قاسم العمري، دار النفائس الأردن ، ص(١٠).

(٢) المرجع الســابق ص ٢٤، ضوابط الرواية عند المحدثين للأســتاذ الصديق بشير ص(٧١،٧٢، ٢١٢) وما بعدها.

الكذب بالقسطاس المستقيم[١]، وألفاظ الجرح والتعديل الاعتبار فيها إلى الاصطلاح لا إلى اللغة في الأكثر، وقد يكون للمصطلح الواحد أكثر من مدلول تبعا لاختلاف مقاصد النُّقاد، فقولهم مثلا: فيه نظر، تضعيف نسبي عند شخص وعند البخاري يُقال لمن ترك حديثه[٢]. والتوثيق والتجريح لرواة الأسانيد أمر اجتهادي ومبني على غلبة الظن، وبالتالي فقد يُضعف بعضهم من هو ثقة عند آخرين[٣].

فهذا منهج سديد رشيد، سماته الأمانة العلمية والنزاهة في إصدار الأحكام على الرواة، والدقة العلمية في تتبع الرواة ومروياتهم، والإجمال في التعديل والتفصيل في الجرح.

وبالتالي محاولة التشكيك فيه من قبل المنكرين والطاعنين المستشرقين والمستغربين من المستعربين محاولة بائسة يائسة لا تمت إلى المنهجية العلمية والأمانة المعرفية، فضلا عن الصدق وتحري الحق والحقيقة. ويستند المنكرون للسنة في مسلكهم على أحاديث النهي جاعلين من كثرة الرواية وتسارعها دليلا لهم على ما ارتأوه من التشكيك بسلامة الرواة والرواية، فما دلالة كثرة الرواية مع أحاديث التحذير منها؟

كثرة الرواية والتحذير منها مكمن الدلالة:

المنكرون للسنة متفقون على تصحيح حديث النهي عن الكتابة، ويستندون عليه في إنكارهم، ومع اتفاق المحدِّثين على جواز كتابة الحديث، فهم يذكرون أحاديث النهي ومن صححها ومن ضعفها، فالكتابة ليست من لوازم الحجية، والأصل عدالة ناقل الخبر، فالعدالة حالة تحتف بأصل الصحة، والكتابة حالة إضافية زائدة لا يتأسس عليها صدق الخبر من كذبه، فقد يُرَدُّ الخبر المكتوب ويقبل الخبر المحفوظ، إذا كان عدلا وذاك ليس كذلك.

---

(١) لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث للأستاذ عبد الفتاح أبو غدة ص (١٨٩) بتصرف يسير.
(٢) المنهل الروي لابن جماعة ص(٦٥).
(٣) دراسات في منهج النقد عند المحدثين ص(٢٧).

كتابةُ الحديـثِ كانت موجودة في العهد النبوي، وهو أمر مسـلم حتى عند القائلين بعدم جواز الكتابـة، كأمر النبي بالكتابة لأبي شـاه، وما أملاه عـلى عماله في الصدقات والديات والفرائض، فلو كان النهي مسـتقرا لما قال النبي ذلك لأبي شاه [(١)]، وبعد وفاة النبي نشـطت حركة الكتابة ، وفي عهد التابعين نجد أكثر من خمسين من كبار التابعين ما بين كاتب ومـدون[(٢)]. وفي آخر القرن الأول الهجري بدأ التدوين الرسـمي، ومع الربع الثاني مـن القرن الثاني بدأت حركة التدوين الخاصة، وفي القرن الثالث المسـمى بالعصر الذهبي للسنة بدأ التفنن في التصنيف، فظهرت المؤلفات المتنوعة، وكانت المسانيد أكثرها انتشـارا، والحكم بقلة الأحاديث أو كثرتها في القرن الأول والثاني حكم غير موضوعي ؛ لأنه ليس هناك مقياس يمكن الاعتماد عليه.

وملخص المشـكل عند المنكرين للحديـث أنه تتكاثر النصوص عـن أئمة القرنين الأول والثاني الهجريين بالنهي والتحذير عن الانشـغال بالحديث، بينما أئمة القرن الثالث تكثروا من الرواية وهـذا انحراف في منهج التلقي، وقد اعتمدوا على بعض أقوال العلماء وهي نصوص مفصولة من سـياقاتها توحي مدلولاتها بوصاية الإقلال من الرواية لأجل حصول مقصود الفقه في معانيها، والعتبُ على من يجهد نفسـه في الحفظِ دون فقه المعاني. وخوف المحدث من الخطأ، ونهي المحدث عن الاشتغال بالحديث وهجر القرآن، وتورع المحدث عن الحديث لعظم المسـؤولية ، وذم أخلاق بعض أهل الحديث لتتبعهم الغرائب وإلحاحهم في الطلب، ولا يوجد من هذه المعاني ما يوجب الانصراف إلى القدح بأحاديث الرسول والتشـكيك في ثبوته[(٣)]، وهم يقتطعون الأخبار من سياقاتها والفهم يقتضي جمع الأقوال والنظائر والحال ليتضح المراد المقصود.

---

(١) انظر: الاتجاه العقلي وعلوم الحديث ص(٣٤).
(٢) دراسات في الحديث النبوي محمد الأعظمي (١/ ١٤٣-١٦٧).
(٣) الاتجاه العقلي وعلوم الحديث ص(٦٤).

والخلاصة أنه بعدَ أن نشــطَ الطاعنونَ في حجية السنة والمنكرون لها، نهض كثير من العلماء للكلام عن جمع الســنة واستقصوا أبعاد المسألة للتحقق من مدى صحته ومطابقته للواقع، مع أن المسألة بالنسبة للمسلمين ليست محل إشكال، وقد وثقها العلماء والباحثون وتثبتوا من حقيقتها بما لا مجال فيه للشك؛ لكن لما نثر المستشرقون والمستغربون شبهًا حول تدوين السنة من وحي الحقد والجحود، انبرى العلماء والباحثون لتوضيح الإشكال وبسط القول فيها؛ لقطع الطريق عن التأثر والتأثير بين المســلمين وصفوف المتدينين، فقســموا مراحل جمع السنة إلى ثلاث مراحل:

- مرحلة الكتابة: وهي مرحلة تغطي العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين من بعده، وقد ذُكر فيما مضى من البحث الجهد المبذول في الجمع، لكنه جمع لم يأخذ الطابع الرسمي، وما ذكره ابن قتيبة وابن خلدون من تعميم القول بأن الصحابة كانوا أميين لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان، تعميم خطأ ولا يستقيم والحقيقة التأريخية[1].

- مرحلة التدوين: وهذه مرحلة تم فيها جمع الأحاديث المتفرقة في الصحف والجلود وكذا المحفوظة، وتدوينها في كتب وهي تشبه مرحلة جمع القرآن في عهد أبي بكر. وقد بدأت هذه المرحلة في أواخر عهد الصحابة نحو(٧٠هـ) حيث قام علماء التابعين من أبناء الصحابة وتلاميذهم بجمع السنة وكتابتها في كتب، وقد شملت هذه الحركة العلمية جميع المدن الإسلامية التي كان فيها أصحاب رسول الله، وفي أواخر هذه المرحلة نحو(١٠٠هـ) بدأ العلماء في تدوين الكتب. هذه الطبقة تبدأ بمكحول (ت١١٣هـ) والزهري(ت١١٤هـ) وتنتهي بربيعة

(١) الوحي الإلهي في الســنة النبوية دراســة تأصيلية، د. عماد علي عبدالســميع حسن، دار المأثور للطباعة والنشر، المدينة، ط١/ ٢٠١٤م، ص(٨٨).

بن عبدالرحمن(ت١٣٦هـ) وهم من تلاميذ الصحابة. وقام بجمع السنة في هذه المرحلة جهتان: جهة علمية تولاها العلماء في جميع المدن الإسلامية التي يتوافر فيها عدد من الصحابة. جهة رسمية تولاها الخلفاء والأمر بالأوامر للعلماء، وقد اشتُهر أن أول من جمع السنة رسميا هو عمر بن عبدالعزيز (ت١٠١هـ)، لكن المؤكد أن والده عبدالعزيز بن مروان (ت٨٥هـ) وجده مروان بن الحكم (ت٦٥هـ) كانا أسبق في التوجيه للقيام بهذه المهمة[١]. فقد وجّه عبدالعزيز وكان واليا على مصر رسالة إلى كثير بن مرة الحضرمي (ت٨٠ه) وكان من كبار أتباع الصحابة قال فيها: اكتب إلي بما سمعت من أصحاب رسول الله من أحاديثهم[٢]. وقد تأثر عمر بأبيه وجده في عنايتهما بالسنة النبوية، فقد كان أميرا على المدينة في خلافة ابن عمه الوليد بن عبدالملك(ت٩٣هـ)، كما أن هشام بن عبدالملك كان له اهتمام بكتابة وجمع السنة، وكان هؤلاء يجمعون هذه الأحاديث في خزانة الدولة للاحتفاظ بها والرجوع إليها عند الحاجة. فليس عمر بن عبدالعزيز أول من دون السنة تدوينا رسميا، لكن يمكن القول أنه أول من أمر بتدوين السنة أي كتابتها في دفاتر.

❁ مرحلة التصنيف: هذه مرحلة متطورة في جمع السنة النبوية، ظهرت فيها الكتب مرتبة على أبواب فقهية بعد أن كان أهل الحديث يجمعونها في الصحف والكراريس، وقد تضمنت المصنفات في تلك المرحلة كثيرا مما دُوِّن في المرحلة السابقة، وقد ظهرت تلك المصنفات والكتب في أوقات متقاربة وفي مناطق مختلفة من الدولة الإسلامية، وأكثر من صنفوا في تلك المرحلة كانوا من تلاميذ ابن شهاب الزهري، وهذه المصنفات تضم الحديث الشريف وفتاوى

(١) المرجع السابق ص(٩٣).
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ،(٧/ ٣١١).

الصحابة والتابعين، كموطأ مالك، ومنهم من أفرد الأحاديث فقط كالمسانيد، مسند أبي داوود ومسند أحمد، ثم تجريد الصحيح من غيره، فكان صحيحي البخاري ومسلم، ثم تبعهما الكتب الأربعة المكملة للستة. ثم ظهرت مصنفات في موضوعات خاصة كالأدب المفرد للبخاري والشمائل المحمدية للترمذي، وتعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي(ت٣٩٤هـ)، وظهرت مصنفات في تاريخ الرواة وتراجم الرواة كالتاريخ الكبير والأوسط والصغير للبخاري، وتاريخ يحي بن معين والجرح والتعديل لأبي حاتم الرازي(ت٢٧٧هـ)، وكتب خاصة بالثقات وأخرى بالضعفاء وكتب في العلل، وكتب في مصطلح الحديث. ومكمن الخلل عند مثيري شبهة إنكار السنة أنهم لم يفرقوا بين الكتابة والتدوين والتصنيف وبينهما فروق دقيقة جداً، فالكتابة هي الخط، والتدوين الجمع، والتصنيف تمييز الأشياء بعضها عن بعض[١].



(١) الوحي الإلهي في السنة النبوية ص(٩٩).



الفصل الثالث

السنة النبوية في مقاصد القرآن

(المصدرية- الحجية)

لا يشك مسلم مؤمن بالله ورسوله أن السنة النبوية وحيٌ من الله تعالى بقانون العصمة ومقصد التبليغ، غير أن نابتة سوء نبتت في التأريخ القديم والحديث تظهر الاعتراف بوحي القرآن لا السنة، وتضمر زحزحة الوحي قرآنا وسنةً من مركز المصدرية العليا لقيم الخير والصلاح في المعاش والمعاد وحجية التصديق الواقعي الملزم للمكلفين بالحذو حذو توجيهات الوحي والاهتداء به، وهي بهذا الإظهار والإضمار تحمل مجموعة من المفاهيم المشبوهة هي:


أن الإنسان في حياته أمير نفسه في اختيار فعل ما شاء وترك ما يشاء باعتبار العقل الموجه والمدرك والمؤكد لقانون المصالح والمنافع.


وأن تشريع العقل هو الأليق بالإنسان السوي.


وأن الاحتكام للسنة النبوية عامل حجز وحجر على العقل عن أن يؤدي وظيفته الواسعة في حركة الحياة. وهي بهذه المفاهيم تتغيا الاستغناء عن تبيين السنة للقرآن، وفهمه دون حاجة للتوجيه النبوي؛ كون بشريته تقتصر على تبليغ القرآن، وبالعقل تُستوحى قوانين العلاقات والاعتبارات في الحياة.

ومحاولات محو السنة من موقعِ المصدريةِ ومن تشريع وإلزام الحجية جاءت من مقولات مشبوهة نسجها المنكرون الجاهلون بحقائقها على خلاف ما هي عليه، فقال جورج طرابيشي ما معناه: أن اعتبار السنة وحيًا، شريكة لجوهر القرآن مفاهيمُ كرسها الشافعي، وعمل على التأصيل لها، مما يعني أن السنة حكايات تاريخية انتهت بانتهاء تاريخها، وأن مساواتها معرفيا ومصدرا للتشريع وحجة ملزمة للمسلمين إنما هو من صنع الشافعي الذي جعلها نظرية متماسكة بعد أن كانت أقوالا متناثرة عند من سبقه من العلماء

كأهل الحديث وبعض أهل الفقه كالأوزاعي[١]. لكن الشـــافعي رائد التسوية بين القرآن والحديث في المصدرية الإلهية والأهلية التشريعية"[٢].

وهنا نستطيع القول أنهم يستبطنون الحرب على السنة ؛ كونها بزعمهم قيّدت العقل وجعلته أســير النص، وهو زعم واســتبطان يوحي بالتجني الفاضح المنسجم مع الحقد المخالف للموضوعية المعرفية التي يتفاخرون بها، والتحكيم لمســبقات فكرية استُدعيت لها ظواهر النصوص اســتظهاراً ، وأن أمر الله المنزه عن الباطل والخطأ يقتضي عدم وحي الســـنة البشرية غير المنزهة عن الخطأ"[٣]. فالشـــافعي بزعمه جعل للسنة الرسولية نصابا إلهيا وبوأها منزلة الأصل مع الكتاب وكرســـها شريكة له في التحكم بمصائر كل العقل في الإسلام ســـواء العقل الديني أو المعرفي"[٤]. واعتباره شرعنة السنة من خلال الحجية الإلهية لها، والحجية المعرفية لخبر الواحد"[٥]، إنما هو من ســـقطِ الكلام، ومقول العوام ، فالسنة مشروعة بالوحي القرآني والنبوي، لا مشرعنة من عالم أو حاكم كما يتوهم جورج طرابيشي ومن لف لفه.

فالسنة عديل القرآن وحيا منزلا من الله وتشريعا ملزما لعباده المؤمنين به.

ومـــن هنا ندرك مدى الجهـــد الذي بذله جـــورج طرابيشي لنفي مصدرية الســـنة وحجيتها، وإن حشر مجموعة من المســـائل الفرعية لبرهنة ما ذهب إليه واعتبر أن الاقرار بحجية السنة ومصدريتها وعرة على الدين والعقل، ونقول له كما قال السبكي: لا وعورة في المسألة إلا لمن حاد عن المنهج القاصد وجعل يضرب في حديد بارد، وأنى له أن يتشكل من الحديد البأس والمنافع وإقامة القسط وهو على هذه الحال.

(١)الوحي الإلهي في السنة النبوية ص(١٨٥).
(٢) المرجع نفسه ص (١٨٧).
(٣) من إسلام القرآن ص(١٩٢).
(٤) المرجع السابق ص(١٩٤).
(٥) المرجع السابق ص(١٩٦).

ونحاول في هذا الفصل الإجابة على ســؤالين اثنين: هل الســنة وحي؟ وهل لها حق الحجية والتشريع؟ كونهما ســؤالين مركزيين دار محورهما التشــكيك والإنكار من خلال القضايا الفرعية والمسائل الثانوية، وبالتالي فسؤال البعض هل يُكتفى بالقرآن وحده دون السنة؟ وهل السنة محفوظة؟ إنما هو لازم من لوازم إنكار وحي السنة المصدري والمرجعي وسينْصَبُّ النقاش على الأصل دون اللوازم.

أولاً: مصدرية السنة:

تعني مصدرية السنة أنها وحي يهتدي المسلمون بالنبيّ ﷺ في سنته الشريفة قولا وفعلا وتقريرا وخلقاً، وهذا مجمع عليه بين علماء المسلمين وعوامهم، ومصدريتها تعني بالضرورة لزوم الاتباع والامتثال، مثلها مثل القرآن الكريم، وأي تشــكيك في وحي السنة إنما هو في الحقيقة توســل وتسلل للطعن في الشريعة، واعتبار أن السنة وحيٌ مؤيد بالنص القرآني في قوله تعــالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم][1]، ونفي النطق عن هوى يقتضي نفي جنس ما ينطق به عن الاتصاف بالصدور عن هوى سواء كان القرآن أو غيره من الارشــاد النبوي بالتعليم والخطابة والموعظــة والحكمة[2]، وبالاحتكام إلى قانون اللغة العربية في فهم الآية ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ فقد تساءل المفسرون عن الضمير هنا هل هو ضمير معلوم أو ضمير مذكور؟ وأشــهر الأقوال أنه ضمير معلوم وهو القرآن كأنه يقــول وما القرآن إلا وحي، وقيل: عائد إلى ضمير مذكور ضمنا وهو قول النبي ﷺ وكلامه ضمنه النطق وهو كلام وقول[3]، والآية جاءت في ســياق الرد على الكفار حيث

---

(١) انظر: نفسير القرطبي للآية (١٧/ ٨٥).
(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٨/ ٤٦٨٥.
(٣) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٨٢).

قالـــوا: إنَّ النبي افترى هذا القرآن(١)، وليس هنا مـــا يؤيد قصر نفي النطق عن هوى على القـــرآن الكريم فقط كما يذهـــب جورج طرابيشي والمنكرون لوحي الســـنة، وهي محاولة للقصر والتخصيص بالتحكم العقـــلي والنظر الذوقي وربما باعث الحقد. ونطق النبيﷺ ثلاثة أقســـام: نطق بالقرآن الكريم، ونطق بالســـنة الموحاة إليه التي أقرها الله على لسانه، ونطق باجتهاد لا يريد به إلا المصلحة(٢). وتوقف بيان القرآن على الســـنة؛ إذ مهمة النبي في الرســـالة بيان القرآن والســـنة، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[النحل] ، وبيان القرآن يتوقف على بيان النبي له، وفهم معنـــاه وبيان أحكامه التي هي المقصودة من إنزاله لا يكون إلا عن طريق الســـنة(٣). وإذا كانت الســـنة هي الوحي، فإن معرفة الوحي في مفهومه اللغوي والاصطلاحي سيجعل القارئ يدرك مدى انبثاق الســـنة من الوحي، فالوحيُ لغةً من وحى وأوحى إليه إذا كلمه بـــما يخفيه عن غيره، واصطلاحا هـــو: الإخبار السريع الخفي الموجـــه لخاص من الناس. وأقسام الوحي ستة أقســـام ، أعلاها التكليم المباشر كتكليم موسى ومحمد عليهما السلام ليلة الإسراء، ثانيها: الوحي بواسطة الملك وهو الغالب، وثالثها: الإلهام الفطري للإنسان كإلهام الله لأم موسى أن تلقيه في اليم ، ورابعها: الإلهام الغريزي للحيوان كما أوحى الله إلى النحل. خامســـها: الإشارة الرمزية المعبرة كقوله عن زكريا ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾[مريم]. سادسها: تزيين الشيطان ووسوسته ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام].

وكيفيـــاتُ الوحي خمس كيفيـــات: يأتي مثل صلصلة الجرس وهو أشـــقها، ويأتي في صـــورة رجل فيكلمه بالوحي فيعي عنه ما يقول، ويأتيه الملك في النوم كما في قصة إبراهيم

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي ، ص(١٨٦).
(٢) انظر: تفســـير القرآن الكريم من الحجرات ق الذاريات الطور النجـــم القمر الرحمن الواقعة الحديد، لابن عثيمين ص(٢٠٦).
(٣) الاتجاه العقلي في علوم الحديث. ص(٢٠-٢١).

مع ابنه إســماعيل الذبيح، ويأتي في صورة نفثٍ في رُوْعِهِ ما يريد من الوحي فيتيقنه، ويأتي التكلم المباشر من الله لنبي من الأنبياء. والسنة النبوية يقع إيحاؤها بهذه الكيفيات كلها[١].

وإذا أدركنا مفهوم الوحي في اللغة والاصطلاح وأقســامه وكيفياته لترسيم قناعة أن السنة مصدرها الوحي، فإن هذا يقودنا للحديث عن العصمة النبوية التي منحها الله لأنبيائه والتي هي المنع والحفظ والوقاية، كما قال تعالى:﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾[المائدة:٦٧]، فـ"العصمــة: صرف دواعــي المعصية عــن المعصية بــما يلهم الله المعصــوم من ترغيب وترهيــب"[٢]، فقد أحاط الله الأنبياء بعصمتهم من كل ما يخل بالتبليغ كالشــك والجهل بالأحــكام المنزلة عليهم وكتمان الوحي والكذب والوســواس وأن يقولوا ما ليس بحق، والتقصير بالبلاغ وتســليط الشيطان وتلبيسه عليهم وتسليط الإنس أيضا عليهم بالإيذاء المخل بالرســالة وهذا مجمع عليه[٣]. كما عصمهم الله من الصغائر أن تصدر منهم عمدا وإنما قد تصدر منهم ســهوا أو خطأ، وصدور بعض الصغائر سهوا عن النبيﷺلا يغض مــن مقامه، حيث يُنبه عليها ويتوب منها، فتكون منزلته عند الله بعد التوبة أرقى منها قبل التوبة، وهو بذلك يترقى من كمال إلى أكمل[٤]، ودفع اعتبار الوقوع منهم وإنكاره من قبل بعض العلماء بزعم التنزيه والإجلال والإكرام يتعــارض مع الآيات الثابتة كقوله تعالى: ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[الفتــح: ٢]، ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر:٥٥]، وقولهﷺ:" إنه ليغان على قلبي وأســتغفر الله ســبعين مرة"[٥]. ووقوع الســهو منهم دون قصد إنما يكون في الأفعال دون الأقوال، **كما ذهب إليه**

(١) السنة النبوية وحي من اله محفوظه كالقرآن، د. الحسين أيت سعيد، ص (٤-٦).
(٢) شرح الكوكب المنير ، (٢/ ١٦٩).
(٣) السنة وحي من الله، ص(١٣).
(٤) المرجع السابق ص (١٩).
(٥) صحيح مسلم ، بابا الذكر والدعاء،(٤/ ٢٠٧٥).

أكثر الفقهاء والمتكلمين، وحُكي الإجماع على ذلك[١]. وفي اجتهاد الأنبياء عليهم السـلام قام الإجماع على جـواز التعبد بهذا الاجتهاد عقلا للأنبياء كغيرهم من المجتهدين[٢]. وقد أحيطت سيرته وسنته باعتناءٍ كبيرٍ وأُحصيت ودونت بدقة متناهية، فالقرآن الكريم مرتبط بشخصِ النبي من جهة تلقيه عن الله وإبلاغه للأمة ، كما تلقاه لفظا ومعنى، وجهة تفويض الله لـه أن يبين للناس مراده منه[٣]، ومن هاتين الجهتين نشـأت علاقة ارتباط بين القرآن والسـنة أشـبه بعلاقة القرابة التي لا يمكن فصلها أو فصمها، فمن حاول الاسـتدلال بفصل أحدهما عن الآخر كمن يفصل أغصان الشجرة عن أصلها، ويسير في عماية ويخرج عن النهج المستقيم؛ ذلك أن السـنة صنو القرآن وقرينته في الاستدلال والاحتجاج، قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[الحجر]، والذكر يشملهما معاً، وعوامل الحفظ كانت في: الحفظ في الصدور ، والمذاكـرة، والكتابة، والرحله في طلب الحديث[٤]. وقد يتبادر سـؤال منطقي عن كيفية التوفيق بين كون السـنة وحيـا، وما ثبت قطعا من اجتهاده في بعض القضايا الدينية والدنيوية. فاجتهاده في بعض القضايا لا ينافي القول بأن السـنة وحي؛ إذ اجتهاده بأمر الوحي ابتداء ويـؤول إلى الوحي انتهاءً،، فإن أصاب، أقره الوحي ، وإقرار الوحي وحي، وإن أخطأ في اجتهاده، أرشـده للصواب، فيفعله فيصبح هو التشريع له ولأمته، فهو معصـوم في اجتهاده حالاً ومآلا، وهذا من خصائصه التي لا يشاركه غيره من المجتهدين[٥].

ومما يـدل عـلى وحـي السـنة قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[الحجر]والذكر يشمل الكتاب والسـنة وكلاهما منزل محفوظ، وقوله ﴿

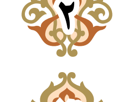
(١)الشفاء ، القاضي عياض اليحصبي، ص(٦٧٥).
(٢) البحر المحيط ، (٦/ ٢١٤).
(٣) السنة النبوية وحي ص(٤٣).
(٤) المرجع السابق، ص(٤٣).
(٥) المرجع السابق ص(٤٧).

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾[الأنبياء: ٤٥] ، فأخبر تعالى أن كلام نبيه كله وحي، والوحي بلا خلاف ذكر، والذكر محفوظ بنص القرآن؛ فصح بذلك أن كلامهﷺكله محفوظ بحفظ الله عز وجل مضمون لنا أن لا يضيـــع منه شيء، فهو منقول إلينا كله فلله الحجة أبدا"[١].
وكل مـــا حكم به رســـول اللهﷺ، فهو مما أنزل الله، وهو ذكر من الله، أنزله على رســـوله، وقد تكفَّل ســـبحانه بحفظه"[٢]، وهيأ لهذه الأمة الإسناد لحفظ السنة منذ عهد الصحابة.
والضمير في قوله :{وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ} يعود للقرآن والسنة، وهذا موجود في القرآن الكريم نفسه استعماله للضمير اســـتنادا على ما يفهم من السياق، ومدلولات الحديث، يشهد لهذا قوله تعـــالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾﴾[الواقعة] ، فتلك صفات الحور العين مع أنه لم يجر لهم ذكر في قسم أصحاب اليمين في سورة الواقعة، ولكن السياق العام للسورة وما ذكر في الأقسام الســـابقة يجعل الذهن يدرك أن الضمير عائد على أمر مفهوم الفحوى والسياق والأسلوب، كذلك يقوي هذه الشهادة في استعمال القرآن الضمير على ما يستند على الأســـلوب النحوي، قوله تعالى:﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾[ص] ففي قوله: "توارت" ضمير فاعل يعود على الشمس مع أنه لم يجر لها ذكر في الســـورة بالنص، ولكن الســـياق العام يجعل الذهن يدرك أن الضمير عائد على الشـــمس. وما معنا في آيـــة الحجر من هذا القبيل والكل اســـتعمال قرآني تزكيه اللغة، ويقويه الإعراب القرآني، فليس هناك وجه للاعتراض، وعليه يســـلم تفسير الذكر بالشريعة قرآنا وســـنة [٣]. واعتبار الحصر خاص بالقرآن للحفظ ليس حصرا حقيقيا؛ بل هـــو حصر إدعائي، بدليل حفظ الله للســـماوات والأرض أن تزولا كما قال عز وجل﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ ﴾ [فاطـــر:٤١]، وحفظـــه لنبيه ﷺ من القتل كما قال عز وجـــل: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [المائدة:٦٧] وإذا فســـدت حقيقة القصر؛ فقد

(١) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ١١٠).
(٢) مختصر الصواعق ص(٤٠٠).
(٣) السنة بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين ص (٢٩، ٣٠).

فسد المترتب عليها: وهو عدم الاعتراف بحجية السنة المطهرة [١]، كما أن الحصر الإضافي بالنسبة إلى شيء مخصوص، يحتاج إلى دليل وقرينة على هذا الشيء المخصوص، ولا دليل عليه سواء أكان سنة أم غيرها، ...فتقديم الجار والمجرور ليس للحصر، وإنما هو لمناسبة رؤوس الآي، بل: لو كان في الآية حصر إضافي بالنسبة إلى شيء مخصوص ، لما جاز أن يكون هذا الشيء هو السنة؛ لأن حفظ القرآن متوقف على حفظها ، ومستلزم له"[٢]. كما أن الحصر الوارد في الآية كان عن طريق تقديم الجار والمجرور، وهو في علم المعاني من الدرجة الثالثة في إفادة الحصر، فلو كان المقصود الأهم هو حفظ القرآن وحده لآثر القرآن التعبير:


إما بالحصر الحقيقي حقيقة.


أو بطريق (ما وإلا) التي تفيد الحصر بالدرجة الأولى.

أو (بإنما) التي تفيد الحصر بالدرجة الثانية على الأقل[٣]، وكيف يحفظ الله القرآن ويترك حفظ السنة، وقد دعا إلى التمسك بها في كثير من الآيات القرآنية من خلال حضه على طاعة النبيﷺ؟! "ومن ثم فالرسول ليس مجرد واعظ يلقي كلمته ويمضي لتذهب في الهواء، بل الدين منهج حياة واقعية، بتشكيلاتها وتنظيماتها، وأوضاعها، وقيمها، وأخلاقها، وآدابها، وعباداتها، وشعائرها" [٤].

وقوله تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء:٤٥]، ونذارته لهم كانت بالقرآن والسنة. وقوله تعالى:﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾[القيامة]،

---

(١) السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين للدكتور رءوف شلبي ص(٣٠،٣١) بتصرف.

(٢) حجية السنة للدكتور عبد الغنى ص(٣٩٠، ٣٩١).

(٣) السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين د. رءوف شلبي، دار السعادة، القاهرة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ص٤٦.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٩٨٧م، (٢/ ٦٩٥، ٦٩٦).

أمره الله باتبـاع قراءة جبريل والإنصات لهـا، ثم يبين له معاني ما قـرأ، والبيان إنما وقع بالسـنة، وقد أضافه الله لنفسـه فأفاد أنه وحي. وقوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النسـاء] فصح بهذا صحة ضرورية حقيقية عدم تعـارض القرآن والحديث الصحيح وهما شيء واحـد بلا اختلاف. وقوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ [النحل:٤٤] ، أنزل إليه الذكر الشامل للقرآن والسـنة ليبينه للناس، والبيـان لا يعني التلاوة التي قصدها جورج طرابيشي كسـاعي البريد وإنما التفصيل والتمثيل والتجسيد العملي، وصح بهذا التعميم أن السنة من عندِالله ومن خص الآية بالقرآن وحده، فليس عنده دليل يجب التسـليم له، وتقوم به الحجة علىَ التخصيص، والأصل هو العموم والتخصيص اسـتثناء، ومدعي الاستثناء عليه الدليل. وقوله تعـالى:﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ ﴾ [يونس:١٥] فلو أنه شرع شيئا لم يوح إليه به، لكان مبدلا للدين من تلقاء نفسه[١]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ ﴾[الحاقة] فالله نفى عنه أن يتقول عليه شـيئا لم يوح به إليه، ولا أن ينسب إليه شـيئا لم يأذن له فيه. وقوله تعالى:﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾[النسـاء] فلا يحكم إلا بما أعلمه الله به ، وبما أوحـاه إليه وبما أراه من الرأي الذي هو نوع مـن الاجتهاد، بما أراه الله قوانين الشرع إما بوحي ونص وإما بنظر جارٍ على سـنن الوحي. فهذه النصوص تبلغ بمجموعها القطع، وهـي محتملة في أفرادها، ولهذا عوّل جورج طرابيشي في إنكاره مصدرية السـنة ومن ثمّ حجيتها على بعض أفراد النصوص، وهو سـلوك منهجي اتسـم به أهل الزيغ لاتباع ما تشابه، بينما المنهج الحقيق والحق في أخذ النصوص في مجموعها لتفيد القطع واليقين، وقد نبه على هذا الشـاطبي في موافقاته فيما يسـمى بالتواتر المعنوي للوصول لمقاصد الشارع الكريم من أوامره ونواهيه. وما يدل على أن السـنة وحي، قوله تعالى﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى

---

(١) السنة وحي من الله ، ص(٢٣-٢٨).

ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ ﴾ [البقرة:١٣٤-١٤٤]، فالآية تخبر أن النبي كان على قبلة أخرى قبل أن يجعل الله الكعبة قبلة المسلمين، وصرح القرآن أن القبلة التي كان عليها الرسول إنما كان عليها بأمر من الله، ولكن لا يوجد في القرآن ما يثبتُ أنه أُمِر بالتوجه لها قبلَ ذلك؛ كونها كذلك. إذاً لابد من أن نوعا آخر من الوحي كان ينزل على الرسول وبه بلغه؛ كون بيت المقدس قبلة أولى[1]. ومن ذلك قوله تعالى:﴿ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ٢٧ ﴾[الفتح] وفي مناسبتها أن النبي أُري في المنام وهو في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام وطافوا واعتمروا، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، ثم أخبرهم أنه معتمرٌ فسافروا معه، ولكنهم حبسوا عن الدخول إلى مكة، فقالوا للرسول: ألم تخبرنا أننا داخلون المسجد الحرام، فقال الرسول: أقلت لكم أنه يكون في هذه المرة، فأنزل الله الآية، فعُلم أن الرسول أوحي إليه بالرؤيا أنه يسافر إلى مكة ويُمنعُ من الدخول، ثم يكون الصلح ويتمكن من العمرة في السنة القادمة، أفليسَ ذلك برهاناً قاطِعا على أن الرسول كان يأتيه الوحي غير القرآن؟[2]. وقوله تعالى:﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ ﴾[التحريم] ، فهل في القرآن آية أخبر بها الله نبيه أن زوجتك قد نبأت بالسر الآخرين[3]. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ

(١) مكانة السنة في التشريع الإسلامي الشيخ أبو الأعلى المودودي ، ص(١٢٠-١٢١).

(٢) المرجع السابق ص١٢١-١٢٢.

(٣) المرجع السابق ص١٢٢-١٢٣، ومكانة السنة في الإسلام ودحض مزاعم المنكرين والملحدين، د. محمد لقمان السلفي دار الداعي للنشر والتوزيع ط٢/ ١٤٤٠هـ، ص(٦٤).

أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب]، طلق زيد زوجته وتزوجها النبي ﷺ فجعل منها المنافقون والمخالفون وسيلة للدعاية وإثارة الشبه حول شخصية النبي، فرد القرآن عليهم بأن زواجه بأمر الله، كما في الآية التي تدل على أن النبي تزوج زينب بإذن من الله، ولم يُوجد ذلك الإذن في القرآن، وإنما فيه الإخبار بأن زواج النبي كان بإذنٍ من الله[1]. وقوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الحشر]، كان بنو النضير قد عاهدوا النبي وحصل منهم النقض مرات عديدة، فاضطر إلى تأديبهم، فخرج وحاصرهم، فتحصنوا منه في الحصون، فقطع النخل وحرقها وخرب، فوقع في نفوس بعض المسلمين من هذا شيء، فنزلت الآية توضح أن فعله بإذن من الله، ولا يوجد ذلك الإذن في القرآن، وهذا يثبت مجيئ الوحي للرسول[2].

ومهمة البلاغ المبين تشمل الرسالة بكاملها قرآنا وسنة؛ مما يجعل الوحي شاملا للسنة كالقرآن الكريم، وهذا ما تؤكده الآيات التي حاول منكرو السنة أن يوظفوها كمدرك لهذا الإنكار، لظنهم أنهم يستندون لنص، ويكسبون الحقيقة لحظهم من خلال هذا التوظيف، وهذه التوظيفات للنصوص المنبتَّة من سياقها ومعانيها، جذورها التأسيسية قديمة، حينما اتكأت الفرق الضالة إلى نصوص جزئية على خلاف موردها ومقصدها.

وهذه الآيات التي حاول توظيفها منكرو السنة هي: قوله عز وجل: ﴿ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقوله عز وجل: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور]، معتبرين أن هذا الحصر هو للقرآن فقط ولا دخل للسنة ؛كونها تصرفٌ بشري، وبشريته لا

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير للآية من سورة الأحزاب، ٣/ ٤٩١، ومكانة السنة للمودودي ص(١٢٣-١٢٤).

(٢) مكانة السنة في التشريع الإسلامي للمودودي ص ١٢٤، ومكانة السنة في التشريع الإسلامي،د. محمد لقمان السلفي ص ٦٢ وما بعدها. السنة النبوية حجية وتدويناً د. محمد صالح الغرسي، مؤسسة الريان، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص(٩٦).

ترتقي إلى أن تكون مصدرا من مصـادر التشريع والتوجيه، وهذا فهمٌ خاطِئٌ وتوظيفٌ مسـيخٌ؛ إذ مؤدى الآيتين نفـي الإكراه على الاعتقاد، أو على الإيـمان، والذي يؤكد هذا المعنى، قول الله عز وجل: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ [الشـورى:٤٧-٤٨] هذه الآية جاءت عقب الحديث في الآيات التي سـبقتها عن الضالين والظالمين الذين سيكون مآلهم العذاب، ولهذا عقب بهذه الآية دعاء النبي لهم إلى الاستجابة إلى تعاليم الله وهديه وتشريعه وامتثاله، فإن أعرضوا ولم يستجيبوا لها، فما عليك أيها الرسـول إلا إبلاغهم الرسـالة دون إكراه لهم عـلى الإيمان، فمن آمن منهم فله الجنة، ومن كفر فما أرسـلناك عليهم حافظا لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها، وإنما مهمتك هي إبلاغهم فقط[1]، وجملة: {إن عليك إلا البلاغ} هي بيان لجملة ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ ﴾ [الشورى:٤٨] باعتبار أنها دالة على جواب الشرط المقدر[2].

قولـه تعـالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النـور]، يأمرهم الله بطاعته وطاعـة نبيه في كل ما يبلغهم به، فإن تولوا، ولم يطيعوا فعليه البلاغ فقط وعليهم تبعـة التكليف والمسـؤولية. وبهذا يتبين أن القرآن قد حدد بلاغ الرسـالة كتابا وسـنة على الرسـول محمدﷺ فكانت أقواله وأفعاله وتقريراتـه وتدبيراته كلها وحي للاقتداء والاهتداء.

وقولـه عز وجل: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ ﴾[النور: ٥٤]، يؤكد أن السـنة وحي؛ إذ المفعـول مفرد لا مثنى، فالقرآن والسـنة كلمة واحدة للتشريـع والتوجيه[3]. والتنزيل

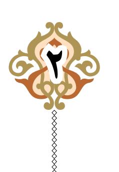
(١) الجامع لأحكام القرآن القرطبي، دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، (١٦/ ٤٧).
(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، (٢٥/ ١٣٣) بتصرف.
(٣)تفسـير الشـعراوي محمد متولي الشـعراوي، دار أخبار اليوم، القاهـرة، (١٧/ ١٠٣١٢: ١٠٣١٥) بتصرف.

المذكــور في قوله عــز وجــل:﴿ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد:٢] ليــس المقصود به القرآن فقــط، وإنما هو القرآن والســنة معا، بدليل الآيات الســابقة، وتبليغه يكون للرسالة، ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨] ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾[النور] ، ليس الحصر على القرآن فقط.

أحاديث تثبت مصدرية السنة:



حديث المقداد بن معد يكرب يرفعه إلى النبي ﷺ :" ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه،..." وجاء في نهاية الحديث في رواية أخرى: "ألا وإنّ ما حرّم رسول الله كما حرّم الله" ، فالقرآن الكريم، هو الوحي الظاهر الجليّ المتلوّ، وأمّا قوله: "ومثله معه" فالمراد بها الوحي غير المتلوّ، وهو السنّة ، ومثليّة السنّة للقرآن تتحقّق في أمرين: في النوع وفي الحكم: أمّا النوع فيعني أنّ كلاً من القرآن والسنّة وحي من الله، وأمّا الحكم فيعني وجوب العمل بهما جميعا ، وفي نهاية الحديث سوّى بين ما يحرمه هو وما يحرمه الله تعالى، وذلك لا يكون منه إلا بوحي؛ لأنه جزم وقطع هنا، و أحكام الاجتهاد لا قطع فيها.



و قوله ﷺ: "إنّ الروح الأمين نفث في رُوْعِي أنّه لن تموت نفس حتّى تستوفي رزقها، فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب"[١]. وهذا دليل على تنوع الوحي له مما ليس بقرآن.

---

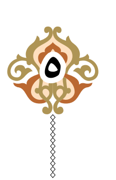
(١) محاضرات في علوم الحديــث - مصطفى أمين التــازيّ ١/ ٩٩ (ط٣ -١٣٩١هـ / ١٩٧١م - مطبعة دار التأليــف بمصر) . ونحوه في ســنن ابن ماجــه [بدون ذكر: إنّ الروح الأمــين نفث في روعي]- التجارات- باب الاقتصاد في طلب المعيشة(٢/ ٧٢٥ حديث ٢١٤٤).



قول النبيﷺ في قصّة العسيف (الأجير): "والذي نفسي بيده لأقضينّ بينكما بكتاب الله جلّ ذكره، المائة شاة والخادم ردّ ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها" [(١)] . والقضاء برجم المحصن وجلد وتغريب البكر من السنة ونسبها للكتاب، فكانت وحيا مثله، والكتاب أعمّ من القرآن، وأنّ المراد به "الشرع" سواء كان كتابا أو سنّة.



حديث يعلى بن أمية أن رجلا أتى النبي وهو بالجِعِرّانة، وعليه جبة، وعليه أثر خَلوق، فقال كيف تأمرني أن أصنع في عمرتي؟ فأَنزل الله على النبي فستر بثوب، فقال: وودت أني قد رأيت رسول الله وقد أنزل عليه الوحي، فقال عمر: تعال، أيسرك أن تنظر إلى رسول الله وقد أنزل الله عليه الوحي؟ قلت: نعم، فرفع طرف الثوب فنظرت إليه، له غطيط كغطيط البَكر، فلما سُري عنه قال: "أين السائل عن العمرة، اخلع عنك الجبة، واغسل أثر الخلوق عنك، وأنق الصفرة، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجك [(٢)]" ووجه الدلاله أنه لم يجُب السائل عن سؤاله إلا بعد ما جاءه الوحي بالجواب، قال الزركشي: " وهو دليل قطعي على أن السنة كانت تنزل عليه كما ينزل القرآن " [(٣)]



حديث خولة بنت ثعلبة في مظاهرة أوس بن الصامت منها، وهو شيخ كبير لما اشتكت للنبي عن سوء خلقه، فقال لها: " ياخويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ علي ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي

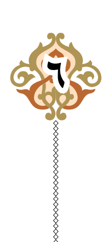
---

(١) صحيح البخاريّ – الحدود – باب الاعتراف بالزنى – فتح الباري(١٢/ ١٤٠) حديث(٦٨٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في العمرة – الفتح –(٣/ ٧١٨).

(٣) البحر المحيط / ٦/ ٢١٦.

﴿تُجَـٰدِلُكَ﴾[المجادلة: ١]" الحديث[١]، فتوقف النبي عن الجواب عنها حتى نزل عليه وحي يدل على أنه لا يقول شيئا، ولا يفعله إلا بوحي.



حديث جبير بن مطعم أن رجلا قال: يا رسول الله، أي البلدان أحب إلى الله وأي البلدان أبغض إلى الله؟ قال: "لا أدري حتى أسأل جبريل" فأتاه فأخبره جبريل أن أحب البقاع إلى الله المساجد، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق[٢]، وفي لفظ: قال جبريل: " لا أدري حتى أسأل رب العزة "

إن الأدلةَ من الســنة النبوية الشريفة على أن السنةَ النبويةَ وحيٌ كثيرةٌ جداً يصعب حصرها أو ذكرها في هذه الكراســة التي غرضهــا التأصيل لا التفصيل، ويمكن الرجوع لمضان التفصيل[٣].

وكل ما جاء مِن إخبار رسول الله ﷺ عن الله تعالى وأوصافه وأسمائه وأفعاله، وإخباره عن نفسه الشريفة، وما خصه الله تعالى به وفضله، وإخباره عن فضل الصلاة والسلام عليه، وبيان عقوبة تارك الصلاة عليه، وإخباره عن بيان مسارعة الله تعالى في رضاه، وإخباره عن القرآن الكريم ونزوله وترتيبه وحروفه وثواب قراءته، وعن الأحاديث القدسية، وإخباره عن الملائكة الكرام عموماً، وعن جبريل عليه السلام وتعليمه له ونزوله عليه ومصاحبته له، ... إلخ، وإخباره عن الجنة ونعيمها ودرجاتها وكيفيتها وأبوابها ومن يدخلها، ... وعن النار ودركاتها وأوديتها ونارها وعذابها وقوتها وأهلها وأحوالهم ومَن يدخلها ومَن يخرج منها، ... وعن الأنبياء الســابقين عليه وعليهم الصلاة والسلام وأحوالهم وأوصافهم وما

---

(١) أخرجه أحمد -(٦/ ٤١٠/ ٤١١) وأبو داود في الطلاق -(٢/ ٢٦٦)وجاء من حديث عائشــة بســند صحيح مختصرا عند البخاري في التوحيد -(١٣/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه البزار -(٨/ ٣٥٢) وأحمد -(٤/ ٨١) وأبو يعلى -(١٣/ ٤٠٠) والحاكم -(١/ ٨٩/ ٩٠/ ٢/ ٧).

(٣) السنة النبوية وحي، د. خليل بن إبراهيم ملا خاطر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ص:(٣٣-٤٥)

حصل معهم، ... وعن الأمم السـابقة وما حصل فيها، ومـا ورد مِن بعض أفرادها، ... وعن أهل بيته وأحوالهم وما سيكون لهم، وعن الزيادة عن الأربع في أزواجه- رضي الله تعالى عنهن- وعن أصحابه رضي الله تعالى عنهم ووفياتهم، وما سيحصل لهم، أو لبعضهم بعده ﷺ، وعن قرنه وفضل أهله ومدة بقائهم، وإخباره عن المدينة النبوية وحرمها وأهلها ومكانتها وأحوالها وصفاتها وما يكون فيها، وعن مكة المكرمة وحرمها ومكانتها وأحوالها وأهلها، وعن الغيوب المستقبلة، والأمور البعيدة القادمة، وعن الفتن والملاحم، والحروب الحاصلة بين الأمم، أو بين المسلمين أنفسهم، وإخباره عن الشهداء ومكانتهم وأحوالهم وأنواعهم، وعن أشراط السـاعة بنوعيها الكبرى والصغـرى وما ظهر منها وما لم يظهر، وإخباره عن الكائنات في زمانه؛ فوقعت كما أخبر، سواء كان حصولها في زمانه أو بعده ... إلخ، وما جـاء مِن إخباره ﷺ عن الفضائل في الأعمال والأقوال؛ كالذكر والدعاء والأيام والأمكنة والأزمنة والأفراد، وإخبـاره عن الهجرة وفضلها، وعن أمته وفضلها ومكانتها وأجرها وانتشارها ومُلكها، ... وأنها لا تجتمع على ضلالة، ووجود الطائفة المنصورة فيها على الدوام، وعن المساجد الثلاثة وفضلها، وعن بدء الخلق، وعمن سيكونون تحت العرش يوم القيامة من أصناف المؤمنين، وعن أحوال القبر والبرزخ، ... وعن الجن والشـياطين وأحوالهم، وعن العالَم المادي والمعنوي من الشمس والقمر، والزمان، ... إلخ، وما جاء مِن إخباره ﷺ عن الإيمان وأركانه، ... والإسـلام وتشريعاته، والإحسان وأحواله، ... وعن عرض الأعمال على الله تعالى، وتشريعه ﷺ للأحكام في الحلال والحرام؛ سـواء في النكاح أو المطعومات أو المشروبات أو اللباس، ... إلخ، وبيانه ﷺ للعبادات المختلفة، والزائدة، في الحضر والسـفر، والأمن والخوف، وإخباره ﷺ عن خَلق الإنسـان، والأمور الطبية، والأدوية والعلاجـات، ... مما لا مدخلَ للبشر فيه، وعن المؤمنـين وصفاتهم وأحوالهم وشـوقهم وحنينهم، وعن المنافقين وأحوالهم وصفاتهم وأنواعهم، وعن أول ما يُقضى به بين الناس يومَ القيامة، وعن يوم القيامة وأحوالها وشـدتها، وما فيها من الحوض والكوثر والصراط، ... وعن عَرض الجنة والنـار عليه ﷺ وما رأى فيهما، وعن أول من يُدعى إلى

الجنة، وأول من يدخلها، وما شـعار المؤمنين يومئذ يوم العرض، وإخباره ﷺ عن الرَّحِم ومكانتهـا، وعن أحوال بعض الناس، وعن الرحمة وأقسـامها، وعن بعض الحيوانات ما يُقتل منها وما لا يُقتـل، وعن الجمادات والتفريق بينها، والتفريق بين قِطَع الأرض والمدن والبلاد، وبيان الثواب والأجر على الأعمال؛ من صلاة وصيام ووضوء وحج وقتلِ حيوانٍ معـينٍ، ... ومن الأذكار، وإخبـارهﷺ عن العقوبات على من فـرَّط في الطاعات، وعلى إطلاع الله تعالى له عما يفعله أو يقوله المشركون أو المنافقون، وعن مكايد اليهود وغدرهم، وعن عطف لفظ الرسـولﷺ على لفظ الجلالة في حصول أمر معين، وأنهﷺ أُوتي القرآن ومثله معه، ... إلخ[1] . كل هذا يدل على أن السنة وحي، وأنه لا يمكن الاستغناء بالقرآن وحده دونها.

كما أن إخبار النبي بأمور غيبية وكونية وطبية يعجز العلم آنذاك عن كشفها وتوضيح بعضا من حقائقها، والتي كشـفها وأثبتها العلم الحديث، والتي تحقق وقوعها، لتدل على أن ما صدر عنـه لم يصدر بالاجتهاد ولا من واقع البشريـة، لأن ذلك لا يمكن الاطلاع عليه، وهذا دليل صارم على علوِّية السـنة وأنها وحـي من الله ومصدر معرفي. وقد انعقدَ إجماع العلماء والسلف ممن استقروا الوحي وعاشوا معه وبه على أنّ وحي القرآن نزل على النبيّ ﷺ بلفظه ومعناه، في اليقظة، بواسطة جبريل عليه السلام، وأنه لم ينزل عليه منه شيء في النـوم ولا بطريق من طرق الوحي الأخرى، وليس ذلـك لأنّ طرق الوحي الأخرى يعتريها اللبس أو يلحقها الشـكّ، لأنّ الوحي بجميع أنواعه يصحبه علم يقينيّ ضروريّ بأنّه من الله سـبحانه[2]، أمّا وحي السنّة سواء كان حديثا نبويّا أو حديثا قدسيّا فقد يكون بوحي جليّ أي يأتي به جبريل في حال اليقظة، كما يكون بوحي خفيّ أي بالإيحاء، والإلهام،

(١) ابدعة دعوى الاعتماد على الكتاب دون السـنة ، خليل إبراهيم العزامي، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، ومؤسسة علوم القرآن دمشق، ط١/ ١٤٣١هـ ، ص٣٩٥ وما بعدها .

(٢) انظر الحديث والمحدّثون(١٤).

والبثّ في الرَّوع، والرؤيا الصادقة في المنام، وإذا كان معنى الحديث وحيا من الله فإنّ لفظه من صياغة الرسول الأمينﷺ.

ثانياً: حجية السنة:

مصدرية السـنة مقدمة منطقية لحجيتها، وقد تثبت كما مر سابقاً أن السنة وحي، فهذا الثبوت يستلزم حجية السنة وإلزاميتها التشريعية عموما على تفصيل في درجات الأحكام التكليفية التي تنبثق من القرآن وكذا السنة، وكشف عنها الأصوليون وقرروها في مدوناتهم الأصولية. وهذه الإفادة المنطقية ليست المدرك الأساس في إثبات الحجية التشريعية، وإنما بيان أَوَّلي أن الحجية ليست مسألة مزعومة ولا مصنوعة كما يدعيها المنكرون للسنة، ومنهم جورج طرابيشي، وإنما مسـألة مشروعة مثبتة بمنقول النص المؤسس والمؤكد[(١)] ومعقول النظـر والفكر، لهذا نعرضُ في هذه الجزئية الأدلةَ الدالةَ على حجية السـنة ذكرى لمن كان له قلب أو ألق السمع وهو شـهيد، ومعذرة إلى الله ولعلهم يتذكرون، فإن لم يتحقق هذا، فلكشـف تلبس الباطل بالحق وزهقه، ولتستبين سبيل المجرمين وليحيا من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، فيكون فجر الحق وضحى الحقيقة وظهر السنة ساطعا على ظلمة العمى، ومن انكبوا على وجوههم في سـعي الغواية لا الهداية، مَكْرا وظن سـوء، عليهم دائرة السوء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، ولن يكون جَهْدهم في الإنكار والاستكبار إلا هباءً منثورا، وتباراً وخسارا. وفي مفتتح العرض يتم السؤال عن ماهية الحجية؟

السنة الشريفة امتداد للقرآن الكريم وتطبيق عملي لمؤداه، وليس اتباع السنة إلا اتباعا للقرآن الكريم، حيث أمر الله بالأخذ بما أمر به الرسول فقال سبحانه﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ

(١) النص المؤسس القرآن والسنة باعتبارهما وحيا يؤسسان للتشريع والتكليف، وأما النص المؤكد فالإجماع الأصولي لاستناده على النص.

﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾[الحشر] ، ولا تختلف السنة النبوية عن الحجية، وقد أجمع على ذلك علماء الإسلام، وعقد أهل الحديث في كتبهم أبوابا تدل تراجمها على ذلك، حيث ترجم الخطيب البغدادي في الكفاية: باب ما جاء في التسوية بين حكم كتاب الله وحكم سنة رسول الله من وجوب العمل ولزوم التكليف[1]. وقال الزركشي :"اعلم أن القرآن والحديث أبدا متعاضدان على استيفاء الحق وإخراجه من مدارج الحكمة[2]. وبرهان العصمة للنبي عن الذنوب صغيرها وكبيرها في التبليغ لابد أن يكون في الجملة حجة بالبداهة[3]،والكلام حول العصمة موكول في علوم الكلام، والمقدار المتفق عليه بين المسلمين يقع حول عصمة النبي في شؤون التبليغ.

تعني حجية السنة النبوية: التسليم بأنها دليل صحيح على حكم الله، فإذا وصل إلينا حكم من السنة النبوية وجب التسليم به والامتثال له. وهذا المعنى أمر مسلم به ومجمع عليه بين علماء المسلمين وجمهور المسلمين بحكم الفطرة السوية والتلقي السليم للتشريع وتوجيهات الوحي.

والقرآن ركن أساسيٌّ في منظومة المعرفة الدينية، فهل يدلنا القرآن على حجية السنة أم لا؟

التأسيس القرآني لحجية السنة:

ثمة نصوصٌ قرآنيةٌ تؤسس لحجية السنة، وهي متنوعة وكثيرة منها:

آيات الإيمان بالله ورسوله ومعناه التصديق والإذعان برسالته، قال تعالى:﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ

(١) الكفاية في علم الرواية ص(٣٤٩).

(٢) البرهان في علوم القرآن ، (٢/ ١٢٨).

(٣) حجية السنة في الفكر الإسلامي ، حيدر حب الله ص(٥٧).

وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التغابن]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾[النساء:١٣٦]، وقوله: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[الأعراف]وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ ﴾[النور:٦٢]، ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾[الحجرات:١٥]، وقوله: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾[الحديد]، وقوله: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾[التغابن] ، وقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الفتح] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾[النساء]، وقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾[التوبة]. والنصيحة له دعمه والتصديق به وطاعته في أمره ونهيه[1]. ومفاد الآيات أنه لا بد من الإيمان بكل ما جاء به النبي وبكل ما قاله، وإلا لا يكون التصديق تاماً ولا الإيمان به كاملاً. وادعاء المدَّعين أن تصديق النبي ينصرف إلى الرسالة بأمر القرآن مما لا يدل على حجية السنة يجعل النبي كساعي بريد لتوصيل الرسالة دون تدخل منه في شيء، وهذا يتنافى ومنطق البلاغ المبين، كما يخالف نص الآيات الدالة في كليتها على حجية السنة.

آيات تبين أن السنة مفسرة للكتاب: قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ

(١) التقرير والتحبير في علم الأصول، (٢/ ٢٩٧).

مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[النحل] ، وقوله :﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[النحل].

والآيتـان تدلان على أن وظيفة النبي شرح القرآن وبيانه وإيضاحه، وهذا ما لا يكون إلا بالسـنة، فلا مجال إلا لجعل سـنته حجة كي يتحقق البيان والتبيـين(١). وليس وظيفة النبي بيان القـرآن بل بيان ما نُزِّل إليه، لتبين للناس ما نـزل إليهم، وعنوان ما نزل إليهم لا ينحـصر بالقرآن، فوظيفته شرح وبيان ما نَزَل من الوحي(٢)، ولا دليل يخصص ما نزل إليه بالقرآن، خصوصا وقد أثبتنا فيما سـبق أن السنة وحي وأن الوحي لا يختص بالقرآن، وقد كانت العرب تفهم بسليقة اللغة معاني الآيات ومفردات الألفاظ، وكان النبي مرجعا للمسـلمين عندما تتعقد عليهم فهم آية فيشرح ويبين، لا أن يسرد عليهم نصوص القرآن ويبـين عنه بتلاوته لهم، ثم يقف محدود الحركة بغيره إلا ما كان من طبيعته البشرية. وبيانه وتبيينه للقرآن لا يعني إسقاط شخصية المفسر المعاصر اليوم أو اللاحق على النبي، بحيث يلزمه كتابة تفسير كامل للقرآن(٣). ولا يعني تبيين القرآن تناول نصه بالتحليل والتفكيك، فشَرْح الصلاة بيان للقرآن حيث أمر القرآن بالصلاة وفسر لنا النبي الصلاة القرآنية.

آيـات تبين وظيفة النبي ومدحه: قال تعـالى:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾ ﴾[القلم]، وقولـه:﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمـل]، وقولـه: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤﴾ ﴾ [يـس] ، وقولـه :﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ ﴾[الشـورى] ، وقولـه: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ ﴾[المؤمنون] وقوله:﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾[يوسف:١٠٨] وقوله:

---

(١) حجية السـنة، عبدالغنـي عبدالخالـق، ص٢٩٥-٢٩٦، والموافقات للشـاطبي،(٣/ ٣٠٠،٢٧٤. ٤/ ٣٩٦).

(٢) حجية السنة في الفكر الإسلامي، ص(٦٨).

(٣) المرجع السابق ص(٦٨-٦٩).

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[الجاثية] ومنطوق الآيات التوكل على الله والهداية إلى الصراط المستقيم والدعوة إليه، والحكم بين الناس بما أنزل الله، وعدم اتباع أهواء الكافرين وإبلاغ ما أنزل الله إليه والدعوة إليه وتقوى الله، فالنبي معيار الهداية والرشاد [١] وهذا ما يجعل لسنته وطريقته حجية وإلزامًا.

آيات تدل على أن السنة وحي: قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾[النجم]، وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحاقة] . فما ينطق بــه وحي ولا يقدر أن يأتي بأقاويل من عنده .وإن استشـكل البعـض دلالتها على وحي السنة مستمسـكا بسـياق الآية في مخاطبة المشركين الذين يكذبون النبي في دعواه بقرينة، صاحبكم، وضل، وهـي تتضمن ما كان حاصلا في المرحلة المكية وليسـت أفعال النبي وحجيتها، بل صدقية النبوة والقـرآن[٢] ، ويُرد عليهم أن الآية معززة لمجموع الآيات في دلالة تشريع السنة وحجيتها، فالآيات المتواترة معنويا هي التي تحدد وتعضد حجية السنة.

كما أن آية (ولو تقول علينا) مسوقة لبيان قاعدة عامة في نهج النبي يقضي بمعاقبة النبي عنـد اعتدائه على التقول على الله، وهذا لا يكون إلا مع العمد لا مع الخطأ والاجتهاد[٣]، وهـذا ما يثبت حجية السـنة بمعونـة دليل العصمـة في التبليغ، بقاعـدة تضافر الأدلة وتعاضدها.

آيات تعليم الكتاب والحكمة: قال تعالى:﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾[البقـرة] ،

(١) احجية السنة ص(٧١).
(٢) الكتاب والقرآن، محمد شحرور ص(٥٤٥).
(٣) حجية السنة في الفكر الاسلامي ص(٧٦).

والآية جاءت على لسان إبراهيم وإسـماعيل حال رفع القواعد من البيت. وقوله: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾[البقـرة] ،وقولـه: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾[البقرة] ،وقوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[آل عمـران:١٦٤]، وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾[النساء]وقوله: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأحزاب]، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعـة:٢]

أســس على هذه الآيات الشافعي حجية الســنة بكونها من تنزيل الله تعالى كما أنزل عليه الكتاب، وتفسير الشافعي هذا أقدم بحث نظري أصولي إسلامي، معتبرا أن السنة مغايرة للكتــاب من حيث الذكر، وليس من حيث الاحتجــاج والتشريع، مما يدل على أنها وحي من تنزيل الله تعالى، وقد ورد في بعض المراجع تفســير الحكمة بالسنة، قاله قبل الشافعي قتادة (ت١١٧هـ)[١]. وقد اعترض القوم على الشافعي تفسيره الحكمة بالسنة معتبرين أن ســياقَ الآياتِ والبناءَ اللغوي للمفردة لا يساعده على ذلك المحمل، وهو إشكال علمي منهجي في تحميــل اللفظة ما لا تحتمل من المعنى المترتب عليــه تشريع وتكليف، وتقرير إلزامية الســنة وتقرير حجيتها، ولكن الشَّــافعي بنى قاعدته الاستشــهادية على مجموعة عوامــل، كعامل المعنى اللغوي للفظة الحكمة، ثم مجمــوع الآيات الدالة على لزوم طاعة النبــي واتباع أمره، فرتب من هذه العوامل خلاصة مفادها أن الحكمة هي الســنة، ولقد

(١) الجواهر الحسان للثعالبي، ١/ ١١٦، وتفسير غريب القرآن للنيسابوري، ١/ ٤٠٤.، وفي تفسير الصافي لأحد علماء الشــيعة تفسير الحكمة بالســنة. وفي الصافي للكاشي ذكر الطوسي أن الحكمة هي السنة. (١/ ٣٩٧).

جهل المعترضون على الشـــافعي أن معنى الحكمة لغويا ليس السنة، واللغة آبية عن ذلك، لم يخف عن الشـــافعي وهو الإمام في اللغة وفي قوانينها وأساليبها ومعانيها؛ إذ الشافعي لم يستند على التحليل اللغوي للكلمة، وإنما استند إلى الثنائية التي وصفها مما يكشف عن أمر آخر يقدمه لنا النبي غير القرآن وليس إلا الســـنة، لا أن الحكمة لغة تعني الســـنة. ومعاني الحكمة لغة هي: الاتقان ووضع الشيء في موضعه والفهم والعلم والمنع وما شـــابه ذلك، وهذا يعني أن النبي يعلم المسلمين ذلك ويرشدهم إليه. قال الفراهيدي: الحكمة مرجعها إلى العدل والعلم والحلم، وكل شيء منعته من الفســـاد فقـــد حكمته وأحكمته[1]. وقال الرازي: الحكمة الإصابة في القول والعمل[2]. وبموجب التفســـير اللغوي يُعلم أن النبي ﷺ يُعلم الأمة الاتقان في عملها والإصابة في القول والعمل، والامتناع عما يجب الامتناع عنه وأن لا يكونوا ســـفهاء كما يمنحهم العلم والفهم والحلم، فالنبي يدرب المسلمين على أن يغدوا حكماء في أفعالهم فهو إرشـــاد وتنبيه إلى محاســـن الأفعـــال واتقانها، وهذا المعنى يلازم حجية السنة.

ولقد حكى بعض الباحثين[3] أن الحكمة هي: العلم بأحكام الله التي لا يُدرك علمها إلا ببيان الرسولﷺ والمعرفة بها، وما دل عليه من نظائره ما حكاه الطبري من كون الحكمة مأخوذة من الحكم الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل، وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم كتابك الذي تنزله عليهم الإتقان فضائلك وأحكامك التي تعلمه إياها[4].

آياتُ الأمرِ بطاعةِ الرســـولِ: قال تعـــالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟

(١) العين للفراهيدي، (٣/ ٦٦-٦٧).
(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي، (٤/ ٦٦-٦٧).
(٣) آليـــات التفكير النقدي عند جورج طرابيشي ، من إســـلام القرآن إلى إســـلام الحديث أنموذجا، آمنة عطوط، رسالة دكتوراه تقدمت بها إلى جامعة محمد لمين دباغين، عام ٢٠١٦-٢٠١٧م، ص(١٨٤).
(٤)جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري ، (٦/ ٣٩٠-٣٩١).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران]، وقوله:﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء:٥٩] ، وقوله:﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾[المائدة]،**وقوله**:﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾[الأنفال]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾[الأنفال]، وقوله:﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[الأنفال]،وقوله:﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ﴾ [النور] ،وقوله:﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور]، وقوله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد]،وقوله:﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾[المجادلة]، وقوله: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ [التغابن] وهذه آيات تقوم على لزوم طاعة الرسول بصورة مطلقة دون قيد، وإن اعترض البعض أن الطاعة في الآية تعني طاعته فيما أمر الله في كتابه لا طاعته المستقلة، لكنه اعتراض غير سديد؛ كونه ينافي إطلاقية الإلزام في الآيات دون تفريق وتخصيص، ولو كان هناك قيد للزم بيانه أو وُجد شاهد عليه وهو أمر مفقود[1].

ومن يخص الأمر بطاعة الرسول بعصر الرسالة حيث الرسول مشتق من الرسالة وهو لا يكون إلا في حال حياته لكن الحديث منصب على مبدأ حجية السنة، ويكفي ثبوته ولو بعصر الرسالة؛ كونها ثابتة وليس غير ذلك، وهذا لا يعني تاريخية السنة، فهذا بحث آخر[2]. فآيات الطاعة دالة على لزوم الأخذ من النبي سنته المطلقة، ثم السياقات وضوابط الآخذ هي التي تحدد درجة الأخذ من حيث الإلزامية وعددها حسب مراتب الأحكام التكليفية التي نص عليها الأصوليون.

---

(١) حجية السنة في الفكر الإسلامي، ص(٨٩).

(٢) المرجع السابق ص(٩٦).

آيات الأسوة والاتباع: قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾[آل عمران:٣١]، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ﴾[الأعراف:١٥٧]، وقوله:﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥ ﴾[الأنعام]، وقوله:﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨ ﴾[الأعراف]، وقوله: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾[الأحزاب] فهذه الآيات جعلت النبي أسوة وقدوة يُقتدى به ومثالا يحتذى، فيكون قوله وفعله حجة على العباد، في لزوم السير عليها، وآية القدوة ذكرها الأصوليون عند الحديث عن أفعالِ النبي[1] وهذه الآيات لا يوجد فيها أي تقييد يحدد دائرة الأسوة، مما يعني إطلاقية التأسي المفيد لثبوت موجبة كلية، كما يقول أهل المنطق، وقوله: { لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ} فيه تهديد ووعيد يصلحان قرينة على إرادة الإلزام بالتأسي وهو ما ذكره أبو الوليد الباجي[2]. ومجيء توصيفه بالقوة بنحو مطلق لفظيا دون بيان المتعلق وفي سياق قضية مجددة قد يعطي إيحاءً بأن الآية مسوقة مسوق بيان أمر عام، مع تطبيقه في مورد خاص، وهو سياق الجهاد والمصابرة فيه. فحجية السنة متعززة بأدلة ومتعاضدة على مدى آيات القرآن الكريم بتنوع صياغاتها الطلبية. فالمشاغبون على حجية السنة تعلقوا ببعض الآيات أو بعض المقامات والسياقات لهذه الآيات في حدودها الجزئية غفلوا عن درك الدليل الكلي لهذه الحجية التي انبسطت في أغلب سور القرآن الكريم.

آية الائتمار والانتهاء: قال تعالى:﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧ ﴾ [الحشر]. فالآية صريحة في الأمر بأخذ ما آتانا إياه

(١) انظر: اللمع لأبي إسحاق الشيرازي، ص(١٤٤).
(٢) إحكام الفصول،(١/ ٣١٧).

الرســـول وترك ما نهانا عنه، وهذا هو تمام معنى حجية الســـنة[١]. قال القرافي هي مرجع جماهير الفقهاء واالمعتزلة [٢]. ورغم أن الآية جاءت في سياق الغنائم وقسمتها، فهي تقرر قاعدة عامة، وإن انطبقت على مورد خاص، وهو ما يعني الالتزام بأمر النبي وإذا ما شملَ العطاء، فهو يشمل أمر النبي فيه لا نفسَ العطاء.

آيات أن القرآن نور وبيان وتبيان ومحكم: أمر لا ينفي دور غير القرآن، ولا تدل على عدم وجود مرجع آخر غير الكتاب لشـــؤون الدين، كما أن وصف الكتاب بالتفصيل لا ينـــافي عدمَ احتوائها تمام التفاصيل، بل يمكنه أن يجامعَ بقاء شيء آخر لمصدرٍ ثانٍ[٣]. وآية ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام] معترضة لبيان سعة علم الله تعالى وعظيم قدرته، وبحسب ســـياقها يكون الكتاب هو اللوح المحفوظ؛ لأنها تتحدث عن أمور تكوينية في الخلق والبعث، وكلمة الكتاب جـــاءت في القرآن على معانٍ عدة منها التوراة والإنجيل، ومنها اللوح المحفوظ، ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام] ،فالكتابُ كنايةٌ عن اللوح الحاوي للعلم الإلهي الرباني[٤].

وفهـــم الكتاب أنه القرآن غير دقيق، ويأباه الســـياق العام للآيـــة وربطها بما قبلها، وبغيرها من الآيات التـــي ذكرناها، والكلمة في اللغة العربية يكـــون لها أكثر من معنى، ويتحدد المعنى المراد منها من خلال ســـياق الكلام الذي وردت فيه، وكلمة "الكتاب" كما تجئ بمعنى اللوح المحفوظ وبمعنى القـــرآن كما في قوله تعالى:﴿ الٓر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ

(١) حجية السنة في الفكر الإسلامي ص(١٢٠).
(٢)شرح تنقيح الأصول في اختصار المحصول ، ص(٢٢٧).
(٣) المرجع نفسه ، ص (٢٣٥).
(٤) أصول الفقه محمد مصطفى شلبي ، ص(١٢١).

إِلَيۡكَ ﴾[إبراهيم] ، وبمعنى الفرض، والحكم، والقدر [١]. فبمعنى القدر قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ ﴾ [آل عمران:١٤٥] ، أي لا يموت أحد إلا بقدر الله، وكقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١ ﴾ [فاطر][٢]، وبمعنى الفرض كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣ ﴾ [النساء] قال ابن عباس أي مفروضا [٣]. وعلى اعتبار صحة كلامهم أن الكتاب القرآن عموما، فإن هذا العموم غير التام مخصص بقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤ ﴾ [النحل]، فالقرآن مليء بالآيات التي فوض الله نبيّه- صلى الله عليه وسلم- في شرح أحكامها، كما أن كثيرا من الأمور الجزئية في حياة المجتمع تحتاجُ إلى حكم، وليس في القرآن إلا قواعده الكلية العامة. وعلى هذا فلا بأسَ أن يكون الكتابُ في الآية الكريمة هو القرآن الكريم [٤]. فالقرآنُ جامعٌ دون تفريط كل القواعد الكبرى للشريعة التي تنظم للناس شئون دينهم ودنياهم، والسنة النبوية هي المبينة لجزئياتها وتفاصيلها وهي المنيرة للناس طريق الحياة، وتنسجم هذه الآية مع الآيات الأخرى التي تؤكد بالنص أهمية السنة تجاه ما في الكتاب من القواعد التي تحتاج إلى تخصيص أو تقييد أو توضيح أو تبيين.

وتفصيل وبيان القرآن كل شيء من أحكامِ هذا الدين كقواعد كلية مجملة، أما تفاصيل تلك القواعد وما أشكل منها؛ فالبيان فيها راجع إلى السنة النبوية[٥]، فقاعدة وجوب اتباع الرسول والتحاكم إلى سنته المطهرة من القواعد الكلية المجملة لهذا الدين.

(١) القاموس المحيط ١/ ١٢٠، ومختار الصحاح ص (٥٦٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤١٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٥٥٠).
(٤) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي(١/ ٤٤١).
(٥) انظر: البحر المحيط للزركشي(١/ ٤٤١).

يقول الإمام الشـاطبي: "تعريف القرآن بالأحـكام الشرعية أكثره كلي لا جزئي، وحيث جـاء جزئيا فمأخذه على الكلية، إما بالاعتبار أو بمعنى الأصل، إلا ما خصه الدليل مثل خصائص النبي، ويدل على هذا المعنى بعد الاستقراء المعتبر أنه محتاج إلى كثير من البيان، فإن السـنة على كثرتها وكثرة مسـائلها إنما هي بيان للكتاب، كما سيأتي شرحه إن شاء الله تعالى[١]. والتبيين" غير "التبليغ" وهما وظيفتان موضوعهما واحد هو "القرآن العظيم" عبر عنـه في آية "التبليغ" بهـذا اللفظ: {ما أنزل إليك} وعبر عنـه في آية التبيين بلفظ مختلف: {ما نـزل إليهم} وبينهما فروق لها دلالتها، لافتراقِ الوظيفتـين "فالتبليغُ" تأدية "ما أُنزل" (النص) كما "أنزل"، و "التبيين" إيضاح، وتفسـير، وكشـف لمراد الله من خطابه لعباده، و"التبليغ" مسـئولية "المبلغ" وهو المؤتمن عليها، وهـذا سر التعبير: {وأنزلنا إليك} حيث عدَّى الفعلَ "أنزل" بـ"إلى" إلى ضمير النبي المخاطب... و "التبيين": مهمة، فرضتها حاجة النـاس لفهم ما خوطبوا به، ولصحة تطبيقه، و{نـزل إليهم} عدَّى الفعلَ "نزل" بـ(إلى) مضافًـا إلى الضمير "هم" أيْ الناس، وعدى الفعل "لتبـين" للناس بـ"اللام"؛ لأن حاجة الناس لـ"التبيين" هي العلة والحكمة من وراء هذه الوظيفة[٢]. و"البيانُ اسمٌ جامعٌ لمعانٍ مجتمعة الأصول متشـعبة الفروع: فجماع ما أبان الله عز وجل لخلقه في كتابه، مما تعبدهم به[٣].

وقد اعتصم المنكرون للسـنة برواية حديثية؛ كونها تؤيد مسـعاهم في ظاهر فهمهم رغم سعيهم لنسف السنة إلا أن الحاجة الملجئة لهم تجعلهم يقتحمون ما ينكرون، حديث" تركـت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم بـه كتاب الله" [٤]، وعن ابن عباس قال: لما حضر رسـول اللهﷺ وفى البيت رجال فيهم عمر بن الخطـاب؛ فقال النبي: "هلم أكتب

(١) الموافقات للشاطبي (٣/ ٢٧٤ - ٢٧٦، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٣٠ - ٣٣٨) بتصرف يسير.

(٢) السنة بيانا للقرآن للدكتور إبراهيم محمد الخولي ص(٤، ٥، ١٣، ٤٧-٦٩).

(٣) الرسالة للشافعي ص(٢٢،٢٠).

(٤) اجزء من حديث طويل أخرجه مسـلم (بشرح النووي) كتاب الحج، ٤/ ٤٣١، ٤٣٢ رقم ١٢١٨ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

لكم كتابا لا تضلون بعده". فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن. حسبنا كتاب الله [(١)]، والفهم المنسجم مع تساوق القرآن والسنة واتساقهما في المصدرية والحجية، يجعل الاقتصار على الوصية بكتاب الله؛ كونه أعظم وأهم؛ كما أن تبيان كل شيء يكونُ بطريقِ النَّصِّ، وبطريق الاستنباط، فإذا اتبعَ الناس ما في الكتاب عملوا بكل ما أمرهم النبي ﷺ به، لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[الحشر:٧][(٢)]، والعمل بالقرآن الكريم يقتضي العمل بالسنة المطهرة، كما صرح ابن حجر [(٣)]، كما أن زعمهم أن كمال الدين في قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة] يعني القرآن فقط دون السنة، فهو توظيفٌ للآيةِ على غير السياق الكلي العام للقرآنِ والخاص الجزئي في الآية، فالقرآنُ منسجمٌ في مدلولاته، الكلي والجزئي يفسر بعضه بعضا ولا يختلف ولا يتناقض، فالكمال هنا كمال معظم الدين بالقرآن والسنة، وليس القرآن فقط؛ إذ إنها لم تكن آخر ما نزل من القرآن، كما توهموا، فالإسلامُ قرآن وسنة، ولا يكتمل بأحدهما دونَ الآخر. ولو كان الاكتفاء واردا في القرآن لما سأل الصحابة وأكثروا من سؤال النبي عن كثير من أمور الإسلام، وإنَّ تساؤلات الصحابة هذه دليل على أن البيان موكول إليه ﷺ ولذلك جاء الأمر بطاعته والتحذير من مخالفته[(٤)]. والصحابة والتابعون رووا القرآن، فلماذا يقبل قولهم فيه ولم يقبلوها في السنة!.

معنى كل شيء في قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى

---

(١) أخرجه مسلم (بشرح النووى) كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شئ٦/ ١٠٠ رقم١٦٣٨

(٢) فتح البارى(٥/ ٤٢٥، ٤٢٦) رقم ٢٧٤٠ حديث عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنه.

(٣) السنة ودورها فى الفقه الجديد ص(٢٤٦).

(٤) حجية السنة ورد الشبهات التي أثيرت حولها، الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية، طبعة خاصة، ص٢٧١ بتصرف، السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين د. رءوف شلبي مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٢٣ بتصرف، السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام، مناقشاتها والرد عليها عماد السيد الشربيني، دار اليقين، مصر، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، (١/ ١٩٦، ١٩٧) بتصرف، المدخل إلى السنة النبوية د. عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي، مكتبة الإيمان، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م، ص٣٨١ بتصرف.

﴿وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النحل]، كل شيء في عموم قضايا الهداية والوحي، لا يلزم منه العموم التام، وإنما إرادة الكثير من الأمور أو أكثرها، وهذا يفسحُ المجالَ للسنة النبوية، فهو استيعابٌ نسبيٌ لا مطلق. وتبيان القرآن لكل أمور الدين تبيان صريح، وتبيان بالإحالة إلى النبي ليبين حلّها وحكمها، وقد ركز الشافعي على ألوان البيانِ القرآني، واعتبر البيان الرابع من البيان سنة الرسول، وبيان السنة لما في الكتاب وتفسيره، فيكون هذا توفيقا بين اشتمال القرآن على تمام الدين وبين حجية السنة، والتوفيق بين نظريتي التبيان القرآني، وحجية السنة هي: أن اختصاصَ البيان القرآني بمجالِ الهدايةِ والإرشادِ لأمور الدين ومصالح الدنيا. وأن البيانَ القرآني قائمٌ على البيان العام لا الخاص. وعدم التنافي بين بيانية القرآن وبيانية غيره.

دلالة كل في البيان القرآني:

استخدام القرآن لكلمة (كل شيء) له دلالات، فبعضها وارد على نحو الشمول الحقيقي، كعلم الله بكل شيء[1]، وبعضها لا يفيدُ الشمولَ كقوله تعالى:﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ ﴾[الأنعام]، يعني أغدقَ اللهُ عليهم كلَّ شيءٍ، والشيء هو الموجود فهل أغدق عليهم بالنبوة وبالتقنية والتكنولوجيا المعاصرة؟ بالطبع لا؛ مما يعني أن الإغداق الكلي هنا للمبالغة، وهو أسلوب عربي وقرآني بليغ في تقرير القضايا والمسائل، وما يؤكد هذا قوله تعالى في نفس السورة ﴿ ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الأنعام] والتوراة ليست شاملة لتمام ما شمله القرآن، فهو حمل على المبالغة والكثرة. وقوله تعالى: ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي

(١) مثل البقرة آية:٢٩، ٢٣١، ٢٨٢، النساء آية: ١٧٦، المائدة آية: ٩٧، الأنعام آية: ١٠١، الأنفال آية:٧٥، التوبة آية:١١٥، التوبة آية: ٣٥، ٦٤، العنكبوت آية:٦٢، الشورى آية: ٦٢، الحجرات آية: ١٦، الحديد آية:٣، المجادلة آية:٧، التغابن آية:١١.

ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾[الأعراف:١٤٥]، ولم تكن الألــواحُ حاوية لتمام الدين مطلقا بــل حاوية لما يحتاجون إليه وتكــون الكلية تعبيرا عن الكثرة البالغــة. وقوله:﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ [الكهــف]،لم يعط ذو القرنين أســباب كل شيء مطلقا بكل تطور العلــوم وتقدمها. وقوله:﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [النمــل]، وهل أوتوا من كل شيء في عالم الوجود؟، وقوله:﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾[النمل]، هل أوتيت مثل ما أوتي سليمان؟، وقوله: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧]، فهل جُبيت إليها ثمرات العالم أم أن المراد ثمرات منطقة ما؟، فهو تعبير للمبالغة. وقوله:﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [النحل: ٦٩]، فهل النحل يأكل من كل الثمرات وهل يقع على إطلاقه؟

فالاســتخدام القرآني للتعميم يراد الأكثرية، والمبالغــة والأعم الأغلب أي الموجبة الكلية الأكثرية في لغة العرب.

وقد تعلق جورج طرابيشي بنفي الســنة، من خلال مقولات لعلماء، فُهمت على غير محملها، كقول مكحول: القرآن أحوج إلى الســنة من السنة إلى القرآن. وقول يحي بن أبي كثير: الســنة قاضية على الكتاب. وفسر أحمد بن حنبل هذا القول بأنه يعني : السنة تفسر الكتاب وتعرِّف الكتاب وتبينه[(١)]. ولكن معناها في أهمية الســنة للكتاب من حيث تبيينه وتفســيره، ومحاولة جرج طرابيشي التعلق بكلمة قاضية التي تعني الإلغاء والنفي يبطله قرائن الحال والمقــال التي توضح المقصود، وهؤلاء الأفــذاذ لم يكن حالهم ولا منطقهم تجاوزُ الســنةِ أو إلغائها.كما أن هذه الأقوال لا أثر لهــا في عملية الاجتهاد من حيث إبقاء السنة ونفي الكتاب، بل السنة والكتاب كالكلمة الواحدة كما يقول العلماء، ومرتبة السنة من الكتاب عند من يقول الكتاب ثم الســنة في التقدم ، تعني تقدم الوجود أي القرآن في

(١) الكفاية في علم الرواية، الخطيب ، ص(٣٠).

نفســـه حيث إنه كلام الله مباشرة مقدم على قول النبي من حيث إنه كلام بشري، فالقرآن مقدم على الســـنة بهذا المعنى؛ وليس لهذا التقدم أي أثر في عملية الاجتهاد، أو تقدم رتبة، أي أن الباحث يرجع إلى القرآن فيأخذ منه ثم يتبعه بالســـنة، فهو تقدم تشريفي اعتباري لا أثـــر له ولا مردود في المســـتويات المعرفية الاجتهادية كآليـــة. أو تقدم ترجيح للكتاب على الســـنة كما هو مراد الشـــافعي، وهو ما يعني تلازم الكتاب والســـنة مع تقدمه عليها بالاعتبار[١] والقرآن مقطوع والســـنة مظنونة، وقطع القرآن في الجملة والتفصيل، وقطع السنة في الجملة لا التفصيل، كما أن التبيين متأخر عن البيان؛ كونه مبينا له[٢]

فهو تعبير للمبالغة. وقوله:﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [النحل: ٦٩]، فهل النحل يأكل من كل الثمرات وهل يقع على إطلاقه؟

تأسيس السنة لحجيتها:

وإذا ثبتَ في القرآنِ حجية السنة النبوية، فإن السنة ذاتها أثبتت حجيتها، فنستعرض بعضا منها، وإذا احتج المنكرون بقاعدة منطقية مفادها أن إثبات السنة بالسنة دور لا ينفع في الاســـتدلال، بمعنى أنه إثبات للشيء بنفسه، فحجية السنة تثبت بالسنة دوران للشيءِ حول نفسه، وهذا ناقض في قوانين الاستدلال. نقول لهم مشاكلةً لمنهجكم الذي درجتم عليه أن تنكروا الأحاديث جملة، وتعترفوا بما يؤيد مســـلككم الإنكاري حســـب فهمكم وزعمكم، فقد ورد عن العرباض بن ســـارية، قال: «قام فينا رســـول الله ﷺ ذات يوم، فوعظنا موعظـــة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقيل: يا رســـول الله، وعظتنا موعظة مودع، فاعهد إلينا بعهد، فقال: عليكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبدا حبشيا، وسترون من بعدي اختلافا شديدا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين

---

(١) الموافقات، (٤/ ٣٩٢).

(٢) المدخل لدراسة السنة النبوية ، د. يوسف القرضاوي ص(٦٩).

المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمــور المحدثات، فإن كل بدعة ضلالة»[١] قال أبو حاتم في قولهﷺ «فعليكم بســنتي» عندَ ذكره الاختلاف الذي يكونُ في أمته بيان واضح أن من واظب على السنن، وقال بها، ولم يعرج على غيرها من الآراء" هو "من الفرقة الناجية في القيامة، جعلنا الله منهم بمنه[٢]. وقولهﷺ : «فعليكم بسنتي وسنة الراشدين»، أي: الزموا ســنتي واعملوا بها واحرصوا عليها، ثم أكد ذلك، فقال: "فتمسكوا بهذا" أي: لا تحيدوا عنها، ولا ينبغي أن يصرفكم عنها صارف. وقد حذر النبيﷺمن مخالفة ســنته للثلاثة الذيــن جاءوا إليه وأرادوا اعتزال الزواج ودوام الصلاة والصيام فقال النبيﷺ:" أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن ســنتي فليس مني"[٣]، وفعل «رغب» يحدد معناه حرف الجر الذي بعده، "فرغــب عن كذا" معنــاه أعرض عنه، وقولــهﷺ «فليس مني»؛ أي ليــس على طريقتي ومنهجي وملتي، فالســنة حجة ملزمة، ولا بد من نبــذِ كلامِ أهلِ البدعِ الذينَ يدعونَ إلى بدعة الاكتفاء بالقرآنِ وترك الســنة، وهو يحذر من هذا، فإن سنته البيان الصادق للقرآن. فالســنّة التي أطلق عليها النبيّ- عليه الصلاة والســلام- اسم "الهدي"، فقال: "وأحسن الهدي هدي محمد"، كما عبّر عنها الصحابة بالهدي سيرا على نهج الرسول القويم، فقالوا: "وخير الهدي هدي محمّدﷺ".

أما الدليل المؤكد، فهو الاتفاقُ علَى حجية الســنة عند المسلمين، وحجية السنة متفق عليها عند المســلمين. قال الشوكاني: "اعلم أنه قد اتفق من يعتد به من أهل العلم أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال، وتحريم الحرام"، ثم قال:

---

(١) صحيــح: أخرجه ابن ماجه في ســننه، المقدمة، (١/ ١٥)، رقــم (٤٢)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه برقم (٤٢).

(٢) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ابن حبان، تحقيق: شــعيب الأرنؤوط، مؤسســة الرســالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، (١/ ١٦٨).

(٣) صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، (٩/ ٥)، رقم (٥٠٦٣).

"والحاصل أن ثبوت حجية السـنة المطهرة واسـتقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية لا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في دين الإسـلام" [١]. ولقد أوردوا إشكالات على دليل الإجماع من حيث إمكانية الوقوع والتحقق؛ ولكنه دليل مؤكد لا مؤسـس، ولذلك يسهم في التقوية، وهو يستند للنصوص القرآنية والحديثية فلا ضير إشكالاتهم وطعنهم فيه، فهو لبنة في بنية متكاملة الأركان والقواعد.

أمـا أدلة المعقول على حجية السـنة، فهو تعذر العمل بالقرآن وحده، وهو أسـاس عقلاني إضافي لمبدأ حجية السـنة، وهو يعني تعطل الأحكام واضمحلال نظام التكاليف وعبثية إرسـال الرسـل، وإنزال الكتب، ففـي تفاصيل أحكام الصـلاة والزكاة والحج والطهارة وكيفية الطلاق والحدود والدعاوى القضائية وغيرها. وما ذُكر في القرآن من أن التكاليف بالصلاةِ والصوم للأمم السابقة لا يعني تشابه التطابق بين الصلاتين في الديانتين واتحادها، ولا يوجـد دليل يثبتُ وحدة الصلاتين ما يعني أن الصلاةَ الإسـلامية لم تكن بهيئتهـا وصورتها موجودة في العـصر الإبراهيمي، ثم إن التشـابه في القرآن واحتماله في التفسـير للوجوه العديدة، فلا بد من السـنة النبوية كمرجعية معرفية أخرى لبناء المعرفة الدينية [٢].

ومما يدل على حجية السنة سـيرة الصحابة والتابعين والفقهاء، فقد انعقدَتْ سيرتهم على حجية السـنة والأخذ بما قال النبيﷺ والتعبد بما يقوله، كل هذا شـاهد صريح على حجية السـنة، وهذا ما كان حاضرا في الوسـط الديني الإسلامي، ولم يكن وليد العصور اللاحقـة، بل حضوره في القرن الهجري الأول، وتكذيب هذه الوثائق التأريخية والحديثية التي تشهد بهذا الأمر مسألة تتخطى المعايير العلمية.

وطرح الشـافعي لمسألة حجية السـنة، وإقامة الأدلة عليها لا يعني غيابها في الوعي

---

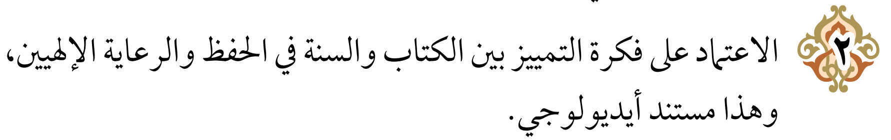
(١) رشاد الفحول ص(٣٣).

(٢) حجية السنة النبوية في الفكر الإسلامي ص(١٧٠، ١٧٥).

الإسلامي لدى الجيل الذي سبقه، كما ردد المســتشرقون، ومن بعدهم جورج طرابيشي، ودار نقاش بينهم في حجية المنقول لا في حجية أصل الســنة. ومنع تدوين الحديث نفسه في القرن الأول شــاهد على أن هناك تيــارا كان يتجه إلى التدوين، وهو مؤشر على اعتبار السنة في الوعي الإســلامي الأول مرجعا يستحق أن يُدوَّن، وعليه فمرحلة الوجود شيء ومرحلــة بناء نظرية لما هو موجود شيء آخر، وهو ما فعله الشــافعي في بناء النظرية لا في بناء الوجود[1].

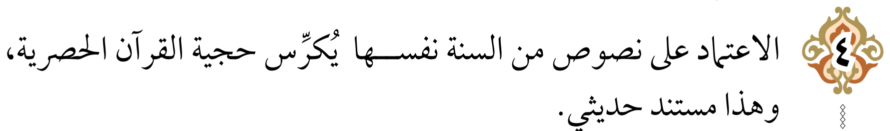
وقد حاول المعارضون لحجية السنة صياغة أدلة ، والتقاط نصوص على غير معانيها للإطاحة بحجية السنة ومصدريتها حسب ظنهم ومقتضى زعمهم وهذه الأدلة هي:

١- الاعتمادُ على كفايةِ القرآنِ بناء علَى النصوصِ القرآنيةِ التي استعرضناها، وهذا مستند قرآني.



٢- الاعتماد على فكرة التمييز بين الكتاب والسنة في الحفظ والرعاية الإلهيين، وهذا مستند أيديولوجي.

٣- االاعتماد على عــدم تدوين الحديث في العصر الإســلامي الأول، وهو مؤشر على عدم مرجعية السنة في الوعي الإسلامي، وهذا مستند تاريخي تحليلي.



٤- الاعتماد على نصوص من السنة نفســها يُكرِّس حجية القرآن الحصرية، وهذا مستند حديثي.

وقد تم فيما ســبق من هذا البحث تأصيل حجية الســنة ومصدريتها والرد على هذه المستندات التي تخندق بها المنكرون والمعارضون لذلك.

---

(١) حجية السنة في الفكر الاسلامي ص (٢٢٢).

خبر الآحاد مسمار في نعش منكري مصدرية السنة وحجيتها:

طالما ثبتَ يقينًا أن السـنةَ وحْيٌ في مصدريتها وتشريع في حجيتها، فإنَّ مسـألةَ قبـول خبر الواحد متفرع عن هذا الإلزام في القبول من حيـث الكل والتقرير العام، أما الحديث بعينـه وجزئه، فهو خاضع لمعايير التحديث في القبـول والرد، وقد أنكر جورج طرابيـشي حجية حديث الآحاد، محاولا تدعيم مسـلكه الإنكاري للأصلِ من الجزءِ، معَ أن القاعدةَ المنطقية أنَّ بطلانَ الجزءِ لا يستلزمُ بطلانَ الكلِّ، بخلاف بطلان الكل يستلزم بطلان الجزء، فرد حديث آحاد من بعـض العلماء بمعايير النقد الحديثي ومنهج المحدثين لا يعني رد حجية السـنة ومصدريتها؛ لذلك لن نناقش كثيرا مسألة أخبار الآحاد؛ كونها مسـألة جزئية وفرعيـة نثرها جورج طرابيشي في كتابه من إسـلام القـرآن، وغيرها من الفرعيـات في محاولة منه لتدعيم حراكه الهادم لأصول الإسـلام؛ كون اتجاه البحث نحو التأصيل لا التفصيل، وفعله مع خبر الآحاد أشـبه بسلخ الشاة بعد ذبحها. وهو تابعٌ لمن سبقه من المستشرقين والمسـتغربين، وقد أسهمت جهود كثيرة من العلماء والباحثين[1] في تتبع تفصيلات هذه الشـبه، وتعقبها بالردود المنطقيـة والشرعية بما لا يدع مجالا للجمود

(١) على سبيل المثال لا الحصر انظر: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام "مناقشاتها والرد عليها" د. عماد السـيد الشربيني، دار اليقين، مصر، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م. السنة بين الأصول والتاريخ، حمادي ذويب، المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٥م. حجية السـنة ورد الشبهات التي أثيرت حولها، الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية، برنامج البكالوريوس، طبعة خاصة. الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. السنة النبوية حجية وتدوينا محمد صالح الغرسي، مؤسسـة الريان، بـيروت، ط١ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م. مصادر التشريع ومنهج الاستدلال والتلقي حمدي عبد الله، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، مصر، ط١، ٢٠٠٦م. التبيان فيما جد من أمر الجان أبو عمر فـوزي بن عبد العزيز، دار الدعوة، مصر، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م. السنة بين كيد الأعداء وجهل الأدعياء حمدي عبد العظيم الصعيدي، مكتبة أولاد الشيخ، مصر، ط١، ٢٠٠٧م. دفـاع عن الحديث النبوي د. أحمد عمر هاشـم، مكتبة وهبة، القاهـرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
أما خبر الآحاد: هو ما لم تجتمع فيه شروط المتواتر، فيشـمل ما رواه واحد في طبقة أو في جميع الطبقات وما رواه اثنان وما رواه ثلاثة فصاعدا، ما لم يصل إلى عدد التواتر.

عليها والجحود للحق، لمن كان له عقل أو ألقى السمع وهو شهيد؛ لكن هؤلاء المنكرين والطاعنين لا وزن عندهم للحق والحقيقة إصغاءً وقبولاً، وإنما حاديهم الطرق على منوال الإنكار والتشكيك ظلما وعُلُوّا، وجحودا وحقداً، فليسوا باحثين عن الحقيقة ولا عن الصواب لا بالبرهان ولا بالبيان. ومجاراةً لمنهجهم كان بسط البحث العلمي من منطلق المنهج القرآني:﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[سبأ]، وحاشا لمسلم فضلًا عن عالم بالحق وباحث فيه أن يساوي بين الحق والباطل، حق الله والوحي، وباطل الإنكار والزيف، ولكن منطق الحجاج وسبل الحوار والإقناع اقتضت هذا السلوك، كما هو منهج القرآن. وإنكار خبر الآحاد جاء من مدخل الظن في إفادته لا اليقين متذرعين بالآية:﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم]، وقول الرسول ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»، وتوقف الصحابة كأبي بكر وعمر في قبول أخبار الآحاد، وطبيعة الإنسان الواحد الذي ينسى و يخطئ، وأن الاستيثاق في شئون الدنيا للحقوق اقتضت رجلين فأكثر، فكيف نهبط بنصاب الاستيثاق في شئون الدين عن الدنيا؟! وكلها محاولات رمي من غير رامي. والظن الذي اعتبروه محط إنكار، إنما هو ظن الشك والوهم والتردد، وترك الحق الثابت قطعا، واتباع الظن الذي لا دليلَ عليه، وظن السوء، لا الظن الراجح الذي يفيد العلم عند المحدثين والفقهاء. فالظنُّ في اصطلاحات العلوم المختلفة يرد بمعان كثيرة، وليس كله مذموما بل منه المذموم ومنه المحمود. والآحاد من الأخبارِ هي ما يرويه عدد دون التواتر كالثلاثة أو الاثنين في الطبقة الواحدة، ونادر جدا ما ينفرد به راو واحد في طبقة واحدة؛ وفي هذه الحالة لا بد أن تتلقاه الأمة بالقبولِ حتى يجري العمل به، ولا تتلقاه الأمة بالقبول إلا إذا كان عليه أدلة من القرآن والسنة تؤيده كحديث: "الأعمال بالنيات" الذي هو في أعلى درجات الصحة، وتؤيد معناه عشرات الآيات والأحاديث الأخرى، إضافة إلى الشروط الصارمة التي وضعها العلماء في قبول خبر الآحاد، وقياس الرواية على الشهادة لا يصح؛ لأنها شرع عام تكفل الله بحفظه، ولم يتكفل سبحانه وتعالى بحفظ الدماء والأموال؛ فالخوف

من الكذب في الشهادة أشــد، كما أن توثيق الرواة وتعديلهم عمل قام عليه أفذاذ النقاد، أما الشهود فلا يتوفر في تعديلهم مثل ذلك أبدا، وتوقف النبيﷺ والصحابة- رضي الله عنهم- من بعده في قبول خبر الواحد نادر لزيادة التثبت والاســتيثاق. وكثيرا ما تختلط المفاهيــم والمصطلحات على كثير من المتعلمين فضلا عــن البعيدين عن الشرع والعلوم الإســلامية فيعتبرون أن الحديث قســم واحد، وهو ثلاثة أقسام، وخبر الآحاد قسم من أقســامه الثلاثة؛ لذلك كانت أخبار الآحاد هي القســم الأكبر في الســنة النبوية "على أن كثــيرا ممن يتناولون هذا الأمر ومنهم منكرو حجية خبر الواحد لا يدركون معنى حديث الآحاد، ويحســبون أنه الذي رواه واحد فقط، وهذا خطأ، فالمــرادُ بحديثِ الآحادِ ما لم يبلــغ درجةَ التواترِ وقد يرويه اثنانِ أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر من الصحابة وأضعافهم من التابعين"[١]. وقد وضعَ العلماءُ النُّقَّادُ معاييرَ لقبول الحديث، منها ما هو في راوي الحديث، ومنها ما هو في متن الحديث، يمكن الرجوع إلى مظانها، واستعراضها هنا يخرج عن حدود البحــث وغايته، وبهذه المعايير ليس من المعقول عــدم الاحتجاج به، فضلا عن إنكاره، فهي مقاييــس دقيقة تجعل من حديث الآحاد يفيد العلم الظني الراجح، ويوجب العمل به إن لم يعارضه معارض. فيكون الجزم بــأن كل حديث آحاد حكم العلماء بصحته فهو صحيح منســوب إلى النبيﷺ وهو من الوحي الإلهي. ومن المعلوم عموم بعثة النبيﷺ إلى الناس كافة، وليس في إمكانه مشافهة الجميع، ولا أن يبعث إلى كل جهة عددا يبلغون حد التواتر، فلم يبق إلا الاكتفاء بالآحاد، ولو لم يجب على الأمة العلم بأخبارهم لم يحصل التبليغ، ولم يكن لبعثهم فائدة"[٢]. ومن المســتحيل أن يسير الرسولﷺ في كل أحيانه مع مجموعة من الصحابة لا يقل عددهم عن التواتر المعروف، ولا يتركونه في حله وترحاله، وفي نومه ويقظته، وذلك لينقلوا لنا ســنتهﷺ حتى تكون كلها متواترة لا آحادا، ولذلك

---

(١) جريمة الردة وعقوبة المرتد في ضوء القرآن والسنة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص(٦٣).

(٢) أخبار الآحــاد في الحديث النبوي، عبد الله الجبرين، دار عالم الفوائــد، مكة المكرمة، ط٢، ١٤١٦هـ، ص(١٤١).

كان الصحابة يتناوبون المجيء إلى رسول الله ﷺ على أن يخبر الشاهد الغائب، وربما يسمع الحديث من النبي ﷺ جمع من أصحابه، ولكن لا يبلغه إلا واحد منهم؛ إذ لم تأت مناسبة لأحدهم أن يذكره إلا لهذا الفرد بعينه. ولو اشترطَ التواتر لاختلف المسلمون فيما يجب عليهم من أحكام بحيث من سمع منه ﷺ حكما لزمه، أما من لم يسمعه فإنه لا يلزمه إذا كان آحادا [1]، وأزواجه تروي كل واحدة منهن ما حصل في حجرتها، أنردها كونها آحاداً؟ فخبر الآحاد ثابت بالقرآن والسنة وإجماع الأمة والعقل السليم.

وأمور الروايات وطرق الحديث الواحد قد ضبطت بضوابط وقواعد علمية، فعُرفت طرق كل حديث، وفتش رجال الإسناد كل طريق واحدا واحدا، وعُرفت أحوالهم الظاهرة، وميزت الروايات الصحيحة من السقيمة من الحسنة، فلم يبق مجال للتخوف من خبر ما أنه لا يُعمل به ؛ لكون المخبر قد ظهر صدقه[2]. والنبي قد بعث أمراء الحرب والدعوة والعمال على نواحي، عرفنا أسماءهم والمواضع التي فرقهم عليها، ولم يعترض عليهم أحد أنهم آحاد [3].

ومن شواهد قبول خبر الواحد من القرآن والسنة قوله عز وجل﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة] ، والطائفة من الشيء جزء منه، فهي تطلق على الرجل الواحد فما فوقه[4] تخرج لتتعلم العلم وتعلمه قومها، وهي مصدقة فيما تقول، وفي هذا دليل على قبول خبر الواحد. وقوله عز وجل: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يس] ، ثم إن العقل

---

(١) أخبار الآحاد في الحديث النبوي، عبد الله الجبرين، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط٢، ١٤١٦هـ، ص(١٤١).

(٢) قضايا حديثية أشرف خليفة عبد المنعم، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، ص٢٢٢ بتصرف.

(٣) الرسالة، الشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت، ص٤١٥ : ٤١٨، ص:٤٢٥ : ٤٢٢ .

(٤) لسان العرب ابن منظور، مادة: طوف.

والمنطق السليمين المجردين من الهوى والزيغ ليقبلان خبر الآحاد الذي ورد عن رسول الله دون اشتراط حد التواتر فيه. وتوقف النبي والصحابة في قبول خبر الواحد كان زيادة في التثبت والتحوط، ولم يكن ردا لحجيته، كتوقفهﷺ في خبر ذي اليدين "[١] وهو صحابي عدلٌ مزكىً ومرضيٌ عنه من الله، لغرض زيادة في التذكير لا ردًا لخبر الواحد وحجيته. وعلى هذا سار الصحابة يتثبتون ويستوثقون في قبول ما يروى عنهﷺحفاظًا منهم على حديث رسول الله ﷺ خشيةَ تسرب الدس إليه من قبلِ الجهلاءِ وأصحابِ الأهواء[٢]. كتوقف أبي بكر الصديق في قبول خبر المغيرة بن شعبة في ميراث الجدة،"[٣] تثبتًا وتحوطا لا طعنا، ولم يكن ذلك منه مطردا، بل كان نادرا[٤] وقد قَبِل خبر عائشة وحدها في أن النبيﷺ مات يوم الإثنين...»[٥].

وأخيرا فإننا لا نستطيع إلا أن نرتاب في أمر هؤلاء الناس الذين قرروا إطلاق أنفسهم من ربقة القرآن الكريم وأحكامه، قبل أن يقرروا إطلاقها من مقتضيات السنة وأحكامها، ولكن شقَّ عليهم أن يواجهوا الناس بخروجهم على القرآن الكريم وتعليماته، فأضافوا إلى القرآنِ الكريم ما لا مضمونَ له إلا ما تهواه أنفسهم ويتفق مع رغائبهم وأغراضهم، وكان غرضهم الوحيد من ذلك هو أن يبعدوا السنة عن طريقهم ويقطعوا ما بينها وبينَ القرآن الكريم من علاقة التفسير والتكامل والبيان.

إن الاقتصار على القرآن في التشريع عند المؤمنين به حقيقة أو تظاهرا وتذرعا رأي

---

(١) صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: أخبار الآحاد، باب: ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق، (١٣/ ٢٤٥)، رقم (٧٢٥٠).

(٢)عدالة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ودفع الشبهات،د. عماد السيد الشربيني، مكتبة الإيمان، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٧

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الفرائض، ص٢٣٠، رقم (٧٢٣).

(٤) السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام،د. عماد السيد الشربيني، دار اليقين، مصر، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، (٢/ ٣٢) بتصرف.

(٥) أثواب بيض سحولية: أي منسوبة إلى قرية سحول باليمن، والسحل: هو الثوب الأبيض النقي، «فتح الباري لابن حجر» (بَابُ مَا جَاءَ فِي إِجَازَةِ خَبَرِ الْوَاحِدِ) (١٣/ ٢٣٥).

قـــوم لا خلاقَ لهم، خارجين عـــن الطريقة المثلى في التعبد والالتـــزام، والطاعة والتدين، وخارجين عن الســـنة المطهرة، وسيرة السلف الصالح ومن سار على النهج السوي طوال القـــرون حتى اليوم، فأدّاهم ذلك إلى تأويل القـــرآن على غير ما أنزل الله، وتحريف الدين وتحكيم العقل في الغيب والشهادة فضلوا وأضلوا [(١)].

خلاصة مقاصد طرابيشي من استظهار إسلام القرآن واستنكار إسلام الحديث.

من الممكن أن نســـتخلص مما ســـبق أن الفكر النقدي عند طرابيشي من الإشارة إلى بشرية النص النبوي وضرورة تخليصه مما لحق به من تقديس وتعال عبر الزمن ويكون ذلك بدمجه في حركة التاريخ والالتفات صوب نقد متونه دون إهمال نقد الأسانيد. وقصد طرح اللامعقول الأسطوري من المتون في ســـبيل تسييد العقل والخروج من الفوات الحضاري والتاريخي والذي ما زال يعانيه العقل العربي الإســـلامي، لكن هذا المنهج الذي ينادي به طرابيشي لا ينجو من جملة تســـاؤلات يطرح بعضها أحد الباحثين قائلاً: "كيف يمكننا أن نوفق بين الطبيعة البشرية المتأثرة بكل حيثيات النسبية وبين الطبيعة الإطلاقية التي يحملها المعتقد الديني؟ بل كيف يمكننا أن نفهم حركة المضامين الاعتقادية والغيبية والباطنية عبر نظام تتلاحق ظواهـــره العيانية التاريخية؟ أم أننا مضطرون لليِّ عنق النص الديني وتطويع المضمون والمعنى بما يتناســـب مع حركة المنهج؟ حتى لو اضطرنا هذا الأمر إلى نزع العمق الإلهي والطابع الانبثاقي للنص وتحويلنا إلى أيديولوجيين منهاجيين"[(٢)].

ولا يخفـــى ما في بعض الأحاديث النبوية من أبعاد غيبية قد تقف مبادئ العقل أمامها عاجزة، فهل تُردُّ وتُطرح بجماعها لمجرد عدم تعاطي العقل إياها؟ والحقيقة أن ما شـــكك

(١) الموافقات للإمام الشاطبي (٤/ ٤٠١، ٤٣٢) بتصرف.
(٢) التأويل و الهرمينوطيقا دراسات في في آليات القراءة والتفسير ، شفيق جرادي وآخرون، ص ٢٥٧.

فيه طرابيشي من الأحاديث وأدرجها تحت مسمى الغرائبيات اللامعقولة كثير، كحديث:" إدبار الشيطان وقت الأذان، وحديث الذباب وغمسه فيما وقع فيه، وغيرهما مما لا يحصى[(١)].

هكذا ما عادَ للغيبيْ الانبثاقي المطلق مــن حضورٍ مع منهجٍ لا يتعاملُ إلا مع العيني العقــلي الموجود، ويبدو أن طرابيشي يقيم مشروعه عــلى البحث في شرعية المادة التاريخية التــي ينهل منها لإعادة قراءة جديدة في الســنة النبوية. وطرابيــشي الذي يعتبر أن منهج المحدثين والمنهــج النقلي عموما غير مرضي، وهو ما يعني الدعــوة إلى عدم الثقة في هذه الأخبــار كلها، ولا تفضيل بعضها على بعض، بل "تعتبر رواســب مرحلة بدائية في تكوُّن هذه المفاهيم ومؤثراتها في الفترة التي ســبقت الاستقرار والانغلاق، وما كان يعتمل فيها مــن آراء ومواقف وتطورات غير متجانســة بالضرورة، وما في إثباتهــا إذن إلا دليل على القداســة التي أضفيت بمرور الزمن على كل ما يتعلق بالنص القرآني ســواء بمحتواه أو تفسيره أو تأويله أو أغراضه"[(٢)].

ويعتــبر طرابيشي كثيرًا مــن الأحاديث مقولات أضفيت عليها القداســة ودخلت المنظومــة الحديثية عبر تطــاول الزمن، فما كان مــن الوعي الإســلامي حقيقة مطلقة، يمكن أن يستحيلَ إلى حقائق نســبية بفعل الحفر والتنقيب في طبقاتِ النصوصِ، وكيفية تشكيلاتها[(٣)].

إن طرابيشي يشــير إلى ما أشار إليه الفكر الاستشراقي من أن الأسانيدَ لم تظهر إلا في فترةٍ متأخــرةٍ من القرن الثاني للهجرة، وقد وضعها أصحــابُ المذاهبِ الفقهيةِ رغبةً في

(١) آليات التفكير النقدي عند جورج طرابيشي، من إســلام القرآن إلى إســلام الحديث- أنموذجا- آمنة عطوط، رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة محمد لمين دباغين- الجزائر، ٢٠١٦-٢٠١٧م ص١٥٩ وما بعدها.

(٢) لبنات في المنهج وتطبيقه، د. عبدالمجيد الشرفي، دار نجود للنشر، تونس ط٣/ ٢٠١١م، ص(١١٩).

(٣) آليات التفكير النقدي عند جورج طرابيشي ص(١٦٣).

إرجاع آرائهم إلى الصحابة . وقد استشـــهد شاخت بقول العمري بأسانيد وردت مرسلة أو منقطعة في موطأ مالك أو في كتاب الرسالة للشافعي ، ثم وردت في الكتب المتأخرة عن مالك متصلة مســـندة، مما يدل في رأي شاخت على أن الأقسام العليا من الأسانيد(أسماء التابعين فالصحابة) مختلقة، وضعت فيما بعد من قِبل أصحاب المذاهب[١].

وإطلاقُ القولِ باختلاقِ الأسانيد المتصلة مجازفة كبرى، لا تقل عما في اتهام المذاهب الفقهية بوضع هذه الأسانيد المتصلة من مجازفة[٢].

يحاول طرابيشي في مناقشته بعض الأحاديث وتفكيكها، خصوصا ما يسميها بالفرقة المركزية (أهل الســـنة) إنما هو تفكيك وإحالة وفق استدعاءات نفسية إلى نص مضاد عند الفرقة الشيعية، ويؤيد هذا قوله:" إن التوظيف الأيديولوجي لخطبة الوداع مع ما يقتضيه من تلاعب بنصها لم يقتصر على فريقي الســـنة والشـــيعة"[٣]. وهـــو بهذا يحاول مضيا في تكسير مركزية النص السني وتفكيك آلياته ومضامينه.

يروم طرابيـــشي من خلالِ تحليلِ بعضِ الأحاديثِ ، كحديـــثِ:" لا وصيةَ لوارثٍ" إثبات تاريخية ونســـبية الطرح الســـني، ببشريته وعدم تعاليه، لكن لمـــاذا تركز القراءات الموجهـــة لنقد الفكر الديني عادة على نصوص معينـــة دون غيرها؟ أم أن منطق الاختيار تخضع له النصوص الدينية في ســـبيل إثبات بعض الطروحات؟[٤] فمثلا إيراد طرابيشي لحديث:" لا وصيةَ لوارثٍ" جاء في ســـياق الحديث عن هامش الحرية المالكي في التعامل مع الأســـانيد هذه الأخيرة التي من جاء بعده يوصلها بأســـانيد. ولتحليل هذه الظاهرة لجأ طرابيشي إلى آلية من آليات علم النفس ليتوصل إلى أن العقل الإســـلامي الفقهي بعد

(١) بحوث في تأريخ السنة المشرفة، د. أكرم ضياء العمري، دار بساط ، بيروت ط٤/ د-ت، ص(٥٧).
(٢) المرجع السابق ، ص(٥٧-٥٨).
(٣) من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث ، ص(٢١٨).
(٤) آليات التفكير النقدي ص(١٧٠).

مالك" عقل يحكمه ميل وسـواسي قهري إلى إغلاق الدوائر وسـد كل الثغرات التي قد تتـأذى إلى قدر من عدم الانضباط في الدوران داخل مدارات المركز"[١]، غير أن ما ينبغي الإشـارة إليه من أن الميل الوسـواسي القهري الذي تحكَّم في العقل الفقهي وأخذ يحكمُ إغلاقَ مراسـيلِ مالك كلما تطـاول الزمن نتيجة يتبدى فيها النظـر الاتهامي التحاملي، لمقدماتٍ خاطئة جاهلة بالمضمون والمسـار الحديثي وعلومه لدى أهل الاختصاص؛ وما وصل إلينا من تفسـير فعل مالك وغيره من العلماء من أخبار تاريخية، كما قام به العمري وفق تحليل سوسـيولوجي (اجتماعي) أن طريقة مالك في استعمال الإسناد" ليست طابعا عاما لعصره، إذ وردت الأسانيد المتصلة في كتب المسانيد المصنفة في القرن الثاني الهجري، وبعضها صنف قبل الموطأ، مثل مسـند معمر بن راشـد"[٢]. بمعنى أن بعض أحاديث الموطأ لم تنتظر مسـند أحمد وسـنن ابن ماجة ومصنف ابن عبد البر ليتم وصلها، إذ هذه الكتب نفسـها قد اعتمدت المادة الأساسية الواردة في مسند معمر بن راشد(ت١٥٢هـ) ومسند الطيالسي(ت٢٠٤هـ) بل يمكن أن تكونَ في الأصل موصولة أي منذ القرن الثاني للهجرة[٣]، وورود الأحاديث مرة مرسـلة وأخرى متصلـة لا يقطع بوضعها أو بإكمال أسـانيدها في فترة متأخرة، كما ذكر طرابيشي عن حديـثِ:" لا وصيةَ لوارث" فقد يروي العالم الحديث الواحدة مرة بإسناد متصل وأخرى بإرسال أو انقطاع للاختصار أو بسبب النسيان[٤].

وقـد عمل بعض الباحثين[٥] على تتبع مرجعيـات طرابيشي وجد بعض مرتكزات خطابه استعانة بالتأويلات المغايرة قديمة وحديثة.

(١) من إسلام القرآن ص(١٤٩).
(٢) بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص(٥٧).
(٣) آليات التفكير النقدي ص(١٧٠) وما بعدها
(٤)بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص(٥٧).
(٥)الباحثة آمنة عطوط ، في أطروحتها التفكير النقدي عند جورج طرابيشي.

إن طرابيشي إذ يجهد نفســه في تبيانِ صورةِ الرسولِ البشرِ فليعيدَ بلورةَ العقل داخل الثقافة العربية الإســلامية من خلال تعامل المســلم مع واقعــه دون العودة إلى نصوص الســنة تحديداً[١]. وهذا التأكيد على الجانب البشري للرسول من لدن طرابيشي فيه إصرار على البعد التاريخي الوضعي لشــخصية الرســول وســنته بعيدا عن الصورة الأسطورية اللاتاريخية التي ألحقها به المســلمون، خصوصا أهل الحديث فيما بعد، فهناك حين تكف ألســنة عن أن تكون وحيًا تتفاعل مع الواقع والتاريخ وتخضع لشروطها؛" لأنها صارت إنســانيةً منذُ أن تجســدت في اللغةِ والتاريخ وتوجهت في منطوقها أو مدلولها إلى البشر في واقع تاريخي محدد"[٢]. وهكذا يصر طرابيشي على رفضِ الوجودِ الثابتِ والمطلقِ في الســنة ويحتفي بالتغير والتبدل ســنة كونية لا يفلت من شروطها شيء فكأنما يعود إلى الصيرورة النيتشوية[٣].

طرابيشي بانتقاده لأحاديث الآحاد ينتقد في الحقيقة سطوة النصوص إلى حد أن إعمال النظر والرأي معها ضرب من الزندقة وما يلمح إليه طرابيشي يذكره نصر حامد تصريحا. وموقف طرابيــشي حيال أخبار الأحاديث لا يعدو أن يكون اســتمرارا لمواقف كثرة من مراجعي التراث[٤]

طرابيشي قامَ ليؤســسَ للعلمنة حلاً بعد ما برهن على عجز العقل الفقهي وما يحتكم إليه من نصوص الحديث عن إشباع الحاجات المتجددة للمجتمع الحديث. حيث لم يكتف

---

(١)آليات التفكير النقدي ص(١٨٢).

(٢) النص الديني من قيد التفسير إلى فضاء االتأويل، يوسف ربابعة، مجلة ذوات ، ثقافية شهرية تصدر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود ، عدد٢٠١٦،٢٢م، ص(٧٨).

(٣) آليات التفكير النقدي ص(١٨٤).

(٤) أمثال عبدالجواد ياســين في كتابه الســلطة في الإسلام ، العقل الفقهي الســلفي بين النص والتاريخ ، ص٢٤٦، وكتابه الدين والتدين ص٤٠٢، وعبدالمجيد الشرفي في كتابه الإسلام بين الرسالة والتاريخ، ص(١٥٩).

الناقد بالتشكيك في خبر الآحاد بل طالت الحديث المتواتر؛ لأن من شأنِ المنهجية التاريخية التحقق من صحة الخبر المفصول عن مصدره زمناً، فهل يبحث طرابيشي عن الحقيقةِ

فِعْلاً، أم إنه اتَّكأ عَلَى التاريخِ منهجًا من أجل تشييد مشروعه الفكري الذي يطمح إلى إحلال العلمانية شرعة.

على أن دعوة طرابيشي لم تكن إلا استمرارا لعديد الدعاوى التي وجدت في التشكيك بالسنة سبيلا للتجديد والانفكاك من أسر التخلف الحضاري كأحمد خان في الهند أحد رافضي السنة النبوية[1].

والتبشير الطرابيشي بالعلمانية خلاصا من تأبيد التشريع" فحصان العلمانية هو القطيعة المعرفية لزمن الحداثة وبدون هذا الحصان لن تستجر العربة من أعماق تأريخنا"[2]، لكنه تناسى أن التأريخ الزمني العلماني يستلب الله والوحي كما يمكن أن يستلب التأريخ المقدس الإنسانُ.

بدل النظرة الشمولية للتراث تقدم قراءة طرابيشي نظرة تجزيئية تفاضلية، فكما نقد طرابيشي الجابري تقسيمه التراث إلى أنظمة متفاضلة: بيان، برهان، عرفان، ولكن التجزيء والتفاضل دليل اشتغالها بالمضامين لا بالآليات.

وهو بنقده للسنة واستظهاره بالقرآن في حالةِ مغالطة فاضحة يريد للدين أن يكتفي بالاشتغال على الصعيد الروحاني لا التشريعي.

يأتي مشروع طرابيشي ضمنَ المشاريعِ الحداثيةِ التي تشاركه الهمّ كأطروحات عبدالمجيد الشرفي وبسام الجمل في الإسلام السني، وحمادي ذويب في السنة بين الأصول

---

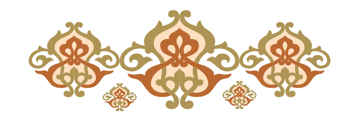
(١) آليات التفكير النقدي ص(١٩٦).

(٢) بذور للعلمانية في الإسلام، الأزمنة الحديثة، مجلة فلسفية تعنى بشؤون الفكر والثقافة، عدد٦،٧، المغرب ٢٠١٣م، ص(٢٠).

والتاريخ، ومحمد أركون الذي يفرق بين إسلام القرآن وإسلام الفقهاء، كما أن حملته على الشافعي لا تكادُ تختلفُ عن نتائج الحملة ذاتها من نصر حامد أبوزيد، وعلي مبروك في كتابه ما وراء تأسيس الأصول ، مساهمة في نزع أقنعة التقديس، وهو ما ينطبق على قراءته للمحنة التي تتقاطع مع قراءة فهمي جدعان لها في كتابه المحنة بحث في جدلية الديني والسياسي في الإسلام.

ودعاوى القطع مع التراث تنهض شـــاهدا على حقيقته الوجودية التي لا تقبل إلغاءً ولا اختزالاً.

وأخيرا هل يمكـــن اعتبار مشروع طرابيشي النقدي هو مواصلة للجدال القديم بين النقل والعقل؟ سؤال يجيب عليه الباحثون في قادم الأيام.






البحث الثالث

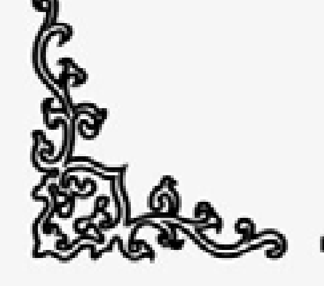
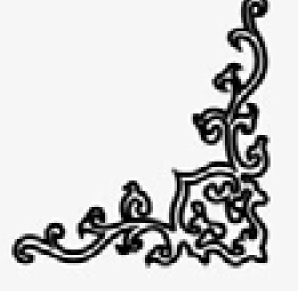
عالمية الرسالة المحمدية

تعقيب نقدي لمقولات جورج طرابيشي في كتابه

"من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث"

الباحث

د. كمال ناجي القطوي

إعادة الإسلام إلى الصحراء:

مدخل لقراءة كتاب " من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث "

كانت لحظة تجلٍ تلك التي سطر فيها جورج طرابيشي مقالته التي فارق بعدها الحياة[١]، إذ أوجز فيها مراحل حياته المختلفة، من مسيحي يواظبُ علىَ حضورِ الكنيسةِ، إلى متشكك، ثم ماركسي وقومي، ثم حداثي أو نهضوي كما يحب أن يسمي نفسه، غير أن طريقه للنهضة بدأ واستمر عبر استراتيجية واضحة وصارمة: "إعادة الإسلام إلى الصحراء العربية" ومواجهة الغرب "بالتغربن"![٢]. تلك خلاصة المنظور الطرابيشي الذي كرّس له جهده طيلة حياته، ثم توجه إليه بكليته في مشروعه "نقد نقد العقل العربي"، وكان أكثر كتبه احتفاء في الأوساط المثقفة كتاب:" من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث"، الذي وصفه الكاتب السوري "هشام صالح": بأنه امتداد لفلسفة الأنوار الأوروبية التي نزعت القداسة عن العالم، وعرت العقائد اليهودية والمسيحية على حد سواء.. لقد مثل طرابيشي أحد أولئك الأبطال أمثال سبينوزا ونيتشه ورينان ورهط العقلانية الأوروبية التي هدمت تغول الكنيسة وأزاحت الدين من الحضور العام[٣].

لقد خلص جورج طرابيشي وجمهرة الحداثيين العرب إلى أن أُس التخلف في مجتمعاتنا العربية كامن في استمساكها بالتراث الإسلامي، الذي مثّل عائقاً أمام حركة النهوض واللحاق بالغرب، ولا أفضل من إعادة ذلك الدين إلى موطنه الأصلي ليرتعَ في الصحراءِ حيثُ منشؤه!

---

(١) https: / / www.atheer.om/archives /11257

(٢) https: / / www.alriyadh.com / 475303 #

(٣) https: / / kanaanonline.org / 2012 / 03 /31

لقد انطلق في بداية كتابه من نقطة جوهرية مفادها أن الانقلابَ الإسلامي ابتدأ من تحويل النبي الأمي الذي أُرسِـلَ لمكةَ وما حولها من قـرى الصحراءِ، إلى نبي أممي، فيقول في كتابه: (والواقـع أن هذا التحول من حرب الأميـين، أي مشركي العرب ، إلى حرب الكتابيين الروم هو ما يمكن أن يفسر أو – على الأقل – يسـهم في تفسير ثاني أكبر أزمة ثقة عصفت بالإسـلام الفتي بعد صلح الحديبية)[١]، وقد يدهشُ أيُّ مسـلم من جراءة هذه التهمة الجسيمة التي تنزع عن الإسلام واحدة من خصائصه الكبرى؛ إلا أنَّ الدهشةَ تتبدد حين يمضي مع سـطور الكاتب وهو يرمي حجته بجرأة تستدعي العجب، حين يزعم أن إسلام القرآن يؤكد أن محمداً ﷺ ورسالته خاصة بالناطقين بالعربية في جزيرة العرب، وإنما جاء الانقلاب على ذلك من خلال إسلام الفتوحات الذي امتطى صهوة الدعوة المحمدية ليمدها في الأرض، ويشرعن بها توسـعه الإمبراطوري، وهي دعوة محلية خالصة، فيقول طرابيـشي: (والواقع أننا لن نكون إلا مغالين إذا مـا تحدثنا في هذا الصدد عن آي القرآن بصيغـة الجمع. فجميع المؤولين الذين أرادوا تحويل النبي الأمي إلى نبي أممي، أي نبي أمم الأرض كافة، وليس نبي الأميين العرب المرسل بلسـانهم منهم وإليهم، ما استطاعوا أن يفوزوا في آي القرآن الستة آلاف ونيف جميعها إلا بآية واحدة هي: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ]"[٢].

ثـم ذهبَ لتطويعِ اللغة لتأويل النص المبين، وتكسـيرِ عنقِ الآية؛ كي تخدم مراده في حصر النبي بقومه من عرب الصحراء، وإعادة الإسـلام إلى قمقمه هنالك، بحيث تنفتح الطريق لغربنة المنطقة العربية حتى نهزم الغرب!

لقـد جعل طرابيشي الانقـلاب من الأمية إلى الأممية باكـورة الانقلاب الحديثي؛ إذ

(١) من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث، جورج طرابيشي(بيروت: دار الساقي،ط١-٢٠١٠م)ص٩٤.
(٢) المصدر السابق، ص(٩٥).

يقول: (والواقع أنه في كتب الحديث وليس في القرآن، تم تحويل النبي الأمي المرسل إلى قومه، إلى نبي مرسل إلى الأمم قاطبة)[١].

وتجاهل صاحب إسلام القرآن الآيات المبثوثة في القرآن التي تجعل من عالمية الرسول والرسالة بدهية لا ينكرها من يحمل أدنى فكرة عن الإسلام. ما يهم طرابيشي أنه حول النبي محمدا ﷺ إلى ساعي بريد ينتهي دوره بتسليم الرسالة إلى المستقبل العربي فقط!

لقد استشعر الكاتب أن هذه الفرية لا حظَّ لها في الحضور مالم يعززها بتتبع مراحل الانقلاب الحديثي، الذي أعلن بيانه الإمام الشافعي حين قرر حجية السنة في رسالته الشهيرة، إذ اعتبرها طرابيشي مانيفستو "بيان" الانقلاب الحديثي على القرآنيين، غير أن طرابيشي وهو أبو الحفر الأركولوجي بحسب تعبير "مريديه"، لم يحدد لنا معالم القرآنيين الذين أبيدوا عن آخرهم، وأُقصوا عن الساحة الإسلامية، لم يعثر على أثر لهم، ولا بقايا من رفات فكري يشير إليهم، فعلى طول الكتاب وعرضه الذي حشد فيه مئات الاستشهادات، عجز الكاتب عن بيان شخوص الضحايا الذين أتى عليهم الانقلاب الحديثي ولم يبق لهم أثرٌ!

ثم أكمل كتابه بتتبع مراحل تطور الانقلاب الحديثي، ودور الفُرس في رفد الانقلاب الحديثي وانحيازهم لرهط المحدثين، حتى بلغ ذروته عند ابن حزم الذي قضى على آخر منفذ للعقل "القياس" واعتبر النص هو الأول والأخير في التشريع، وعند ابن حزم اندثرت آخر جيوب المقاومة، ودخل العقل العربي في سبات عميق، لم يفق منه إلا على وقع مدافع نابليون وهو يدك الأزهر، وعندها تفتحت بعض العقول، ولا تزال.

ويبقى السؤال الماثل: ما الجديد الذي أضافه طرابيشي على ما قاله المستشرقون؟ فقد

(١) المصدر السابق،ص(٩٨).

قالوا قبله بأن رسالة محمد خاصة بالعرب، وقالوا: أن العقل الإسلامي غاب منذ زمن بعيد، وأن الفلاسفة واجهوا مقاومة شنيعة من فقهاء الإسلام؟

تبقى الإضافة التي نلمسها في الكتاب أنه بقلم عربي يقلل من حساسية النفور ما لو كتبه مستشرق غربي، كما أن الكتاب يتميز بحشد ضخم من مقتبسات التراث التي استطاع طرابيشي أن يوظفها ببراعة لتمرير الفكرة المركزية للكتاب القائلة: بأن لا نهضة للعرب ما داموا ينظرون في ذلك التراث؛ وقد استفاد طرابيشي من الموقف اللينيني "من التراث، القاضي بحتمية تشطير التراث لتوظيف جزء منه في مواجهة جزئه الآخر"(١)، وهذه تحسب لطرابيشي؛ فلقد برع في إعمال مبضع التشطير حتى أخرج هذا السفر الذي يعده الحداثيون العرب أحدالأناجيل الأربعة للحداثة العربية؛ فقد كان للكتاب صدى كبير في أوساط المثقفين العرب، حيث استُقبل بحفاوة بالغة، جعلت مدير أشهر قناة عربية يعتبر الكتاب واحداً من الكتب التي تصنع التحولات، في حين ذهبت زمرة تونس الحداثية لتستقبل طرابيشي بحفاوة جعلت المفكر اللبناني "رضوان السيد" يشمئز من حديث الرجل عن التراث في حين تغرق بلده سوريا في بحار الدم، ولم يُسمع له همس عدا مقالتين يتيمتين تُنبئ عن تردده بين الانحياز للشعب المظلوم المتشبع بمنظومة التراث الرجعي، وبين نظام السفاح المتنور. وقد لاك لسانه تبريرات جعلت الجمهور العريض من المتابعين يوقن مدى الخيبة التي أورثتها مواقف الأنتلجنسيا العربية الحداثية من هموم الناس وتطلعاتهم.

لكن ما أزعجني كمتابع أن عدداً غير قليل من الشباب المتدين قد تأثر بأطروحة طرابيشي، وغره الحشد الهائل للاقتباسات من بطون المصادر الإسلامية، حتى أن أحدهم أخذته الدهشة قائلاً: إنه يعرف تراثنا أكثر منا!

وقد تواردت الردود على كتاب طرابيشي بل على مجمل إنتاجه الفكري، إذ هو في

---

(١) مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة، جورج طرابيشي (بيروت: دار الساقي، ط٣-٢٠١٢م) ص(١٣).

مجمله إنتاج ضار كما عبر المفكر اللبناني رضوان السيد، أو بتعبير آخر: إن جورج وجماعته يكتبون للغرب وليس للشرق"[١]. وهي عقدة قديمة عند جورج، وكان صريحاً حين دعانا للاغتسال بالغربنة، غير أن ثمة ثلاث مهام تنتظر من يريد أن ينقد كتاب طرابيشي:

الأولى: تحليل منطلقات ودوافع ومآلات مشروع طرابيشي ووضعه في خانته الصحيحة ضمن تيار الحداثيين العرب.

الثانية: تفكيك منهجية البضع والبتر اللينينة التي استخدمها طرابيشي في قراءته للتراث، مع تتبع إيحاءات التفسير الفرويدي الذي أدمنه طرابيشي في تعامله مع التراث، إذ يجعل التراث بمثابة عقلٍ باطنٍ أو عُقد حبيسة هي التي تتحكم بتصرفات العربي اليوم.

الثالثة: الانطلاق من مركزية القرآن في دحض حجج الكاتب، لبيان تهافت النظرية الطرابيشية، التي قلده فيها بعض المراجع الدينية ونسج على منواله مشروع "من إسلام الحديث إلى إسلام القرآن"!

ويمكن للبحث أن يشتمل على ثلاثة محاور:

المحور الأول: عالمية الرسالة المحمدية:

بحيث يغطي عالمية الرسول والرسالة، وخصائص العالمية والخلود التي تحملها الرسالة المحمدية.

المحور الثاني: السنة النبوية في مضمار الوحي الإلهي:

بحث يبين دور النبيﷺ في التبليغ والتشريع، وحجية السنة، وحجية خبر الآحاد، وحدود الخلاف بينَ أهلِ السنة وغيرهم حول حجية السنة.

---

(١) مقابلة في قناة العربية بتاريخ ١٥/ ٠١/ ٢٠١٧م.

المحور الثالث: إقالة العقل:

يتتبع حيثيات الانقلابات الحديثية التي تكلم عنها طرابيشي، وأدَّتْ إلى إقالة العقل المسلم، انقلاب الشافعي، انقلاب أحمد بن حنبل وانحياز المتوكل، جهود ابن قتيبة في دحر المقاومة المعتزلية، ابن حزم يغلق آخر منافذ العقل.

ونسأل الله أن تكون إضافة نوعية يستفيد منها القارئ، إذ حرصنا على كتابة الدراسة بلغة لغير المتخصصين تبتعد عن الأساليب الأكاديمية، وتستفيد من طريقة طرابيشي الروائية التي تتسلسل فيها الأحداث والاقتباسات دونما توغل في التقسيمات والردود الأكاديمية المتخصصة إذ ليس هذا الكتاب من مظانها... وعلى الله قصد السبيل.



مبتدأ

الحمــد لله رب العالمين، والصلاة والســلام على أشرف الأنبياء والمرســلين، نبينا محمدﷺ، أما بعد:

تعتبر عالمية وخلود الرسالة الإســلامية واحدة من نقاط النزاع الكبرى بين المنظور العلماني والمنظور الإسلامي، ففي حين يذهب الفكر العلماني إلى نزع القداسة عن الإسلام، وإخضاع الحياة للمختبر العلمي وطي البساط من تحت الدين، واعتباره حالة جوانية فردية لا علاقة لها بالحياة، يأبى المنظور الإســلامي إلا أن يرســم معالم الهداية للإنسان ليتوجه في الحيــاة وفق هداياته المنقذة، ومن هنا جاءت محاولات المُنظر العلماني لإزاحة الإســلام من منصة التوجيــه، إما بدعوى تاريخية النص الديني ومقتضاهــا أن ذلك النص انتهت صلاحيته في الزمن الغابر، أو دعوى إقليمية الرسالة الإسلامية وأنها خاصة بعرب الجزيرة وينبغي أن لا تتعداهم إلى غيرهم.

ومــا كنت أتصور أن تجرف الأهــواء بأصحابها ليذهبوا إلى كتــاب الله لنفي حقيقة ساطعة كسطوع الشــمس، مثل عالمية الرسالة المحمدية، ليدّعوا بعد ذلك ن محمداﷺنبي أمي أرسل خصيصاً لعرب الجزيرة العربية، ويستدلون على ذلك بالقرآن الكريم! ويعتبرون أن ثمــة انقلابا حدث بعد ذلك على يد المحدثين لتحويل النبي الأمي العربي إلى نبي أممي، ذلك ما توصل إليه الكاتب جورج طرابيشي في كتابه "من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث" الصادر عن دار الســاقي بلبنان في العــام ٢٠١٠م، ولو كان الكاتــب مغموراً والكتاب هامشــياً لأعرضنا عنه صفحاً، ولكن الكاتب أحد أعمــدة الحداثيين العرب، والكتاب أحــد الأناجيل الأربعة -كما يقال- لجمهرة الحداثيــين العرب، وقد لاقى الكتاب حفاوة استقبال اســتوجبت على كل غيور أن يفند منهجية الكاتب المتهافتة "المتناقضة"، ونتائجه

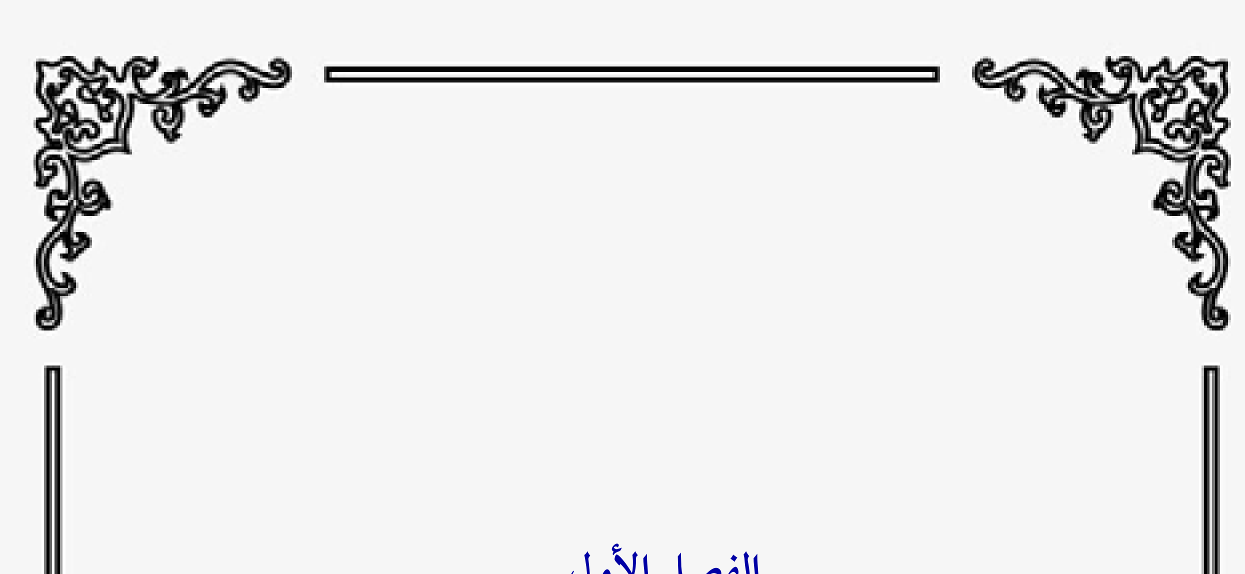
الغرائبية التي أُتيح لها بفعل الإعلام والترويج أن تنتشر بين الشباب وتؤثر فيهم، ويأتي هذا البحث ضمن مشروع نقدي، للإســهام في نقد وتفكيك الفكر العلماني الذي يتدثر شعار نقد التراث، ليوجه سهامه إلى شريعة الإســلام ونبي الإسلام وأعلام الإسلام وحضارة الإسلام.

وعليه فقد اخترت أن يكون عنوان البحث: عالمية الرســالة المحمدية " تعقيب نقدي على مقولات جورج طرابيشي في انحصار الرســالة الإسلامية بالعرب في كتابه من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث".

وقد حرصت على التعقيب النقدي لأهم الدعامات التي حاول الكاتب أن يبني عليها نظريته، وهي ثلاث دعامات أساسية: دعامة لغوية ودعامة مصطلحية ودعامة جغرافية، فالأولى يرى فيها أن نزول القرآن بلغة العرب فيه دلالة كافية على انحصارها بالقوم الذين نــزل بلغتهم، ثم دعم ذلك بتأويلــه الغريب لقوله تعــالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشــورى:٧] على أن حدود الرسالة المحمدية مكة وما حولها من قرى الجزيرة فتلك حدود الإســلام الجغرافية؛ ثم ســاند نظريته بمصطلح "الأميين" ليؤكد أن هذه رسالة خاصة بالأميين من العربِ ولا علاقة لغيرهم بها. ثم أعقبَ ذلكَ بإنكار وجود آيات بينات في القرآن تؤيد عالمية الرسالة المحمدية.

وقد ســعيت لتفنيد ذلك من خلال آيات القرآن المتظاهرة، ثم عرجت على الأخطاء المنهجية للكاتب، مع تضمين البحث لأهم مقومات عالمية الرسالة المحمدية، التي تتوثب الأمة اليوم لاستئنافها من جديد.

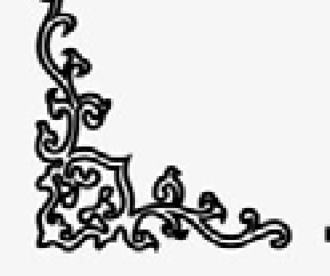
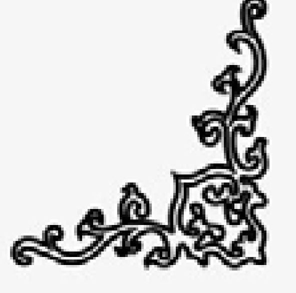
ومن رب رحيم أرجو القبول، والحمد له أولاً وأخيراً



الفصل الأول

ركائز المقولات الطرابيشية

- من النبي الأمي إلى النبي الأممي
- حدود الرسالة المحمدية

من النبي الأمي إلى النبي الأممي

يبتدأ جورج طرابيشي في كتابه "من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث" الفصل الثاني بالتأكيد على مخصوصية الرسالة المحمدية، فهي خاصة بعرب الجزيرة فقط؛ مستدلاً بمدخل مصطلحي ولغوي وجغرافي، إذ يرى أن تسمية النبي "بالأمي" تعني= النبي الذي أُرسِل للأميين فقط، وهم في زعمه عرب الجزيرة. وأن اختيار اللغة العربية كلغة للقرآن؛ فيه دلالة على محدودية الفئة المستهدفة من الخطاب القرآني، أي أن القرآن خاص بالعرب فقط. وأن اختيار مكة وما حولها مهبطاً للوحي دلالة مؤكدة على الحدود الجغرافية للرسالة المحمدية!.

ويزعم أن ثمت انقلابا حدث على مفهوم "الأُميّة" (وحرّف معناها ممن ينتمي إلى الأمة التي لا كتاب لها، إلى من لا يعرف القراءة والكتابة) [١]، وكما هي عادته في إلقاء الكلام على عواهنه، إذ لم يبين لنا متى تَمَّ هذا الانقلاب المصطلحي الخطير الذي حرّف مفهوم الأمية، ولا من الذي هندس الانقلابَ، وكيف تم تمريره؟ كل هذه الأسئلة لن نجد لها جواباً عند جورج، لأن طريقته في الكتابة تشبه حرب العصابات، يضرب ثم يهرب، يُلقي الشبهة ثم يتجاوزها، وكأنها من المُسلّمات، لتبقى عالقة في ذهنِ القارئ، والتراكم قد يفعل فعله في التشويش.

ولكنَّا سنقوم بالدور نيابة عنه، لتوضيح مفهوم الأمية، كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية، وكما فهمها الصحابة والتابعون، وكما فهمها أئمة اللغة والتفسير والفقه، ثم نبحث عن تاريخ الانقلاب المزعوم الذي حاول أن يحرّف مفهوم المصطلح.

---

(١) طرابيشي، جورج طرابيشي. من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث (بيروت: دار الساقي، ط١-٢٠١٠) ص(٨٩).

الأمي عند أهل اللغة:

الهمزة والميم (أم) أصل واحد، يتفرع منه أربعة أبواب، وهي الأصل والمرجع والجماعة والدين، وهذه الأربعة متقاربة[١]. والأمي هو الباقي على أصله وجبلّته كما ولدته أمه، لا يكتب ولا يقرأ، قاله الزجاج وأبو عبيد وأبو إسحاق وعليه تتابع مدونو اللغة العربية كابن فارس وابن منظور والزبيدي وغيرهم[٢].

الأمي في القرآن:

لو تصفحنا معجمية القرآن الكريم سنجد أن اللفظ جاء في المواضع التالية:



وصف النبي بالأمي، وقد وردت في موضعين متتابعين في سورة الأعراف، قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[الأعراف:١٥٧]، وقال تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ﴾ [الأعراف:١٥٨] وقد أجمع أهل العلم على أن النبيﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب قبل البعثة، وأما بعد البعثة، فقد ذهب السواد الأعظم لأهل العلم أنه بقي على أميته[٣]، وخالفهم نفر يسير ممن قال بأن الله علَّمه القراءة والكتابة بعد ذلك كالباجي[٤].

---

(١) معجم مقاييس اللغة (١/ ٢١).

(٢) لسان العرب (١٢/ ٣٤)، معجم مقاييس اللغة (١/ ٢٨)، تاج العروس (٣١/ ٢٣٧)، المحكم والمحيط الأعظم (١٠/ ٥٧٧)، القاموس المحيط (ص: ١٠٧٧)، غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٣٨٤)، تهذيب اللغة (١٥/ ٤٥٦)، التكملة والذيل والصلة للصغاني (٦/ ١٨٧)، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (١/ ١٢٢).

(٣) أحكام القرآن لابن الفرس (٣/ ٤١١)، تفسير ابن كثير (٦/ ٢٨٦)، فتح الباري لابن حجر (٧/ ٥٠٤).

(٤) ترتيب المدارك (٨/ ١٢٤).

كما ذهبت الغالبية العظمى من المفسرين إلى أن "الأمي" هو من " لا يقرأ ولا يكتب" وهذا تماشياً مع المدلول اللغوي للأمية، لحديث عائشة: «فَجَاءَهُ المَلَكُ فِيهِ، فَقالَ: اقْرَأْ، فَقالَ له النبيُّ ﷺ : فَقُلْتُ: ما أنَا بقَارِئٍ» [١]. وكذلك ما روي عن ابن عباس مفسراً لقوله تعالى:﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت]. حيث قالَ: (لم يكن رسول الله ﷺ يقرأُ ولا يكتبُ، كان أمياً". وهو قولُ قتادة ومجاهد والضحاك وإبراهيم النخعي وسفيان بن عيينة والزجاج وأبي عبيدة والطبري والزمخشري والرازي وغيرهم[٢].

وذكر بعضهم أن نسبة النبي للأمية لأنه من أمة العرب وهي أمة أمية لا تعرفُ القراءةَ والكتابة في الأعم الأغلب آنذاك، واستدلوا بحديث عبد الله بن عمر أن النبيﷺ قال: " إنّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نَكْتُبُ ولا نَحْسُبُ"[٣]، وهو قول يؤكد مذهب الجمهور في تفسير الأمية بأمية الحرف. وقيل نسبة لأم القرى [٤] وهي مكة، وهو بعيد إذ النسب للاسم المركب تركيباً إضافياً القاعدة فيه النسب إلى صدره ما لم يكن كنية أو لم يخش اللبس، واللبس هنا متعين فلا يقال: أمي، وقد يقال قروي. [٥]وقيل نسبة إلى الأم بالفتح وهو القصد "أي لأن هذا النبي مقصد للناس وموضع أم يؤمونه بأفعالهم وتشرعهم"[٦].

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم:(٦٩٨٢).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ١٥٧)، السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٦٧)، تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٧٢)، تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٨٢)، تفسير الرازي (١٥/ ٣٨٠)، تفسير الزمخشري (٣/ ٤٥٨)، تفسير القرطبي (٧/ ٢٩٨)، تفسير الماوردي (٤/ ٢٨٧)، زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٤١٠)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦/ ٤٧٠).

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم:(١٩١٣).

(٤) تفسير الثعلبي (٤/ ٢٩٢).

(٥) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٤/ ١٦٣). .

(٦)تفسير ابن عطية (٢/ ٤٦٢).

وأصح الأقوال ما ترجم عن الأحاديث النبوية التي فسرت الأمية بخلو القراءة والكتابة عن الشخص، ومنها حديث أبي بكرة أن النبي ﷺ قال: «الدَّجَّالُ أَعْوَرُ بِعَيْنِ الشِّمَالِ، بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكْتُوبٌ كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ الْأُمِّيُّ وَالْكَاتِبُ» (١)، وحديث حذيفة: «أنَّ جبريلَ لَقِيَ رسولَ الله ﷺ عندَ حِجارةِ المِراءِ، فقال: يا جِبريلُ، إنِّي أُرسِلتُ إلى أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ: إلى الشَّيخِ والعَجوزِ، والغُلامِ والجاريةِ، والشَّيخِ الذي لم يَقرَأْ كِتابًا قَطُّ» (٢).

وقد علق الإمام الطبري على رواية ضعيفة خالفت مفهوم الأمية المعروف، فقال: "وهذا التأويل تأويل على خلاف ما يعرف من كلامِ العربِ المستفيض بينهم، وذلك أن "الأمي" عند العرب: هو الذي لا يكتبُ"(٣). وعندما يشير الطبري وهو اللغوي العريق إلى الاستفاضة، فهو ينبهنا إلى تتابع العرب من لدن الصحابة وهم الذين نزل القرآن بلسانهم ثم التابعين ومن تبعهم من أئمة اللغة، وجدير بنا أن نشير إلى طرف من هذه الاستفاضة التي وكزنا بها الطبري.

فمن جيل الصحابة روينا خبر ابن عباس، ومن جيل التابعين نعثر على روايات لإبراهيم النخعي والحسن البصري وعطاء وقتادة والضحاك يفسرون لفظة الأمي بما استفاض من لغة العرب، حتى في مواضع بعيدة عن آيات الأمية فالحسن البصري يفسر قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]. قال: يقرأ الإنسان كتابه أمياً كان أو غير أمي (٤).

والإمام الشافعي - وهو حجة في اللغة - يقول: "فإن أمّ أمي بمن يقرأ أعاد القارئ"(٥). ونجد المحدث ابن معين يصف أحدهم بقوله: " كان جعفر بن برقان

---

(١) مسند أحمد، حديث رقم: (٢٠٤١٧)، وصححه الوادعي، والأرنؤوط..
(٢) مسند أحمد، حديث رقم: (٢٣٤٤٧)، وصححه الأرنؤوط.
(٣) تفسير الطبري (٢/ ٢٥٩)..
(٤) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٣٠).
(٥) مختصر المزني (٨/ ١١٦).

أمياً لا يقرأ ولا يكتب"[١]. ومثله اللغوي الأديب الجاحظ يعلق على أمية النبي ﷺ بقوله: "إن الله إنما جعل نبيه أميّا لا يكتب ولا يحسب، لينفرد الله بتعليمه"[٢]. ومن بعده يأتي اللغوي الأديب ابن قتيبة ليفسر الأمي بأنه نسبة العرب لشيوع الجهل فيها بقوله: " إِنَّمَا قيل لمن لَا يكْتب أُمِّي لِأَنَّهُ نسب إِلَى أمة الْعَرَب أَي جماعتها وَلم يكن من يكْتب من الْعَرَب إِلَّا قَلِيل "[٣]. وتواطؤ أهل العلم على استخدام هذه اللفظة أكثر من أن نحصيه.

وقبل ذلك اتفاق العلماء على أميته الحرفية ﷺ قبل البعثة، وكونها من دلائل إعجازه، إذ كيفَ تأتى لهذا النبي الأمي أن يأتي بهذا الكتاب العظيم وهو على أميته، فكان في أميته زيادة في صيانةِ جنابِ النبوة أن تمسسه ذرة من غبار تهمة الانتحال والتلقي عن غير الله.



وصف القرآن لبعض أهل الكتاب بالأمية قال تعالى:﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة]. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن السياق جاء في اليهود، قال الطبري: "لا يعلمون ما في الكتاب الذي أنزله الله، ولا يدرون ما أودعه الله من حدوده وأحكامه وفرائضه، كهيئة البهائم"[٤]، "والمعنى كيف تطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريق منهم محرفين وفريق جهلة؛ وإذا انتفى إيمان أهل العلم، فكيف تطمعون أيضا في إيمان فريق الأميين الذين هم أبعد عن معرفة الحق"[٥].

وهذه الآية قسمت اليهود إلى طائفتين، طائفة الذين يقرأون الكتاب وطائفة

---

(١) تاريخ ابن معين (٤/ ٤١٩).
(٢) البيان والتبيين (٣/ ٢٦٦). .
(٣) غريب الحديث (١/ ٣٨٤).
(٤) تفسير الطبري (٢/ ٢٥٩).
(٥) التحرير والتنوير (١/ ٥٧٣) .

الأميين من اليهود الذين لا يعلمون الكتاب فهم أميون مثل أميي العرب، فاستحقوا وصف الله لهم بالأمية لعجزهم عن فك الحرف. فوصفهم الله بالأمية، وهي هنا إما أن تكون الأمية الحرفية، أي لا يستطيعون فك حروف الكتاب، وهذا ما اختاره جمهرة المفسرين، [(١)] أو الأمية المعرفية وهي أخطر، فيكون محل الذم ليست أميتهم الحرفية "فإن الأمي قد يتلقى العلم عن العلماء الثقات ويعقله عنهم بدليله فيكون علمه صحيحا"[(٢)]، وهؤلاء قد يقرؤون الكتاب ولكن علمهم به لا يجاوز نثر حروفه، وهذا قول من فسر الأماني في قوله تعالى: (لا يعلمون الكتاب إلا أماني) بأنها التلاوة قال الزجاج: " إلا قراءة لأن الأمي لا يعلم القرآن من المصحف وإنما يعلمه قراءة"[(٣)]، أي قرأه من حفظه؛ فهم يتلون ذلك الكتاب ولا يفقهون منه شيئاً، فوصمهم الله بالأمية.

وهذه الآيةُ دامغة في بيانِ حدودِ الوعاءِ اللغوي والاصطلاحي لمفهوم الأمية، إذ الأمية في وضعها اللغوي أمية الحرف "عدم القراءة والكتابة"، ولكنها قد تستخدم مجازاً في معنى أشمل وهو الأمية الثقافية والعلمية، وهو خلو صاحبها من الفهم، وإدراك ما يقرأ. وفي الآية ملحظ خطير يهم تناولنا، وهو أن وصفَ الأميةِ ليسَ خَاصاً بالعرب، إذ الأمية صفة قد يوسم بها أي أحد فَقَدَ القدرة على القراءة والكتابة، كالأميين من اليهود،[(٤)]وإن كانت في حق أهل الكتاب معيبة أكثر، لأن فقدهم لمعرفة الكتاب جاء من بعد علم، فهو وصف ذم لهم، إذ نُكسوا للأمية الأولى بعد نعمة الكتاب[(٥)].

وقد حاولَ بعضُهم تخصيصَ الآيةِ بنفر من العرب تهودوا ولحقتهم صفتهم

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٥٢)، تفسير الطبري (٢/ ٢٥٩)، تفسير البغوي (١/ ١٣٦)، تفسير الزمخشري (١/ ١٥٧)، تفسير الرازي (٣/ ٥٦٤)، تفسير القرطبي (٢/ ٥)، البحر المحيط في التفسير (١/ ٤٤٤)، فتح القدير للشوكاني (١/ ١٢٢).

(٢) تفسير المنار (١/ ٢٩٧).

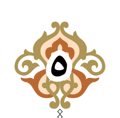
(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ٤٣٤).

(٤) قاموس القرآن للدامغاني (ص: ٤٦).

(٥) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٠٨).

الأمية؛ كونهم عرباً، فوصفهم الله بالأمية! وهذا كلامٌ يناقض أوله آخره، فلو قلنا إنَّ كل من ليسَ معه كتاب سماوي فهو أمي، فإنَّ هؤلاءِ قد دخلوا تحتَ مظلةِ أهلِ الكتاب فانتفت عنهم أميتهم. أو أنهم أميون بمفهوم الأمية الحرفية، وهنا يسقطُ الادعاءُ بأن الأمي هُو من كان من غير اليهود.

والآية حاسمة في أن الأمية وصف متنقل، وليس خاصاً بالعرب، وستأتي الآيات اللاحقة لمزيد بيان.



وصف الله للعرب بأنهم أمة أمية، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْـلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [الجمعة]، وقد ذهبَ جمهرةُ المفسرينَ إلى أنَّ الأميين هنا هم العرب لأنهم أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب في الأعم الأغلب[1]، فقد ذكر البلاذري أن الذين كانوا يعرفون الكتابة من قريش أيام بعثة النبي ﷺ لا يتجاوزون سبعة عشر رجلاً[2]. والقولُ بأميةِ الكتابةِ قول مستند إلى حديث النبي ﷺ: (إنّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نَكْتُبُ ولا نَحْسُبُ)، وقيل لأنهم ليسوا أهل كتاب[3] سابق، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ وَلَا نَبِيٌّ بُعِث فِيهِمْ[4].

ويعزز هذا التفسير قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾[آلعمران]، إذ توجه المفسرون إلى أنها في العرب باعتبارهم أمة أمية، في حين فسرها بعضهم بأنها فيمن آمن من العرب بمحمد ﷺ، إذ اعتبرهم اليهود مرتدين

(١) معاني القرآن للزجاج (٥/ ١٦٩)، تفسير الماوردي (٦/ ٥)، تفسير الزمخشري (٤/ ٥٢٩)، التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٠٨).
(٢) فتوح البلدان (ص: ٤٥٣).
(٣) تفسير القرطبي (١٨/ ٩١).
(٤) تفسير الرازي (٣٠/ ٥٣٨).

سقطت حقوقهم المالية [١]. والتفسير الأول هو ما رجحه الطبري، وهو متساوق مع النص، ومع كشف الله لفئة من اليهود تتعامل بعنصرية مع غيرها، وهي عنصرية مؤصلة في كتبهم إذ جاء في التلمود: " الأمميون يقعون خارج نطاق حماية الشريعة، وماهم يتيحه الله حلالاً لبني يسرائيل"، وفيه: " أبناء الأممين "الجوييم" جميعاً بهائم " [٢].
وجاء في التلمود: " إذا نطح ثور الإسرائيلي ثور الغريب -غير اليهودي- فإنه يعفى، أما إذا نطح ثور الغريب ثور الإسرائيلي يعوض عن الضرر كاملاً"[٣].



جمع الله العرب الأميين الذين اشتبكوا هم واليهود في جدال ديني مع النبي ﷺ في آية واحدة، فقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ ﴾[آل عمران]. والآية كما فسرها أهل العلم، وكما هو جلي من سياقها أن ثمت فريقين أُمِر الرسول ﷺ بدعوتهم للإسلام، فريق أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وفريق المشركين من العرب الأميين، ووصفوا بالأمية لغلبة أمية الحرف عليهم، وقيل لأنهم خُلو من كتاب سماوي[٤]، وهو تفسير يضيف للوعاء اللغوي بعداً جديداً ولا يفترض القطيعة معه، كما حاول البعض، الذين انتزعوا لفظة الأمية من مدلولها اللغوي، وفسروها بمدلول تلمودي لاهوتي يصف الأميين بأنهم الجوييم أو الأغيار أو من ليس من أهل الكتاب.

وقد تمسك القائلون بالتفسير التلمودي لمصطلح الأمية بهذه الآية، وجعلوها

(١) تفسير الطبري (٦/ ٥٢٢)، تفسير البغوي - إحياء التراث (١/ ٤٥٨)، تفسير الزمخشري (١/ ٣٧٥)، تفسير ابن عطية (١/ ٤٥٩)، تفسير الرازي (٨/ ٢٦٤)، البحر المحيط في التفسير (٣/ ٢٢٠)، تفسير المنار (١٠/ ٣٤٦).
(٢) ايبش، أحمد ايبش. التلمود كتاب اليهود المقدس (دمشق: دار قتيبة، ط١-٢٠٠٦م) ص(٣٩٥).
(٣) التلمود، ترجمة: مصطفى عبد المعبود (الجيزة: مكتبة النافذة، ط١ -٢٠٠٧م) ص(٤٢).
(٤) تفسير الطبري (٦/ ٢٨١).

مرتكزهم في تعريف الأمية بأنها خلو الأمة من الكتاب السماوي، إذ قالوا إن الله قابل في الآية بين أهل الكتاب السماوي "اليهود والنصارى"، وبين غيرهم من المشركين فسماهم أميين.

ومن ثم بنى "جورج" نظريته في محدودية الرسالة المحمدية، وأنها خاصة بالعرب الأميين، إذ يقول: "فالآية العشرون من سورة آل عمران لا تقيم المعارضة بين الكتابيين والأميين إلا من منطلق أن الأخيرين لم يؤتوا الكتاب الذي أوتوه الأولون"(١).

وهنا ينتصب لنا سؤال: لو قلنا إن الأميين من ليس لهم كتاب، فهل انتفت صفة الأمية عن العرب بعد نزول الكتاب الأخير؟

والجواب: لو أن من تلقى كتاباً ارتفعت عنه الأمية لارتفعت عن الصحابة، ولكن النبي ﷺ أكد أميتهم لأن مفهوم الأمية القراءة وليست الجوييم. و لارتفع وصف الأمية عن النبي ﷺ بعد تلقي الكتاب، وما ترادفت الآيات التي تصفه بالأمية إلا لمعجزة كامنة في صفة الأمي، وقد بقي الصحابة يقرنون صفة الأمية مع اسمه، كما ورد عن علي بن أبي طالب حين قال: «إِنَّه لَعَهْدُ النبيِّ الأُمِّيِّ ﷺ إِلَيَّ: أَنْ لا يُحِبَّنِي إِلّا مُؤْمِنٌ» (٢).

الانقلاب الاستشراقي على مصطلح الأُميّة:

وهنا نتساءل متى تم هذا الانقلاب الذي حوّل مصطلح الأمية من مفهومها اللغوي "الجهل بالكتابة والقراءة"، إلى مفهوم الجوييم أو الأغيار أو الأمميين؟

لو تتبعنا طيلة القرون الإسلامية الفائتة سنجد أن الوعاءَ اللغويَّ لمصطلح الأمية

(١) طرابيشي، ص(٨٩).
(٢) زناتي، أنور محمود. معجم افتراءات الغرب على الإسلام (كتاب منشور على الشبكة) (ص: ٢٤).

لم يكسر، إذ يحمل في ثناياه مفهوم أمية الحرف، أو يستخدم مجازاً في الأمية المعرفية، ولم يحدث الانقلاب المصطلحي إلا على يد المستشرقين كالمستشرق الفرنسي "باريه دومينار" في دائرة المعارف الإسلامية الذي ذهبَ إلى انتفاء أمية الرسول ﷺ الحرفية، مؤكداً أن كلمة أمي أو أميين وضعها أهل الكتاب للدلالة على الوثنيين[١]. أما المؤرخ اليهودي " توري" فقد ذهب إلى أن لفظة "الأميين" معربة من كلمة الجوييم وهي تعني كلمة الأغيار [٢]. وكذلك الباحثُ اليهوديُ "أبراهام أ. كاتش" الذي كرر ما ذكره "توري"، وكلهم يكتب في سياق يهودي ينقب عن تأثر النبي ﷺ باليهودية وأخذه منها، وتتبع الأسس اليهودية الموجودة في الإسلام، ومن ثم جاءت لها فكرة الاقتباس المصطلحي الذي انتزعه النبي محمد ﷺ من تراث اليهود ووضعه في القرآن، ومن بينها مصطلح الأمية! ولنا أن نعجب كيف يقتبس النبي محمد ﷺ لفظة هي أشبه بالمنقصة، ويطلقها على نفسه؛ ثم إذا كان معناها الوثني كما ذكروا، فأنى لكتاب التوحيد – القرآن الكريم – أن يسم النبي بالوثنية؟!

ثم تأثر بمقولتهم هذه رهط من الباحثين العرب كجواد علي[٣] الذي يرى أن" الأمية هذه أُخذت من اليهود الذين كانوا يطلقون لفظة "امت" و"اميم"[٤] وعلى هذا فكل من هو من غير اليهود فهو من الأميين [٥].

ولو عدنا لترجمات العهدين القديم والجديد "التوراة والإنجيل" التي بين أيدينا فليسَ فيها ذكر للفظة الأمي[٦]، إلا إشارة سفر أشعياء التي تحدثت عن دفع الكتاب

(١)زناتي، أنور محمود. معجم افتراءات الغرب على الإسلام (كتاب منشور على الشبكة) (ص: ٢٤).
(٢) Torrey، The Jewish foundation of Islam، New York، ١٩٣٣، p. ٣٨
(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٥/ ١٠٥)
(٤) جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٥/ ١٠٤).
(٥) المرجع السابق.
(٦) ينظر: قاموس الكتاب المقدس مادة أمم، مجموعة مؤلفين (شركة: Compubraill) ص(٨٥)

لأمي غير قارئ حيث جاء فيه النص التالي: "يُدْفَعُ الْكِتَابُ لِمَنْ لاَ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ وَيُقَالُ لَهُ: " اقْرَأْ هَذَا " فَيَقُولُ: " لاَ أَعْرِفُ الْكِتَابَةَ"[١]، وقد فسرها بعض المختصين في مقارنةِ الأديانِ بأنها نبوة قديمة تتحدث عن قصة نزول الوحي أول مرة للنبي ﷺ في غار حراء[٢]، وتصف النبي بأميته الحرفية لا أميته القومية، وفيها رد لمن جعل الأمي من عدا اليهود، وتأكيد لما أشارت إليه آية الأعراف: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[الأعراف].

غير أن كتاب التلمود يتضمن مصطلح الأمين، وهم كل من عدا اليهود، وإن اشتهرت عندهم لفظة الجوييم وهي لفظة عبرية ترجمتها= الأغيار، وهي لفظة وردت في التلمود أصلها يدل على الدهماء، ثم استخدمت لتمييز الناس من غير اليهود، فكل من هو غير يهودي، فهو جوييم أو الأغيار، سواء كان له كتاب كالنصارى أو ليس له كتاب كعرب الجاهلية ونحوهم من الأمم[٣]، ومصطلح الجوييم ذو حمولة عقدية وتاريخية ثقيلة تجعل من اليهود الجنس الذي حلت فيه روح الإله، وغيرهم من الجوييم أو الأغيار " أي بقية أمم الدنيا" أناس يحملون أرواحاً دنيا.

وقد استدل "جواد علي" على أصلها اليهودي بعدم وجود شاهد شعري يبين عروبتها، ثم زعم أن لفظة الأمين يهودية، وأن اليهود بطبيعتهم في الحط من مخالفيهم استخدموها لمزاً ضد العرب[٤]. قلت: والرد على دعوى جواد من عدة وجوه:

---

(١) سفر أشعياء، الإصحاح ٢٩، الفقرة ١٢ (لبنان: جمعية الكتاب المقدس، ط١٩٩٦م)، وهنالك من يترجمها من اليونانية رأساً بغير الترجمة العربية المشهورة: أو يدفع في الكتاب للرجل الأمي فيقال له اقرأ هذا في غار حراء وأنا أصلي عليك. فيقول: لا أعرف القراءة. ينظر: الزنداني، عبد المجيد بن عزيز. البشارات بمحمد ﷺ في الكتب السابقة، (ص: ٥).

(٢) ينظر: ديدات، أحمد. الاختيار بين الإسلام والنصرانيةج١، ترجمة: أكرم ياسين الشريف (الرياض: مكتبة العبيكان، ط٤-٢٠١٥م) ص(٣٣).

(٣) موسوعة اليهود واليهودية (١٤/ ١٤٥)..

(٤) جواد علي، مرجع سابق، (١٥/ ١٠٥).

أولها: أن عدم وجود اللفظة - لو سلمنا باستقرائه - في أشعار العرب لا يفقدها عروبتها خاصة أنا وجدناها في القرآن والحديث ووجدناها عند الصحابة والتابعين وأئمة اللغة، وكلهم مترادفون على تعريفها بأمية الحرف، ولم يشر أحدهم إلى تعريبها[١]. ثم إن اتفاق العلماء على أمية النبي الحرفية قاطع في المسألة إذ لا يمكن للأمة أن تُجمع على لفظة وهي لا تدري معناها.

ثانيها: لم ينقل "جواد علي" لنا خبراً واحداً في كتاب حديثي أو إخباري أو حتى أدبي يشير إلى أن اليهود الذين عاصروا النبي ﷺ قد صكوا مصطلح الأمية، وما ثم إلا افتراض دبجه جواد دونما مستند من خبر أو أثارة خبر!

ثالثها: إذا كان أصلها لمزٌ يهودي للعرب، فكيف يدوّنها القرآن ويحتفي بها الصحابة، ويصفون الرسول بها بعد موته؟! وهم الذين نهاهم ربهم عن مناداة الرسول بكلمة عربية حرّف اليهود معناها: ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾[البقرة]. تقديراً لجناب النبوة.

بل إن النبيﷺ يعلم أصحابه صيغ الصلاة عليه ومنها صيغة تتضمن صفة الأمية، كما في حديث أبي مسعود الأنصاري أن النبي ﷺ قال: «إذا صلَّيْتم عليَّ فقولوا: اللَّهمَّ صلِّ على محمَّدٍ النَّبيِّ الأُمِّيِّ» [٢].

وتابع جواداً في دعواه هذه محمد عابد الجابري في كتابه " مدخل إلى القرآن" وزعم أن " لفظ أمي لفظ معرب، لا أصل له في اللغة العربية"[٣]. ثم جعل الأميين = من ليسوا

(١) جمع السيوطي المفردات المعربة في القرآن في كتابه "المهذب"، ولم يأتي على ذكر الأمي، ومن قبله المُطَرِّزيّ في كتابه المغرب، ومن قبلهما ابن بَرّي في كتابه التعريب والمعرب، ولم يذكر أحد منهم أن لفظة الأمي معربة.

(٢) صحيح ابن حبان، حديث رقم: ١٩٥٩، حسنه ابن حجر في نتائج الأفكار ٢/ ٢٠١.

(٣) الجابري، محمد عابد، مدخل إلى القرآن الكريم (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١-٢٠٠٦م) ص(٨٣).

من أهل الكتاب، واستدل بمقولة الفراء التي قال فيها " ليسوا أهل كتاب سابق"، مع أن تعريف الفراء جاء في سياق تعليل الأمية، إذ لم يجاوز الفراء معناها اللغوي وإنما أضاف إليها مؤشراً مادياً للأمية اللغوية خلو الكتاب كما ذكرنا سابقاً، "فالفراء لم يكن بصدد تحديد المعنى الدقيق والشامل لكلمة أمي أو أميين من الناحية اللغوية، وإنما كان في صددِ تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة:٢]. فقال: العرب لم يكن لهم كتاب". بمعنى أنهم الأميون من العرب الذين لم يكن لهم كتاب يقرؤونه ولا يكتبونه، وهذا تفسير صحيح وجزء من التفسير الشامل لكلمتي أمي وأميين"[١]. ومن قبله ابن عباس الذي نُقل عنه أنهم من ليسوا أهل كتاب سابق" وهو قول يتعاضد مع روايات ابن عباس التي تفسر الأمية بأمية الحرف كما نقلنا عنه.

لكن "جورج" تخطى ما كتبه جواد والجابري، إذ جعل من لفظة الأمية دعامة في نظريته القائلة بمخصوصية رسالة النبي ﷺ للعرب فقط، وختم حكايته عن الأمية بأن قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾[الجمعة:٢]. "صريح مطلق الصراحة بأن محمد بعثه في الأميين وإلى الأميين"[٢].

وبحسبنا سطر من إمام مفسر معاصر يبين لجورج هذا التركيب اللغوي البديع الذي صب كل معاني الأمية في لفظة "منهم " حيث يقول الإمام ابن عاشور: "وَوَصَفُ الرَّسُولِ بِأَنَّهُ مِنْهُمْ، أَيْ مِنَ الْأُمِّيِّينَ شَامِلٌ لِمُمَاثَلَتِهِ لَهُمْ فِي الْأُمِّيَّةِ وَفِي الْقَوْمِيَّةِ. وَهَذَا مِنْ إِيجَازِ الْقُرْآنِ الْبَدِيعِ[٣] " ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾. فهو منهم لغلبة أمية الحرف عليهم، وهو مثلهم لا يقرأ.

(١) علال، خالد كبير. أباطيل وخرافات حول القرآن الكريم والنبي محمد (دار المتحسب ٢٠١٨م) ص(٣٥).

(٢) طرابيشي ص(٩٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٠٩)

فكيف قفز إلى ذهن البعض ترجمة مصطلح الأميين بالأغيار وجعل الأمي مرادفاً للجوييم! ذلك مما لا يستند إلى دليل أو شبهة دليل.

فالقرآن الكريم وصف جزءًا من اليهود بأنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وقد أوردنا تتابع العلماء على أنها في سياق ذم طوائف من اليهود.

ولو جارينا هذا التفسير تنزلاً، لاقتضى أن يكون كل البشر من غير اليهود أميين، وبهذا يدخل النصارى ضمن الأميين لأنهم ليسوا يهوداً، وبهذا تسقط مزاعم جورج وأضرابه ممن يريدون أن يكيفوا مصطلح الأمية في مقابلة أهل الكتاب، مستندين إلى قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ [آل عمران]. وكنت كغيري أرى هشاشة هذه الفرية الطرابيشية التي تجعل من محمد ﷺ رسولاً للعرب، غير أن طبيعة التأثر والتأثير بين البشر، تجعل لمثل هذا التلبيس أن ينطلي على بعض الناس، فلزم التنبيه، وتتبع أساليب الكر والفر الذي يلعب بها جورج، لبيان تهافت القراءة الطرابيشية للتراث، وهشاشة الأعمدة التي بنى عليها نظريته في إعادة الإسلام إلى الصحراء كما بينا في فاتحة الكتاب.

وقد ختم جورج كلامه عن الأميين أكد فيه أن مقتضى " المطابقة الحصرية بين الأمية والعروبة رفض عمر بن الخطاب، في رواية مروية عنه، أن يعترف بكتابية نصارى العرب، بقوله: ما نصارى العرب بأهل كتاب. فما داموا عرباً فمعنى ذلك أنهم بالضرورة أميون، أي لا كتاب لهم. ومن هنا قراره، طبقاً للرواية نفسها، بعدم جواز أخذ الجزية منهم لأنها لا تؤخذ إلا من أهل كتاب، ومن ثم تخييرهم بين الإسلام، بوصفه دين الأميين العرب، وبين السيف"(١).

---

(١) طرابيشي، ص(٩٢).

واستدلاله هنا غريبٌ من وجهين، الوجه الأول: أن رواية الشافعي عن عمر لا تصح عند أهل الحديث لأنها من رواية إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى، وهو ضعيف عند جمهور المحدثين، قال عنه يحيى بن سعيد القطان: كذاب. وقال عنه البخاري: تركه ابن المبارك والناس. وقال عنه أحمد: قدري معتزلي جهمي كل بلاء فيه. وسأل عنه مالك أكان ثقة فقال: لا، ولا ثقة في دينه. وقال عنه يحيى بن معين: ليس بثقة كذاب. ولم يعده سفيان بن عيينة من أهل الصدق. وقال وكيع: لا يروى عنه حرف. وسُئل عنه أبو زرعة فقال: ليس بشيء. وأخرج ابن أبي حاتم عن بشر بن المفضل قال: سألت فقهاء المدينة عن إبراهيم فكلهم يقول كذاب! أو نحو هذا. وقال العجلي: غير ثقة. وقال النسائي: متروك الحديث. وقال علي بن المديني: كذاب. وقال الدارقطني: متروك[1].

وقد يتساءل أحدهم: لماذا روى عنه الشافعي؟ وهنا ينبري ابن حبان لتعليل رواية الشافعي، فيقول: وأما الشافعي فإنه كان يجالس إبراهيم في حداثته، ويحفظ عنه، فلما دخل مصر في آخر عمره، وأخذ يصنف الكتب احتاج إلى الأخبار، ولم تكن كتبه معه، فأكثر ما أودع الكتب من حفظه، وربما كنى عن اسمه[2].

وقد أخرج البيهقي في سننه الكبرى ومدارها على رواية إبراهيم هذا، فانظر كيف عمد صاحب التنقيب الأريكلوجي إلى انتزاع رواية واهية من كتاب الشافعي ليدعم نظريته دونما التفاتة علمية لقيمة هذه الرواية عند أهل الفن!

ولو وقفنا أمام متن الرواية، وافترضنا صحة نسبتها إلى الفاروق عمر، فماذا يقول لنا المتن؟ يقول أن نصارى العرب ليسوا أهل كتاب. ولماذا هم ليسوا أهل كتاب؟ يعلل الشافعي ذلك بأنهم " لَا يَضْبِطُونَ مَوْضِعَ الدِّينِ [أي دينهم المسيحي] فَيَعْقِلُونَ

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢/ ١٢٦)، تهذيب الكمال (٢/ ١٨٧)، تهذيب التهذيب (١/ ١٥٩).
(٢) تهذيب التهذيب (١/ ١٥٩).

كَيْفَ الذَّبَائِحُ"[١] ويستدل الشافعي على هذا التعليل برواية عن علي بن أبي طالب تقول: "لَا تَأْكُلُوا ذَبَائِحَ نَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَتَمَسَّكُوا مِنْ دِينِهِمْ إِلَّا بِشُرْبِ الْخَمْرِ"[٢].

ورواية علي بن أبي طالب، تبين أن المسألة خاصة ببعض نصارى العرب كبني تغلب، وليست مسألة عامة بنصارى العرب جملة[٣]. وبهذا يسقط الاستدلال القائل بأن عمر يطابق بين الأميين والعرب، لأنه لو كان يطابق ذلك لما أخذ منهم الجزية، وقصته مع نصارى بني تغلب معلومة مشهورة، ولو كان الفاروق يراهم أميين بحسب التفسير الطرابيشي، لما أخذ منهم جزية، ولأجرى عليهم السيف، ولكن الذي حدث هو العكس[٤].

وهذا أنموذج مصغر للقراءة الطرابيشية التي تنقب عن مثل هذه الروايات الواهية سنداً، ثم تبني عليها فهماً يتناقض مع عمل عمر وفهم عمر لحالة أهل الكتاب من العرب، دونما علمية ولا موضوعية تستحق الاحتفاء.



(١) الأم للشافعي (٢/ ٢٥٤).

(٢) فتح الباري لابن حجر (٩/ ٦٣٧)، إسناده صحيح.

(٣) ينظر: المهذب في فقه الإمام الشافعي للشيرازي (١/ ٤٥٧)، تفسير المنار (٦/ ١٧٥).

(٤) السنن الكبرى للبيهقي (١٩/ ١١١)، نصب الراية (٢/ ٣٦٣)، البدر المنير (٩/ ٢٠٩).

حدود الرسالة المحمدية:

مدخل:

تتعاضد جهود "جورج طرابيشي" الرامية لإعادة الإسلام إلى الصحراء، ويكمل بعضها بعضاً، إذ يفصح في الفصل الثاني من كتابه عن الغاية من نقده للتراث بجلاء تام، حيث يؤكد أن الإسلام رسالة خاصة بالعرب ومحمد ﷺ نبي خاص بعرب الجزيرة، ويستكمل دعامات نظريته من خلال الإلماح إلى أن التوسع في نشر الإسلام خارج جزيرة العرب جاء استجابة لرغبة مادية في بناء إمبراطورية للعرب الفاتحين على حسابِ بقية الشعوب، فيقول: (والواقع أن دعوى الأممية بمعنى العالمية، لن تغلب على اللاهوت الإسلامي، سواء أفي كتب التفسير أم في كتب الفقه أم على الأخص في كتب الحديث، إلا في سياق التحول التاريخي والجغرافي الكبير من إسلام الرسالة إلى إلى إسلام الفتوحات)[1]. وجورج هنا يترجم عن رؤية ماركسية مادية تفسر ظاهرة الفتوحات الإسلامية، وتختزلها في بُعد مادي يتخذ من الرسالة المحمدية رداء لتوسيع رقعتها الجغرافية، وهو أنموذج تفسيري يعجز عن فهم دوافع حركة الجهاد الإسلامي وصور العدالة التي سطّرها الفاتحون، وإقبال الأمم على الإسلام إيماناً وجهاداً وتضحية، بل وانسلاخاً من هويتها ولغتها إلى هوية ولغة الفاتحين دونما قهر ولا كسر لأحد؛ كما يخفق ذلك النموذج المادي الذي يستخدمه جورج في تفسير ظاهرة الزهد الأسطوري الذي تحلى به قادة الإسلام الأوائل، وهم يضعون أيديهم على خزائن كسرى وقيصر ثم يعيشون حياة الفقراء الزاهدين ويغادرون الحياة دون أن يخلّفوا شيئاً لأهاليهم، أو يأخذوا من تلك الكنوز قطميراً؛ تفسير ماركسي مادي يفشل في فهم اكتفاء الخلافة الإسلامية بضريبة زهيدة – تسمى الجزية – تأخُذها من رعاياها –الذينَ فُتحت بلادهم– مقابلَ حمايتهم وصيانة حقوقهم وأموالهم كاملة،

(١) طرابيشي، ص(٩١).

وهم الذين كانوا يدفعون أضعافها لبني دينهم من مجوس فارس أو نصارى الروم، ولو كان الفاتحون طلاب دنيا- كما يزعم المنظور الماركسي المادي الذي ينظر به المؤلف- لفرضوا الضرائب وانتهبوا الأموال.

إنه تفسير مغرق في المادية، يعجز عن فهم دوافع أبي عبيدة بن الجراح وهو يعيد الجزية لأبناء الشام بعد اضطراره للانسحاب التكتيكي يوم أن كبستهم جيوش الروم، فاندهش أهل الشام من هذا التصرف حتى أوضح لهم أبو عبيدة أن الجزية مقابل الحماية، وبما أن الحماية لم تعد موجودة فلا حق للمسلمين في أموال أهل الشام، فقال أهل حمص: " رَدَّكُمُ اللهُ إلينا، ولَعَنَ اللهُ الذين كانوا يملكوننا من الروم، ولكن والله لو كانوا هم علينا ما ردُّوا علينا، ولكن غصبونا، وأخذوا ما قدَرُوا عليه من أموالنا، لَوِلايتُكُم وعدلُكم أحبُّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغُشْم"[1] والنتيجة انعطافة أهل الشام تجاه الإسلام وابتهالهم إلى الله أن ينصر المسلمين على بني دينهم من نصارى الروم.

فأين الدافع المادي الذي يتحدث عنه جورج وأضرابه، وأنى للفاتحين أن يحرفوا طبيعة الإسلام لتمنحهم غطاء وشرعية لغزو الأمم، ثم يعِفُّون عن أموالها ومقدراتها بل ويعطونها مطلق المساواة والحقوق حال نطقت بالشهادتين؟! إننا أمام تفكير حانق تجاه الإسلام يشل القدرة على رؤية الحقائق.

وملف الفتوحات الإسلامية والدفاع عن رحمتها التي شملت أرض وإنسان من وصلت إليه حديث ذو شجون، وقد دُبجت فيه الصحائف من أصحاب الفكر المتحرر والعقل المنصف من شرقيين وغربيين، وأكتفي بجملة المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان (ص: ١٣٩).

الذي قال: " فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب "[١]. قال ذلك وهو يقارن غزوات الإبادة التي سادت بين الناس، فالتتار كانوا يخلفون المدن وراءهم خرائب بقيعة، والأوروبيون أبادوا الوجود الهندي في الأمريكيتين وأستراليا، وبنوا مزارع أمريكا على ظهر ١٢ مليون أفريقي اختطفوهم من قارتهم الوديعة، وفي حروب الغرب الدينية كانت المدن تختفي من على وجه الأرض، فألمانيا وحدها خسرت ٤٠٪ من سكانها في حربِ الثلاثين عَاماً، في حين بقيت حاضنة "جورج طرابيشي" المسيحية تقرع الأجراس في الشام منذ دخول إسلام الفتوحات حتى اليوم، ولم يُكفأ لها قدر ولا أُطفيت لها نار.

ولو كان كاتب المقالة صليبي أوروبي لوجدت لذلك ما يبرره من التنافس الحضاري بين ضفتي المتوسط، أما أن يتفوه ذلك سليل عائلة مسيحية سورية عاشت بين أخواتها تتقاسم رغيف الحياة وحلوها ومرها؛ لشيء يبعث الأسى على النخب التي فقدت وعيها بالزمان والمكان معاً، وتلك صورة للتغريبة الوجدانية التي تعيشها بعض تلك النخب.

وقد يقول قائل أن هنالك أخطاء قارفها الحكام في عصور الفتوحات التالية، وذلك صواب من قائله، إلا أنه يحتاج لميزان العدل والعلم كي يضع تلك الأخطاء في سياق المنهج والممارسة، فالمنهج الإسلامي ضمانة للحقوق الكاملة للناس كل الناس، ويتفاوت التطبيق لذلك المنهج ما بين مقتصد وسابق بالخيرات وظالم لنفسه، ولكن مسار التجربة الإسلامية كان خيره أعم ورحمته أكبر وفي بحر منجزاته تدفن تلك الأخطاء والعثرات، ولا أدل على ذلك من قياس تلك التجربة بتجارب بقية الأمم

(١) غوستاف لوبون. حضارة العرب. ترجمة: عادل زعيتر (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط-٢٠١٣م) (ص: ٩).

من فرس وروم ومغول وصليبيين وحضارة غربية حديثة تتشدق بالحقوق وهي تدأب يومًا إثر آخر على إفساد الحياة والأحياء وتاريخ الحربين العالميتين وصفحات الإبادات و"الهولكوست" ونهب ثروات الأمم وإفساد مناخ الأرض خير دليل على البون الشاسع والهوة السحيقة بين أخطاء المسلمين، وخطايا حضارات قامت على فكرة الإبادة والاستحواذ.

الحدود اللغوية

يواصل "جورج" حديثه عن مخصوصية الرسالة الإسلامية بأمة العرب، مستندا إلى دليل اللغة، حيث يؤكد أن نزول القرآن بلغة العرب فيه إشارة جازمة بحدود الفئة المستهدفة من تلك الرسالة، فلا مجال للشك عنده (أن حدود الرسالة الكتابية الجديدة كانت تقف – إلى حينه على الأقل– حيث تبدأ حدود الرسالة الكتابية القديمة، وهي بالمناسبة ليست محضَ حدود دينية، بل هِيَ أيضاً حدودٌ لغويةٌ باعتبار أن أهل الشام وما بعدها ما كانوا ينطقون بالعربية) [١].

وقبل أن نناقش دور اللغة في تحجير الأفكار، نلفت انتباه القارئ إلى أن فكرة تقسيم العالم من سمات الديانات الوثنية، إذ الرسالات السماوية تنطلق من واحدية الأصل البشري، وواحدية الإله، وواحدية الرسالة لكل البشر، فالديانة المسيحية مثلاً تعتبر نفسها كلمة السماء لكل البشر في كل الأرض، بخلاف الديانات الوثنية كالبوذية أو الهندوسية أو غيرها، حيث تعجز عن التقاط واحدية المصدر وواحدية الجنس البشري، فتعتمد على التقسيم والتعدد، تعدد الآلهة، تعدد النوع البشري وتفاوت طبقاته.

(١) طرابيشي، ص(٩٤).

وقد يقول قائل: ألم يكن الأنبياء يُرسَلون إلى أقوامهم؟ وهذا صحيح لكن رسالة التوحيد واحدة من لدن آدم وحتى محمدﷺ، ولذلك كانوا يوصون ببعضهم بعضا ويخلّفون وراءهم الوصية بمحمدﷺ، آخر الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[آل عمران]. قال ابن عباس: (مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أُخِذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقُ، لئن بَعَث محمدًا ﷺ وَهُوَ حَيّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ، وأمَرَه أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ)[1]. فالقطيعة والتجزئة والتمايز الجغرافي الذي يتخيله هؤلاء لا وجود له في القافلة النبوية التي تتواصى برسالة التوحيد جيلاً بعد جيل.

والتباعد الجغرافي عامل رئيس في إرسال الأنبياء إلى أقوامهم، في إطار الوعاء الجغرافي لا الوعاء العنصري، فإبراهيم دعا أهل العراق وجادل النمرود، كما بينت آيات البقرة، ودعا إلى الله في فلسطين وما حولها وكان له فيها أتباع وجنود[2]، وموسى دعا الفراعنة وبني إسرائيل على حد سواء، فأسلم على يديه السحرة ومؤمن آل فرعون[3] وزوجة فرعون، ولم يقل أنا نبي خاص ببني إسرائيل[4]، فقد كانت الحدود الجغرافية هي الحاكمة لمخصوصية الأنبياء وهي مخصوصية مكانية وليست سلالية، وعندما كانت الإمكانات تستطيع تجاوز التحدي الجغرافي توسعت رسالة النبي إلى

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٧).

(٢) البداية والنهاية (١/ ٣٥٣)

(٣) توصل الباحث حمدي بن حمزة الجهني إلى أن مؤمن آل فرعون هو أخناتون بن فرعون، وقد آمن بموسى وحمل راية التوحيد. ينظر كتابه: فك أسرار ذي القرنين ويأجوج ومأجوج.

(٤) يذهب البعض إلى أن موسى خاص ببني إسرائيل، مهملين أن كليم الله حمل رسالة وقضية، فرسالة التوحيد لمن وصل إليه من قومه السلاليين " بني إسرائيل" أو قومه الجغرافيين " الفراعنة"، والقضية تمثلت في تحرير بني إسرائيل من عبودية فرعون وإعادتهم إلى الأرض المقدسة، وكثير من الأنبياء رافقت رسالته التوحيدية قضية مجتمعية حاول أن ينتشل قومه من وهدتها، كالفساد الخلقي لقوم لوط، أو الفساد الاقتصادي والتطفيف لقوم شعيب، أو الاستبداد السياسي كما في قصة موسى.

حيث وصلت كما حدث مع سليمان عليه السلام الذي استطاع بإمكاناته التي سخرها الله له أن يدعو ملكة اليمن إلى الإسلام، فأسلمت والتفتت في دعائها إلى البعد التوحيدي للإله: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[النمل]. فهو إله واحد لكل الناس، وليس إلهاً خاصاً بقوم، كما تزعم الوثنيات.

ولذلك عندما تهيأت ظروف التقارب البشري، وتبلورت الإمبراطوريات العالمية، ودخل الإنسان مرحلة العولمة بفعل تكاثر البشر وتقاربهم، أذن الله بظهور الرسالة العالمية على يد محمد ﷺ الذي أعلنها من أول يوم واحدية المصدر وواحدية الجنس البشري، وأن لغة العرب لسان وليست جنس سلالات معينة، فقد أخرج ابن عساكر أن قيسَ بنَ مطّاطيَّةَ جاء إلى حلقةٍ فيها سلمانُ الفارسيُّ وصُهيبٌ الرُّوميُّ وبلالُ الحبشيُّ، فقال هؤلاء الأوسُ والخزرجُ قاموا بنُصرةِ هذا الرَّجلِ، فما بالُ هؤلاء، قال: فقام معاذٌ، فأخذ بتلبيبه حتّى أتى به النَّبيَّ ﷺ فأخبره بمقالتِه، فقام رسولُ الله ﷺ مُغضَبًا يجُرُّ رِداءَه حتَّى دخلَ المسجدَ ثمَّ نُودي الصَّلاةُ جامعةٌ، فحمِد اللهَ وأثنى علَيه، ثمَّ قال: يا أيُّها النّاسُ إنَّ الرَّبَّ ربٌّ واحدٌ، وإنَّ الأبَ أبٌ واحدٌ، وإنَّ الدِّينَ دينٌ واحدٌ، ألا وإنَّ العربيَّةَ ليست لكم بأبٍ ولا أمٍّ؛ إنَّما هي لسانٌ فمن تكلَّم بالعربيَّةِ فهو عربيٌّ"[(١)]. فالنبي يضع اللغة في موضعها الطبيعي كوسيلة للتواصل البشري، وليست حدوداً سلالية.

كل هذه المعطيات يتجاوزها "الكاتب" ليؤكد أن اللغة فيها دلالة حاسمة على مخصوصية الرسالة، فيقول: (أن العلاقة حصرية بين عروبة القرآن وعروبة الأمة الذين نزل برسمهم)[(٢)]. وهذه من أوهى الأدلة التي يستند إليها في نظرية "مخصوصية

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١/ ٤٠٧)، اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٦١)، وعلق عليه ابن تيمية بقوله: هذا الحديث ضعيف، وكأنه مركب على مالك، لكن معناه ليس ببعيد، بل هو صحيح من بعض الوجوه.

(٢) طرابيشي، ص(٩٦).

الرسالة المحمدية"، وهو تشغيب قال به نصارى القرون الأولى من تاريخ الإسلام، وتعللوا به تبريراً لعدم إسلامهم. ولبيان تهافت هذه القراءة لحدود اللغة نوضح ما يلي:

(١) الفكر الإنساني كُتب بلغة قومه ثم نشرته الترجمة، فهل نرفضه بحجة أنه نشأ بلسان غريب؟! ولو قلنا بهذه القاعدة البلهاء سيكون "جورج" أول ضحاياها، إذ سلخ سنوات من سني حياته وهو يبشر بمنظومة الفكر الغربي، ويحتفي بفلسفة الغرب ونظرياته، ويدعونا للاغتسال به كي نتطهر من أدران التخلف؛ وكان يكفينا أن نشاغب عليه بهذه المقولة البلهاء: إن كل ما تدعونا إليه مكتوب بلغة غير لغتنا، ولا قيمة له ولا عموم، وافتراض كونية المنظور الغربي يسقط تحت مقصلة اللسان المُنشأ لذلك المنظور!.

وها نحن نرى كيف شكلت أفكار ماركس وفرويد وغيرهم عقلية "جورج" في مراحل حياته الفكرية، ولم تكن اللغة عائقاً أمام انسياب التأثير! وحده القرآن من وجد مناعة قوية عند "جورج" لأن منشأه عربي كما يقول! فحدود القرآن ما كان ينبغي لها أن تتجاوز بادية الشام لتخترق جغرافية الكتابيين من أهل الشام. ولو أننا رسمنا حدود الأديان بحدودِ اللسان؛ لكان لزاماً على النصارى أن يكتفوا بالعهد الجديد "الإنجيل"، ويتركوا العهد القديم "التوراة"، لأنه كتب بلسانٍ عبري غير لسانهم، ولكان حري بالنصرانية أن تتوقف في بلاد الشام فلا تتجاوز لسانها وجغرافيتها إلى الحبشة واليمن وغيرها من الأماكن التي تمددت فيها[1].

(٢) اقتضت رحمة الله أن يكون الكتاب بلسان القوم الذين وصلتهم الرسالة أول الأمر، ليبين لهم الرسول حقيقة الرسالة، ويشكلوا النواة الأولى لدعوة الناس،

---

(١) فند الإمام القرافي شبهة حدود اللغة هذه بكلام بديع في رسالته في الرد على النصارى. الأجوبة الفاخرة (القاهرة: شركة سعيد رأفت، ط٢-١٩٨٧م) (ص: ٦٨).

فلو نزل بغير لغتهم لقالوا:﴿ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ ﴾ [فصلت:٤٤]. ولو قيل بضرورةِ أن ينزل القرآن بلسان كل من يدعوهم، لاقتضى ذلك أن ينزل بكل لغات الناس! وفي هذا من العنت والتخريف ما فيه؛ إذ كيفَ يتسنى لنا تخزين تلك النسخ؟ وما مصيرُ اللغات التي تولد بين الحين والآخر؟ وكذا اللغات التي تنقرض؟ أليس هذا تفكير غرائبي يجرنا إليه هؤلاء القوم!

٣ فرادة اللغة العربية أهلتها لتكون مستودع الرسالة الأخيرة للسماء؛ فقد اختار الله لغة العرب لما أودعه في هذه اللغة من مزايا متفردة تجعلها اللغة الرائدة بالأمس واليوم والغد، فهيَ أوسعُ اللغاتِ استيعابا وشمولاً، وأكثرها مرونة وتوليداً، وأعلاها قدرة على التعبير، وأكثرُها اختصاراً، وبحسبك لتعرف تفوق اللغة العربية على بقية اللغات أن تقف على إحصائيات علماء اللسانيات التي تؤكد أن عدد كلمات اللغة العربية من دون تكرار تبلغ ١٢ مليون كلمة[(١)]، وهو عدد مهول مقارنة ببقية اللغات؛ فالإنجليزية لا يزيد عدد كلماتها عن ٦٠٠ ألف كلِمة، والفرنسية عن ١٥٠ ألف كلِمة وفقًا لأكبر معاجمها[(٢)]. وليست هذه حقائق ننحاز لها من خلفية قومية، بل قول العلم الحديث وتصريح علماء اللسانيات الذين يدركون مستقبل اللغة العربية أكثر من غيرهم، إذ يؤكدون أن مستقبل الحضارة البشرية سيكون من نصيب اللغة العربية، لأن ثوب اللغة الإنجليزية ضاق بجسم الحضارة، فلم تعد تمتلك من المفردات ما يستوعب حجم الإنتاج والابتكار البشري، وتكاد وظيفة اللغة الإنجليزية في التسمية أن تنزوي بفعل محدوديتها أمام الانفجار المعرفي، ومن ثم لجأ ناسها إلى استخدام الأرقام للترميز، وهذا سقوط حضاري يعود بالحضارة إلى عهد الترميز، لأن

---

(١) حماده، شوقي حماده. معجم عجائب اللغة (بيروت: دار صادر، ط١-٢٠٠٠م) (ص: ٨٣).

(٢) الفلوجي، مهند عبد الرزاق الفلوجي. معجم فردوس اللغة (الرياض: مكتبة العبيكان، ط١-٢٠١٢م) (١/ ٢٥).

اللغة ضاقت في استيعاب منتجات الحضارة وتسميتها، ولن يكون أمام الحضارة في المستقبل إلا اللغة العربية لاستيعاب الإنتاج الحضاري ومنحها تسميات كافية. وقد استهجن شاعر النيل "حافظ إبراهيم" نزوع بعض المثقفين لازدراء لغة العرب فقال:

أنا البحر في أحشائه الدر كــامن *** فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
وسعت كتــاب الله لفظاً وغــاية *** ومــا ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة *** وتنسيق أســـماء لمخترعات

وهو شاعر يدافع عن لغته بحدسه وإحساسه، ولكن ماذا يقول أهل الاختصاص من علماء اللسانيات الذين دأبوا على مقارنة اللغات وفهم مستوياتها؟

لقد اتجهت كلمتهم للانبهار باللغة العربية، وهم ليسوا من أبنائها؛ كالمستشرق الاسباني "فيلا سبازا" الذي صرح بأن: (اللغة العربية من أغنى لغات العالم، بل هي أرقى من لغات أوروبا؛ لتضمنها كل أدوات التعبير في أصولها في حين أن الفرنسية والإنجليزية والإيطالية وسواها قد تحدرت من لغات ميتة، ولا تزال حتى الآن تعالج أمم تلك اللغات لتأخذ من دمائها ما تحتاج إليه) [(١)]. ومن قبله اندهش المؤرخ وعالم اللغة الفرنسي الشهير" إرنست رينان" من نشأة هذه اللغة فقال: (من أغرب المدهشات أن تثبت تلك اللغة القوية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري، عند أمة من الرحل؛ تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم أن عُلِمَتْ ظهرتْ لنا في حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أي تغير يذكر، حتى إنها لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة) [(٢)]. والدكتور (فرنباغ) الألماني يقول: (ليست لغة

(١) الهدهد، إبراهيم صلاح. اللغة العربية أسس البقاء وسبل الارتقاء [ورقة علمية] (القاهرة: مجمع اللغة العربية، مؤتمر اللغة العربية وتحديات البقاء٢٠١٥م) (ص: ٨).
(٢) مجلة المنار (١٤/ ٤٤١).

العرب أغنى لغات العالم فحسب، بل إن الذين نبغوا في التأليف بها لا يكاد يأتي عليهم العد، وإن اختلافنا عنهم في الزمان والسجايا، والأخلاق، أقام بيننا نحن الغرباء عن العربية، وبين ما ألفوه حجاباً لا يتبين ما وراءه إلا بصعوبة) [١]. ويقول العالم الشهير "مرجيلوث": (إن اللغة العربية لغة قديمة وأنها لغة حياة حقيقية، وإنها تمثل إحدى ثلاث لغات استولت على سكان العالم استيلاءً لم يصلْ إليه غيرها) [٢]. وهنالك شهادة "روفائيل بتي" وهو الرجل الذي يجيد تسع لغات (العربية، الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الهندية، الآرامية، العبرية، الفارسية، الروسية) يقول: (إنني أشهد من خبرتي الذاتية أنه ليس ثمة من بين اللغات التي أعرفها لغة تكاد تقترب من العربية، سواء في طاقتها البيانية، أم في قدرتها على أن تخترق مستويات الفهم والإدراك، وأن تنفذ وبشكل مباشر إلى المشاعر والأحاسيس تاركة أعمق الأثر فيها) [٣]. ويقول العالم الأمريكي "ديفيد جستس": (إن حروفَ اللغةِ العربيةِ مرنةٌ سهلةٌ، لها في النفوس ما للصورِ من الجمالِ الفني) [٤]. ويقول المستشرق واللغوي إدوارد دينسون روس: (قل منا نحن الغربيين من يقدر اللغة العربية حق قدرها. . لقد كان للعربية ماض مجيد، وفي تقديري سيكون لها مستقبل باهر) [٥]. ويقول المستشرق الفرنسي "ريجي بلاشير": (العربية أكثر لغات الأرض امتيازاً) [٦]. ويقول المستشرق الفرنسي"لويس ماسينيون": (كيف يستطيع الإنسان أن يقاوم جمال هذه اللغة ومنطقها السليم وسحرها الفريد، فجيران العرب أنفسهم في البلدان التي فتحوها سقطوا صرعى سحر تلك اللغة) [٧].

---

(١) الهدهد، مرجع سابق (ص: ٨).
(٢)المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.
(٤) القيسي، عبد المحسن علي. العربية لغة وثقافة (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢٠١٩م) (ص: ٣١).
(٥)المرجع السابق.
(٦)المرجع السابق.
(٧)المرجع السابق ص(٣٢).

ويقول المستشرق الأمريكي "كرنيليوس فانديك": (اللغة العربية تفوق سائر اللغات، رونقاً وغنى، ويعجز اللسان عن وصف محاسنها) [١].

تلك عشر شهادات لدارسين لهم وزنهم في الحقل العلمي الغربي، وقد أدلوا بشهادتهم بعصر يقبع العرب في آخر سلم الحضارة، غير أن كنوز لغة العرب وعظمتها تشع من وسط ركام التخلف العربي، وتفرض على الدارسين أن يبخعوا لقدراتها المكنونة فيها.

ونحن نستشهد بأقوال علماء اللسانيات من الغرب احتراماً للتخصص والانصاف، ومخاطبة لجمهرة المنبهرين بالخطاب الغربي، وإلا فاختيار الله لهذه اللغة لتكون مستودع رسالته الأخيرة للناس حاسم في تفردها وعلو كعبها على سائر اللغات، كيف لا، وقد وصف الله اللسان العربي بأنه لا عوج فيه، قال تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزمر].

ووافق القرآنُ وصفَ العرب للغات الأخرى بأنها أعجمية، وهي موافقة لها دلالتها في بيان اللغة العربية وعجمة ما سواها، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾[فصلت].

٤ اللغة العربية لغة الأسرة البشرية الأولى. ثمت نظريتان يتجادل حولها علماء اللسانيات حول أصل اللغة، أهي من أصل واحد أم من أصول متعددة، والحقيقة أن الأسرة البشرية الأولى تكلمت بلسان واحد[٢]، غير أن هذا اللسان لا يزال محل جدل حتى اليوم؛ حيث يذهب رهط من الباحثين في اللسانيات إلى أن اللغة العربية هي لغة أبينا آدمعليه السلام، فمن المحال أن يُخلق دونها لغة للتواصل مع بنيه، وقد قيل إن لغته هي اللغة العربية، فمنها ابتدأت الأمة الأولى أمة آدم العائلية الموحِّدة،

---

(١)المرجع السابق ص (٣٢)

(٢) برنال، مارتن برنال. أثينة السوداء، ترجمة : أحمد عثمان وآخرون (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط٢٠٠٢م)(١/ ٨٩).

التي تحدثت بالعربية وعبدت الله الواحد، فكان الناس أمة واحدة في عهده، تكونت على أساس وحدة الدين ووحدة اللغة ووحدة العائلة الواحدة، والقائلون بهذا القول يستدلون على ذلك بعدة أشياء منها:

أ "الكم الهائل من الكلمات الشبيهة بالعربية في كل اللغات الأخرى الحية؛ مما يؤكد أنها جميعها من أصل واحد وهذا الأصل هو اللغة التي تشبه كل اللغات وهي اللغة العربية، حيث إن (٨٠ بالمئة من الأفعال من اللغة السنسكريتية أصلها عربي، و ٧٥ بالمئة من الأفعال اللاتينية أصلها عربي، كما أن كلا من الفينيقية و الآرامية و اللغات الشرقية أصلها عربي) [(١)]. وقد جمع صاحب معجم الفردوس[(٢)] قرابة ٢٤ ألف كلمة إنجليزية أصلها عربي، ومن قبله الدكتور سليمان أبو غوش في كتابه الماتع " عشرة آلاف كلمة إنجليزية من أصل عربي". وقد يقول قائل إن اللغة الانجليزية حديثة عهد وعمرها لا يتجاوز ٥٠٠ سنة، ومن الطبيعي أن تكتسب كثيراً من المفردات العربية بحكم التأثير الحضاري لأمة الإسلام إبان عهود الازدهار، إلا أن الدكتور علي فهمي خشيم -عضو مجمع اللغة - يؤكد أن مفردات اللغة تتجاوز الإنجليزية، بل يجزم بأن اللغة العربية أم اللغات، مستدلاً على ذلك بتتبع جذور كلمات اللغات القديمة التي تعتبر لغات المستوى الثاني، وهي أم للغات الحديثة كاللغة السنسكريتية و اللغة الهيروغليفية و الأكدية واللغة اللاتينية، ويكشف في بحوثه آلاف المفردات العربية المبثوثة في تلك اللغات القديمة التي تشبه إلى حد التطابق مفردات اللغة العربية، وقد خرج من مسوحه تلك ودراساته بيقين جازم بواحدية اللغة العالمية القديمة وأنها العربية أو العروبية كما يحب أن يسميها[(٣)].

(١) alkuwaityah. com

(٢) الفلوجي، مهند عبد الرزاق. معجم الفردوس (الرياض: مكتبة العبيكان، ط١-٢٠١٢م).

(٣) خشيم، علي فهمي. رحلة الكلمات (القاهرة: مركز الحضارة العربية، ط٢-٢٠١١م) (ص: ٤٥)، وينظر دراساته الصادرة عن نفس المركز: الأكدية العربية، وكتاب اللاتينية العربية، وكتاب البرهان على عروبة اللغة المصرية القديمة، وكتاب العرب والهيروغليفية".

ب- اللغة العربية إلهام: ينطلق القائلون بأصالة اللغة العربية من كون اللغة في أصلها إلهام ألهمه الله لآدمعليه السلام، مستدلين بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة: ٣١]. وهو رأي له وجاهته، فأكبر ضربة وجهها علماء اللسانيات لنظرية التطور تمثلت في فتق اللسان الأول وخروج اللغة، ولا تزال الداروينية حتى اليوم تعجزُ عن تفسير ذلك؛ وقد حاول بعض علماء اللسانيات المتقدمين أن يفسروا ابتداء التواصل البشري بالإشارة التي تطورت لاحقاً إلى اللغة الحروفية، إلا أن تلك التفسيرات اصطدمت بجهاز اللغة المعقد، ومعالجات الدماغ المستعصية على الفهم والتفسير.

أما أهل التفسير فقد تنوعت آراؤهم في فهم الآية القرآنية ما بين قائل بأن الله علم آدم أسماء كل الموجودات، أو ألهمه اللغة[١]، إلا أن الأوفق أن يقال إن الله ركب في آدم القدرة على التسمية ومنحه القدرات اللغوية، ثم علمه طائفة من الأسماء بها ابتدأت حياته، ثم استعمل الإنسان تباعاً هذه القابلية اللغوية المركبة بداخله، فاستحدث أسماءً وشقق مصطلحات كثيرة، وبهذه القابلية اللغوية تنوعت بعد ذلك اللغات وتفرعت من اللغة الأم. وقد صمم عالم اللغويات الشهير "نعوم تشومسكي" نظريته " المنهج التوليدي" باعتبار أن العقل يكتسب اللغة ويطورها، وهو تفسير متقدم، وقد اقتربت نظريته كثيراً من فهم القابلية اللغوية لدى الإنسان، ومنهجيته تؤيد واحدية اللغة أو الأصل المشترك لكل اللغات "اللغة الأم"، ويستدل على ذلك بتشابه الجذور، ولكون اللغة بيولوجية في الأساس[٢].

وقد ناقش علماؤنا الأقدمون مسألة وضع اللغة، فذهبت طائفة منهم إلى أن

(١)تفسير الرازي (٢/ ٣٩٧).

(٢) ينظر: المسيري، عبد الوهاب. رحلتي الفكرية (القاهرة: الهيئة العام لقصور الثقافة، ط ٢٠٠٠م) (ص: ٢٦٨).

أصلها توقيفي وضعها الله ثم طورها البشر[١]، وممن قال به ابن جني وآخرون.[٢]

وفي قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ ﴾[البقرة: ٣٧]. إشارة إلى استخدام الكلمات، وهي إشارة حاسمة في نفي نظرية تطور اللغة من الإشارة، إذ كيف يتلقى آدم الكلمات وهو يجهل الكلام؟ [٣]والبيان امتنان من الله للإنسان، قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾[الرحمن]. والبيان لغة الإفصاح والتعبير عما لدى الإنسان من معان بكامل الوضوح، ولا يكون ذلك إلا بلغة. والحوار الذي جرى بين آدم وربه، ثم الابتهال من آدم فيه دلالات على استخدام الإنسان الأول للغة [٤].

وفي سكنى آدم للجزيرة العربية، كما ورد ذلك عند المؤرخين [٥]إشارة إلى المهد الأول للبشرية، حيث تكونت الأسرة البشرية الأولى، وحيث بُني المسجد الأول في التاريخ ليعبد الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ ﴾ [آل عمران] وليس غريباً أن يتفتق لسان آدم عن اللغة العربية، وتبقى تلك الجزيرة محضن اللغة الأولى حتى عصرنا، على الرغم من التطورات التي مرت بها. وقد استشكل بعضهم حديث النبيﷺ عن إسماعيل الذي جاء فيه: (أَوَّلُ مَنْ فُتِقَ لِسانُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبَيَّنَةِ [٦]. ولا إشكال في الحديث، فالمعروف أن إسماعيل تعلم العربية من قبيلة جرهم اليمانية، ولكن الله آتاه بياناً في اللغة أبلغ من بيان أصحابها، وهذا وصف المصطفى ﷺ " الْمُبَيَّنَةِ"، فعربيته لم تكن كعربية جرهم بل تفوقت عليها،

---

(١) ينظر: المستصفى (ص: ١٨١)، المحصول للرازي (١/ ١٨١)، مجموع الفتاوى (٧/ ٩١)، إرشاد الفحول (١/ ٤١).

(٢) الخصائص (١/ ٤١)، فردوس اللغة (١/ ٢٩).

(٣)البوريني، عبد الرحمن أحمد. اللغة العربية أصل اللغات كلها (عمان: دار الحسن، ط١-١٩٩٨م) (ص: ٢٦).

(٤) المرجع السابق (ص: ٢٧).

(٥)تاريخ الطبري (١/ ١٢٢).

(٦) فتح الباري لابن حجر (٦/٤٦٤) إسناده حسن.

ولعل هذا هو سر تفوق لغة عرب الشمال فيما بعد "لغة مضر" على لغة عرب الجنوب، ومن ثم نزل القرآن بعد ذلك على لسان عرب الشمال "قريش بالتحديد". كما استشكل بعضهم حديث (يَا أَبَا ذَرٍّ أَرْبَعَةٌ سُرْيَانِيُّونَ: آدَمُ وَشِيثُ وَأَخْنُوخُ) الذي أخرجه ابن حبان في صحيحه، وقد قال عنه الشيخ الألباني: "ضعيف جداً"[١].

وقد حصل بعد آدم ﷺ الانقسام البشري وخلفت خلوف تفرقت بهم البلدان والألسن، حتى تهيئت ظروف التوحد من جديد تحت راية التوحيد التي جددها محمدﷺ وبلغة التوحيد الأولى التي عبد بها اللهَ آدمُ، وقد التفت بعض علمائنا إلى (ما رمى القرآن إليه، فبرزت في أذهانهم وحدة البشرية، ووحدة الأرض بيتاً لها، فقالوا بأن البشرية منذ أن بعث رسول الله ﷺ كأنها عادت إلى وحدتها التي جاء القرآن المجيد بها؛ كان الناس أمة واحدة، لأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، على يدي الرسول الخاتم ﷺ، الذي أحيا الإبراهيمية ورفع لواء أمة الأنبياء كلها) [٢]. ولذلك قال الإمام الرازي: (كانَ [ﷺ] نُورًا مِن أَنْوارِ اللَّهِ تَعالى مُشْرِقًا في جَمِيعِ أَقْطارِ العالَمِ، لِأَنَّهُ لا يَكُونُ مَخْصُوصًا بِبَعْضِ الجَوانِبِ، فَكانَ رَسُولًا إلى جَمِيعِ الخَلائِقِ، لِما رُوِيَ عَنْهُ ﷺ: " «بُعِثْتُ إلى الأحْمَرِ والأسْوَدِ» " فَلا يُوجَدُ شَخْصٌ مِنَ الجِنِّ والإنْسِ إلّا ويَكُونُ مِن أُمَّتِهِ إنْ كانَ مُؤْمِنًا فَهو مِن أُمَّةِ المُتابَعَةِ، وإنْ كانَ كافِرًا فَهو مِن أُمَّةِ الدَّعْوَةِ. " [٣].

ومن مقتضى هذا التجديد العالمي، وإعادة الأمة الواحدة التي تحدث عنها القرآن، أن تكون رسالة الله الأخيرة للناس بلغتهم الأم، لغة أبيهم الأول آدم، لأنها الأصل ومنها تفجرت اللغات الفرعية؛ وإن كانت هذه النظرية تحتاج لمزيد استقصاء ومسح لبقية لغات العالم الرئيسة لمعرف علاقتها بالعربية، ومن يدري فلعل الزمن يكشف للناس حقائق جديدة لفهم سر الاصطفاء الإلهي لهذه اللغة، وايداعها كتابه العظيم.

(١) التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (١/ ٣٨٧).

(٢) العلواني، مصطفى جابر. عالمية الخطاب القرآني (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١-٢٠١٢م) (ص: ١٦).

(٣) تفسير الرازي (٢٩/ ٥٣٠).

جغرافية الرسالة:

تحدثنا سابقاً أن "جورج" بنى نظريته في مخصوصية رسالة النبي للعرب وحدهم على ثلاث ركائز، مفهوم الأميين، ولغة العرب، وحدود جغرافيا العرب.

ولما أعياه تفسير غزو النبي ﷺ للروم الكتابيين؛ لجأ إلى تأويل متهافت لغزوة تبوك، فقال: (والواقعُ أن هذا التحول من حرب الأميين، أي مشركي العرب، إلى حرب الكتابيين الروم هو ما يمكن أن يفسره أو - على الأقل- يسهم في تفسير ثاني أكبر أزمة ثقة عصفت بالإسلام الفتيَّ بعد صلح الحديبية، وهي تلك التي تمثلت بالإضراب عن المشاركة في غزوة تبوك التي كانت فاتحة الحملات على أرض الروم. فعدا الفشل الذي انتهت به هذه الغزوة، فقد احتلت مكانها في الحوليات الإسلامية باسم غزوة العسرة وتميزت، أكثر ما تميزت، بتخلف المتخلفين، أو المثَّاقلين والقاعدين حسب التعبير القرآني. ويكاد يكون البيان التقريعي، الذي يشغل ثلاثة أرباع آيات سورة التوبة المئة والتسع والعشرين، ضد أولئك الخوالف، أي المستنكفين من الصحابيين عن المشاركة في غزوة تبوك، هو الأعنف في نوعه في كل سور القرآن؛ ومما يزيده عنفاً ارتباطه، في سورة التوبة دوماً، بالأمر بقتل المشركين حيثما وجدوا) [١].

لقد ورط المؤلف نفسه في مضيق لجب، جراء استدعاء غزوة تبوك ليبني عليها دليلاً لنظريته، إذ يزعم أن ثمت إضرابًا لجأ إليه الناس في معركة تبوك تمرداً على أوامر النبيﷺ بغزو إخوانهم الكتابيين، إذ كانوا يفهمون أن الرسالة المحمدية لا عناية لها بغيرهم من الكتابيين، وهو زعم خيالي لا وجود له في تاريخ غزوة تبوك، ولم يفكر فيه أحد من المتخلِّفين، فضلاً أن يعبر عنه، ولنا تعقيب على ما قاله المؤلف نجمله فيما يلي:

١ أسباب غزوة تبوك: إن غزوة تبوك لم تأت إلا نتيجة للرد السلبي من قبل

(١) طرابيشي، ص(٩٤).

الروم وحلفائهم من عرب الشام على دعوة النبيﷺ، فقد تمثلت البداية في (قتل سفير رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي- على يدي شرحبيل بن عمرو الغساني، حينما كان السفير يحمل رسالة النبي ﷺ إلى عظيم بُصرى، وأن النبيﷺأرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التي اصطدمت بالرومان اصطداما عنيفا في مؤتة، ولم تنجح في أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطرسين، إلا أنها تركت أروع أثر في نفوس العرب، قريبهم وبعيدهم) [(١)]. ثم توالت الأحداث، وقد كان الصحابة مترقبين لغزوة ملك غسان للمدينة، وهذا ما تخبرنا به رواية البخاري وغيره عن عمر بن الخطاب، قال: (وكُنَّا قدْ تَحَدَّثْنَا أنَّ غَسَّانَ تُنْعِلُ الخَيْلَ لِغَزْوِنَا، فَنَزَلَ صَاحِبِي الأنْصَارِيُّ يومَ نَوْبَتِهِ، فَرَجَعَ إلَيْنَا عِشَاءً فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا، وقالَ: أثَمَّ هُوَ؟ فَفَزِعْتُ فَخَرَجْتُ إلَيْهِ، فَقالَ: قدْ حَدَثَ اليومَ أمْرٌ عَظِيمٌ، قُلتُ: ما هُوَ، أجَاءَت غَسَّانُ؟) [(٢)].

فقد كان الصحابة يترقبون عدوانا جديداً من قبل الروم وحلفائهم، حتى جاءتهم الأخبار أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل: (أن هذا الرجل الذى خرج، ينتحل النبوة، قد هلك، أصابته سنون، فهلكت أموالهم، فإن كنت تريد أن تلحق دينك، فالآن، فبعث رجلا، من عظمائها، وجهز معه أربعين ألفا، فلما بلغ ذلك نبي اللهَّ ﷺ، كتب في العرب)[(٣)]، وهي رواية تتوافق مع رواية ابن سعد: (بَلَغَ رَسُولَ اللهَّ ﷺ أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة. وأجلبت معه لخم وجذام وعاملة وغسان، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء. فندب رَسُول اللهَّ ﷺ النَّاسَ إلى الخروج)[(٤)].

---

(١) الرحيق المختوم (ص: ٣٦٤)، والرواية ذكرها ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ٩٧)، مغازي الواقدي (١/ ٣٤٢)، الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٦٨٢).

(٢) صحيح البخاري ٥١٩١، صحيح مسلم ١٤٧٩.

(٣)المعجم الكبير للطبراني (١٨/ ٢٣١)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٦/ ١٩١) قال الهيثمي: فِيهِ الْعَبَّاسُ بْنُ الْفَضْلِ الْأَنْصَارِيُّ وَهُوَ ضَعِيفٌ.

(٤) طبقات ابن سعد (٢/ ١٢٥)، مغازي الواقدي (٣/ ٩٩٠).

لقد تصرفت الإمبراطوريتان الرومانية والفارسية بالمنطق الاستعلائي للطغاة مع رسالة النبي ﷺ ودعوته، فكسرى أرسلَ إلى "باذان" عامله علَى اليمن ليقبضَ على محمد ﷺ ويأتي به إليه! وأمراء العرب النصارى قتلوا سفير النبي ﷺ، وهرقل بدأ يعد العدة، فكان لا بد من مواجهة التهديد الوجودي لدعوة الإسلام، (ثم إنّ الرومان في الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان قوم غزاة، لا تربطهم بأهل البلاد الأولين إلا صلات القهر الماديّ والأدبيّ. فالذي يعترض على زحف الإسلام إلى الشمال يجب أن يسأل نفسه قبل ذلك: لم سكت عن زحف الرومان إلى الجنوب؟ وعن الطريقة التي يباشرون بها حكم هذه الأقطار المغلوبة على أمرها؟. والمقارنة المنصفة تجعل ما يطلبه النبي ﷺ شيئا لا غبار عليه. دعوا العقائد المختلفة تبين عن نفسها، وتجذب الشعوب إليها، أو تصرفهم عنها. . . لكنّ هذا الطلب قوبل بالردّ المسلّح. فلا دولة الروم تفتح أبواب المصيدة عن الفرائس التي تضطرب داخل جدرانها، ولا كنيسة الروم ترحّب بهذا الجو الجديد" [(١)].

٢ أسباب تخلف المتخلفين: حَاولَ المؤلفُ أنْ يُلْبِسَ المنافقين - الذين تخلفوا عن غزوة تبوك - ثوب المعارضة السياسية، وهي محاولة فاشلة ارتدت على نظريته بالخسران، إذ لم يفكر أيٌّ من المنافقين في "خرافة الكتابيين والأميين" الذي ينسج حولها الكاتب الخيالات، ولم تذكر لنا المصادر هذه الفرية الطرابيشية، لا في كتب الحديث ولا التاريخ ولا الأدب، لسبب بسيط، أنه لا وجود لها إلا في ذهن "جورج" الذي نسجها من خياله!

وكانت جل أعذار القوم تتمثل في المشقة، وهيبة مقارعة إمبراطورية الروم، وقد لخص الله تعلاتهم بقوله تعالى:﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن

(١) محمد الغزالي، فقه السيرة، ص(٤٠١).

﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[التوبة: ٤٢]. ثم غلفوا حقيقة جبنهم ونفاقهم بأعذار تافهة، مثل ما فعل الجد بن قيس حين قال للنبي ﷺ: (أو تأذن لي يا رسول الله؟ فإني رجل أحب النساء، وإني أخشى إن أنا رأيت نساء بني الأصفر أن أفتتن، فقال رسول اللهﷺ وهو معرض عنه: قد أذنت لك، فعند ذلك أنزل الله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾[التوبة: ٤٩]) [١]. وقد دارت مكاشفة بين الجد هذا وابنه، قال فيها الابن لأبيه: (لِمَ ترد على رسولِ الله ﷺ مقالته؟ فو الله ما في بني سلمة أكثر مالا منك، ولا تخرج ولا تحمل أحدا! قال: يا بنى، ما لي وللخروج في الريح والحر والعسرة إلى بني الأصفر؟ والله، ما آمنُ خوفا من بني الأصفر، وإني في منزلي بخربي، فأذهب إليهم فأغزوهم، إني والله يا بني عالم بالدوائر! فأغلظ له ابنه، فقال: لا والله، ولكنه النفاق! والله، لينزلن على رسول الله ﷺ فيكَ قرآن يقرؤونه. قال: فرفع نعله فضرب بها وجهه، فانصرف ابنه، ولم يكلمه. وجعل الخبيث يثبط قومه)[٢].

كما تعلل قوم من المنافقين بحراجةِ الموسم وشدةِ الصيف وقالوا لبعضهم بعضا: (لاتَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ، زَهَادَةٌ فِي الْجِهَادِ، وَشَكًّا فِي الْحَقِّ، وَإِرْجَافًا بِرَسُولِ اللهﷺ)[٣] فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة] وقد أجمل لنا ابن هشام في سيرته، الحالة إبانَ صدور الأمر النبوي بالاستعداد للغزو، فقال:

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، (٦/ ١٨٠٩)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦/ ١٢٢٥).
(٢) مغازي الواقدي (٣/ ٩٩٣).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٥١٧).

(أن رسول اللهﷺ أَمَرَ أَصْحَابَهُ بِالتَّهَيُّؤِ لِغَزْوِ الرُّوم، وَذَلِكَ فِي زَمَانٍ مِنْ عُسْرَةِ النَّاسِ، وَشِدَّةٍ مِنْ الْحَرِّ، وَجَدْبٍ مِنْ الْبِلَادِ: وَحِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ، وَالنَّاسُ يُحِبُّونَ الْمُقَامَ فِي ثِمَارِهِمْ وَظِلَالِهِمْ، وَيَكْرَهُونَ الشُّخُوصَ عَلَى الْحَالِ مِنْ الزَّمَانِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَلَّمَا يَخْرُجُ فِي غَزْوَةٍ إلَّا كَنَّى عَنْهَا، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ غَيْرَ الْوَجْهِ الَّذِي يَصْمُدُ لَهُ، إلَّا مَا كَانَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَإِنَّهُ بَيَّنَهَا لِلنَّاسِ، لِبُعْدِ الشُّقَّةِ ، وَشِدَّةِ الزَّمَانِ، وَكَثْرَةِ الْعَدُوِّ الَّذِي يَصْمُدُ لَهُ، لِيَتَأَهَّبَ النَّاسُ لِذَلِكَ أُهْبَتَهُ، فَأَمَرَ النَّاسَ بِالْجِهَازِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ يُرِيدُ الرُّومَ.)[1].

وعندما عاد النبي ﷺ من الغزوة تدافع المخلفون إليه زرافات ووحداناً، وقد وصف الله أحوالهم بقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾[التوبة] فميزت الآية بين أهل الأعذار – ممن حبستهم ظروفهم– وبين زمرةِ النفاق التي انتحلت الأكاذيب لتتملصَ من غزوة العسرة.

فهذه رواياتُ القرآنِ والسنةِ وحملة الأخبار والسير بينت لنا أسبابَ نكولِ المنافقين عن الخروج مع النبي ﷺ لمقارعة الروم، ولم يشر أحد منهم إلى أنَّ سبب الإضراب إشكالية "مواجهة الكتابيين" التي اخترعها "الكاتب"!

نحنُ أمامَ نوعٍ من الخيالِ الذي يخترعُ الأساطيرَ، ثم يصدقها، ثم يبني عليها الأحكام والنظريات!

٣ القرآن يمتدح غزاة تبوك: لقد كان الكاتب يَدَّعي أن الرسالة الرئيسة لكتاب "إسلام القرآن " هي أن يعيدَ الاعتبار لإسلام القرآن، لكنه أول من تنكر لهذه الرسالة، فهو يزعم أن غزوة تبوك مخالفة للتوجه القرآني الذي حصر الرسالة في أمة العرب فقط، في حين يتجاهل بشكل فاضح أن سورة كاملة بحجم التوبة

(١)سيرة ابن هشام (٢/ ٥١٦)

امتلأت بآياتٍ تشيد بموقف المهاجرين والأنصار الذين ثبتوا مع النبي ﷺ في تبوك وناصروه وآزروه، فقال عنهم ربهم تعالى:﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[التوبة]حتى أولئك النفر[1] من الفقراءِ الذينَ جاءوا إلى النبي ﷺ يبتغون ما يتبلغون به للمشاركةِ في الغزوةِ العظيمة، ولكن النبي ﷺ اعتذر لهم لقلةِ ذاتِ اليدِ، فانصرفوا وهم يبكون، فسجَّلَ القرآنُ موقفهم الإيماني الرائعَ في قوله تعالى:﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[التوبة] ثم عرَّت الآياتُ الأدوارَ السيئة للمنافقين الذين تخلفوا عن الغزوة، فقال تعالى:﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[التوبة]. وقرّع القرآن موقفهم من المتصدقين لتمويل الغزوة المباركة، فقال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [التوبة].

كل هذه الآيات لم تثر انتباهَ الكاتِب، ولم تنبهه إلى أن غزو الكتابيين منسجم مع توجهات القرآن الكريم؟! إلا أنْ يكونَ خبر القرآن غيرَ مقبول عند المؤلف، فتلك قصة أخرى، فلا يصدع رؤوسنا بإسلامِ القرآنِ الذيْ لا يعير أخباره تلك الأهمية. . . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم إذا كانَ "الكاتِبُ" يرى أنَّ الأحاديثَ وإسلامَ الفتوحاتِ هُمَا اللذانِ تجاوزا الحدود الجغرافية لرسالة محمد ﷺ العربية، فهل جهل النبي ﷺ حدود رسالته، ومن

(١) وردت الروايات أن عددهم اثنا عشر رجلًا.

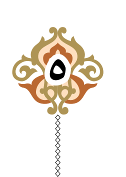
ثم هاجم الكتابيين في عُقر دارهم، دونَ أن يعيَ حدودَ رسالته؟! حاشاه سيدي- صلوات ربي وسلامه عليه-.

لست أدري عندما يكتب هؤلاء القوم، ويقعون في هذه التناقضات بأي نفسية وذهنية يكتبون؟! ولست أدري كيف يفكر هؤلاء الذين ينبهرون بمثل هذه الكتب من شبابنا المسلم، وبأي صحائف ينبهرون!



حجم المتخلفين عن غزوة تبوك: كانَ عددُ من خرج مع النبي ﷺ في تبوك قرابة ثلاثين ألف رجل، والذين تخلفوا من المنافقين بحدود ثمانين منافقاً ، وبحساب بسيط فالمتخلفين يمثلون نسبة ٠٢٪, ٠ (٢ في الألف)، فهل تستحق هذه النسبة الضئيلة أن يطلق عليها جورج: (ثاني أكبر أزمة ثقة عصفت بالإسلام) ؟!

صحيح أن القرآن تناولها بالتقريع الشديد، ونزلت آياتٌ تفضحُ المنافقينَ، لكنها جاءت في مساقين، المساق الأول: إعلاءُ مبدأ الانضباط والطاعة خلفَ القيادة النبوية، وبيان شناعة الجرم الذي ارتكبه أولئك المتخلفون، وتلك طريقة القرآن في مواكبة الحوادث الفردية- مثل قصة حاطب والمجادلة وغيرها- أو الحوادث الجماعية؛ لترسيخ مبادئ وأحكام الدين الحنيف ومعالجة النوازل أولاً بأول. والمساق الثاني: رفع الغطاء عن المنافقين الذين تمادوا في غيهم، وهتك سترهم أمام المجتمع المسلم ليحذر منهم، بعد صبر طويل تحمله الرسول ﷺ، ومداراة لشغبهم المزمن، فكانت سورة التوبة هي الكاشفة أو الفاضحة كما يسميها الصحابة، لأنها عرّت زمرة النفاق.



نتائج غزوة تبوك: يزعمُ الكاتب أن نتيجة غزوة تبوك كانت مخيبة للآمال، ومُني المسلمون فيها بفشل ذريع، حيث يقول: (فعدا الفشل الذي انتهت به هذه الغزوة) [1].

(١) طرابيشي، (٩٤).

وهو محض تزييف من صاحبه، فلم يَعُدْ النبيﷺ حتى تصالح مع أمراء العرب من النصارى ودفعوا له الجزية، وحولوا ولاءهم من دولة الرومان إلى دولة المدينة.

فممن جاء إلى النبي ﷺ (يُحَنَّةُ بن رؤبة، صاحب أيلة، فصالح رسول اللهﷺوأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح، فأعطوه الجزية، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتابا، فهو عندهم)[١]. (ثم إن رسول اللهﷺ دعا خالد بن الوليد، فبعثه إلى أكيدر دومة، وهو أكيدر بن عبد الملك، رجل من كندة كان ملكا عليها، وكان نصرانيا. . ثم إن خالدا قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله)[٢].

لقد استطاع النبي ﷺ في هذه الغزوة المباركة، أن يكسر خط الحماية الأمامية للروم، وأن يحرر ربقة ملوك العرب في تلك النواحي من التبعية للروم، لتكون المواجهة بعد ذلك مفتوحة مع قلب الامبراطورية في الشام، ولتسجل الغزوة نقاطَ تفوق في سحب بساط النفوذ من تحت هيمنة الروم؛ فقد (كان هؤلاء المتنصرون من العرب أجنحة للروم. . فإقدام من أقدم منهم على مصالحة رسول الله ﷺ والتزامهم بالجزية قَصٌّ لهذه الأجنحة، وبترٌ لحبال تبعيتهم للروم، وتحرير لهم من هذه التبعية التي كانت تذلهم وتخضعهم لسلطانِ الروم، لينالوا مِنْ سقط فتاتهم شيئاً يعيشون به، وخوفاً من ظلمهم لقوتهم الباطشة، وقد وفوا بعهد الصلح والتزموا أداء الجزية، فأعطوها عن يدٍ وهم صاغرون)[٣].

ومن مكتسبات معركة تبوك أن الرسول أرسل رسالة ثانية[٤] لهرقل، فقد (كان النبي ﷺ قد أرسل إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام زمن عهد الحديبية، فأظهر هرقل قناعته بصدقه ﷺ، ولكنه خشي على نفسه من قومه وضنَّ بملكه، وظل على نصرانيته،

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٥).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢٦)، سنن أبي داود، حديث رقم: (٣٠٣٧).

(٣) عرجون، محمد الصادق عرجون. محمد رسول الله)دمشق: دار القلم، ط ٢- ١٩٩٥ م)، (٤/ ٤٧٩).

(٤) ينظر: مجموع الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله (بيروت: داء النفائس، ط٦-١٩٨٧م) (ص: ١١٠).

وأرادَ مهاجمة النبي ﷺ قبل أن يسير إليه بجيوش الكتائب المسلمة، ولكنه عاودته قناعته بأن محمداً ﷺ رسولٌ من عندِ الله يجده في كتبهم، فرد جموعهم التي حشدها مع قائده الروماني بعد أن وصلت إلى البلقاءِ، وبعد أن بلغ النبي ﷺ أمر تجمعاتها لحربه، وسار إليه بكتائبه فلم يجد لها أثراً)[١]. وقد أقام النبي بتبوك عشرين يوماً، فعن جابر بن عبدالله: (أنَّ النَّبيَّ ﷺ أقام بتبوكَ عشرينَ يومًا)[٢]. فأي عزة أن يتجول جيش عظيم بحجم ثلاثين ألفاً ليعقد المعاهدات مع ولاة الروم، ويفرض الجزية عليهم، ويدخل في الإسلام من يدخل منهم، ثم لا ينبس الروم ببنت شفة، وقد صدق الرسول ﷺ حين قال: (نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ)[٣].وقبل هذا وذاكَ فقد ساهمت الغزوة في إعادة تشكيل المجتمع المسلم وصهره في واحدة من محطات التربية النبوية العملية، إذ تكشَّفَ زيفُ النفاقِ وتمايزتِ الصفوف، فبات الناس على المحجة البيضاء، ولم يَعُدْ للمنافقين نصيرٌ ولا ظهيرٌ من بني جلدتهم بعد أن كانت ترعد لهم أنوف، فقد بان عوارهم، وكشف أمرهم، فأصبحَ المجتمعُ المسلم أصلب عوداً وأصفى صفاً، وانخزل الناس عن المنافقين ثم تضاءلت شكيمة المنافقين حتى قال عنهم حذيفة بن اليمان بعد ذلك: (لَمْ يَبْقَ منهمْ إلَّا أرْبَعَةٌ، أحَدُهُمْ شيخٌ كَبِيرٌ، لو شَرِبَ المَاءَ البَارِدَ لَمَا وجَدَ بَرْدَهُ)[٤].

كما أن الغزوة أعطت الفتوحات الإسلامية دفعة نفسية قوية، فقد كسر الرسول ﷺ بنفسه هيبة الروم من نفوس العرب، ومهد الطريق لخلفائه من بعده، فما إن توفاه الله حتى كانت كتائب الإسلام تدك حصون الروم المستعمرين لبلاد العرب في الشام وبلاد الأفارقة في شمال أفريقيا، ثم استمر مسلسلُ الفتح حتى سقوطِ القسطنطينية عاصمة البيزنطيين، وتحققت أولى البشائر بفتح مدينة هرقل، وستتبعها روما كما حدَّث

(١) عرجون، محمد رسول الله: (٤/ ٤٢٣)
(٢) أخرجه أبو داود (١٢٣٥)، وأحمد (١٤١٧٢)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٥٧٤).
(٣)صحيح البخاري ٤٣٨، مسلم (٥٢١).
(٤)صحيح البخاري، حديث رقم: ٤٦٥٨.

النبي ﷺ هذه الغزوة هي بمثابة التطبيق العملي الرابع لعالمية الرسالة المحمدية، فقد كان التطبيق الأول إعلانه ﷺ أنه نبي للعالمين، ثم تمثل ذلك الإعلان العالمي عن إسلام نفر من رموز الفرس والروم والحبشة يتقدم موكبهم بلال الحبشي وسلمان الفارسي، ثم كان التطبيق الثالث: مخاطبة ملوك الأرض آنذاك، ملك فارس وملك الروم وعظيم مصر وملك الحبشة، ودعوته لهم إلى الإسلام، ثم كانت الخطوة الرابعة: الخروج بنفسه ﷺ مجاهداً خَارجَ الجزيرةِ العربية ليمهد طريق العالمية أمام خلفائه ومن تبعهم بإحسان، (حتى لا يكون لأحد من المسلمين حجة في التخلف عن الجهاد لتبليغ عموم الرسالة إلى العالمين تحقيقاً لمعنى قوله تعالى:﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾[الفرقان]. فكما حملوا لواء الجهاد وراياته لنشر الهداية في نطاق العرب، فليحملوا لواء هذا الجهاد وراياته إلى سائر الأمم والشعوب، لا فرقَ بينَ أسود وأبيض حتى يتعالم هذا التكليف بنشر عموم الرسالة وتتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل)[1].

ومن هنا ندرك سر تلمظ "جورج" من هذه الغزوة، ومحاولته الباهتة في التنقص منها والطعن في مقاصدها الناقضة لنظريته، ومحاولة استدعاء الموقف النفاقي وتقديمه في صورة المعارضة السياسية المنسجمة مع توجه القرآن بتحديد جغرافيا الرسالة وقومها، ألا بئست القراءة وبئس القارئ، ذلك الذي يتخبط دونما عقلٍ ولا انصافٍ ولا احترامٍ لأبجديات الحقائق.

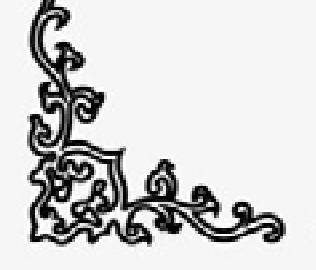
(١) عرجون (٤/ ٤٧٦).



الفصل الثاني

عالمية الرسالة و الرسول

- العالمية في القرآن.
- عالمية الرسول ﷺ.



العالمية في القرآن الكريم:

أصل كلمة العالم عند اللغويين من مادة علم وهي (تدُلُّ عَلَى أَثَرٍ بِالشَّيْءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ)[١]. والعالميةُ (مصدرٌ صناعيٌّ مِنْ عَالَمٍ)[٢] والعالمين (عبارة عما يعلم به الشيء؛ واصطلاحا: عبارة عن كل ما سوى الله من الموجودات؛ لأنه يعلم به الله من حيث أسماؤه وصفاته)[٣].

وفي معجمية القرآن نجد أن لكلمة العالمين مستويات في المعنى تتوسع لتشمل كل ما عدا الله من مخلوق وهو مربوب لله، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف] وقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾[الشعراء]. كما أن اللفظة تأتي في مستواها الأدنى لتعبر عن الإنس فقط مثل قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة].

وعالمية الإسلام تعني مخاطبته لعالم البشر أجمعين.

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/ ١٠٩).
(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة (٢/ ١٥٤٣).
(٣) التعريفات (ص: ١٤٥).

دلائل العالمية في القرآن الكريم:

لا تفتأ آيات القرآن الكريم شاهدة على عالمية هذا الكتاب، وهيمنته على ما قبله من الكتب، باعتباره الكتاب الأخير من رب العالمين إلى الناس جميعاً، فالقرآن يصف نفسه بأنه خطاب للعالمين في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يوسف] ، ص: ٨٧، القلم: ٥٢، التكوير: ٢٧. ثم يحدد مهمته ودوره العظيم في إخراج الناس كلِّ الناس من ظلمات الجهالة والكفر إلى نور الإيمان، قال تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾[إبراهيم]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾[الزمر]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء]. وقال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾[البقرة: ١٨٥]. ثم يلفت النظر إلى استحالة افتراء هذا الكتاب في مبتدئه ومنتهاه، إذ هو محفوظ من داخله ومن خارجه؛ من داخله فلا يستطيع أحد أن يأتي بمثله أو يجاري علومه، ومن خارجه فلا يستطيع أحد أن يقصيه من الوجود تحريفاً أو إلغاء، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[يونس] وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الحجر] وغيرهن من الآيات التي ترسخ عالمية هذا الخطاب في صور متعددة.

مقومات العالمية في القرآن الكريم:

أودعَ الله سبحانه وتعالى رسالته الأخيرة للبشرية في هذا الكتاب العظيم، الذي

هو زبدةُ الكتب السابقة، وآخر الكلمات الإلهية للبشر، ومن وقف أمام هذا الكتاب تظهر له عالميته من أول وهلة، فهو ليس خِطاباً للعرب – كما يزعم الزاعمون- ولا حتى خطاب للمؤمنين به، بل خطاب لعموم العالمين، ويمكن لنا أن نتتبع بعض مقومات العالمية الظاهرة في هذا الكتاب، وهي كالتالي:

أ الخطاب:معجز هو هذا الكتاب، في تركيبه في مواضيعه، في قربه وبعده، فهو قريب ميسر الفهم لأول نظرة، وبعيد الأغوار كلما أرجعت فيه البصر، تفتحت لك آفاق لا حدود لها، وهذا سر علوه على ضيقِ الزمانِ والمكانِ، إذ يجدُ كل جيل فيه ما يروي عطشه، ويجيب على أسئلته، ويعثر على كنوز لم يُسبق إليها من قبل، فقط إذا جاءه بقلب سليم، وعقل مفتوح.

ومن سمات العالمية والخلود في هذا الكتاب سمة التجريد؛ (تجريد يعلو على كل الخصائص المحلية)[١]، هذا التجريد الذي يوغل في استخدام الضمائر وأدوات الوصل " الذي، التي، الذين " ليرتفع بقارئه من حيز الزمكان، إلى أفق العبرة الخالدة من تلك القصة أو الحدث العابر، ويتعمد تغييب أعيان قصصه كثيراً، لأنه يهتمُّ بالعبرة لا الأشخاص، وبالمعاني لا الذوات، ومن هنا يجد قارئه – في أي زمان ومكان – صورته فيه.

ومن سمات هذا الكتاب العالمي، وراثته للوحي السابق (فهو وريث الموروث الروحي من عهد آدم وإلى آخر الأنبياء والمرسلين. فقد استرجع القرآن كافة هذا الموروث الروحي للبشرية بمنطق "التصديق"، ثم عالجه وأعاد قراءته بمنطق "الهيمنة")[٢]. قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[المائدة].

---

(١) حمد، محمد أبو القاسم حاج حمد. العالمية الإسلامية الثانية (بيروت: دار ابن حزم، ط٢-١٩٩٦م) (١/ ٧٨).

(٢) حمد، العالمية الإسلامية الثانية (١/ ٧٨).

وقد تنوعت آراءُ المفسرين حول مفهوم الهيمنة، ما بين قائل بأنها تعني الحفظ، فالقرآن مستودع الكتب السماوية وحافظٌ لوصاياها، وآخرون رأوا في الهيمنة الشهادة على الكتب. والواقع النبوي يعطينا تفسيراً أوضح، فقد صار القرآن هو الوريث الشرعي لكل الكتب السماوية التي سبقته ما علمنا منها وما لم نعلم، وفيه أودعَ اللهُ وصايَاهُ الأخيرة للبشرية؛ إذ لا نبي بعد محمد ﷺ ولا وحي غير الكتاب، ثم كان التصديق للكتب السابقة في عموم تنزيلها، والهيمنة على ما بقي منها، فما بقي يخضع للعدسة القرآنية تصويباً وتخطئة، وذلك مفاد قوله ﷺ : (ما حَدَّثَكُمْ أهلُ الكتابِ فلا تُصَدِّقُوهُمْ ولا تُكَذِّبُوهُمْ، وقولوا: آمَنَّا بالله وكُتبِه ورُسُلِه، فإنْ كان حَقًّا لمْ تُكَذِّبُوهُمْ، وإنْ كان باطِلًا لمْ تُصَدِّقُوهُمْ)[١]، لأن آلة التحريف قد اشتغلت ولا ندري ما الذي أبقته من صحيح تلكَ الكتب، فكانتْ الهيمنةُ الأخيرة للقرآن هي الضمانة الوحيدة، لمنعِ انتقال وتسرب تحريفات القوم إلى العقل الإسلامي، وإذا أرادَ العقلُ الإسلاميُّ أن ينظر في تلك الكتب، فلينظر إليها بعدسة القرآن .

ومن مظاهر الهيمنة شمول القرآن على كل محاسن الكتب السابقة، وقد لاحظ المفكر المسلم "علي عزت بيجوفيتش" (أن القرآن مركب فريد يجمع بين واقعية "العهد القديم" ومثالية "العهد الجديد)[٢].

هذه الهيمنة القرآنية، واحدة من أهم ما يبطل دعاوى القوم – أهل الكتاب – بأن لدينهم شرعية في الوجودِ تعادلُ شرعيةَ الدين الخاتم، وترى أنه دين خاص بالعرب الذين لم يبلغهم خبر الكتاب، وهي دعاوى تنقضها مهمة الهيمنة التي وصف الله بها كتابه، وقبل ذلك ينقضها تهاوي مصداقية تفاصيل تلك الكتب، إذ امتدت إليها يد التحريف، قال تعالى:﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ

(١) الألباني، السلسلة الصحيحة، حديث رقم: (٢٨٠٠).

(٢) بيجوفيتش، علي عزت. الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد عدس (الكويت: مجلة النور، ط١- ١٩٩٤م) (ص: ٤٢).

ﭐللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة]. فاستبدلها الله بهذا الكتاب المهيمن.

ومن سمات العالمية في هذا الخطاب حفظه، فهو النص الإلهي الوحيد الذي لم تمسسه يد التحريف التي عبثت بالكتب السابقة، كما ذكرنا آنفاً، وهذا ما جعله مهيمناً عليها، وما مكنه من البقاءِ كموجهٍ عالميٍ للإنسان كل الإنسان.

ومحفوظية القرآن، سمة تكفل الله بها كما ذكر في كتابه، قال تعالى:﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر] وقال تعالى واصفاً كتابه:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت]. وقال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ ﴾[الكهف] .

هذه المحفوظية التي هيأ الله لها نقل القرآن بالتواتر، فهو محفوظ في الصدور، مزبور في السطور، تتناقله الأمة جيلاً بعد جيل، دونما خرم لحرف واحد، وتلك واحدة من معجزاته، واستعصائه على عبث البشر.

وفي هذه المحفوظية رحمة ودلالة، رحمة من الله للبشرية بأن تكفل هو –جل في علاه– بحفظ مصدر النور والهداية لها، حتى لا تختبط في ظلمات الجاهلية، ودلالة على عالمية هذا النص الفريد وخلوده.

وقد فُحصت العديد من المخطوطات القديمة للمصحف الشريف في أكثر من جامعة بواسطة عنصر الكربون المشع، وكانت النتائج مذهلة للباحثين، إذ وجدوا التطابق بين تلك النسخ من المخطوطات رغم عمرها القديم، مع النسخة الموجودة بين أيدينا من القرآن؛ منها مخطوطة القرآن بجامعة "برمنغهام" التي أعلنت عنها

الجامعة في العام ٢٠١٥م، و تضم صفحتين من القرآن الكريم، عُثر عليها في جامعة برمنغهام؛ وتبيّن بفحصها بتقنية الكربون المشع أن عمرها يبلغ نحو ١٣٧٠ عاماً؛ وقد علق عليها البروفسور ديفيد توماس David Thomas أستاذ اللاهوت في جامعة برمنغهام بقوله: (إنني منصدم ومندهش جداً أن نجد جزءاً من مخطوطة للقرآن (تتألف من صفحتين) كتبت قبل أكثر من ١٣٧٠ سنة ميلادية على الأقل (وهذا يعادل ١٤١١ سنة هجرية). إن هذه المخطوطة تؤكد أن القرآن كتب في زمن النبي محمد ﷺ، وليس كما كنا نعتقد أنه تم تجميعه والإضافة عليه بعد وفاة النبي الكريم)[١].

وكذلك مخطوطات الجامع الكبير بصنعاء، وهي مجموعة من المخطوطات والرقائق القرآنية تبلغ حوالي ٤٥٠٠ مخطوطة، كتبت بالخط الكوفي والحجازي وغيرها من الخطوط غير المنقوطة، تعد بعضها من أقدم النصوص القرآنية الموجودة، اكْتُشِفَتْ مع عددٍ من المخطوطات التاريخية في الجامع الكبير بصنعاء القديمة عام ١٩٧٢م على طرس وتعود للعصور الأولى للإسلام، وتحليل الكربون الإشعاعي أرجع تاريخ الرق الأثري إلى ٦٧١ م[٢].

وفي منتصف ديسمبر ٢٠١٤م عثر باحثون في جامعة "توبنغن" في ولاية "بادن فورتمبيرغ" الألمانية، على نسخة من القرآن الكريم في مكتبة الجامعة خطت باليد، وتعود المخطوطة للقرن السابع الميلادي، وكشفت نتائج العينات المأخوذة من المخطوطة القرآنية لتتبع تاريخ كتابته عبر طريقة التأريخ بالكربون المشع، أنها تعود لفترة ما بين ٦٤٩-٦٧٥ ميلادية[٣].

---

(١) www. bbc. com /arabic

(٢) ينظر: حمدون، رزان غسان حمدون. المخطوطات القرآنية في صنعاء من القرن الأول الهجري (صنعاء: الجامعة اليمنية، أطروحة ماجستير، ٢٠٠٤م) (ص: ٣٥٣).

(٣) ينظر: مخطوطات القرآن والفيلولوجيا الرقمية، مقابلة مع الدكتور ألبا فيدلي، تحرير أحمد شاكر (بيروت: مركز نماء للدراسات والبحوث، ٢٠١٦م).

وهذه البحوث المعملية على نُسخ القرآن القديمة (تُعدُّ من الأدلة الدامغة على سلامة النص القرآني الكريم من أي تحريف أو تبديل، منذ أيامه الأولى إلى وقتنا الراهن، وذلك خطابٌ يفهمُه علماء الغرب الذين يبحث بعضُهم عن ثَغَرات لإثبات أن نوعًا من التغيير قد اعترى نسخ القرآن الكريم عبر العصور، لكن ما يَجِبُ تأكيدُه هنا والتنويه به أنَّ اعتماد المسلمين في نقل النص القرآني وإثباته إنما هو على التواتر الشفهي، جيلاً بعد جيل، وليس دور المصاحف الشريفة إلا تأكيدَ ذلك النقل وتوثيقه)[١].

وقد لاقى خبر مخطوطة القرآن بجامعة "برمنغهام" صدى عالمياً، حيث بلغ عدد قراء الخبر ٤٥٠مليون قارئ، لأنه أثبت بالتجربة المعملية البحتة، محفوظية القرآن الكريم وصيانته من التحريف البشري؛ تابعت ذلك الاهتمام الإعلامي وتذكرت الزوبعة الإعلامية التي أحدثها الفيلسوف اليهودي [باروخ سبينوزا] في منتصف القرن السابع عشر يوم أصدر كتابه الشهير [رسالة في اللاهوت والسياسة] الذي نقض فيه مصداقية التوراة، وبرهن على (أن الأسفار الخمسة وأسفار يشوع والقضاة وراعوث وصموئيل والملوك ليست صحيحة)(٢). فقارنت بين اهتمامين الأول يؤكد مصداقية القرآن الكريم وبالبحث العلمي التطبيقي القطعي أمام أنظار العالمين، والثاني يثبت تحريف التوراة وبالمنطق التاريخي والعقلي ويمثل نقطة فارقة لدى مثقفي أوروبا إزاء الكتب المقدسة.

وبحث [سبينوزا] سبقه إليه الإمام ابن حزم(٣) الذي جمع بين النقد الداخلي لأسفار التوراة وبيان تناقضاتها، ونقد خارجي تتبع تاريخ كتابة التوراة، غير أن الشهادة من داخل البيت اليهودي كان لها وقع وبالذات أنها ترافقت مع موجة التنصل من هيمنة الكنائس والأحبار.

---

(١) https: //www. alukah. net/library /٠/٩١٤٤٨/#ixzz٦٢R٤bKIzo

(٢) سبينوزا، باروخ سبينوزا. رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: حسن حنفي (بيروت: دار التنوير، ط١-٢٠٠٥م) (ص: ٢٥٧).

(٣) ينظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل (١/ ٩٣) وما بعدها، و كتاب "نقد الأديان عند ابن حزم الأندلسي"، عدنان المقراني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص٢٣٧ وما بعدها.

ومعلوم عند المتخصصين في تاريخ الأديان، أن التوراة التي بين أيدينا اليوم قد كتبت بعد قرون متطاولة من وفاة سيدنا موسى- - إذ ترجح بعض المصادر أنه توفي في ١٢٧٣ ق. م، بينما تعود أقدم نسخة من التوراة للقرن الرابع الميلادي، مما جعلها عرضة للتحريف، ناهيك عن النفسية المريضة لأحبار اليهود الذين كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه، كما حدثنا القرآن الكريم[(١)].

وكذلك الإنجيل لم يسلم من عبث التحريف، فقد صدرت دراسات غربية عديدة- قديمة وحديثة- تتقصى التناقض والاختلاف فوقفت على آلاف الاختلافات، أوصلها القس "شورر" إلى أكثر من ٥٠ ألف انحراف وحيادٍ عن الأصل[(٢)]، ولا ننسى أنه يقارنُ النسخ الحديثة مع النسخ الأقدم، أما النسخة الأصلية فلا وجود لها، إذ لم تدون الأناجيل إلا بعد وفاة -- وأن أقدم قصاصات وصلت من الأناجيل عمرها يصل إلى ٢٠٠ سنة بعد وفاة ﷺ.

وفي سياق علمي مغاير تتبع العالم الفرنسي "موريس بوكاي" النصوص العلمية في التوراة والإنجيل والقرآن، فخرج بنتيجة جازمة أن القرآن وحده من تتوافق نصوصه مع العلم الحديث بدقة متناهية، فبخع أمام القرآن العظيم وأعلن إسلامه، وصار من أشهر الشخصيات التي تبشر بحيوية الإسلام لإنقاذ حضارة الغرب. وختم كتابه الفريد[(٣)] بقوله: (العهد القديم يمثل مجموعة من الأعمال الأدبية تمت خلال تسعة قرون تقريباً. إنه يشكل فسيفساء لا انسجام فيها. . وكانت غاية الأناجيل تعريف الناس عن طريق رواية أفعال وأقوال ، والمؤسفُ أنَّ كُتَّابَها لم يكونوا شهود عيان

---

(١) ينظر: الكيرانوي، رحمت الله بن خليل الرحمن. مختصر كتاب إظهار الحق، اختصره: محمد أحمد ملكاوي (الرياض: وزارة الشؤون الإسلامية، ١٤١٦هـ) (ص: ١٦).

(٢) روبرت كيل تسلر. حقيقة الكتاب المقدس تحت مجهر علماء اللاهوت، ترجمة: علاء أبو بكر (القاهرة: مكتبةوهبة، ط٢٠٠٦م) (ص: ١٠٤).

(٣)التوراة والإنجيل والقرآن والعلم

للأفعال التي نقلوها. إنها بكل بساطة التعبير عن كلمات أولئك المنقولة عنهم)[١].
ثم يعقب على القرآن قائلاً: (والوحي القرآني وقد لحق بالوحيين اللذين سبقاه، ليس فقط خالياً من التناقض في النصوص الذي هو ظاهرة كتابات الناس المختلفين في الاناجيل، بل إنه يبرز للذي يمارس اختباره وتحليله بموضوعية كاملة في ضوء العلم، ذاتيته الخاصة به، وهي الاتفاق التام مع النظريات العلمية الحديثة، ويكشف كما سبق حقائق من النوع العلمي تجعل من المستحيل على رجل في عصر محمد ﷺ أن يكتبه)[٢].

وكتبٌ هذه حالها من التحريف أنى لنا أن نقارنها بكتاب الله المحفوظ بحفظه، المبرهن على حفظه في سياقه الخارجي " النقل المتواتر والتطابق الشامل لجميع النسخ، كما أشرنا آنفاً"، وسياقه الداخلي "تماسك النص أمام مستجدات العلم والحقائق"، وهو سياق جاء محفوفاً بالتحدي الدائم للبشر أن يأتوا بسورة مثله، أو يجدوا فيه ما يتناقض داخلياً أو يتعارض مع حقائق العلم القطعي.

وهو تحد قائم في كتاب الله مذ نزل على النبي ﷺ وحتى قيام الساعة، قال تعالى:﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[يونس]. كما تحداهم – ولا يزال- أن يجدوا فيه تناقضاً أو اختلافاً، قال تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء] ومع تعاقب الأيام والدهور، وتضاعف العلم البشري، وانفجار المعارف، لم يزدد القرآنُ إلا ألقاً وهيمنة على قمم المكتشفات العلمية، وعجز العقل البشري أن يجد تناقضاً صريحاً بين حقائق العلم وحقائق القرآن، أو بين آيات القرآن بعضها ببعض.

---

(١)بوكاي، موريس بوكاي. التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة: حسن خالد (بيروت: المكتب الإسلامي، ط٣، ١٩٩٠م) (ص: ٢٩١، ٢٩٣) بتصرف يسير.
(٢) المرجع السابق.

أيكون هذا الكتاب المدهش في تركيبه وحفظه وإعجازه واتساقه وهيمنته على الكتب السابقة، كتابا خاصا بعرب الصحراء؟! ألا سحقاً وبعداً لقراءة تتعامى عن شمس الحقائق.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد *** وينكر الفم طعم الماء من سقم.

ب المخاطِب والمخاطَب: سمة بارزة في القرآن الكريم أن يكون المخاطِب فيه على طول الخط؛ الله رب العالمين، بخلاف ما نجده في الكتب القديمة إذ يعود ضمير المخاطِب إلى الأنبياء أو الراوي، أما القرآن فنجدُ اللهَ - سبحانه وجل في علاه - يخاطب البشرَ كِفَاحاً دونما وسيطٍ، فالقرآنُ مستفيضٌ بالخطابِ المباشر من الله سبحانه وتعالى بضمير المتكلم "نحن" أو "أنا"، أو ضمائر المتكلم: كنونِ الفعل (نفعل) وكالألف اللينة والنون (نا) أو الياء (ني) - كلاهما ضميران للمتكلم الأول الفاعل؛ وقد يكون مفعولا، والثاني المفعول أو المضاف والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾[الإسراء:٧٠] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر:٥١] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾[ق].

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾[الحشر]. وقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ ﴾[إبراهيم:٣٤].

وإذا جاء الخطاب للنبي ﷺ يقترن بالأمر "قل"،﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾[البقرة:١٨٩].﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ ﴾.[ال عمران].

فالنبي ﷺ مبلغ عن ربه. وأحياناً الالتفات من صيغة المتكلم إلى مخاطبة الرسول من ذلك قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾[ق]. أو الالتفات من صيغة الغَيْبَة إلى خطاب الرسول مثل قوله تعالى:

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [طه: ١١٤]. ناهيك عن الخطاب المباشر للرسول بصيغة الأمر مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[المائدة:٦٧].

(لذا فإنَّ القارئَ المنصفَ، والمتتبعَ الواعي لهذا التنوع والتبدل المطرد للخطاب بين دفتي الكتاب العزيز لا يملك إلا التسليم بأن الذي يدير هذا الخطاب كله ويصدر عنه؛ هو مصدر خارج مستقل عن ذاتِ الرسولِ المُبَلِّغ، خارج مستقل عن كل العالَمين المخاطَبين، جليل يوجه الخطاب دوما بما يناسب قدره وجلاله، وينأى به عما لا يليق به، حكيم عليم بطبيعة المخاطَبين وحالهم، وبالخطاب الأمثل لهدايتهم والتأثير عليهم)[1].

إن في استفاضة ضمير المخاطِب في القرآن الكريم دلالة حاسمة على مصدرية هذا الكتاب، ومخاطبته للعالمين أجمعين سمة متفردة تحدد العلاقة بين المخاطِب والمخاطَب، تتنوع صورها إلا أنها تنطلق من مركزية واحدة أن هذا خطاب موجه من الله العظيم إلى عباده الفقراء لهدايتهم، وقد ورد في الأثر: من أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن. وإنه لتكريم أي تكريم أن يتلقى الإنسان كل الإنسان من خالقه بشكل مباشر دونما وساطة ولا حجب بشرية، وما ثم إلا رب يخاطب وبشر يتلقى.

أما المخاطَبُ بهذا القرآنِ بعامة فهمُ الناس جميعاً، المؤمن وغير المؤمن، العربي وغير العربي، والكتابي والوثني، ولذلكَ حضرت تلك الشرائح في الخطاب القرآني، فالقرآنُ ليسَ خِطاباً لفئة المؤمنين، بل خطاب مفتوح للبشرية بكل تنوعاتها، ونلمس ذلك في استخدام الخطاب العام " يا أيها الناس " الذي ورد في القرآن عشرين مرة، تتنوع مضامينه لتؤدي رسالة واحدة أن هذا خطاب مفتوح للبشرية جمعاء، منها قول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ

(١) هارون، نبيل عبد السلام. القرآن من المتكلم؟ (القاهرة: مكتبة الوفاء) (ص: ٤٨).

أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[الحجرات]. ففي الآيةِ خِطَابٌ مَفْتُوحٌ يؤسسُ للأصلِ الواحدِ، وينسفُ أسسَ التميز العرقي من قبليات أو شعوبيات أو شعوبيات إذ دورها محصور في التعارف والتعاون، ثم يرسي معيار التفاضل الحقيقي بين أبناء الأسرة البشرية الواحدة المتمثل بالتقوى.

ومن ألفاظ الخطاب المفتوح للعالمين مناداة الناس ببنوتهم لأبيهم الأول آدم (يا بني آدم) وقد ورد هذا اللفظ ثماني مرات في القرآن الكريم، وهو خطاب يستعطف الرحم الجامعة والأب الواحد للبشر، لعل وعسى أن تتحرك مشاعر الوفاء للأب الأول، فيعودُ بنو آدم لسيرة أبيهم في التوحيد، ومناصبة عدو أبيهم " إبليس " العداء، وهذا ما نلمسه في قوله تعالى:﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس]. فهو يذكّرهم بالثأر القديم الجديد، ثأر إخراج أبويهم من الجنة، حتى لا يكرروا نفس القصة ويسقطوا في براثن عدو أبيهم وعدوهم الأزلي " إبليس"، قال تعالى:﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف]. ثم نجد خطاباً لأهلِ الكتاب مباشراً، من الله رب العالمين يذكرهم بأيامهم، وتفضيلهم على عالمي زمانهم بالنبوة والتوحيد والتمكين في الأرض بعد إهلاك عدوهم الذي سامهم سوء العذاب، ثم يأتي على ذكر أخبارهم ونكباتهم ونكساتهم ونجاحاتهم وإخفاقاتهم في تجربتهم الممتدة، ثم يدعوهم إلى الإيمان بالرسالة الخاتمة. ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾[البقرة]. فهل هذا خطاب للمشركين من العرب فقط، كما يتخرص الخراصون؟! أم رسالة السماء الأخيرة لكل الناس كي يؤوب الجميع إلى الله خاشعين.

وللمؤمنينَ النصيبُ الأوفرُ من الخطاب القرآني، وهو خطابٌ خاصٌ يربيهم ويعلمهم ويمنحهم البصائر في دربِ الحياةِ، ويرافق خطوات النواة المسلمة التي

رباها القرآن على عينية، فيحفزها تارة ويهذبها تارة، ويبين لها أخرى، حتى تختط التجربة الأولى للدعوة الجديدة تحت هيمنته وتوجيهه، ولذلك استشعرت أُمُّ أيمنَ أثر موت النبيﷺ بانقطاع ذلك التوجيه الإلهي لحركة الأمة الناشئة، وعبرت عن هذا الشعور العميق للشيخين - أبي بكر وعمر - عندما زاراها عقب وفاة النبي ﷺ فوجداها تبكي، فقالا لها: (ما يُبْكِيكِ؟ ما عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ؟ فَقالَتْ: ما أَبْكِي أَنْ لا أَكُونَ أَعْلَمُ أنَّ ما عِنْدَ الله خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّماءِ)[1]؛ فانظر لهذا الوعي الثاقب الذي لمح أثر الوحي الذي كان يرافق حركة الأمة الناشئة، ويقيّم خطواتها، ويمنحها البصيرة والطاقة على شق طريقها.

وللكون حيز في هذا الخطاب القرآني، يبين اتساعه وجماله وتناسقه، ومربوبية هذا الكون الفسيح لخالقه، وتسخيره لهذا الإنسان، ويرسم معالم هادية للتعامل مع الطبيعة بتسخير عاقل، دونما طيشٍ ولا سرفٍ؛ فرؤية آثار إبداع الله وصنعه في هذا الفضاء الرحب، عبادة يوجه إليها القرآن، ودرجة من الإحسان حري به أن يخطوها ليتناغم مع الكون، ويلتحق بقافلة التسبيح، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ﴾[آل عمران].

هذا أول مظهر من مظاهر عالمية الخطاب، يراها من يتصفح هذا الكتاب العظيم مسلماً كان أو غير مسلم، لأنه سيجد لنفسه نصيباً في ذلك الخطاب، إذ هو كتابٌ يتجاوزُ الأسرةَ المؤمنةَ ليستوعبَ الأسرةَ البشريةَ جمعاء.

هذا الخطاب العالمي يُصَاغ من الفترةِ المكيةِ ويتتابع في الفترة المدنية، لتكون معالم العالمية في دعوة النبيﷺ واضحة جلية بارزة من أول يوم في الرسالة وإلى أن التحقﷺ بالرفيق الأعلى؛ فلا ينبغي لهذا الخطاب الذي يتحدث بهذه اللغة الكونية

(١) صحيح مسلم، حديث رقم: (٢٤٥٤).

أن يكون خطاباً قروياً يهتم بجزيرة صغيرة في قارة آسيا، بل هو خطاب كوني يستوعب الإنسان على امتداد الزمان والمكان.

جـ التوحيد والوحدة: يتربعُ التوحيدُ قمةَ القيمِ القرآنيةِ، ويشغل البؤرة المركزية في المنظور القرآني، ومنه تتفرعُ بقيةُ القضايا، وترسمُ لنفسِها الطريقَ على ضوءِ حقيقة التوحيد الكبرى؛ وهَلْ مُهِمَّةُ النبيين الأولى إلا إرساء التوحيد قولاً وعملا؛ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[الأنبياء] .هذا التوحيد الذي يقرر في وعي المسلم أنَّ قضيةَ الوجودِ والمصيرِ والخلقِ والأمرِ بيدِ الله سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه وتعالى هو الفردُ الصمدُ المدبرُ لهذا الكون، الذي لا شَريكَ له في أمره وتدبيره، هذا الصفاءُ العقدي، وهذا التوحيدُ الخالصُ من الشوائب، هو المصباحُ الوحيدُ الذي تحتاجُهُ البشرية اليوم لإنارة دربها إلى الله، ولن تعثر على هذا المصباح إلا في القرآن، (فالجديد الذي أتى به التصور الإسلامي ليس وجود إله، وإنما وحدانية هذا الإله وتفرده، وإحياء المقاومة للوثنية، ولكل صور المؤسسات الحائدة عن التوحيد الخالص، في عصرٍ سادتْ فيه عقيدةُ التثليثِ والثنويةِ، وتدنت فيه عقيدة التوحيد في الوعي الديني)[1].

لقد سَقَطَ الموروثُ الديني لَدَى الأممِ في وهدة الوثنيات، وتلبس بها بنسب متفاوتة، فاليهودية انتحلت مذهب الحلول لتخرج منه بعنصرية تطرد كل البشر من رحاب الله، وتستفرد بصفة الآدمية وما دونهم جوييم لا علاقة لهم بالبشر. والمسيحية توسلت أوروبا بعقيدة التثليث، فلا يُدرى بعد ذلك هل تنصرت روما أم ترومت النصرانية، ثم اتخذت من رجال دينها أرباباً يُعبدون من دين الله، فعاد الإنسان عبداً لأخيه الإنسان، وحُرم منحة التكريم والحرية التي وهبها إياه الرب.

---

(١) الفاروقي، إسماعيل راجي. التوحيد مضامينه في الفكر والحياة، ترجمة: السيد عمر (القاهرة: مدارات للأبحاث و النشر، ٢٠١٤م) (ص: ٤٤).

ذلك الموروث، غيرَ أنَّ رحلتَهُ باءَتْ بالفَشْلِ، إذ العلم يصف الظواهر ولا يعللها، ولا يمنحها المعنى، ولا يجيب على أسئلة الوجود الكبرى.

ومن هُنَا ندركُ فرادةَ وعالميةَ وحيويةَ خطابِ التوحيدِ النقي الخالص في القرآنِ الكريمِ، وحاجةُ البشريةِ إليه اليوم، بعدَ أنْ أضناها التعبُ وهي تبحث عن منظور متناسق للحياة يأخذ بيدها إلى السعادة والتوازن.

هذا التوحيدُ لا تقتصرُ ثمرتُهُ على بناءِ التصورِ الشاملِ للحياةِ، والإجابة على أسئلة الوجود فقط، بل يؤسس لعالمية إنسانية يقطف الجميع ثمارها الحلوة، مسلما كان أو غير مسلم ، فالتوحيدُ يؤسس للتعايشِ البشري ونشر السلام العالمي من خلال تأكيد واحدية الإله، وواحدية الأصل البشري، وواحدية المصير.

ثم لنتأمل أثر التوحيد في بناء مداميك الوحدة البشرية، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[النساء: ١]. أَثَمَّتَ خطابٌ في عالَمِ اليوم يجعلُ واحديةَ الأصلِ عقيدة لازمة نابعة من جوهر التوحيد، فإذا التفتنا للوثنياتِ الهندوسيةِ فإنَّ طبقةَ البراهمة – وهُم الذينَ خلقهم الإله براهما من فمه- هم المسيطرون على الشؤون الدينية فمنهم الكهنة والقضاة وبقية الوظائف الدينية، وما دونهم طبقات تتسافل حتى طبقة المنبوذين الذين لا يعترفون لهم ببشرية أصلاً، وهم من القبائل السامية التي غلبها الآريون في أول الدهر، ثم صاغوا تلك العقائد العنصرية ليسلبوا الساميين حق الإنسانية، ولا تزالُ تلكَ العقائدُ فاعلة حتى اليوم رغمَ مرورِ آلافِ السنين. وقدْ حاولَ الزعيمُ الهندي " غاندي" أن يعيد لأولئك المنبوذين شيئاً من كرامتهم الآدمية فأطلق عليهم اسم "أبناء الله"، ثم اتبعوا ذلكَ بمجموعةِ قوانينَ تسعى لتجاوز التقسيمات العنصرية، ولكن أنَّى لهم ذلكَ، إذ هي تقسيمات نابعة من عمق العقيدة الهندوسية، ولإزالتها من النفوس، لا بد من غرس

عقيدة جديدة تحررهم من هذه التصورات الوثنية، وسيبقَى الترقيعُ الحكوميُّ في إطارِ معالجةِ القشورِ والظواهر، لأن قوانين الحكومة لا تنفذ إلى العمق حيث العقائد المُحرِّكة لعواطف ومشاعر وقناعات البشر.

ولو تلمسنا وصَايَا الإخاء العالمي عندَ اليهودِ فلنْ نجدَ إلا وصايا التوراة المحرفة التي تكرسُ الاستعلاءَ العنصري حيثُ جاءَ في «سِفْر التكوين» أن قبائل كنعان ملعونة، وأن قدر أفرادها أن يكونوا عبيداً لبني إسرائيل: (ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته» [١]، بل وتدعي أن الإله قد عقد عهداً مع إبراهيم ونسله من إسحاق، فقال الله: (بل سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحاق. وأقيم عهدي معه عهدا أبديا لنسله من بعده) [٢]؛ وقد فندَ القرآنُ دعواهم، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَ ﴾[المائدة: ١٨].

ثم جاء التلمودُ وزادَ الطين بلة حين نزعَ صفة البشرية عن ما عدا اليهود إذ يؤكد المنظور التوراتي بأنَّ اليهودَ جنسٌ مقدسٌ مغاير لغيره من الأجناس، بل (يمكننا القول بأن اليهودية التلمودية تتأرجح بين شكل من أشكال التوحيد وشكل من أشكال وحدة الوجود، ولا تقترب إلا نادراً من مرحلة وحدة الوجود التي وصلتها الحلولية اليهودية في القبَّالاه. . وقد لعبت القبَّالاه دَوْراً حَاسِماً في تحويلِ اليهوديةِ من نسقٍ توحيدي إلَى نسقٍ حلولي كموني)[٣]، وقد عمقت هذه النظرة الحلولية العنصرية، فدخلت اليهودية في متاهة الاستعلاء، ثم دفعت الثمنَ غالياً عندما تخلت عن صفاء التوحيد واستبدلته بعبادةِ عجل الذات والأنانية التي أكلت قلبها، فغضب عليها من في الأرض ومن في السماء.

---

(١) سفر التكوين (٩: ٢٥).
(٢) سفر التكوين، اصحاح(١٧).
(٣)المسيري، الموسوعة اليهودية(٥/ ٤٩).

والذينَ تفاءلَوا بظهورِ المنظورِ العلموي العلماني كبديل للمنظور الديني، لم يلتفتوا لهوةِ السقوطِ الأخلاقيْ الذي طغى على العقل العلموي، إذ سقط الأخير في براثن العنصريات العرقية والقومية، فقدْ هيمنَ المنظورُ العرقي على العقل العلماني الأوروبي قرنا ونصفا من الزمنِ منذ بواكير ما يسمى عصر الأنوار الأوروبي، فدبج مئات البحوث العلمية ليثبت تفوق الجنس الأبيض على ما عداه، ولم تكن العنصرية ممارسات فردية أو حالة شاذة، بل منظور ثقافي أسس له كبار فلاسفة التنوير الأوروبي الذين بشروا بالحرية والمساواة، فممن أسس للثقافة العنصرية فيلسوف العقد الاجتماعي الشهير "فولتير " الذي كانَ يرى أن الأصول البشرية مختلفة وليست من أصل واحد! ثم تفتق ذهن الأديب الفرنسي " جوبينو" عن تقسيم الأجناس إلى ثلاثة أنواع كبرى " الرجل الأبيض الأوروبي، والرجل الأسود، والرجل الأصفر"، ثم تابع بحوثه ليؤكد أن سبب انهيار الحضارة الرومانية يكمن في اختلاط العرق الجرماني النقي بالأعراق الأخرى، وكان كتابه " دراسة حول التفاوت بين أعراق البشر" دستور العنصرية بعد ذلك، إذ تلقفه العديد من المفكرين بالقبول، وكانَ من أبرزهم الأديب الإنجليزي "هوستن ستيوارت تشامبرلين" صاحب كتاب "أسس القرن التاسع عشر"، الذي مهَّد فيه للحركة النازية، بل كان "هتلر" يعتبر " تشامبرلين" نبي النازيين! وبقية القصة معروفة لمن طالع مجازر هتلر بحق السلاف والغجر واليهود[١].

والحركةُ العنصريةُ في الغربِ لم تكنْ وليدة الهوس النازي، بل ثمرة طبيعية لتنظير جمع من فلاسفة التنوير الأوروبي منذُ بواكيرِ النهضة الأوروبية، إذ يزعمُ كثيرٌ من فلاسفتهم احتكارَ الجنس الغربي لعناصر التفوق الطبيعية عن بقية البشر، فالفيلسوفُ الإنجليزيُّ "ديفيد هيوم" يقولُ عن الزنوج: (إنني أميلُ إلى الاعتقادِ بأنَّ الزنوجَ أحط

(١)ول ديورانت. صرح الفلسفة، ترجمة: أنور الحمادي (٢/ ٣٤٩).

بالطبيعة من العناصر البيضاء)[١]. وكان "رينان" واحدًا من الذين رفضوا التسليم بنظرية تساوي البشر)[٢]، وهي نظرة ورثها عنه الفيلسوف الألماني "هيجل" الذي وصف قارة أفريقيا بأنها " بلد الطفولة الذي هو مغلف بلون الليل الأسود"[٣].

وقد أعطت نظريةُ دارون في "البقاءِ للأصلح" والانتخاب الطبيعي"، دفعة للمنظورِ العنصري الغربي، إذ استشعر البيض أنَّ قانونَ الطبيعةَ يمضي في صالحهم، وقد اصطفاهم لسيادةِ الأجناسِ البشريةِ؛ (وبناءً علَى ذلكَ اعتقد الأبيض أن استعباد، أو إفناء المجموعات البشرية «المنحطة» بواسطة الرصاص الأوربي ليس إلا تنفيذًا لنظرية استبدال مجتمعات راقية بأخرى منحطة. وقد استُغلت النظرية العنصرية في مجالات السياسة الدولية لتبرير الأعمال العدوانية؛ لأن المعتدي قد تخلص بواسطة هذه النظرية، من كل الاعتبارات الإنسانية تجاه الأجانب الذين ينتمون إلى الأجناس «المنحطة» التي كانت توضعُ في مصافِّ الحيوان، أو أعلى منه قَلِيْلًا) [٤]، وهذا ما قرره فيلسوف العقل المحض " إيمانويل كانط" حين أعطى المبرر لإبادة الزنوج كونهم (لا يثيرون في النفس الإنسانية أيا من المشاعر الراقية، وهذا يجعل التخلص منهم أمراً لا تهتز له المشاعر الإنسانية) [٥]، وعند ذلك تقدم الزحف التوسعي الاستعماري يطوي الأرض، ومن عليها، مرتاح الضمير، لأن كهنة الفكر والتنوير قد منحوه صك براءة؛ لأي عمل يقترفه تجاه الأجناس المنحطة.

ولم يتوقف الهوس عند هذا الحد، بل ذهبت الحفريات لتقيس أحجام جماجم الأجناس، حتى زعم عالم التشريح الأمريكي " صامويل جورج مورتون" الذي

---

(١) جون جكوماس. خرافة الأجناس، ترجمة: محمد رياض (القاهرة: مؤسسة هنداوي ٢٠١٤م) (ص:١١).

(٢) المرجع السابق.

(٣) صوفي بيسيس. الغرب والآخرون قصة هيمنة، ترجمة: نبيل سعد (القاهرة: الشركة العالمية للطباعة والنشر، ٢٠١٢م) (ص: ٣٨).

(٤) المرجع السابق (ص: ١٢).

(٥) كرم أبو سحلي، فقه التحيز "رؤية معرفية(القاهرة: دار السلام، ط١، ٢٠١٦م)(ص:٩٧).

درسَ جماجمُ البشرِ، وادَّعَى أن جمجمة الرجل الزنجي أصغر من الرجل الأبيض، و(اعتقد مورتون أن حجم الجمجمة يحدد القدرة الفكرية للإنسان، واستخدم مقاس الجمجمة كدليل بالإضافة لتحليله للكتابات الأنثروبولوجية ليدعم الفكرة القائلة بالتراتبية العرقية؛ حيث وضع القوقازيين في قمة الدرجات والأفارقة في الأسفل)[١]. ثم جاءت البحوث العلمية الجادة لتفند هذا الادعاء، وتعتبر ما قام به " مورتون " ضمن خانة العلم المزيف؛ فانظر كيف تم استخدام العلم لتبرير حركة الاستعلاء والعنصرية على البشر.

وهذه الأقوال لم تكن تنظيرات فلسفية تطوى في الكتب، بل تحولت إلى عقيدة عملية جاء على إثرها تبرير حركة الاستعمار واستعباد الشعوب الأدنى "كما يصور المنظور الأوروبي"، ثم صدرت قوانين تحمي هذه العقيدة العنصرية.

وكانتِ النتيجة أن أبيدت أمم برمتها في الأميركتين قدرها الباحث منير العكش بـ"١١٢"مليون إنسان[٢]، وقد روى شيئاً من فصولها الدامية المؤرخ الأسباني المطران تولومي كازاس"[٣] بما يندى له جبيُن الإنسانية. وما حدثَ لسكان الأمريكيتين تكرر في قارة أستراليا التي أبيد شعبها ليحل مكانه الإنجليز.

ثم انساحت الجموع البربرية - التي تدعي الديمقراطية والتنوير وحقوق الإنسان- لتختطف ١٢ مليون إنسان أفريقي عاشوا أسوأ صفحة عبودية في التاريخ المنظور، ثم توجت الحضارة الغربية مسيرة العنصرية بالحركات النازية التي أرادت أن تعيد تشكيل العالم من جديد، لتحتفظ بالعرق النقي، وتبيد ما دونه من الأعراق.

واليومَ وبعد أنْ تخفف المنظور العلماني من علمويته العنصرية، ظهرت العنصرية

---

(١) wikipedia. org

(٢) العكش، منير العكش. أمريكا والإبادات الجماعية (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط١-٢٠٠٢م) (ص: ١١).

(٣) ينظر كتابه: مذابح الهنود الحمر (القاهرة: دار الفضيلة، ط١-٢٠٠٧م).

في ثوبها الجديد، تحت لافتات القوميات أو المذاهب الدينية المتشددة أو الخوف من الآخر، وراجت الاسلاموفوبيا؛ ومردُّ ذلكَ كله لغيابِ الجذر التوحيدي الذي يؤسس للوحدة البشرية، ويبني التصور العالمي للأسرة البشرية، ولن نجدَ هذا الخطابَ العالمي في غيرِ القرآنِ، ولو ظللنا ننقب قروناً عديدة، وندبج الإعلانات تلو الإعلانات. فإذا كان النبي ﷺ يقول عن الكلاب: (لولا أنَّ الكِلابَ أمَّةٌ منَ الأممِ لأمَرتُ بقتلِها)[1]. فأيُّ رعايةٍ جليلة يقدمها هذا الدين لمن هو فوقَ الكلبِ، خليفة لهذه الأرض.

لقد فاتَ المتفائلونَ الذينَ بشروا بانزواءِ النظرةِ الدينيةِ في عصرِ العلم والاستنارة، ثم بتراكم تراث حقوق الإنسان في العقودِ المتأخرةِ، ما رمقه "نيشته" بذكائِهِ، إذ تنبأ بأن نهاية الهيمنة الدينية يعني ظهور هيمنة الدولة وتأطيرها للبشر كما تشاء النخب الحاكمة، فقال كلمته المشهورة: لقد مات الإله. . احذروا الدولة. ولكَ أن تتبعَ الصورَ التي رسمها " جورج أورويل" الروائي البريطاني في روايته ١٩٨٤م وهو يستشرف عمل آلة الدولة، وكيف تفتك بحرية الإنسان، وتعيد قولبته كما تشاء بفعل الإعلام الموجه والسينما والتعليم المُقنن الذي يُخرجُ أجيالاً تخدم مصالح الطبقة الحاكمة، وباسمِ الديمقراطية وحرية الرأي والرأي الآخر! والتفتَ يمنةً ويسرةً لترى النماذج السائدة في عالم اليوم، سواءٌ في البلادِ التي تدعي الديمقراطية أم في البلاد التي لا تزال في ظلمات الشمولية الحاكمة، فالتحكم بالإنسان هو التحكم وإن اختلفت نسبته، فذاكَ يدير الإنسان بالقوة الناعمة، وهذا يسوقه بالعصا.

فأي مستقبل ينتظر هذه المجتمعات وهي مسكونة بالعداء للآخر، الآخر البعيد " الأصفر والأسود"، ثم الآخر القريب، الجرماني أو السلافي، أو اليهودي، وهو مستقبل لن يكون بعيداً عما حدثَ في الأمس القريبِ؟ ومنْ غيرِ القرآنِ وخطابه العالمي الإنساني يمكن أن يكونَ منقذاً لهذا الإنسانِ من أوهامه المدمرة؟ وأيُّ نصٍ

---

(١) أبو داود (٢٨٤٥)، مسند أحمد: حديث رقم ١٦٧٨٨، وصححه شعيب الأرنؤوط، والشيخ الوادعي.

ينطوي علَى مبدأ الإخاء العالمي ويؤسس له في مستوى النظرية والتطبيق، كما يوجد في القرآن؟

فلا يوجدُ بينَ يدي البشرية اليوم نصٌ يؤسس بشكل لا مقارنة معه لحقوق الإنسان كما هو القرآن الكريم؛ ففي المستوى النظري يقر بالأصل الواحد وبالتعايش وحق الآخر في الإيمان وعدم الإيمان، واحترام إرادة واختيار وحرية الانسان، أما في المستوى التطبيقي فيقرر حزمةً من الأحكامِ الملزمة والتي تفضِي إلى صيانةِ دماءِ وأموال وأعراض الإنسان بغض النظر عن جنسه ولونه ومعتقده، بل إن الخطابَ القرآني يرتقِي إلى ربوةٍ أخلاقيةٍ أعلى فيحض المؤمنين على الإحسان لغير المسلم والبر به ومخاطبته ومجادلته بالتي هي أحسن؛ ثم يربطُ ذلك كلَّهُ بجذر توحيدي تهيمن فيه رقابة الله على تصرفات المسلم ومدى التزامه، ويوم آخر ينتظر المحسن والمسيء الملتزم والمقصر في سجل الحقوق الإنسانية.

قارنْ آية النساء – التي نزلت لنصرة يهودي مستضعف إزاء مسلم مستظهر عليه بعصبية قبيلة الأنصار، وكيف أسست تلك الآيات مداميك العدالة مع العدو قبل الصديق، بل وعاتبت نبي الهداية على مجرد التفاته لدعوى الأنصاري، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ ﴾[النساء].- بأيِّ بيانٍ عالمي لحقوق الإنسان، لن تجد مثل ذلك الاطراد والتوازن والبعد الأخروي الذي يؤسس للحقوق في الضمير والوجدان قبل تأسيسها في أوراق القوانين.

أيكون هذا الخطاب ذو الأبعاد العالمية والشمولية والدلالات الإنسانية خاص بنبي لقرى نائية في صحراء العرب؟! أم هو خطاب الله لكل البشر في كل زمان ومكان.

ألا بئستِ العيونُ المصابةُ برمدِ الجهلِ والتعصبِ، التي تتعامَى عَنْ رؤية هذا المدى الإنساني الرحيب الذي تبسطه أمامنا الآيات القرآنية العظيمة؛ ويا ويح البشرية إن لم تتدارك نفسها بطوق النجاة الذي يلقيه القرآن بين يديها.

د التسخير والاستخلاف: يحدثنا القرآن الكريم عن التكليفِ الذيْ أنيطَ بالإنسانِ قبلَ أن يُخلق، فقد جاء في حوار الله لملائكته، أنه يريدُ أن يستخلف مخلوقاً جديداً على الأرض قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]. ثم تحدثنا الآيات عن التجهيزات التي رافقت عملية الاستخلاف، وعن الإمكانات التي زُود بها هذا الخليفة الجديد، وكانَ في ذروتها العلم؛ فيقولُ تعالى:﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة: ٣١]. ثم حرية الإرادة التي عبر عنها القرآن بالأمانة، قال تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾[الأحزاب: ٧٢]. وبذلك يكون الإنسان خليفة على هذه الأرض بموجب الاستخلاف الرباني له، ودوره أن يبسط عليها نفوذه وفق محددات المنهج الإلهي الذي استمد منه شرعية الاستخلاف. هذا الاستخلاف جاء بعد تسخير الله لقوى الطبيعة ومخلوقاتها للإنسان، فهي طبيعة مسخرة، لهذا الكائن العاقل الفريد بينها، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[الجاثية: ١٣].

وورود آيات الاستخلاف في سورة البقرة، لم يأتِ جزافاً، فهي سورة بدأت بحكاية الاستخلاف القديم لآدم، ثم الاستخلاف الوسيط لبني إسرائيل، ثم تسليم الراية لمحمد ﷺ وأمته من بعده، بموجبِ التكليفِ الإلهي، وهو استخلاف لا تحده جزيرة العرب، بل ليشملَ العالمين، ليكونَ مصدر رخاء ورحمة لهم، ما التزم محددات وتوجيهات المنهج الإلهي. ثم إن هذا الاستخلاف جاء محفوفاً بأحكامٍ كثيرة تضبط خطوات المستخَلف "الإنسان"، وترسم له معالم هادية في التعامل مع الطبيعة والكون من حوله، تعامل يؤدي في الأخير إلى شكر الله، وتسخير ما أودعه الله في هذه الطبيعة لصالح الإنسان في النهاية؛ فلا سرفَ ولا عبثَ بمواردِ الطبيعة، قال تعالى:﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[الأعراف]. ولا عدوان على حقوق الأجيال القادمة، ولا إفساد للأرض بشقيه المعنوي والمادي، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي

﴿ ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦]. ولا بطرَ في الأرضِ ولا استكبار في الأرض، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[القصص]. ورحمة شاملة لكل الأمم المبثوثة فيها من هوام ودواب، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[الأنعام: ٣٨].

ثم يحدد الخطاب القرآني غاية هذا الاستخلاف بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[الحج]. فهو استخلاف لتحقيق العبودية لله مجسدة في ركنها العظيم الصلاة، وإشاعة الرحمة لبني الإنسان عبر شعيرة الزكاة، ثم التعاون مع البشر للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليغلب الخير الشر، وينزاح المنكر إلى الهامش.

ويبشر القرآن بعالمية الأمة المحمدية وظهور حضارتها للناس، فيقول تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[آل عمران]. وفي الآية بشارة بالظهور العالمي لأمة محمد ﷺ - وقد تحقق- وفيها نعت لأهم صفة في حضارتهم ممثلة بالرحمة، وفيها بيان لسبب سحب الاستخلاف من بني إسرائيل ومنحه للأمة المؤمنة، لتكون بديلاً لمن كفر بالنبيين وبدل الكتاب من الإسرائيليين.

ونحن نلمس البعد العالمي في لفظة الخروج "أُخرجت للناس"، فهي مأمورة بالخروج، وهنالك من أخرجها، (وذلك حين جعل من الأمة الإسلامية، أمةَ دعوةٍ، مهمتها "الخروج إلى الناس"،؛ وذلكَ خِلَافاً للتجربة اليهودية التي ارتكزت على "التوطن" في الأرض المقدسة والخطاب الحصري بنص الآية: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾[المائدة].

وهكذا جعل الله لكل منا شرعة ومنهاجاً)[١].

(١) حمد، محمد أبو القاسم حاج حمد. العالمية الإسلامية الثانية (بيروت: دار ابن حزم، ط٢-١٩٩٦م)

والمستَخلف في المنظور القرآني ليس العرب كما قد يبدوا لأول وهلة، وليس أرض الاستخلاف هي جزيرتهم كما يزعم الزاعمون، بل المستَخلف هنا هم المؤمنون بهذا الدين، الذين يجسدونه واقعاً في حياتهم وتعاملهم مع الآخرين، عرباً كانوا أو غير عرب، فقد جاءت الآيات حاسمة لتقول إن الاستخلاف لن يكون لجنس معين وإنما لحملة الرسالة الأخيرة من أي جنس كانوا، قال تعالى:﴿ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد].

ثم يحدد القرآن حدود الاستخلاف وهي عمومُ الأرضِ، والشهادة على الناس أجمعين فيخاطب نبيه قائلاً:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فهي أمة الوسطية حتى في موقعها الجغرافي الذي يمكنها من الامتداد شرقاً وغرباً لتقوم بشهادتها على العالمين.

ولست أدري كيف تكون الشهادة إن لم يكن للمسلم حضورٌ عالمي مميز، يمكنه من إبلاغ رسالة الله إلى العالمين، فيُسمِع الدنيا تراتيل تلك الرسالة، ويستمع لردود أفعال الأمم، كي يكون شاهد حق، له حضوره وتميزه بين الأمم، لا شاهداً عن غيب لا يدري ماذا هنالك.

هذا التكليف الرباني بالاستخلاف والشهادة على الناس هو الذي حرك المسلمين قديماً وحديثاً للانسياح في الأرض مجاهدين بسيوفهم العتاةَ، وفاتحين بأخلاقهم قلوب الناس، فسبقت أخلاقُهم سيوفَهم، وطرقت ألحان التوحيد والعدل مسامع القلوب فاستجابت لها، ودخلت أمم في دين الله أفواجاً، جعلت من المستشرق الإنجليزي "توماس أرنولد" يتتبع خطى الإسلام الفاتح في كتابه الشهير "الدعوة إلى الإسلام" ليخلص بنتيجة مفادها: (لم نسمع في ظل الإسلام عن أي محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين

(١/ ٧٧).

المسيحي ولو اختار الخلفاء - خلفاء المسلمين - تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وإيزابلا دينَ الإسلامِ من إسبانيا، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهباً يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين من إنجلترا مدة ثلاث مئة سنة)[(١)].

لقد عجز " أرنولد" ومن قبله " غوستاف لوبون"[(٢)] من تفسير ظاهرة التسامح في حركة الفتح الإسلامي، وعزوا ذلك إلى عبقرية قادة الإسلام الأوائل وتخطيطهم الفذ، وغفلوا عن شريعة الإسلام، وكيف ضبطت خطواتهم العالمية، ورسمت لهم سياسات التعامل مع الأقوام والأجناس، فقننت التعامل مع الدماء والأموال والأعراض، فأثمر خضوعهم لتلك الشريعة عدالة في الحكم ورزانة في التدبير، فبخعت لهم نفوس الناس.

فالقرآن لم يمنح المسلمين صكاً مفتوحاً للاستخلاف، بل ألزمهم بأحكامه ذات الصبغة العالمية، المصممة لاستيعاب كل صنوف البشر في كل الظروف والأحوال، فكانت خلافتهم بخلاف آخرين، أبادوا الأمم كي تستجيب لكلمة الرب، كما حدث مع قبائل روسيا وغيرها، التي دخلها المبشر المسيحي حاملاً السيف بيد والإنجيل بيد، فنصب المذابح للبشر كي يسحبهم إلى حضيرة الرب!

وفي المحصلة فإن ثمرة هذا الاستخلاف يكمنُ في سيادةِ القيم التي جاء بها القرآن الكريم، إذ التمكين = تمكين تلك القيم من النمو في الأرض ليفيء البشر إلى ظلالها، وينعموا تحت هيمنتها الرحيمة، ولذلكَ جاءَ البيانُ القرآني ليؤكدَ غلبةَ دينِ الإسلام وظهوره على كل الأديان، لأنه الدين الحق، والحق ثقيل بطبعه، قوي في أصله، محتكر

---

(١) أرنولد، توماس. و. أرنولد. الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط١-١٩٤٧م) (ص: ٧٥).

(٢) في كتابه" حضارة العرب" (ص:).

للعاقبة على مر الدهور، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة].

فهي بشارة بمآل التكليف تبعث في نفوس العاملين أن التاريخ معهم، والسنن معهم، والعاقبة لهم، وكلمة الله لن تخذلهم ما داموا على طريق الجادة ثابتين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[الصافات].

وآيات الاستخلاف ومقتضياته وحدوده وأحكامه، أكبر من أن تستوعبها وريقات كهذه، تتغيا أن تلحظ عالمية الرسالة في ثنايا الخطاب القرآني الذي يعلنها للمسلمين جلية لا لبس فيها، أن الأرض ميدانكم والبشر أبناء أبيكم، وإليهم أجمعين الرسالة، وعليهم كافة الشهادة، فماذا بعد هذا البيان العالمي إلا الضلال.

ما كان لهذا الخطاب العالمي الذي يحشده القرآن، فيقارعُ أهل الكتاب، ويسحب التكليف الإلهي منهم، ثم يعطيه لأمة الرسالة المحمدية، ويكلفها بالشهادة على الناس، ويبشرها بظهور دينها وعلو رايتها، أن يسقطَ في وهدةِ الإقليميةِ، ويجعلَ من مثلِ هذه القضايا الكونية منوطة بجزيرة العرب، أو بقومية ضئيلة بجوار أمم الأرض.

فمن لم ير التوجه العالمي في هذا الخطاب الاستخلافي الذي يبثه القرآن، فلا ريب أن بصيرته قد طمست، وران عليه التعصب المقيت.

فانظر إلى آثار التوجيه القرآني للمسلمين في الاستخلاف في الأرض ونشر رسالة التسامح، وإخراج العباد (من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام) [١].كما فهم ذلك وعبر عنه العربي البسيط ربعي بن عامر.

ثم انظر إلى آثار الانسياح العالمي لأمة الإسلام الأولى، وكيفَ أثمر حضارة لم يشهدها التاريخ في القديم ولا الحديث، في رحمتها، وقيمها، وارتباطها بالسماء.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٥٢٠).

عالمية الرسول: ﷺ

من تأمل طريقة إرسال الرسل إلى بني آدم يلحظ سنة التدرج ومراعاة تطور الحالة البشرية، فقد كان الإنسان الأول "آدم" نبي عائلته الصغيرة؛ إذ هي نواة البشرية الأولى، ثم توزعَ الناسُ وانساحوا في أراض متفرقة، وغلبتهم جبلتهم في النسيان وانطمرت معالم الهداية، فاقتضت رحمة الله أن يرسلَ إلى كل قومٍ نذيراً من بني جنسهم يردهم إلى الصوابِ، ويجددُ عهدَ أبيهم الأول، حتى تقاربتَ الأممُ بعدَ تكاثرها، وصارَتْ الامبراطورياتُ سمة التنظيم الإنساني الأبرز، وارتقى الوعي البشري لاستقبال رسالة عالمية تجمع البشرية، فأذن الله بخروج محمد ﷺ حاملاً الرسالة الأخيرة لهذا الإنسان، كي يستكمل رحلته في هذه البسيطة مستضيئا بهداية السماء.

ومن نظر في شخصية النبي ﷺ تجلّت له ملامح العالمية من أول لحظة، فهو عالمي في شخصيته وإعداده، وعالمي من خلالِ التكليفِ الذي شرفه به رب العالمين، وهو عالمي في تباشير الكتب السابقة، وتصرفاته في سيرته تحدثك عن شخصية محورية في تاريخ العالمين من لدن آدم وحتى انطواء البسيطة.

ويليق بنا أن نقف على معالم التبيان القرآني لعالمية الرسول الخاتم ﷺ.

١ الإيمان بمحمد ﷺ شطر التوحيد:

بوابة الإسلام الشهادتان، لا يستكمل الداخل ركنيها إلا بالاعتراف بنبوة محمدﷺ، فمن مقتضيات توحيد الله الإقرار برسالة محمد العالمية ومحبته ونصرته وتأييده، وإلا عاد التكذيب برسالة محمد ﷺ وعالميته على الشهادة الأولى "توحيد الله" بالنقض؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[آل عمران] وقد بين رسول اللهﷺ في الحديث أن الإقرار بالله

وحده دون إيمان برسالة محمد ﷺ لا ينجي صاحبه من البوار، فقال ﷺ: « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[١].

وهذه من بديهيات الإسلام والمعلوم من الدين بالضرورة، وما دونها الضلال المبين.



٢ التكليف الرباني لمحمد ﷺ:

تكليفُ الله لنبيه محمد ﷺ واضح محدد من أول يوم، أن ينذر الناس كافة، ويبلغ دين الله للعالمين، وقد تظاهرت آياتُ القرآنِ لتقرير هذه البدهية في كتاب ربنا بصيغٍ متعددة نعرضها فيما يلي:

أ. صيغة العالمية التي تجمعُ بين الأنس والجن، منها قوله تعالى:﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾[الفرقان]. وقوله تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[الأنبياء]. وقد استوقفت هذه الآية ابن عاشور فعلق عليها قائلاً: (صيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول- عليه الصلاة والسلام- ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه. فهي تشتمل على أربعة وعشرين حرفا بدون حرف العطف الذي عطفت به، ذكر فيه الرسول، ومرسله، والمرسل إليهم، والرسالة، وأوصاف هؤلاء الأربعة، مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، وخصوصية الحصر، وتنكير رحمة للتعظيم) [٢].

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم:(١٥٣).
(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١٦٥).

ب.صيغة الناس: وقوله تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف]. والآية تضمنت لفظينِ من ألفاظِ العموم "أل " الاستغراقية في الناس، و"جميعاً" ولها وظيفتان: التأكيد، والعموم. وهذه الآية وحدها كافية لحسم الموقف القرآني من تحديد عموم الرسالة لما تحمله من أدواتِ العمومِ والتأكيد على استغراقه، غير أن القرآن لا يدع للمتشككين فرصة، إذ يأت بالآيات تترى لتأكيد المعنى العظيم والقاعدة الأساس في عمومية الرسالة المحمدية، فيقول تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[سبأ] وقوله تعالى:﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾[النساء].وقوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨].

وقد حاول الكاتب أن يخصص لفظة "الناس" لتكون خاصة بالعرب، قائلاً: (ثم إن الطبري، بتأويله كلمة الناس، بأنها تعني "الناس أجمعين، العرب منهم والعجم"، يخالف المعنى المعجمي لهذه الكلمة، كما يخالف معناها السياقي. فهذه الكلمة التي ترد في القرآن ٢٤٠ مرة، لا تعني البشرية قاطبة في زمن لم يكن فيه هذا المفهوم قد وجد. والقرآن نفسه يستعمل الناس كلمة "الناس" في العشرات من الآيات بمعنى بعض الناس) [١]، والكاتب أُوتي من العجمة وضعف في لغة العرب، فالناس من ألفاظ العموم على الأصل، كما ذكر أهل اللغة لارتباطها بأل الاستغراقية، ولا تخرج من عمومها إلا بمخصص سياقي أو عقلي أو نحوه، قال تعالى:﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾[آل عمران: ٩]. فهل يجمع الله يوم القيامة أغلب الناس أو بعضاً من الناس؟! أم أن لفظة الناس تبقى علَى أصْلِهَا في شمولِ جنسِهَا إذ لا قرينةَ تصرفها إلى

---

(١) طرابيشي (ص: ٩٧).

الخصوص. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل]. فمنهم هؤلاء الناس الذين بهلاكهم ينتهي الدبيب في الأرض؛ إن لم يكونوا كل الناس! وقال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾[آل عمران: ١٤]. فمن هؤلاء الناس الذين رُكبت فيهم غريزة حب الشهوات، إن لم يكونوا كل البشر.

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾[المطففين]. فهل يقومُ أحدٌ دون أحد يوم القيامة، أم هي قيامة البشر ، وفيها يقومُ كل الناس. ولفظة "الناس" التي تستغرق جنسها كثيرة في القرآنِ، وإنما خصصت بمخصصات، مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وقد كفانَا الإمامُ الشافعي مؤنة الترتيب لاستخدام هذه الألفاظ في مستوياتها، فذكر أن لفظ الناس في أصله عام وقد يراد به الخاص فقال: (اسم الناس يقع على ثلاثة نفر، وعلى جميع الناس، وعلى مَن بين جمعهم وثلاثةٍ منهم، كان صحيحاً في لسان العرب أن يقال: " الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ"، وإنما الذين قال لهم ذلك أربعةُ نفر " إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ "، يعنون المنصرفين عن أُحُدٍ) [١].

فلفظة "الناس" تفيد العموم لجنس الناس إذا لم يصرف العموم قرينة، أما إن اقترن بلفظة "الناس" أحد ألفاظ التوكيد، مثل "كل" كقولك: كل الناس يتنفسون. أو "الناس جميعاً" كقولك: جميع الناس يشربون. فقد صار الاستغراق قطعياً. [٢]

ومن هنا ندرك لماذا أراد الكاتب أن يهرب من قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. إذ قال الكاتب: (ثم إن القرآن،

---

(١) الرسالة للشافعي (١/ ٥٩).

(٢) إرشاد الفحول (١/ ٢٩٦).

إذا أراد نقل المعنى من التبعيض إلى الكثرة، استعمل تعبير "الناس جميعاً") [١]؛ وهو هروب مكشوف لا يستند إلى دليل من لغة، ومقتضى كلامه أن ننفي ألفاظ العموم من لغة العرب، فتعجز اللغة عن شمول ألفاظها لأي جنس من الأجناس، فإذا تحدثنا عن الطيور، فلا تسعفنا اللغة لشمول كل الطيور، وإذا تحدثنا عن البحار فلا تسعنا اللغة، وهذا من العبث المنهجي، والجهل باللغة ودورها في استيعاب الموجودات تعبيراً ودلالة.

وقد حاول المؤلف بعد ذلك - وكما هي عادته - العبث باللغة وصرفها إلى غير ما وضعت له، فقرن بين لفظة "الناس" و "الأمة" واعتبر أن لفظة "الناس" إذا وردت في سياق النبي فإنها تدل على أمته أو قومه، ولكل نبي "ناسه "بمعنى أمته، حيث يقول الكاتب: (وغالباً ما يتطابق معنى "الناس" مع معنى "القوم" و"الأمة" ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[الزخرف: ٣٣]. وإنها من منطلق هذا الترادف بين "الناس" و"الأمة" المتحدِّدة في الغالب بلسانها وبلسان النبي المبعوث إليها) [٢]. ومعنى الآية يختلف اختلافاً جذرياً عما يريد منها الكاتب، فلفظة الناس تدل على عموم البشر هنا، ولفظة الأمة تدل على الجماعة ذات الجامع المشترك الواحد، ولذلك نبهتنا الآية الأخرى للفرق بينَ الأمة والناس، قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة:٢١٣]. أي كانوا أمة توحيد وإيمان، فاستحقوا لفظ الأمة الواحدة، ثم فرقهم الكفر فصاروا أمماً يشملها لفظ الناس، ولا تندرج تحت أمة واحدة، فبعث الله لهم الأنبياء، فالآية حاسمة هنا في التفريق بين مفهوم الناس الذي يشمل جنس البشر، ومفهوم الأمة الذي يدل على الجماعة ذات الجامع المشترك.

ثم إن الترادف في القرآن شبه معدوم لأن قانون هذا الكتاب المعجز أن لكل حرف ثقله في الوضع ودلالته وأبعاده، والترادف يعني الحشو والزيادة، قال ابن الأعرابي:

(١) طرابيشي (ص: ٧٩). .

(٢) طرابيشي (ص: ٩٧).

(كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى من المعاني فإن في كل واحد منهما ما ليسَ في صاحبه ربما عرفنا فأخبرنا به، وربما غمض فلم نلزم العرب جهله) [١]. ومن هنا تنبه علماؤنا لقانون اللغة في القرآن، قال الزركشي: (فَعَلَى المفسر مراعاة الِاسْتِعْمَالَاتِ وَالْقَطْعُ بِعَدَمِ التَّرَادُفِ مَا أَمْكَنَ فَإِنَّ لِلتَّرْكِيبِ مَعْنًى غَيْرَ مَعْنَى الْإِفْرَادِ) [٢]. وقال ابن تيمية: (التَّرَادُفَ فِي اللُّغَةِ قَلِيلٌ وَأَمَّا فِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ فَإِمَّا نَادِرٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ) [٣]. (ومما لاشك فيه أنه ليس في القرآن الكريم من الألفاظ المترادفة أو المتواردة إلا وفي كلٍّ معنى مقصود، يدركه من كان ضليعاً في فقه اللغة وأسرار العربية)[٤].

٣ حوار القرآن مع أهل الكتاب ودعوتهم للإيمان بمحمد ﷺ:

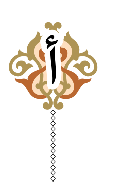
يزعمُ القائلونَ بمخصوصية رسالةِ النبي ﷺ للعربِ أن لا علاقةَ له بأهلِ الكتاب من اليهود و النصارى، ويقولونَ أن ذلك مقتضى منطوق القرآن الكريم، فالنبي محمد ﷺ خاص بالأميين من العرب فقط، ويتجاهلون ملف الحوار القرآني مع أهل الكتاب من يهود ونصارى، وهو حوار يقارع أوهامهم في مخصوصية النبيﷺ، ويبين أن لا قيمة لما عندهم من الإيمان بالرسل السابقة، والكتب التي بين أيديهم ما لم يستكملوا ذلك بالإيمان بمحمد ﷺ ورسالته، وذلك مقتضى إيمانهم برسالتهم السابقة؛ لأنها تتضمن البشارة بمحمد ﷺ وتصفُ لهم علاماته وأماراته التي رأوها بأم أعينهم، فآمن منهم من آمن، وجحد من جحد.

وملفُّ الحوار مع أهل الكتاب يدور حول قضايا رئيسة في ذروتها توحيد الله

(١) الرافعي، مصطفى صادق. تاريخ آداب العرب (المنصورة: مكتبة الإيمان، ١٩٩٧م) (١/ ١٦١).
(٢)البرهان في علوم القرآن (٤/ ٧٨)
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤١)
(٤)العك، خالد عبد الرحمن. أصول التفسير وقواعده (بيروت: دار النفائس، ط٢-١٩٨٦م) (ص: ٢٧١).

تعالى وتنزيهه من تصوراتهم الباطلة، وعموم رسالة محمدﷺ للعالمين أهل الكتاب وغيرهم، وهو ملف يوظفُ البشاراتِ السابقة بمحمد ﷺ في كتب القوم، ويؤكد على وراثة محمد ﷺ للأنبياء، وعلى رأسهم أبوه إبراهيم مجدد الديانات التوحيدية، ويحسم في الحكم الإلهي لمن تلكأ عن الاستجابة لمحمد، ثم يختم الملف بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران].

ومن يتتبع أوقات ومراحل نزول الآيات المتعلقة بأهل الكتاب في القرآن الكريم يجدها متسلسلة كالتالي:



الإقرار بواحدية الرسالة الإسلامية من لدن آدم وحتى اليوم، والالتفات من العهد المكي لأدوار الأنبياء وتلمّح دور المؤمنين من أهل الكتاب بالنبي ﷺ، ودعوة المشركين للاستفادة من البشارات بمحمد ﷺ الموجودة في كتب أهل الكتب.

ففي آية الحج إعلان التسمية السرمدية لرسالاتِ التوحيدِ التي صكها إبراهيم ﵇واعتمدها رب إبراهيم لتكونَ علامةَ أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾[الحج:٧٨].

وفي القرآن المكي لفتٌ لهذا التواصلِ والاستمرارِ بين قافلة التوحيد فيشير القرآن لأهل مكة أن هذه رسالة متسقة متواصلة مع من سبقها، قال تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾[الأحقاف]. ثم يطالب المندهشين من بعث نبي يجدد التوحيد بسؤال أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل]. وأهل الذكر هنا هم حملة التوارة والانجيل ليأخذوا منهم خبر النبوة وبشاراتها.


احتفاء القرآن الكريم بمن آمن بمحمد ونصره من أهل الكتاب، حيث يستقبل القرآن إيمانهم بمحمد ﷺ بترحاب ويرفعهم إلى مصاف الشهادة على صدقية النبي ﷺ، باعتبارهم تحققوا من علامات النبوة وتيقنوا من تطابق شخصية النبي ﷺ مع ما جاء في كتبهم، فكان إسلامهم شاهداً ماثلاً أمام المترددين؛ ومن أولئك المؤمنين الحبر اليهودي عبد الله بن سلام الذي أسلم مبكراً و نزل فيه(١) قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الأحقاف].


الامتنان على بني إسرائيل بالإنقاذ الأول لهم على يد موسى، وحثهم على اللحاق بسفينة الإنقاذ المحمدية كي يخرجوا من طوفانِ الغضبِ الإلهي، إذ ذكّرهم القرآن بقصتهم القديمة مع فرعون، وامتنانُ الله عليهم بالنبي موسى عليه السلام الذي قادَ تحريرهم من سطوةِ فرعون، ثم تمردهم علَى أنبيائهم وما جره عليهم ذلك من غضب، وأن الإيمانُ بهذا النبي الخاتم فرصتهم الأخيرة للخروج من دائرة الغضب، وهذه نجدها مبثوثة في أوائل سورة البقرة التي نزلت في مطلع العهد المدني، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾[البقرة].

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ١٠٤).

 لا قيمة لإيمان أهل الكتاب السابق مالم يعترفوا بنبوة محمد ﷺ ويتبعوه.

ثم تصاعد الخطاب القرآني معهم ليبين لهم أن إيمانهم بكتبهم وأنبيائهم وحدها لا تغني عنهم شيئاً مالم يتمموا ذلك بالإيمان بمحمد ﷺ وكتابه، فمن مقتضيات إيمانهم الصادق بكتبهم أن ينفذوا ما أمرتهم به من اتباع النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم؛ قال تعالى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾[الأعراف]. وتأمل معي هذا السياق العذب الجميل، الذي ينسل من حكاية موسى وقصة موسى ودعاء موسى عليه السلام، إلى الإلماح باستجابة الله لدعوة موسى، وأنها ستنال من آمن به واتبع محمد النبي الأمي المزبورة صفاته في التوراة، ثم تلتفت الآية الثالثة لخطاب الناس كل الناس أن هذا النبي مرسل من مالك الكون إليكم جميعاً كتابيين وغير كتابيين، عرباً وغير عرب، وأن لا سبيل للهداية إلا باقتفاء سبيله.

ويُقرِّع القرآن تصرفات الجاحدين منهم الذين يزعمون تمسكهم بكتبهم دونما إيمان بالنبي ﷺ الذي بشرت به كتبهم والاستمساك بكتابه والكتاب المصدق لكتبهم والمهيمن عليها، فيقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ

ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [البقرة].

والقرآن يرفض عقلية التجزيء التي يتمترس بها المشركون وأهل الكتاب على حد سواء، فعقلية التجزيء والانتقاء في أمور التوحيد مرفوضة منكرة، فالمشركون يقرون بالله مع وجود الشريك فطالبهم القرآن بالخلوص التام له وحده ولمقتضى توجيهه، قال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر] والحال كذلك مع أهل الكتاب الذين يريدون الاحتفاظ بأنبيائهم وكتبهم دون الاعتراف بنبوة محمد ﷺ! فكان بيان القرآن حاسماً، أنهم أمام رسالة عالمية إما الإيمان بها أو لا إيمان؛ قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[البقرة]. والآية واضحة وصارمة، وتجعل من مقتضى الإيمان بالله ورسله وكتبه استكمال الإيمان بمحمد وما أوتي، وإلا فهو الشقاقُ والخسار والنكول﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾[البقرة: ١٣٧] فهو سبيل واحد للهداية: الإيمان بقافلة الأنبياء وعلى رأسها محمد ﷺ، وإلا فالضلال المبين. ثم تأتي الآيات الأخرى لتؤكد الحسم القاطع في أن التوحيد جزء لا يتجزأ، ومقتضياته الكبرى جزء لا تتجزأ، وما دونها الضلال والكفر، فيقول تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ

إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ [المائدة]. وما أنـزل إليكم من ربكم، (مما جاءكم به محمد ﷺ من الفرقان، فتعملوا بذلك كله، وتؤمنوا بما فيه من الإيمان بمحمد ﷺ وتصديقه، وتقرُّوا بأن كل ذلك من عند الله، فلا تكذِّبوا بشيءٍ منه، ولا تفرِّقوا بينَ رسلِ الله فتؤمنوا ببعض وتكفروا ببعض، فإن الكفر بواحد من ذلك كفر بجميعه، لأنّ كتبَ الله يصدِّق بعضها بعضًا، فمن كذَّب ببعضها، فقد كذَّب بجميعها)[1].

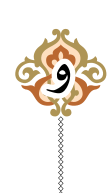


محمد ﷺ هو الوارث الشرعي لدين إبراهيم: ثم ينتقل الحوار القرآني لقطع آخر الأوهام التي يلقيها أهل الكتاب والمشركون على حدٍ سواء، لتبرير رفضهم لدعوة النبيﷺ بزعم وراثتهم لرسالة إبراهيم؛ هؤلاء -أي: الكتابيين- من جهة البنوة ووراثة الكتب التي نزلت في سلالته "التوراة و الإنجيل"، وأولئك - أي: المشركين- من جهة البنوة وسدانة البيت؛ فيقوم القرآن بتفنيد مزاعم الفريقين، ويبين لهم أن لا اعتبار لتعلقهم بإبراهيم مالم يأخذوا بالكلمة الإبراهيمية الباقية في عقبة - لا إله إلا الله - بكل مقتضياتها، من إيمان بالله الواحد، وتصديق بالرسول الخاتم ﷺ الذي هو أولى الناس بإبراهيم؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ [آل عمران]. فهي قافلة واحدة من لدن آدم وإبراهيم وحتى آخر الرسل الكرام محمد ﷺ[2].

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٤٧٣).

(٢) ينظر: مصطفى العلواني، مصطفى جابر العلواني. عالمية الخطاب القرآني (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١-٢٠١٢م) (ص: ١٠٣).



فضح دوافع الجحود اليهودي: ثم يعلل القرآن للمسلمين مغزى هذا الشرود عن الهداية، والتمرد على أوامر الله في أكثر من آية، ويبين أن منشأه نزعة الهوى والأنانية والحسد، قال تعالى:﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[البقرة:١٠٩].

كما أن شهواتهم المادية طغت عليهم حتى استحالوا كائنات مادية تلهث وراء المنفعة واللذة، وتستخدم كلَّ الأساليبِ لتحقيق الكسبِ المالي، ولو كان ذلك تحريف كلمات الله والكذب عليه، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[البقرة] وقد استشعر اليهود أن رسالة محمد ﷺ تمثل تهديداً حقيقياً لمصالحهم غير المشروعة من تقاضٍ للربا وإشعالٍ للحروب وتجارة للسلاح، فضلاً عن نزع الهالة التي ادعوها لأنفسهم وأرهبوا بها الناس؛ فجاء رفضهم لرسالةِ النبيﷺ منطلقاً من هذا المنظور المادي البحت الذي يُعْلِي من شأنِ المصالحِ الأنانية علَى حسابِ قيم الحق وتوجيهات السماء.

لقد طوحت بهم هذه التركيبة المادية في مهاوى الردى، وعكرت عليهم صفاء الفطرة، وصنعت لهم تشوشاً في الرؤية والتعامل؛ فقد أرادوا تجسيد الإله في عجل مادي، ثم أُشْرِبُوا في قلوبهم التعلق بالمادة، وهجر ما سواها من أشواق الروح ومطالبها العالية، وسلكوا أحط السبل لبلوغ مآربهم المادية من أكل للربا والسحت، ثم فشلوا أمام التجارب الروحية والإيمانية العالية، فلم تسكن قلوبهم لسماع كلمة الله حتى طلبوا أن يروه ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء: ١٥٣]. ورافقتهم هذه النزعة المادية الوثنية طيلة حياتهم وتحكّمت بتصرفاتهم، ولأجلها رفضوا محمداًﷺ لأنهم رأوا فيه تهديداً لامتيازهم المادي السلالي، وحسدوا مجيئه من خارج دائرتهم، فتلاحقت عليهم اللعنة واستحقوا الغضب الوخيم.

وقد ساعدنا المفكر المسلم علي عزت بيجوفيتش في فهم هذه النزعة المادية لليهود، وكيف ساهمت في تشكيل شخصياتهم، إذ يرى أن إسهام اليهود في هذه الحضارة الغربية – وهم جزء من نسيجها – كان فقيراً في الجانب الروحي من فن ورسم وموسيقى ورواية وشعر وأدب وهي منتجات الروح المعروفة، بينما حازوا السبق في منتجات المادة فبرعوا في علوم الفيزياء والكيماء إذ هي علوم المادة الصلبة، وحازوا السبق في مجال المصارف والبنوك إذ الربا مهنتهم القديمة وهم لها متمرسون[1].

و يغلق القرآن الكريم ملف الحوار مع بني إسرائيل وهو ملف كثير الصفحات، بعيد الأثر، عميق الغور، متعدد الأساليب، برسم صورة استشرافية لمصير الكتابيين الذين كفروا برسالة محمد ﷺ ولا يزالون يكفرون به، بأن مصيرهم الخسارة في الدنيا، وخذلان الله لهم وترصّده لمكرهم وكيدهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤]. ثم كتب أن يقيض لهم من يسومهم سوء العذاب في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[الأعراف: ١٦٧]. ثم يؤكد لهم أن غضبه بهم محيط كلما احتازوا شيئاً من قوة وعادوا لإفسادهم في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾[الإسراء]. وذلك ما أكدته مجريات التاريخ من يوم كفرهم بدعوة النبي ﷺ، فقد أجلاهم من المدينة جراء غدرهم وتآمرهم لاستئصال شأفة الدعوة المحمدية، فأنزلهم الله مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فخمدت أنفاس مؤامراتهم طيلة هذه القرون، ثم هاجرت جماعات منهم إلى أوروبا فذاقوا الويلات طيلة القرون الفائتة، وكان أحدثها محرقة النازيين الذين صبوا جام غضبهم على اليهود الذين أفسدوا اقتصاد وإعلام ألمانيا، وهاهم اليوم يستطيلون على أهل فلسطين بدعم غربي يوظفهم لتفكيك المنطقة وخلق حالة عدم الاستقرار فيها، وهو

(١) بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب (ص: ٢٧٣).

علو عابر وتمكين على شفا جرف هار، وستحيق بهم سنة الله الثابتة في محق كيدهم، وتتبير بنياهم -كلما علا - تتبيراً.

وأما من كفر برسالة محمد من النصارى فقد تلفع برداء الضلال طيلة حياته، واستحق الوعيد بالشقاق، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤ ﴾ [المائدة].

ثم يوم القيامة تحيق بهم الدائرة الكبرى ويرفضهم نبيهم، ويستنكر غيهم وتنكرهم لدعوة المصطفى ﷺ، والقول على الله بغير علم، وتبديل كلمات النبوات التي جاءتهم بالتوحيد وباتباع الرسول الخاتم، وحينها لا ينفع الندم، ومن تلك المشاهد مشهد، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة: ١١٦].

ز. الحكم النهائي على مردة أهل الكتاب؛ وتغلق الآيات ملف الحوار مع أهل الكتاب بالحكم البين الواضح والقاطع، أن لا قيمة لإيمانهم، لأنهم جمعوا بين التحريف والتبديل، وبين إنكار نبوة النبي الخاتم، قال تعالى:﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ ﴾ [المائدة: ٧٣]. وقال تعالى:﴿ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ ﴾[المائدة]. وأغلق الملف مع أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥ ﴾ [آل عمران]. وقد بين ذلك رسول الله، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: (والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بي أحَدٌ مِن هذِه الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، ولا نَصْرانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ ولَمْ يُؤْمِنْ بالَّذِي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كانَ مِن أصْحابِ النّارِ)[1].

(١) صحيح مسلم، حديث رقم: ١٥٣.

وليس من مظان هذا البحث تتبع ملف الحوار مع الكتابيين في القرآن الكريم، وإنما بيان التجسيد القرآني لعالمية الرسالة والرسولﷺمن خلال رفض القرآن وتفنيده لإيمان أهل الكتاب وحسمه الجازم بأن لا فلاح لهم دون الإيمانِ بمحمدﷺ ورسالته، ووسمهم بمصطلحي المغضوب عليهم والضالين في الفاتحة التي تقرأ في كل صلاة وغيرها من الآيات، ويرجح جمهور المفسرين أنها رمز لليهود الذين انحرفوا عن علم، وللنصارى الذي انحرفوا عن جهالة وتنكبوا طريق الهداية.

ثم تكون التوصية الإلهية لعموم المؤمنين بتجنب مسالك أهل الكتاب، ومخالفة طريقهم المعوج وسلوكهم الشائن ومفارقة تصوراتهم الباطلة تجاه الخالق والمخلوقات، تجاه الأنبياء والمؤمنين، تجاه الدنيا والآخرة؛ مفاصلة لا لبس فيها ولا تلكؤ، تقول أن ثمت طريقا واحدا إلى الله، ليس من بينها طريق أهل الكتاب ولا مسالكهم المعوجة؛ قال تعالى:﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد]. قال الإمام ابن تيمة: (نهي مطلق عن مشابهتهم) [١]. وقد تعاقبت النصوص النبوية الناهية عن التشبه باليهود والنصارى في الجوهر والشكل قال ﷺ: (خَالِفُوا الْيَهُودَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُصَلُّونَ فِي نِعَالِهِمْ وَلَا خِفَافِهِمْ) [٢]، وقالﷺ: (إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لا يصلون في نعالهم ولا في خفافهم فَخَالِفُوهُمْ)[٣]، وقال ﷺ: (صوموا التاسع والعاشر، خالفوا اليهود)[٤]، وغيرها من النصوص النبوية التي أسست لاستقلالية الشخصية المسلمة في تصوراتها ومظهرها وسلوكها، ومباينتها لأهل الكتاب وطريقهم المتنكب.

---

(١)اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٩٠).

(٢) أبو داود (٦٥٢)، وصححه الألباني

(٣) صحيح البخاري ٣٤٦٢، صحيح مسلم(٢١٠٣).

(٤)زاد المعاد (٢/ ٦٦) إسناده صحيح.

ثم يأتي فَدْمٌ-ثقيل الفهم- متطفل على القرآن، لا يفقه من آياته شيئا ، ليزعم أن القرآن خلو من آية واحدة تشير إلى عالمية الرسالة المحمدية، ويزعم أن المفسرين حاروا في دعم عالمية الرسول إلا من خلال آية ظنية الدلالة -بزعمه- قائلاً: (جميع المؤولين الذين أرادوا تحويل النبي الأمي إلى نبي أممي، أي نبي أمم الأرض كافة، وليس فقط نبي الأميين العرب المرسل بلسانهم منهم وإليهم، ما استطاعوا أن يفوزوا في آى القرآن الستة آلاف ونيف جميعها إلا بآية واحدة هي الآية الثامنة والعشرون من سورة سبأ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾)[1]،[سبأ]. ألا بئست القراءة وبئس القارئ، ذلك الذي يعمى عن تصفح بينات التكليف الإلهي لمحمد ﷺ، وحجاجه مع المشركين وأهل الكتاب، وحسم الموقف من كل الديانات والأقوام بنصوص يفقهها البليد والأريب، تقول بصوت واحد: ألا خلاص إلا باتباع محمدﷺ، وإلا فهو الكفر والضلال والبوار،﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج].

٤ التطبيق العملي لعالمية الرسول ﷺ:

أ. جهر النبيﷺ بدعوته في مكة داعياً إلى الله وحده، مبلغاً العربي وغير العربي، فاستجاب لدعوته العربي وغير العربي، مثل بلال الحبشي ﵁، وكانت آيات القرآن تترى مؤكدة عالمية الدعوة المحمدية، فنزلت سورةُ سبأ وهي مكية، وفيها قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ] وتضمنت سورة الأنبياء مسحة سريعة لتجارب الأنبياء، ثم ختمت برحمانية هذا الوريث الأخير لرسالاتهم ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[الأنبياء] ثم كانت حادثة الإسراء والمعراج التي مثّلت دورة تسليم عملية من الأنبياء للنبيﷺ، فقد أخرج مسلم عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ

(١)طرابيشي (ص: ٩٦).

رَسُولُ اللهﷺ : (. . . وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَائِمٌ يُصَلِّي أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَائِمٌ يُصَلِّي أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ – يَعْنِي: نَفْسَهُ – فَحَانَتِ الصَّلاَةُ فَأَمَمْتُهُمْ) [(١)].

وفي القصةِ رمزيةٌ فاقعةٌ للدورِ الريادي ولختمِ رسالةِ التوحيد بهذا النبي العظيمﷺ، وتلك من آياتِ الله التي رآها في رحلة الإسراء والمعراج؛ فقد (تم في الإسراء استكمال ختم "النبوة" وتعميد "بيعة الأنبياء" والرسل " لخاتم النبيين، بعد أنْ كانُوا عاهَدُوا الله على إنجاز رسالاتهم الحصرية في أقوامهم كمقدمة لرسالته العالمية الخاتمة) [(٢)] قال تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران]. وإمامةُ الصلاةِ في بيتِ المقدسِ، مؤشر لانتقالِ مقر القيادة الدينية من القدسِ إلى مكةَ ومن الإسرائيليين إلى الإسلاميين ومن فرع إسحاق إلى فرع إسماعيل. فإذا كانت سورة البقرة تضمنت مبررات انتقال الرسالة إلى أمة محمد ﷺبعد العتو الإسرائيلي؛ فإنَّ سورةَ الإسراء تضمنت قصة التسليم للريادة المحمدية من لدنِ الأنبياءِ، وإكمال مسيرة التوحيد على يد أمته.

ثم هاجرَ النبيُّ ﷺ إلى المدينة المنورة، وباشر دعوته العالمية بدعوةِ أهل الكتاب من يهود المدينة، فأسلمَ منهم حبرهم الأعظم عبد الله بن سلام، وثلة قليلة ممن تجاوزوا عقدة الشعب المختار. وأقامَ ﷺ الحجةَ على بقيةِ يهود، ثم بسط دعوته لنصارى العرب ممن كانوا في الشمال كقبائل طيء، أو في جنوب الجزيرة مثل قبائل نجران. فلما هدأت جبهة قريش إثر صلح الحديبية، راسل النبيﷺ ملوك الأرض ليدعوهم إلى الإسلام،

(١) صحيح مسلم، حديث رقم: (١٧٢).
(٢) العالمية الثانية (٢/ ١٨٧).

فراسل كسرى المجوسي، وهرقل والنجاشي ومقوقس المسيحيين. كما جرد الغزوات باتجاه اليهود الناكثين والنصارى المعتدين، فكانت غزوة بني قينقاع وبني النظير وبني قريظة وخيبر ضد اليهود، ومؤتة وتبوك ضد النصارى، وفرض على نصارى نجران الجزية ولم يتقوقع على عرب الجزيرة، كما يتوهم المتعصبون من الكتابيين الذين يزعمون استغناءهم عن الإيمان بمحمدﷺ اكتفاء بما في أيديهم من الكتب.

ثم بشر أصحابه بفتح فارس والروم، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: (أمر رسولُ الله ﷺ بالخندقِ فخُنْدِقَ على المدينةِ، فقالوا: يا رسولَ الله، إنا وجدنا صَفَاةً لا نستطيعُ حفَرها، فقام النبيُّ ﷺ وقمنا معه، فلما أتى أخذ المِعوَلَ، فضرب به ضربةً وكبَّرَ فسمعتُ هزَّةً لم أسمع مثلَها، فقال فُتحت فارس، ثم ضرب أخرى وكبَّرَ، فسمعتُ هدةً لم أسمع مثلَها قط، قال فُتحتِ الرومُ)[1]. وأخبرهم عن ظهور دينه على العالمين، فقال رسولﷺ: (لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلَغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلّا أَدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عَزيزٍ أو بِذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ)[2].

وفي الحديث بشارة بانتشار رقعة الإسلام لتشمل عموم الكرة الأرضية، حيث يبلغ الليل والنهار؛ وهو ﷺ يستلهم وعد الله عز وجل في كتابه بظهور الإسلام، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة] وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾ ﴾[الفتح].

ثم بشرهم بتوسع دولة الإسلام إلى أقاصي بعيدة، فقال ﷺ: (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ

(١) مجمع الزوائد(٦/ ١٣٤).

(٢) مسند أحمد، حديث رقم: ١٦٩٥٧. وصححه الألباني، وشعيب الأرنؤوط

زوى لي الأرضَ حتّى رأيتُ مشارقَها ومغاربَها، وأعطى لي الكنزَينِ الأحمرَ والأبيضَ، وإن مُلكَ أمَّتي سيبلغُ ما زُوِيَ لي منها) [١].

وحدثهم عن فتح القسطنطينية ومدينة روما، فعن عبدالله بن عمرو، قال: (بينما نَحنُ حَولَ رسولِ اللهِّ ﷺ نَكْتبُ إذ سُئِلَ رسولُ اللهِّ ﷺ: أيُّ المدينتَينِ تُفْتَحُ أوَّلًا: قُسطنطينيَّةُ أو روميَّةُ؟ فَقالَ رسولُ اللهِّ ﷺ: مَدينةُ هرقلَ تُفتَحُ أوَّلًا يَعني قُسطَنطينيَّةَ [٢]. ففتحت الأولى بعد بشارته بتسعة قرون، وينتظر المسلمون افتتاح روما، المعقل الديني الأعظم للكاثوليك.

وأودعهم وصايا حكيمة للتعاملِ معَ أمم الأرض، فأوصاهم بالرفقِ بأهلِ مصر، فقال ﷺ: (إذا فتحتُمْ مصرَ فاستَوصوا بالقِبطِ خيرًا، فإنَّ لَهُم ذمَّةً ورحِمًا) [٣]. وحذرهم من التنافس في المغانم والدنيا، إذا فُتحت عليهم خزائن الأمم، فقال ﷺ: (إذا فُتِحَتْ علَيْكُم فارِسُ والرُّومُ، أيُّ قَوْمٍ أنتُمْ؟ قالَ عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كما أمَرَنا اللهُّ، قالَ رَسولُ الله ﷺ: أوْ غيرَ ذلكَ، تَتَنافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدابَرُونَ، ثُمَّ تَتَباغَضُونَ، أوْ نَحْوَ ذَلكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ في مَساكِينِ المُهاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ على رِقابِ بَعْضٍ) [٤].

وأخبرهم بزوال دولة كسرى إلى الأبد، فقال ﷺ: (إذا هَلَكَ كِسْرى فلا كِسْرى بَعْدَهُ، وإذا هَلَكَ قَيْصَرُ فلا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، والذي نَفْسِي بيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُما في سَبيلِ اللهِّ) [٥].

وبشرهم بمحفوظية هذه الأمة المرحومة، فقال: (سألتُ ربِّي عزَّ وجلَّ فيها ثلاثَ

---

(١) سنن أبي داود، حدبث رقم: ٤٢٥٢. وصححه الألباني

(٢) مسند أحمد، حديث رقم: ٦٦٤٥. وصححه الألباني.

(٣) دلائل النبوة (٦/ ٣٢٢).

(٤) صحيح مسلم، حديث رقم:(٢٩٦٢).

(٥) صحيح البخاري، حديث رقم: ٣١٢١. صحيح مسلم، حديث رقم: (٢٩١٩).

خصالٍ فأعطاني اثنتينِ ومنعني واحدةً، سألتُ ربِّي عزَّ وجلَّ أن لاَ يُهلِكنا بما أَهلَكَ بِهِ الأممَ قبلنا فأعطانيها، وسألتُ ربِّي عزَّ وجلَّ أن لاَ يظْهرَ علينا عدوًّا من غيرنا فأعطانيها، وسألتُ ربِّي أن لاَ يلبسنا شيعًا فمنعنيها)[١]. وهو وعد إلهي لأنها مستودع الرسالة الخاتمة للناس، فمن مقتضيات عصمة الرسالة الأخيرة الحفاظ على أمتها، كما أن من مقتضيات حفظ الرسالة عصمة الأمة في مجموعها، فلا تجتمع على ضلالة تخرم ثوابت الدين، وتحرف الكلِم عن مواضعه، فتسقط كما سقط بنو إسرائيل، حيث إن مقتضى ذلك: سقوط حجة الله على الخلق حيث لا نبي بعد محمد ﷺ، وما ثم إلا هذه الأمة؛ قال ﷺ(لّا تَجْتَمِعَ أُمَّتِي عَلَى ضلالَةٍ) [٢].

كما بشرهم بظهور مجددين يحملون الرسالة قولاً وعملاً للناس، ويجددون معالم الدين كلما خبت في النفوس، فإذا كانَ اللهُ يبعث لبني إسرائيل أنبياء يجددون أمر رسالتهم، قال ﷺ: (إنَّ اللهَّ يَبْعثُ لِهَذِهِ الأمَّةِ على رأسِ كلِّ مئة سنةٍ من يجدِّدُ لَهَا دينَها)[٣].

هذا التجديد مبعثه انفعال الإنسان بالقرآن فهماً وعملاً وحركة، عندها يتجسد القرآن من جديد - بنسب متفاوتة- في شخوص المجددين فتومض، ويكون الاقتداء من عموم المؤمنين، فيستأنفون سيرهم إلى الله.

ومن يتصفح سيرة المصطفى ﷺ ويلحظ مداميك العالمية التي أسسها وسار عليها تلاميذه المقربون من بعده، لا تخطئ عينه رؤية هذا الرسول الكونية وعالمية آثاره، ففي خلال عشرين سنة من وفاته، كانت خيول تلامذته قد تجاوزت مملكة فارس إلى ما بعدها شرقاً، وسيطرت على أفريقيا غرباً، فضلاً عن العراق والشام ومصر، ثم جاء

(١) سنن النسائي، حديث رقم:(١٦٣٧). صححه الألباني.
(٢) مسند أحمد، حديث رقم: (٢٧٢٦٧).
(٣) سنن أبي داود، حديث رقم: (٤٢٩١). صححه الألباني.

تلاميذ تلاميذه في عصر التابعين، فوصلوا إلى المحيط الأطلسي وضواحي باريس الفرنسية غرباً، والصين شرقاً، لتكون خلافة إسلامية ممتدة في القارات الثلاث، منطلقة من قلب العالم ومركزه.

إن قراءة نصوص القرآن والسنة التي تتحدث عن الأمم والدول المحيطة بالعرب آنذاك، تمنحنا رؤية شاملة لذلك الإعداد النفسي والفكري لجيل الصحابة؛ ليقوموا بدورهم في الخروج إلى الناس وهم في أهبة الاستعداد النفسي والعقلي، وعندهم خبر الأمم وتجارب الأنبياء معها، فكان (على العربي أن يدرك يومها أن الله يقوده ليرث تلك الحضارات وليواصل حوار أنبيائها معها ضمن المنهج الكلي. وما جاء كإشارة في القرآن أثبته الرسول تصريحاً في أيام الخندق، كان ذلك من ضمن الإعداد للخروج إلى منطقة الحضارات العالمية التقليدية حيث تتمازج موجات الحضارات العالمية التقليدية وتلتقي في تلك الأرجاء على أطراف المتوسط الشرقي وجنوبه. بذلك قدر للعرب أن يستمروا في العالمية من بعد محمد ﷺ؛ ليكونوا ورثة لهذه الحضارات وأن يعيدوا منهجتها بالوعي الإلهي الكوني)[(١)].

لقد تجسدت في العالمية الأولى كل أبعاد العالمية، فلم يحتكر الدولة عرق من الأعراق، ولم ينحصر الفهم الديني لدى سلالة من السلالات، ولم ينصب جهد الفتح الإسلامي على شعب من الشعوب، إذ امتزجت كل الشعوب في بوتقة الإسلام، وضرب كل قوم بسهمهم في حضارة الإسلام، وهي بحق أول حضارة عالمية بمعنى الكلمة، فإذا كانت حضارة الرومان أو الفرس تحتكر السيادة والتفوق لعنصرها، فإن حضارة الإسلام منحت السيادة لكل من أسلم وجهه لله رب العالمين، فقد حكم العرب في بداية الأمر، ثم استلم الحكم الفرس، ثم رفع الراية من بعدهم الترك والأكراد والبربر والمغول والهنود والملايو، وسل التاريخ يحدثك عن الدولة الأموية

(١) العالمية الثانية (٢/ ١٧٥).

العربية، والدولة الساسانية الفارسية، والدولة الأيوبية الكردية، والدولة العثمانية التركية، ودول المغول الإسلامية في الهند ووسط وغرب آسيا، وممالك أفريقيا المسلمة في مالي وغرب أفريقيا، وكلها صدحت باسم الإسلام.

ثم انظر في الأئمة المتبوعين في العلم تجد أكثرهم من غير العرب كالحسن البصري ومحمد بن سيرين و أبي حنيفة ومسلم والغزالي وسيبويه وابن جني، وغيرهم من أقلام الإسلام الفذة التي نافحت عن الشريعة وساهمت في تشكيل العقل المسلم بجدارة واقتدار.

وقد بدأ الامتزاج العالمي من وقت مبكر أيام فجر الإسلام، إذ يروى أن عمر بن الخطاب لقي نافعَ بنَ عَبدِ الحارثِ بعُسفانَ، وَكانَ عمرُ، استَعملَهُ على مَكَّةَ، فقالَ عُمَرُ: (منِ استَخلفتَ على أَهْلِ الوادي؟ قالَ: استَخلفتُ علَيهم ابنَ أَبزى، قالَ: ومنِ ابنُ أُبزى؟ قالَ: رجلٌ مِن موالينا، قالَ عمرُ، فاستخلفتَ عليهم مولًى، قالَ: إنَّهُ قارئٌ لِكِتابِ اللَّهِ تعالى، عالمٌ بالفرائضِ، قاضٍ، قالَ عمرُ، أما إنَّ نبيَّكم ﷺ قالَ: إنَّ اللَّهَ يرفعُ بِهَذا الكتابِ أقوامًا، ويضعُ بِهِ آخرينَ)[1].

أيكون هذا التوجه العالمي للنبي ﷺ، والخطاب العالمي والتأهيل للعالمية، ثم الخطوات التأسيسية للعالمية التي أثمرت الانبساط العالمي لدولة الإسلام، ثمرة لإسلام الفتوحات كما يتخرص الخراصون، أم هو إسلام القرآن الذي كان ولا يزال يحث أتباعه على إيصال كلماته للعالمين.

لقد عمّت العالمية الأولى للإسلام بفعل التوجيه القرآني، والرعاية الربانية لتلك المسيرة المعجزة، والطفرة النادرة في تاريخ البشر، وحين انتكست عالمية الإسلام، كانت انتكاسة محدودة في حقل السيادة السياسية فقط، وبضع من شُعبِ الإيمان وشعائره، بينما بقيت العقيدة الإسلامية متوقدة في النفوس، فلم يرتد شعب دخل في الإسلام رغم المحن المتلاحقة على شعوب الإسلام، ولم تفارق الأمة رؤيتها الكونية، ولا تزال

---

(١) سنن ابن ماجه، حديث رقم: (١٨٠). صححه الألباني

تدأب لاستئناف عالميتها الثانية بوتيرة متلاحقة عبر جهود آلاف المصلحين في كل مكان، وذلك ما يغيضُ أعداءَ الإسلام ويحفزهم على مضاعفة الكيد للمسلمين، وهو كيد يؤذي ولا يبيد، يجرح ولا يميت؛ والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ب.بشارات الكتب السابقة: يحدثنا القرآن الكريم عن شخصية محمد المحورية في تاريخ الرسالات، ويبين لنا أن نبوة محمد ﷺ كانت محل تبشير الأنبياء جميعاً لبني الإنسان، وعليها أُخذ الميثاق منهم بالإيمان به ونصرته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران]. وقد وفى الأنبياء بالميثاق، فآمنوا بمحمد ﷺ، وأودعوا قومهم البشارة بظهوره وعلائم النبوة، قال تعالى عن: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[الصف]. وحكى عن التوراة والإنجيل فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[الأعراف]. وأرشد الكفار إلى سؤال أهل الكتب لمعرفة صدقية محمد ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد]. وقال تعالى:﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: ١٩٦]. وصار ديدن مؤمني أهل الكتاب ترقب ظهور النبي الخاتم، فلما رأوا علامات النبوة متجسدة فيه وأيقنوا بها، انقسموا إلى فريقين، فريق آمن بمحمد ﷺ واتبع دعوته، وفريق أيقن بنبوة محمد ﷺ وعزم على الانتقام من الاختيار الإلهي لنبي من غير سلالتهم الإسرائيلية، كما فعل اليهودي "حيي بن أخطب" إذ تُحدثنا عن قصته ابنته صفية أم المؤمنين حيث قالت: (كُنْتُ أَحَبّ

وَلَدِ أَبِي إِلَيْهِ وَإِلَى عَمّي أَبِي يَاسِرٍ لَمْ أَلْقَهُمَا قطّ مَعَ وَلَدٍ لَهُمَا إلّا أَخذَانِي دُونَهُ. قَالَتْ فَلَمّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَنَزَلَ قُبَاءً، فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ غَدَا عَلَيْهِ أَبِي، حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ، وَعَمّي: أَبُو يَاسِرِ بْنُ أَخْطَبَ، مُغَلّسِينَ. قَالَتْ فَلَمْ يَرْجِعَا حَتّى كَانَا مَعَ غُرُوبِ الشّمْسِ. قَالَتْ فَأَتَيَا كَالّيْنِ كَسْلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى. قَالَتْ فَهَشَشْت إلَيْهِمَا كَمَا كُنْت أَصْنَعُ، فَوَاَللهِ مَا الْتَفَتَ إلَيّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا، مَعَ مَا بِهِمَا مِنْ الْغَمّ. قَالَتْ وَسَمِعْت عَمّي أَبَا يَاسِرٍ وَهُوَ يَقُولُ لِأَبِي: حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ نَعَمْ وَاَللهِ، قَالَ أَتَعْرِفُهُ وَتُثْبِتُهُ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ فَمَا فِي نَفْسِك مِنْهُ؟ قَالَ عَدَاوَتُهُ وَاَللهِ مَا بَقِيت)[1].

والسؤال الذي يضع نفسه هل لا تزال تلك البشارات موجودة في كتب القوم، خاصة إذا استحضرنا هذا الموقف العدائي للنبي ﷺ، وسهولة تحريف تلك الكتب لارتفاع عصمة الله عنها؟

والحقيقة أن كثيراً من البشارات قد طمست من بعد ظهور النبي ﷺ، فكثير من النصوص التي تحدث عنها علماؤنا السابقون حين عثروا عليها في الكتب السابقة، لم يعد لها وجود، مثل البشارة التي تضمنها سفر أشعيا: "إني جعلت اسمك محمداً، يا محمد يا قدوس الرب، اسمك موجود من الأبد" ذكر هذه الفقرة علي بن ربّن الطبري الذي كان نصرانياً فهداه الله للإسلام في كتابه: الدين والدولة، وقد توفي عام ٢٤٧هـ[2]. وليس لها أي وجود في الأسفار التي بين أيدينا اليوم، بفعل التحريف المتعمد لتلك الكتب، إلا أن حجة الله بالغة، وتدبيره غالب، فقد ظهرت نسخٌ قديمةٌ من الكتب السابقة في منطقة "قمران" جوار البحر الميت في العام ١٩٤٧م، وقد ساهمت هذه

---

(١) الروض الأنف (٤/ ٢٠٧).

(٢) وذكرها صالح بن حسين الهاشمي المتوفى عام ٦٦٨هـ في كتابه: تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، وذكرها القرافي المتوفى عام ٦٨٢هـ في كتابه: الأجوبة الفاخرة، وذكرها ابن تيمية المتوفى عام ٧٢٨هـ في كتابه: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح؛ وذكرها ابن قيم الجوزية المتوفي عام ٧٥١هـ في كتابه: هداية الحيارى من اليهود والنصارى. والفقرة منقولة من كتاب البشارات بمحمد في الكتب السماوية السابقة، عبد المجيد الزنداني (ص: ٧).

المخطوطات بشكل مباشر في تغيير موقف الفاتيكان من الإسلام كديانة توحيدية، فلأول مرة في تاريخهم يعترفون بسماوية الإسلام، بعد قرون من وصم الإٍسلام بالوثنية العربية، حيث جاء في وثيقةِ الفاتيكان التي أصدرها البابا بولس السادس عام ١٩٦٥م (إن كل من آمن بعد اليوم بالله خالق السموات والأرض، ورب إبراهيم وموسى، فهو ناج عند الله، وداخل في سلامه، وفي مقدمتهم: المسلمون) [١]. وقد جاء هذا البيان بعد عقد مؤتمر كنسي لدراسة المخطوطات استمر يبحث هذه المسائل لمدة أربع سنوات من ١٩٦١م الى ١٩٦٥م.

ولا تزال مخطوطات البحر الميت حتى اللحظة يكتنفها الغموض، وقد تعرضت لتعتيم شديد من قبل الفاتيكان والسلطة الإسرائيلية على حد سواء وقد أثارت جدلاً كبيراً في الغرب، حتى أن الدراسات التي نشرت عنها قد بلغت أكثر من ١١٥٠ دراسة، وظل التواطؤ المسيحي الصهيوني يحتكر هذه المخطوطات. ثم رُفع عنها اللثام في العام ٢٠٠١م أي بعد خمسين سنة من اكتشافها، وقد علقت صحيفة اللوموند الفرنسية بمقالة جاء فيها: (بعد أربعة وخمسين عاماً من الانتظار، تمت طباعة مخطوطات البحر الميت! إن هذا التأخير وكل ذلك التعتيم على فحوى هذه الوثائق يمثل أكبر فضيحة علمية في القرن العشرين) [٢].

وأخطر ما جاء في هذه المخطوطات حديثها عن شخصية عيسى عليه السلام إذ أكدت على طبيعته البشرية، ونضاله لإعادة بني إسرائيل إلى الجادة، وهذا ما أثار لغطاً في الأوساط الكنسية والصهيونية، إذ تعد رواية هذه المخطوطات متطابقة مع الرواية القرآنية عن النبي البشر عليه السلام، لا الأسطورة كما في الميثولوجيا المسيحية.

---

(١) شوقي أبو خليل. الحوار دائمًا (دمشق: دار الفكر، ط١-١٩٩٤م) (ص: ٦٦).
(٢) زينب عبد العزيز. المساومة الكبرى (ص: ٢٤٧).

وما تبقى كذلك من نصوص أفلتت من يد التحريف لا تزال تتحدث عن خاتم الرسل.

ومن البشارات التي لا تزال موجودة في الكتب السابقة ما يلي:

أ- بشارة التوراة:

❁ جاء في سفر "حجي": (لسوف أزلزل كل الأرض، وسوف يأتي (محماد) لكل الأمم)[١].

❁ وجاء في سفر "التثنية": (جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ). فمجيئه من سيناء تعني نبوة موسى في سيناء، وإشراقه من ساعير تعني نبوة في جبل سعير، وهو على مقربة من بيت المقدس كما تذكر جغرافيا العهد القديم. وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ أي نزول الوحي على محمد في جبل فاران بمكة. وقد جاء في الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في حال إسماعيل : (وكان الله معه ونما وسكن في البرية، وصارَ شَاباً يرمي بالسهامِ وسكن برية فاران). ولا شك أن إسماعيل- - كان سكنه بمكة[٢].

ب- بشارة الإنجيل:

❁ ورد في إنجيل يوحنا: (لكنني أقول لكم الحق أنه من الخير لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم "المعزى" ولكن إن ذهبت أرسله لكم، ومتى جاء

(١) السقار، منقذ بن محمود. هل بشر الكتاب المقدس بمحمد (القاهرة: دار الإسلام، ط١-٢٠٠٧م) (ص: ١١١)، محمد كما ورد في كتب اليهود والنصارى. عبد الأحد داود "قسيس أسلم"، ترجمة: محمد فاروق الزين (الرياض: مكتبة العبيكان، ط٢-٢٠١٠م) (ص: ٤٨).

(٢) الهندي، إظهار الحق (٤/ ١١٣٥).

ذاك يبكت العالم على خطية) [١]. والمعزى كما في الترجمة الصحيحة تعني محمد أو أحمد[٢].

❁ جاء في إنجيل لوقا: (الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض إسلام، وللناس أحمد) [٣]، وهذا النص بموجب ترجمة القس "الذي أسلم" عبد الأحد داود، من نسخة الإنجيل السريانية، إذ يؤكد أن الترجمات الأخرى حرفت.[٤]

وقد تبقى من البشارات المصدقة لنبوة محمد ﷺ عدد وافر، رغم آلة التحريف التي تدأب يوماً بعد آخر لطمس كل ما يمكن أن يشير لمحمد ﷺ، ولكن يد القدر تعمل بين الحين والآخر، فتظهر مخطوطات لا تزال تحمل من تلك البشارات الكثير، وكل موسم يتحرر قس كبير من ربقة التعصب ويعترف لمحمد ﷺ بالنبوة ويعلن إسلامه، وبحسبك أن أذكياء القوم من النصارى يدخلون في الإسلام بقناعة وطواعية، في عصر المسلمون هم الأقل حضوراً وتأثيراً، بينما لا نجد عالماً مرموقاً من علماءِ الأمة الإسلامية قد تنكر لدينه وارتد على عقبيه، ونزح باتجاه النصرانية – ودعك من شباب أغرار أو عوام جهال أغرتهم الأطماع و لا أثر لهم – لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب وامتزجت بصفاء العقيدة سكنت الفطرة وآوت إلى قرار التوحيد ومعينه العذب. وانظر لمن يفد من القوم إلى رحاب الإسلام تجد الفلاسفةَ والعلماءَ والقسسَ والمؤرخين، وكلُّ من زكتْ نفسُهُ وتحرر من عطن الأهواء، من أمثال: محمد أسد، ومراد هوفمان وروجيه غارودي وموريس بوكاي وجفري لانغ و جيرالد ديركس، و جاري ميلر و لورنس براون، وغيرهم من أفذاذ العلماء والقسس والباحثين عن الحقيقة.

---

(١) إنجيل يوحنا (١٦: ٧).

(٢) إظهار الحق (٤/ ١١٨٧)

(٣) الأشقر، عمر سليمان. الرسل والرسالات (ص: ١٨١). السقار، مرجع سابق (ص: ١١٤).

(٤) الأشقر، عمر سليمان. الرسل والرسالات (ص: ١٨١). السقار، مرجع سابق (ص: ١١٤).

خاتمة:

حاولنا في هذا المبحث أن نأخذ عينات من القراءة الطرابيشية للتراث، وهي قراءة كما تبدو لأول وهلة تفتقد للمنهجية العلمية والإنصاف، إذ تدثر الكاتب بشعار العودة إلى القرآن وإعادة الاعتبار لإسلام القرآن، غير أنه أول من تنكر للقرآن ناسفاً ثاني أهم عقيدة جاء بها القرآن وهي الإيمان بنبوة محمد ﷺ للعالمين، وهي مسألة معلومة من ديننا بالضرورة، ومن ينكرها لا نصيب له من الإسلام، ولو كانت مسألة من المتشابهات لاحتملنا للكاتب الأعذار، غير أن التنكر لأبجديات القرآن الكريم بكل هذا الجرأة يجعل المرء مندهشاً من هذه الهالة التي رافقت الكتاب.

وقد بنى الكاتب نظريته في مخصوصية الرسالة المحمدية على ثلاث دعائم رئيسة، مصطلحي ولغوي وجغرافي، وهي ثلاث دعائم واهية، ولا ترقى لتنسف محكمات القرآن القطعية.

ثم رأينا كيف تعامل مع نصوص الوحي في قصة تبوك، فركب للمنافقين دوراً لم يفكروا فيه، وقَوَّلهم مالم يقولوا، واخترع قصة لم يفكر فيها من تخلف عن رسول الله، وتجاهل كذلك سورة بحجم سورة التوبة تشيد بمن ثبت مع النبي ﷺ في غزوة العسرة، وتندد بموقف المنافقين الذين نكصوا عن المشاركة جبناً ونفاقاً وهروباً من تضحيات الطريق.

وقد تجاهل الكتاب عشرات الآيات التي خاطبت أهل الكتاب، وفضحت مسالكهم المعوجة، وألقت لهم طوق النجاة عبر الإيمان بمحمد ﷺ ورسالته، وأنهم ليسوا على شيء مالم يلتحقوا بركب القافلة المحمدية.

وقبل ذلك تعامى الكاتب – وهو الذي يدعي احتفاء بإسلام القرآن – عن آيات عالمية وعمومية الرسالة المحمدية لكل الناس، وهي آيات نزلت في العهدين المكي

والمدني لتقرير أحد أصول الإسلام، المتمثل في عالميته ونسخه لكل الأديان السابقة.

وقد تأكد لي أن الكتاب عبارة عن حشد لهرطقات تفتقد للمنهجية العلمية والتفكير الموضوعي والنقد المتماسك، ويحتاج المنبهرون بالكاتب والكتاب أن يعيدوا النظر بمنظار العقل والعلم، وقبل ذلك بمنظور القرآن الذي زعم الكاتب أنه تبنى الدعوة لعودته، ولكنه نكص عنه في جُل منعرجات الكتاب.



المصادر والمراجع.

١. ابن حزم خلال ألف عام. أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري.
٢. الإحكام في أصول الأحكام. سيف الدين الآمدي.
٣. إحياء علوم الدين. أبو حامد بن محمد الغزالي.
٤. الأذكياء أبو الفرج ابن الجوزي.
٥. أزمة العقل المسلم. عبد الحميد أبو سليمان.
٦. الإشارة. العز بن عبد السلام.
٧. أصول الفقه الإسلامي. د. وهبة الزحيلي.
٨. أصول الفقه. محمد أبو زهرة.
٩. إعادة تأصيل الأصول. محمد عابد الجابري. مقال.
١٠. إعلام الموقعين. ابن قيم الجوزية.
١١. إعمال العقل. لؤي صافي.
١٢. آفاق التجديد، جمع عبد الجبار الرفاعي.
١٣. أليس الصبح بقريب. محمد الطاهر بن عاشور.
١٤. الانحرفات الفكرية في مسار التعليم الشرعي. الخضر سالم بن حليس.
١٥. أنوار الفروق. للإمام القرافي.
١٦. الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني.
١٧. البحر المحيط. محمد بن بهادر الزركشي.
١٨. بدائع الفوائد. ابن قيم الجوزية.
١٩. البرهان في علوم القرآن. بدر الدين الزركشي.
٢٠. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح. الصعيدي، عبد المتعال.

٢١. بغية المرتاد. ابن تيمية.
٢٢. بين علمي أصول الفقه والمقاصد. محمد الحبيب ابن الخوجة.
٢٣. تاريخ دمشق. ابن عساكر.
٢٤. تاريخية الفكر العربي الإسلامي. محمد أركون.
٢٥. التجديد الأصولي عند الإمام الشاطبي. قطب الريسوني.
٢٦. تجديد علم أصول الفقه. مولود السريري.
٢٧. التجديد في أصول الفقه. لجميلة بو خاتم.
٢٨. التحرير والتنوير. محمد الطاهر بن عاشور.
٢٩. التراث وإشكالية القطيعة في الفكر الحداثي المغاربي. امبارك الحامدي.
٣٠. التراث والتجديد. حسن حنفي.
٣١. تفسير المنار. محمد رشيد رضا.
٣٢. التفكير فريضة إسلامية. عباس محمود العقاد.
٣٣. التفكير في زمن التكفير. نصر حامد أبو زيد.
٣٤. تكوين العقل العربي. محمد عابد الجابري.
٣٥. جناية الشافعي. زكريا أوزون.
٣٦. الجناية على الشافعي. مروان كردي.
٣٧. حجة الله البالغة. الدهلوي.
٣٨. حضارة العرب. جوستاف لوبون.
٣٩. حفريات الحداثة في الحقل المقاصدي. منة الله علي. مقال
٤٠. دور السياق في الترجيح بين الأقوال التفسيرية. محمد إقبال العروي.
٤١. الذريعة إلى مكارم الشريعة. الراغب الأصفهاني.
٤٢. ذم الهوى. أبو الفرج ابن الجوزي.

٤٣.رد افتراءات الجابري على القرآن الكريم. د. محمد عمارة.
٤٤.الرد على شبهات المعاصرين. هشام مشالي.
٤٥.الرسالة. محمد بن ادريس الشافعي.
٤٦.روح المعاني. محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي.
٤٧.زاد المسير. ابن الجوزي.
٤٨.ست محطات في حياتي. جورج طرابيشي.
٤٩.سنن ابن ماجة.
٥٠.سنن أبي داوود.
٥١.سنن النسائي.
٥٢.الشافعي حياته وعصره. محمد أبو زهرة.
٥٣.الشافعي وتأسيس الأيدلوجية الوسطية. حامد نصر أبو زيد.
٥٤.ضحى الإسلام. أحمد أمين.
٥٥.طبقات الشافعية. ابن السبكي.
٥٦.عبقرية الإمام الشافعي المدد والمداد. مشاري الشثري.
٥٧.العزف على أنوار الفكر، د. محمود توفيق.
٥٨.العقل في القرآن الكريم. فريدة زمرد، مقال.
٥٩.العقل والمعايير. لالاند، أندريه. ترجمة نظمي لوقا.
٦٠.العقل وفهم القرآن، الحارث المحاسبي.
٦١.العقيدة بين السلف والمتكلمين. حسن بن محمد شبانة.
٦٢.غمرات الأصول. مشاري الشثري.
٦٣.غياث الأمم. عبد الملك الجويني.
٦٤.الفقيه والمتفقه. الخطيب البغدادي.

٦٥.الفكر الأصولي. عبد الوهاب أبو سليمان.
٦٦.قالوا عن الإسلام. عماد الدين خليل.
٦٦.قالوا عن الإسلام. عماد الدين خليل.
٦٧.قراءات معرفية في الفكر الأصولي. قطب سانو.
٦٨.القرآن والعقل. أبو زيد المقرئ الإدريسي.
٦٩.قضايا التجديد. حسن الترابي.
٧٠.القطيعة الإبستمولوجية بين المشرق والمغرب حقيقة أم خرافة. محمود إسماعيل.
٧١.القواعد الكبرى. ابن تيمية.
٧٢.القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد محمد علي الشوكاني.
٧٣.كيف تعامل الباحثون مع مسألة تاريخية النص القرآني. محمد يسري مقالة.
٧٤.ما وراء تأسيس الأصول. علي مبروك.
٧٥.المجترئان على القرآن: دراسة نقدية لاجتراءات محمد أركون ونصر حامد أبوزيد. الدكتور محمد ممدوح.
٧٦.مجموع فتاوى. ابن تيمية.
٧٧.المحرر الوجيز. ابن عطية.
٧٨.المحصول من علم الأصول. فخر الدين الرازي.
٧٩.المخصص. أبو الحسن علي ابن اسماعيل العروف بابن سيده.
٨٠.مدخل إلى المذهب الشافعي. دكتور نعمان جغيم.
٨١.المدخل إلى كتابي الجرجاني. الدكتور محمد أبو موسى.
٨٢.المدخل. ابن الحاج.
٨٣.المستصفى. أبو حامد الغزالي.
٨٤.المسودة. ابن تيمية.

٨٥.المصطلح الأصولي عند الشاطبي. فريد الأنصاري.
٨٦.معجم الأدباء. ياقوت الحموي.
٨٧.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقي
٨٨.مفهوم العقل عند لالاند وصداه عند الجابري. جاد الجباعي. مقالة على الشبكة.
٨٩ مقاصد الشريعة الإسلامية محمد الطاهر بن عاشور.
٩٠.مقاصد الشريعة الإسلامية. يوسف العالم.
٩١.مقاصد الشريعة. الدكتور طه جابر علواني".
٩٢.مقام العقل في القرآن الكريم. د جابر قميحة.
٩٣.مقدمة في علم الاستغراب. حسن حنفي.
٩٤.من إسلام القرآن. جورج طرابيشي.
٩٥.من الهرطقة إلى الأصولية. د علي إبراهيم العجين.
٩٦.منجنيق الغرب. فؤاد الهاشمي.
٩٧.الموافقات. إبراهيم بن موسى الشاطبي.
٩٨.المواقف. عضد الدين بن أحمد الإيجي.
٩٩.موقف الاتجاه الحداثي من الإمام الشافعي. أحمد غوشتي عبد الرحيم.
١٠٠.نحو أصول جديدة للتشريع الإسلامي. محمد شحرور.
١٠١.نظرية التجديد الأصولي. الحسان شهيد.
١٠٢.نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور.
١٠٣.نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي. أحمد الريسوني.
١٠٤.نقد النص. علي حرب.
١٠٥.نقد نقد العقل العربي. جورج طرابيشي.
١٠٦.هرطقات. جورج طرابيشي.

١٠٧. وجهة نظر. محمد عابد الجابري.
١٠٨. وحدة العقل العربي. جورج طرابيشي.
١٠٩. درء تعارض العقل والنقل. ابن تيمية.
١١٠. وقفات مع أدعياء العقلانية حول الدين والعلم والعقل والتراث. الدكتور خالد كبير علال.



فهرس الموضوعات

الموضوع..الصفحة

الموضوع..الصفحة

الموضوع...الصفحة



وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ

يتغيا هذا الكتاب تقديم إطلالة علمية، على الأفكار الطرابيشية التي دونها جورج طرابيشي في كتابه (من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث) ووضع تلك الأفكار في سياقها الذي ينبغي أن توضع فيه.

وموجز تلك الفذلكة الطرابيشية محاولة أخرى لتفكيك (حجية السنة) لصالح النص القرآني الذي لا يؤمن به هو ولا ينتمي إليه أصلا، وتركيز جهده ذي السنوات الثمان للإطاحة بالنص الإسلامي مختبئا تحت لافتة (انقلاب أهل الحديث).

ويأتي كتاب طرابيشي في قائمة المسلكيات الحداثية التي تعمل على:

- عزل السنة عن القرآن.
- ضرب النصوص ببعضها وإيقاظ شبهاتها.
- خلط قواعد الاستدلال.
- التوهين من علم أصول الفقه للتحلل من قواعد المنهج.
- انتقاء الأدلة والبحث في شواذ الأقوال المهجورة.

قدم الباحثون في ثنايا هذا الكتاب قراءة لكتابه وتفكيكا لطبيعة أفكاره وإيجازا لأبرز النقاط الرئيسة التي قدمها.